

١
ما قرأ هذا الكتاب - يعني : « البرهان المؤيد » - على أهل مجلس . . إلا
وظهرت لهم :

نَفَحَاتُ الْعِرْفَانِ ، وَالْإِخْلَاصِ ، وَالتَّمَكُّنِ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ
الْمَرْضِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ .

القُوصِيُّ الشَّافِعِيُّ



الْبُرْهَانُ الْمَوْجِبُ

لصاحب مَدِّ الْيَدِ مَوْلَانَا الْعَوْثِ الشَّرِيفِ الرَّفَاعِيِّ أَحْمَدَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

للمُعْتَنِي بِهِ

موافقة وزارة الإعلام

رقم : (٩٥٢٦٧) بتاريخ : ٧ / ٥ / ٢٠٠٧ م

مركز بحوث وتطوير علوم إلكترونية

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

مطبوعات مكتب الزاوية

الْبُرْهَانُ الْمَوْجِبُ

لصاحب مَدِّ أَيْدِي مَوْلَانَا الْغَوْثِ الشَّرِيفِ الرَّفَاعِيِّ أَحْمَدَ

لِلْإِمَامِ الْحَافِظِ الْفَقِيهِ الْمُفَسِّرِ الرَّحْمَلَةِ الْمُجْتَمِعَةِ
السَّيِّدِ الْكَبِيرِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ الرَّفَاعِيِّ الْحُسَيْنِيِّ
إِمَامِ الطَّرِيقَةِ الْأَحْمَدِيَّةِ الرَّفَاعِيَّةِ
٥١٢ - ٥٧٨ هـ

جَمَعَهُ وَرَوَاهُ عَنْهُ فِي مَجَالِسِ وَعَظِهِ
الشَّرِيفُ الْحَافِظُ أَبُو طَالِبٍ شَرَفُ الدِّينِ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّمِيعِ الْهَاشِمِيُّ الْوَأَسْطِيُّ
٥٣٨ - ٦٢١ هـ

اعتنى به

شَرَفُ الدِّينِ

حَسَنُ بْنُ عَبْدِ الْحَكِيمِ عَبْدِ الْبَاسِطِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمةُ المُعْتَنِي بِهِ

/ الحمدُ لله الذي رَفَعَ خِوَاصَّ الأُمَّةِ بِالاجْتِبَاءِ ، وَأَقْعَدَهُمْ عَلَى كِرَاسِيِ
المَجْدِ والرَّفْعَةِ بِالاصْطِفَاءِ ، وَفَتَحَ لَهُمْ بَابَ المَعْرِفَةِ بِالمَحَبَةِ ، وَأَفْهَمَهُمْ عَنْهُ
بِسِرِّ القُرْبِ وفِعْلِ القُرْبِيَةِ .

وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى رَئِيسِ رُكْبَتِهِمْ ، وَإِمَامِ حَضْرَاتِهِمْ ، سَيِّدِ الأنْبِيَاءِ ،
وَإِمَامِ الرُّسُلِ الأَصْفِيَاءِ ، حَبِيبِ اللهِ ، قُرَّةِ عَيْنِ أَهْلِ اللهِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بْنِ
عَبْدِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَالرِّضَى عَنِ الصَّخْبِ وَالآلِ ، نَجْوِمِ المَحَافِلِ ، وَأَقْطَابِ الدَّوَائِرِ
وَالْمَنَازِلِ ، وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَالْعِثْرَةِ الرَّفَاعِيَّةِ أَهْلِ الفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ ، وَعَنَّا
بِهِمْ ، آمِينَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَهَذَا هُوَ كِتَابُ « البُرْهَانِ المَوْيَّدِ » ، أُمُّ الكُتُبِ الرَّفَاعِيَّةِ
وَأُسْهُمًا ، وَعَلَمُ الحَقِيقَةِ وَرَأْسُهَا ، وَمِنهَا جُ المُرِيدِ وَرَسْمُهُ ، وَدُسْتُورُ كُلِّ
مُتَصَدِّرٍ وَنَفْسُهُ .

نَقَلَ مِنْهُ أئِمَّةُ فُحُولِ ، وَدَرَسُوا عِبَارَاتِهِ ، وَشَرَحُوهَا لِطُلَّابِهِمْ وَمُرِيدِيهِمْ
وَأَحْبَابِهِمْ ، وَتَخَرَّجُوا بِصَحِيحِ مَا جَاءَ بِهِ الإِمَامُ الرَّفَاعِيُّ .

وَلَمْ يَتَصَدَّرْ إِمَامٌ مِنَ الأئِمَّةِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ لِجَمْعِ كِتَابِ أَوْ تَسْطِيرِ

رسالة.. . إلا وأخذ منه واستفاد ، وأوضح بسرِّ ما أنطوى في جملة سُبُل
الرَّشَادِ .

ولم يَسَلِّمْ تَأْلِيفُ لِمُحَقِّقٍ مِنْهُمْ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِنْ عِبَارَاتِهِ ، فَهَذَا السَّيِّدُ
الصِّيَّادُ يَنْقُلُ مِنْهُ فِي كِتَابِهِ « الْمَعَارِفِ » ، وَالسَّيِّدُ السَّرَّاجُ فِي « رَحِيقِهِ » ،
وَالْحَافِظُ الرَّفَاعِيُّ الثَّانِي السَّيِّدُ الرَّوَاسُ فِي أَغْلَبِ كُتُبِهِ ، وَنَائِبُهُ وَنَتِيجَةُ فُتُوْحِهِ
السَّيِّدُ أَبُو الْهَدْيِ فِي عَامَّةِ تَوَالِيفِهِ .

كُلُّ مِنْهُمْ أَشَارَ إِلَى فَضْلِهِ ، وَغَزِيرِ عِلْمِهِ ، وَسَدَادِ قَوْلِ صَاحِبِهِ .

ولو لم يكن هذا الكتاب مُشَبَّكَاً بِآيِ الْقُرْآنِ ، وَحَدِيثِ سَيِّدِ وَلَدِ عَدْنَانَ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. . لَمَا تَهَافَّتْ عَلَيْهِ هِمَمُ السَّادَةِ الْأَكْبَارِ ، وَدَرَسُوا
مَا فِيهِ لَطَالِبُهُمْ أَهْلُ الْمَحَابِرِ .

وَرُبَّمَا يَضَعُبُ عَلَى الْمُبْتَدِئِ تَنَاوُلُ الْعِبَارَةِ بِدَلِيلِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْعِرْفَانِ
مُتَزَوِّدًا ، وَمَنْ الْفَهْمُ مُتَكَسِّبًا ، وَمَنْ الْيَقِينُ مَعْتَقِدًا .

وَقَدْ يَغِيبُ عَنْهُ مَرَادُ السَّيِّدِ لِقَلَّةِ بِضَاعَتِهِ ، وَشُرُودِ ذَهْنِهِ ؛ لِأَنَّ النُّكْتَةَ فِي
هَذَا الْبَابِ.. . هُوَ أَنَّ الْمُبْتَدِئِ يَقْرَأُ لِلْمُنْتَهِي ، وَالطَّالِبُ يَشْرَحُ كَلَامَ الْأَسْتَاذِ ،
وَالْفَارِقُ وَاضِحٌ ، وَالنَّتِيجَةُ بِدِيهِيَّةٍ .

وَمَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ بِنِصْفَةِ وَإِخْلَاصٍ.. . فَلَنْ يَجِدَ فِيهِ مَا يُنْتَقَدُ أَوْ يُشَارُ
إِلَيْهِ بِغَمَزٍ ؛ لِأَنَّ صَاحِبَةَ الْإِمَامِ.. . اجْتَهَدَ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، بَلِ
مَمْرُوجَةً عِبَارَاتُهُ بِهِمَا ، وَمَنْ كَانَ وَقَافًا عَلَيْهِمَا.. . ظَهَرَ لَهُ رُسُوحُ قَدَمِهِ فِي
الْمُضْدَرِّئِينَ ، وَسَعَةُ فَهْمِهِ فِي الْعِلْمَيْنِ .

وإذا كنا في زمنٍ يُنتقدُ فيه مذهبُ التصوفِ ، وكلامُهُ وما يكونُ منه . .
فالأحرى بأهلِ النَّصَفَةِ أن ينظروا إلى هذا الكتابِ وأمثاله ، ليُدركَ باليقينِ
الأحقُّ : أنَّ أُمَّتَهُ مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ
عَنَهُمْ - مِنَ الَّذِينَ نَصَرُوا دِينَ اللَّهِ بِسِرِّ مَا أَنْطَوَى فِي جُمَّلِهِمْ وَرَشِيقِ
عِبَارَاتِهِمْ .

ألا ترى كيفَ كانتْ سيرةُ القومِ بينَ طُلَّابِهِمْ ؟ كُلُّ مِنْهُمْ يُلْزِمُ صَاحِبَهُ
بِالْتَّمَسْكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَمُتَابَعَةِ السَّيِّدِ الْمُحْتَشِمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَأَصْحَابِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَعْلَامِ ؟ .

ولسوفَ تجدُ في بيانِ حالِ صاحبِ هذا الكتابِ . . ما يُثْلِجُ الصِّدْرَ ،
وَيُنْقِي الفؤَادَ ، وَيُذْهِبُ بالدَّخْلِ .

ولسوفَ تُدْرِكُ - أيضاً - كَمَ مِنَ الدُّخْلَاءِ مَنْ أَدْخَلَ فِي طَرِيقِ كُلِّ كَامِلٍ . .
ما هو منه بَرَاءٌ ، وَالْعُهُدَةُ فِيهِ عَلَى الْمُفْتَرِي ، لا عَلَى الإِمَامِ .

ولو كان كُلُّ كَامِلٍ يُؤَخِّدُ بِجَرِيرَةٍ ما يَلْتَصِقُ بِهِ مِمَّنْ دَخَلَ طَرِيقَهُ مِنْ أَهْلِ
الْبِدْعَةِ وَالْمُحَدَّثَةِ . . لكانَ الإسلامُ أَوَّلَ مُسْتَهْدَفٍ بِسَبَبِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ،
الَّذِينَ قَصَّروا فِي جَنْبِهِ ، وَطَمَسُوا مُحَيَّاهُ ، وَدَلَّسُوا عَلَى الخَلْقِ ، وَأَسَاؤُوا ،
وَهَتَكُوا الْأَعْرَاضَ ، وَأَسْتَبَاحُوا الْمُحَرَّمَاتِ ، وَفَعَلُوا الْمُنْكَرَاتِ ، وَنَشَرُوا
الفَوَاحِشَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ إِسْلَامِهِمْ إِلَّا ما كُتِبَ فِي بِطَاقَاتِ أَحْوَالِهِمْ .

ويزدادُ عَجَبِي عِنْدَما أرى مَنْ يَنْتَقِدُ ثَمَرَةَ الشَّرِيعَةِ ، وَنَتِيجَةَ التَّمَسُّكِ بِهَا ،
وَلَعَلَّ غَابَ عَنْ بَالِ الْمُتَّقِصِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ ﴾ ! .

فهذا عِلْمٌ تَكْفَلُ اللهُ بِهِ لِلصَّالِحِينَ ، وَأَسْتَوْدَعُهُ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَلَيْسَ لغيرِهِمْ فَهْمُ المُرَادِ مِنْهُ . . . إِلَّا بِتَطْبِيقِ مَا أَتَوَاهُ بِهِ ، وَالتَّمَسُّكِ بِمَا بِهِ عَمِلُوا .
فكَيْفَ يُتَّقَدُّ عِلْمُ اللهِ ، وَسِرُّهُ المَسْتَوْدَعُ فِي عِبَادِهِ ، وَتَفْهِيمُهُ لِعَبْدِهِ المُقَرَّبِ إِنْ هُوَ أَتَى بِمَا يَهَيِّزُ القُلُوبَ ، وَيُحَرِّكُ الهِمَمَ ، وَيُنَشِّطُ الفَهْمَ ، وَيُحَيِّرُ الألبابَ ؟ ! .

ولا يَنْقُضِي العَجَبُ عِنْدَمَا تَرَى أَنَّ الأَكْبَرَ . . . تُغْمَزُ بِحَالِ الأَصَاغِرِ !
وَيُتَّقَدُونَ ، وَيُشَارُ إِلَيْهِمْ ! .

ووالله لو لم يكن على دليل إفلاسيهم إلا انتقادهم وطعنهم بأهل الله . . .
لكفى به حُجَّةٌ عَلَى الزَامِيهِمْ وَكشْفٌ عَوَارِيهِمْ وَتَعْرِيبَتِهِمْ أَمَامَ العُقَلَاءِ .

وَيَبْهَتُ العَاقِلُ مَنْ قَوْلٍ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى العِلْمِ وَيُحَسَبُ عَلَيْهِ إِذْ يُوجَّهُ اللُّومَ عَلَيْهِمْ ، وَيَتَّهَمُهُمْ بِتَأَخُّرِ الرِّكْبِ ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ حِرَاسَةٌ لِجَانِبِ التَّوْحِيدِ ، وَتَنْزِيَةً لِلشَّرِيعَةِ عَنِ مِثْلِ ذَلِكَ .

وَتَرَاهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ أبْسَطِ العِبَارَاتِ ، وَأَخْفِ الجَمَلِ وَالكَلِمَاتِ ، فَيَتَنَاولُونَهَا بِأَخْسَرِ الفَهْمِ وَأَبْلَدِ الفِكْرِ لِإِظْهَارِ مَا أَنْطَوَى فِيهَا .
وَكَأَنَّ الأَمْرَ . . . سَهْلُ المَنَالِ ، وَقَرِيبُ المَأْخِذِ ! .

وَكَم سَمِعْنَا مِنْ بَعْضِهِمْ تَنْقِيصاً لِرِجَالِ القَوْمِ ، وَتَوْجِيهَ اللُّومِ عَلَيْهِمْ ، وَالإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى تَخْرُجَ بِصُخْبَتِهِ كُلُّ مَنْ هُوَ سَلِيطُ اللِّسَانِ ، كَثِيرُ الأَذَى ، سَيِّءُ العِتْقَادِ بِهِمْ ، ثَرْتَارٌ ، هَمَّازٌ ، طَعَانٌ .

وَإِذَا كَانَ مَبْنَى الإِسْلَامِ بَعْدَ أَدَاءِ أَرْكَانِهِ - كَمَا هُوَ فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ - عَلَى مَقَامِ الإِحْسَانِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى أَتْبَاعَ القَوْمِ الَّذِينَ صَدَّقُوا مَعَ اللهِ وَرَسُولِهِ ،

وَأَلْتَزَمُوا إِرْشَادَ شُيُوخِهِمْ . . . إِلَّا ذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا ، مُرَاقِبِينَ لَهُ فِي السَّرَّاءِ
وَالضَّرَّاءِ ، كَثِيرِي الْحُضُورِ مَعَهُ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُمْ لِحِظَةً ، وَلَا يَفْتُرُونَ عَنْ
مُلاحِظَةِ إِسَارَاتِهِ .

ولن ترى بالمقابل أتباع أولئك . . . إِلَّا أَهْلَ غَفْلَةٍ وَقِيلَ وَقَالَ ، وَتَبَاهِيًا فِي
حِفْظِ الْمَسَائِلِ ، وَتَفَاخُرًا بِكَثْرَةِ الْإِجَازَاتِ وَتَشَعُّبِ طُرُقِهَا .

أجل! فنحن بين مُحِبِّ غَالٍ ، وَبَيْنَ مُتَطَرِّفِ سَلِيطٍ مُتَطَاوِلٍ ، وَأَهْلُ
لَوْسَطٍ . . . قَلِيلُونَ ، بَلْ كَادُوا يَكُونُونَ بَيْنَنَا . . . كَالْكَبْرِيَّتِ الْأَحْمَرِ^(١) .

وليسَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَبَرُّتَهُ لِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ مُبَرِّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ،
وَلَا مَدْخَلًا لِلْوُلُوجِ فِي الْمَقْصَدِ . . . لِأَنَّ عُنْوَانَهُ بَرِيدُ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ .

بَلْ هِيَ نَفْثَةُ مَضْدُورٍ ، رَأَى مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ وَأَبْنَاءِ جَنْسِهِ مَا يُسْتَعْرَبُ ،
وَلَمَسَ مِنْهُمْ مَا يُسْتَهْجَنُ .

أَثَمَةُ التَّصَوُّفِ وَعُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ كُلُّ مِنْهُمْ كَانَتْ لَهُ وَجْهَةٌ فِي الْفَهْمِ وَتَبْيَانِ
الْحَقِيقَةِ ، وَكَانَ لِكُلِّ مِنْهُمْ أَسْلُوبُهُ وَطَرِيقُهُ وَعِبَارَتُهُ .

ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ نَقَلَ عَنْهُمْ أَقْوَالَهُمْ ، وَحَفِظَهَا وَتَدَاوَلَهَا عَلَى سَائِرِ
الْأَيَامِ .

وَفِي زَمَانِنَا هَذَا لَمْ نَجِدْ - عَلَى حَسَبِ اسْتِقْرَائِنَا - صَاحِبَ مَنْهَجٍ وَاضِحٍ ،
وَأَسْلُوبٍ مُتَمَيِّزٍ مُخْتَصِّ بِهَ ، وَعِبَارَةً تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، بَلْ غَايَةُ سَيْرِهِ : أَنَّهُ يَحْفَظُ

(١) وَهُوَ الْيَاقُوتُ الْأَحْمَرُ ، وَهُوَ مِنَ الْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، أَنْظَرُ « لِسَانِ الْعَرَبِ » ٢ :

وينقل ، وقد يأتي في أكثر الأحوال بتفسير لبعضها مستعيناً بمن تقدمه من أهل الحفظ والعرفان .

فرجع الأمر في نهايته إلى الأخذ عمّن فتح الله عليه ، وكانت له طريقة واضحة في الاستنباط والفهم عن الله تعالى .

فأين نحن من رجل يفهم كما فهم الأولون ، ويستنبط كما استنبط السلف الصالحون ، وكانت له طريقة في التناول ، وأسلوب خاص به دون غيره ، يستفيد منه كل من يسمع منه ، أو يأخذ عنه ؟ .

فالتصوّف بذلك ليس نقلاً عن القوم كما هو في زماننا ، بل طريقاً للسالك واضح ، يشقه بنفسه ، يُعرف به ، ويُعلم وجوده من خلال وجدانه ولواعج حبه ، وكوامن السرّ المستودع في الذات .

وكأننا بهذا الكلام نشير إلى اختصاص العبد بـسرّ الله وأصطفائه! وهل الدين إلا ذلك ، وفوق ما هنالك ؟ .

﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ .

« . . كنت سمعته الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . » (١) . الحديث .

يظهر من ذلك : أن التنازع يكون بين مقرب ومبعد ، أو عالم وجاهل وإن أتصف بصفة العلم لدى الناس .

وهيهات أن يجتمع الفريقان ، أو يصطلحا على أمر وقد شق لكل طريق

يَضَعُ عَلَيْهِمَا أَخْذُ كُلِّ طَرِيقِ الْآخِرِ ، ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًّا ﴾ ! .

وكتاب « البرهان » هذا . . يجمعُ بينَ الفريقين ، ويُصلحُ الرَّجُلَيْنِ إِنْ تَنَاوَلَهُ مَنْ يُنْكَرُ عَلَيْهِمْ بِإِنصَافٍ ، وَتُوَدَّةٍ دُونَ هَوَجٍ وَأَعْتِسَافٍ ، وَإِلَّا فَلَنْ يَنْفَعَهُمْ دَوَاءٌ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ .

وعِبَارَةُ الإِمَامِ فِيهِ . . مَبسُوطَةٌ لِكُلِّ قَارِئٍ ، ظَاهِرَةٌ لِكُلِّ مُتَنَاوِلٍ ، لَا يَغِيبُ الْمَرَادُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - عَنْهَا بِأَطْرَادٍ ، لِإِمَّا تَقَرَّرَ أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ السَّهْلُ الْمُتَمَتِّعُ ، فَقَدْ قَالَ سِبْطُهُ فِي « الْمَعَارِفِ الْمَحْمُودِيَّةِ » (١) :

« وَإِنَّ كَلَامَهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَهُوَ السَّهْلُ الْمَمْتَنِعُ ، الْمُطَرَّزُ بِأَنْوَاعِ الْحِكْمَةِ وَالْبَيَانِ ، وَالْمَعَانِي الَّتِي تُفْتَقُّ لَهَا الْقُلُوبُ ، وَيُسْمَحُ لِأَجْلِهَا بِالْأَرْوَاحِ » .

قُلْتُ : وَفِي مَطْوِيِّ كَلَامِهِ عِرْفَانٌ ظَاهِرٌ ، وَوُجْدَانٌ صَادِقٌ بَاهِرٌ ، يَظْهَرُ لِلْمَتَأَمِّلِ الْمُرَاقِبِ ، الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ نُورِ الذِّكْرِ وَحَضُورِ الْقَلْبِ ، قَالَ سِبْطُهُ فِي « الْمَعَارِفِ » (٢) :

« لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ بِاللُّسَانِ الْجَامِعِ بَيْنَ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ ، بِحُسْنِ السَّبْكِ وَطَرَحِ الْفَرْقِ ، مِنْ بَعْدِ الإِمَامِ تَاجِ الْعَارِفِينَ الْجُنَيْدِ الْبَغْدَادِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَحْسَنُ وَأَرْشَقُ مِنْ سَيِّدِنَا وَمَفْرَعِنَا ، شَيْخِ الْكُلِّ فِي الْكُلِّ ، السَّيِّدِ أَحْمَدَ الْكَبِيرِ الرَّفَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ سِيَاسَةِ الْحُكْمَاءِ ، وَبِلَاغَةِ الْأَدْبَاءِ ، وَمَقَاصِدِ الْعُلَمَاءِ ،

(١) ص (٥٩) .

(٢) ص (٥٨) .

وظرافة الشعراء ، وغوامض الأولياء ، وحقائق العرفاء ، وحكمة الأصفياء . . رَجُلٌ غَيْرُهُ بَعْدَ سَادَاتِنَا أَيْمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْإِثْنِي عَشَرَ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . انتهى .

قلتُ : وقد تكلمَ بشأنِ « البرهان » جماعةٌ ، وأشاروا إلى فضله ومكانته ، وممن نصَّ على كلماته وأقواله فيه . . سِبْطُهُ الْفَرْدُ فِي كِتَابِهِ « المعارف »^(١) ، فقال :

« وَمَنْ تَدَبَّرَ أَسْرَارَ كَلِمَاتِهِ الْوَحِيدَةِ ، وَأَخْلَاقِهِ السَّعِيدَةِ . . يَرَى أَنَّ التَّمَسُّكَ بِأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ . . طَرِيقٌ مُوصِلٌ إِلَى اللَّهِ ، دَالٌّ عَلَيْهِ ، وَيَعْلَمُ مَا لِمُتَّبِعِيهِ مِنَ الْفَضْلِ الْكَامِلِ ، وَالْفَخْرِ الشَّامِلِ ، نَفَعَنَا اللَّهُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ » . انتهى .

وقال فيه الرافعي في « سواد العينين »^(٢) : « وهو الكتابُ الجليلُ ، الذي عزَّ شأنُ سبِّكِهِ عَنِ الْمَثِيلِ » .

وقال فيه شيخ الإسلام ، السيِّدُ السَّرَاجُ فِي « صَحَاحِهِ »^(٣) :

« وهو كتابٌ أَوْضَحَ الْمَحَجَّةَ ، وَأَقَامَ عَلَى طُلَّابِ الْحَقِّ الْحُجَّةَ .

أُنشِدَنِي لِنَفْسِهِ الْإِمَامُ الْعَارِفُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، أَحْمَدُ بْنُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ الْعَاقُولِيِّ الْوَاسِطِيِّ ثُمَّ الْبَغْدَادِيِّ ، يَمْدَحُ « الْبَرْهَانَ الْمُؤَيَّدَ » عَلَى لِسَانِ مُؤَلِّفِهِ سَيِّدِنَا السَّيِّدِ أَحْمَدَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِهَيْدِينَ الْبَيْتَيْنِ :

(١) ص (٨٠) .

(٢) ص (٧٤) ، طَبَعَهُ شَيْخُنَا الْإِمَامُ الْوَالِدُ ، قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ .

(٣) ص (٩١) .

إِنَّ الَّذِينَ تَسَلَّقُوا شَأوَ الْعُلَى
وَبُوْهْدَةَ الدَّعْوَى الْعَرِيضَةَ مَاتُوا^(١)
بُرْهَانَنَا قَامَتْ مَحَجَّتُهُ عَلَى
نُقْصَانِهِمْ، فَمَتَى أَدْعُوا ﴿ قُلْ هَاتُوا ﴾

وأنا قلتُ فيه :

بُرْهَانُ سَيِّدِنَا الرَّفَاعِيِّ أَنْجَلَتْ
آيَاتُهُ ، فَكَأَنَّهُا فُرْقَانُ
هِيَ بَيْنَ فِتْيَانِ الْحِمَى بُرْهَانُهُ
أَتَظُنُّ كُلَّ فَتَى لَهُ بُرْهَانٌ ؟!

وقلتُ فيه :

إِنَّ الرَّفَاعِيَّ جَدِيرٌ بِأَنْ يُنْسَجَ بِالْأَلْمَاسِ بُرْهَانُهُ
آيَاتُهُ أُعْجِزَ عَنْ دَرْكِهَا فِي سَاحَةِ الْعِرْفَانِ أَقْرَانُهُ

وقلتُ :

إِنَّ هَذَا الْبُرْهَانَ آيَاتُ قُدْسٍ قَامَ مِنْهَا عَلَى الْمَعَالِي الدَّلِيلُ
أَفْرَغَتْ مِنْ فُيُوضِ أَحْمَدَ فِي أَحَدٍ مَدَّ رُوحَ أَمِينِهَا جَبْرِيلُ «

(١) الوهدة : المكان المطمئن ، « مختار الصحاح » ص (٧٣٨) ، مادة :

وفيه أنا شرفُ الدِّينِ قلتُ :

بُرْهَانُهُ لِلطَّالِبِينَ مَحَجَّةٌ وَبِهَدْيِهِ يَسْتَرْشِدُ الطُّلَّابُ
فَكَأَنَّمَا مِنْ نُورِهِ أَنْبَحَسَتْ لَهُ مِشْكَاءُ نُورِ ضَوْؤِهَا خَلَابُ

هذا ما أردتُ رَقْمَهُ في هذه المقدِّمة ، وللبرهانِ . . مزايا فوق ما كَتَبْنَا ،
وأكثرَ ممَّا سَطَرْنَا .

ولقد تَرَكْنَا ما أَشَرْنَا إلى ذوقِ القارىءِ ، وفهَمِ المُتَنَوِّلِ ، وعِرْفَانِ
العارِفِ ، واللهُ مِنْ وراءِ القصدِ ، والهادي إلى سواءِ الطريقِ .

وإني أرجو من الله الجوادِ الكريمِ : أن يَكْتَبَنَا مع مَنْ أُنْدَرَجَ فِيْمَنْ خَدَمَ
هذا الطريقَ السَّعِيدَ ، وأن يجعلَ ذلكَ عندهُ في المقبولينَ ، يَنْفَعُنَا به وذرائعنا
ووالدينا وشيوخنا والمسلمينَ ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ .

دمشق الشام ، الزاوية الرَّفاعية

وكتبه : المعترُّ بالله

شرفُ الدِّينِ

يومَ الجُمعة المباركَ ، ٣٠ جُمادى الأولى ١٤٢٨ هـ

حسنُ بنُ عبدِ الحكيمِ عبدِ الباسطِ

١٥ حزيران ٢٠٠٧ م

خادمُ العِلْمِ الشَّرِيفِ والطَّرِيقَةِ الأَحْمَدِيَّةِ الرَّفَاعِيَّةِ

إِلَى الْمُنْصَلِقِ

فِي

بَيَانِ حَالِ مَوْلَانَا السَّيِّدِ الرَّفَاعِيِّ أَحْمَدَ

كَتَبَهَا وَأَلْفَهَا

شَرَفُ الدِّينِ

حَسَنُ بْنُ عَبْدِ الْحَكِيمِ عَبْدِ الْبَاسِطِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي فضّل أهل الطّاعة بالصّلاح والإسعاد ، وفَتَقَ لهم رتقَ الحُجُبِ فَسَعِدُوا بالمشاهدة والإمداد .

وَمَيَّزَهُم عن أبناءِ جنسِهِم بأن أبقَى ذِكْرَهُمْ مَثَلًا في الصُّحُفِ وعلى ألسِنِ العبادِ ، وخصَّهم ببوارقِ الفتحِ والمَنحِ فكانوا سادةَ أهلِ الرُّشدِ والرَّشادِ .

والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، المبعوثِ بالقولِ الثابتِ وصحيحِ المُعْجَزَاتِ ، وباهرِ الكلماتِ الطَّيِّبَاتِ ، والمأجِقِ لِظُلُمَاتِ الشُّكِّ والشُّرْكِ والضَّلالاتِ ، والنَّاصِرِ لِدينِ اللَّهِ في كُلِّ الحَالَاتِ .

والرَّضَى عن صِخِيهِ رجالِ الوغَى في الحركاتِ والسَّكَنَاتِ ، ونجومِ الهدى في سماءِ البريَّاتِ .

أما بعدُ ، فيقولُ العبدُ الفقيرُ إلى اللَّهِ ، المُعْتَرِضُ به لا سِوَاهُ ، شَرَفُ الدِّينِ ، حَسَنُ بَنُ عبدِ الحَكِيمِ عبدِ البَاسِطِ ، كانَ اللَّهُ له وَلِوَالِدَيْهِ وَلِدُرَّتَيْهِ وَأَهْلِهِ والمُسْلِمِينَ :

إنَّ أخبارَ مولانا الإمامِ الرَّفَاعِيِّ . . كثيرةٌ في الكُتُبِ ، شهيرةٌ في المصادرِ ، مادَّتُها غزيرةٌ ، ونصوصُها وفيرةٌ .

كُتِبَها أحبابُهُ وبعضُ من أهلِ بيَّتِهِ ، وتلامذَتُهُ والمقرَّبُونَ من خلفائِهِ ،

وأفردوا لها كتباً مستقلةً ، ورسائلَ مُستَلَّةً ، وذكروا فيها ما ينبغي أن يُسَطَّرَ ،
وَيُكْتَبَ وَيُدَوَّنَ .

حفظوا بها العهدَ ، وأشاروا إلى ما مَنَّ اللهُ به عليه من الرِّفْعَةِ والسَّعْدِ .

لم يذهبوا به مذهبَ أهلِ الغُلُوِّ والشُّطْحِ ، ولم يتجاوزوا به حدَّ التحدُّثِ
بالنُّعْمَةِ والمَنْحِ .

رَأَوْا منه ما يُذهِشُ فكتبوه ، وما يُذهِلُ فرقموه ، فكانت سِيرَتُهُ مستودَعَةً
عندهم دونَ غيرِهِمْ من أهلِ العِلْمِ وكتبةِ التاريخِ ؛ فَإِنَّكَ إنْ ذهبتَ لِتَطَّالِعَ
سِيرَتَهُ عندهم . . وجدتها لا تتجاوزُ السُّطْرَ أو السُّطْرَيْنِ ، وإنْ طالت . . فلا
تُعْطِي السَّيِّدَ حَقَّهُ ، ولا تُوقِفُ الباحثَ على الحقيقةِ التي كان عليها .

فكنت تُشاهدُ النقصَ ظاهراً ، والمادَّةَ ضعيفةً بله الخُطأِ الذي يقعُ فيه
بعضُهُمْ ، وما ذلك إلا لِبعْدِهِمْ عن صِحِّحِ ما دُوِّنَ بقلمِ أهلِ الاختصاصِ من
أحبابِهِ وتلامذتِهِ .

ولهذا فلم يبقَ للوقوفِ على بيانِ حالِهِ . . إلا ما كتبه أهلُ الفضلِ من
طُلابِ الحقِّ والحقيقةِ ، لِيُعْرِفَ حالُ السَّيِّدِ كما كان ، وليُذَرِّكَ سِرُّ
الخصوصيةِ فيه في كُلِّ آنٍ وزمانٍ .

وهذا ما دعاني إلى كُتْبِ شَيْءٍ مِنْ أخبارِهِ ، وتدوينِ نَتْفِ مِنْ آثارِهِ ،
عسى أن تكونَ في بابِ الرِّغْبَةِ والحاجةِ عِلْماً مشهوراً ، وعندَ طُلابِ الطريقِ
وأهلِ الفضلِ مِنَ العلماءِ الرَّاسخينِ شيئاً مذكوراً .

ولم أخرجُ بها عن حدِّهم ، وما ألزموا به أنفسهم ، فكانت ترى النَّصَّ

يُعزى إليهم ، والعبارة تُعَوَّلُ عليهم ، وتلك الكُتُبُ مذكورة ، مطبوعة مسطورة .

وهي لِمَنْ تَأَمَّلَهَا بِالنَّصْفَةِ . . مَادَّةٌ لِكِتَابٍ كَبِيرٍ ، ومَجَلَّدٌ خَطِيرٌ ، عَسَى الْبَارِي أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِنَشْطَةٍ تُبْرِزُ مِنْ تِلْكَ الْخَبَايَا كُنُوزًا ، وَمِنْ هَاتِيكَ الزَّوَايَا رَمُوزًا ، وَسَمَّيْتُهَا :

« الدُّرُّ الْمُتَضَّدُ ، فِي بَيَانِ حَالِ مَوْلَانَا السَّيِّدِ الرَّفَاعِيِّ أَحْمَدَ » .

رَاجِيًا مِنَ اللَّهِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ فِي الْمَقْبُولِينَ ، وَأَنْ يَنْفَعَهَا بِهَا النَّفْعَ الْعَمِيمَ ، وَيُجْزِلَ بِهَا الثَّوَابَ الْجَسِيمَ ، إِنَّهُ وَلِيُّ الْإِجَابَةِ ، وَالْقَادِرُ عَلَى الْإِثَابَةِ .
وهذا أوانُ الشُّرُوعِ فِي الْمَقْصِدِ ، وَمِنْهُ الْعَوْنُ وَالْمَدَدُ .



مركز بحوث ودراسات إسلامية

نَسْبُهُ مِنْ طَرِيقِ أَبِيهِ

هو مولانا الإمام الأكبر ، والأستاذ الأشهر ، وليُّ الله ، وحبیبُ رسولِ الله^(١) ، شيخُ الطَّرِيقِ ، وعمدَةُ أهلِ الله في التحقيق .

السَّيِّدُ الشَّرِيفُ ، النَّسِيبُ الحَسِيبُ الغَطْرِيفُ^(٢) ، مِنْهُ اللهُ الكُبْرَى في عصره على الأنام ، شيخُ مشايخِ الإسلامِ : السَّيِّدُ أحمدُ مُحْيِي الدِّينِ ،

(١) حكى الشيخُ العارفُ أبو يحيى المظفرُ ، بنُ الإمامِ الكاملِ ، عليَّ بنِ نُعيمِ البغداديِّ ، المعروفُ بابنِ الخبيرِ : أنَّ الشيخَ محمدَ بنَ الصَّفَّارِ البغداديِّ ، أحدَ أصحابِ الشيخِ عمرَ أبي حفصٍ ، شهابِ الدِّينِ الشُّهْرَوَزْدِيَّ البكريِّ ، قُدَّسَ سِرُّهُ : رأى النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في المنامِ ، فقالَ له : يا رسولَ اللهِ ! ما تقولُ بالسَّيِّدِ أحمدَ الرَّفَاعِيِّ ، وبالشَّيخِ شهابِ الدِّينِ الشُّهْرَوَزْدِيَّ ، وبالشَّيخِ عبدِ القادرِ الجِيلِيِّ ؟ . فقالَ له : شهابُ الدِّينِ . . رجلٌ ، أو قال : شيخٌ مرشدٌ ، وعبدُ القادرِ . . عاشقٌ صادقٌ ، وأحمدُ الرَّفَاعِيُّ . . محبوبٌنا ، وشيخُ هذه الأُمَّةِ . . وتَمَّامُ الحديثِ في « تزيانِ المحبين » ص (١١) .

وحكى أبو الحسنِ الواسطيُّ في « خلاصة الإكسير » ص (٥٥) عنه - رضي اللهُ عنه - أنه قال :

« أُعْطِيتُ خَصْلَتَيْنِ لَمْ يُعْطِهُمَا الشَّيْخُ مَنْصُورٌ ، هُوَ كَانَ عَاشِقًا ، وَأَنَا مَعْشُوقٌ ، وَالْعَاشِقُ مُتَعَبٌ ، وَالْمَعْشُوقُ مُدَلَّلٌ ، وَأُعْطِيتُ الحِكْمَةَ ، وَلَمْ يُعْطِهَا » . انتهى .

(٢) هو السَّيِّدُ الشَّرِيفُ السَّخِيُّ الكَثِيرُ الخَيْرِ ، « لسان » ١١ : ٦١ ، مادة : « غطرف » .

أبو العباس ، الرفاعي ، الحسيني ، الحسنيني ، الصديقي ، الأنصاري .

ابن السيد أبي الحسن علي ، دفين بغداد ، ابن السيد يحيى نقيب
البصرة ، أبي أحمد ، المهاجر من المغرب .

ابن السيد أبي حازم ثابت ، بن السيد علي الحازم أبي الفوارس ، ابن
السيد أبي علي أحمد المرتضى .

ابن السيد علي أبي الفضائل ، ابن السيد الحسن الأصغر رفاعة الهاشمي
المكي ، نزيل إشبيلية بالمغرب .

ابن السيد أبي رفاعة المهدي ، بن السيد أبي القاسم محمد ، بن السيد
الحسن أبي موسى رئيس بغداد ، نزيل مكة .

ابن السيد الحسين عبد الرحمن الرضي المحدث ، ابن السيد أحمد
الصالح ، ويُقال له : الأكبر .

ابن السيد موسى الثاني ، ويُقال له : أبو يحيى وأبو سُبْحَة ، ابن الأمير
الجليل السيد أبي محمد إبراهيم المرتضى ، بن السيد الإمام موسى
الكاظم ، بن السيد الإمام جعفر الصادق .

ابن السيد الإمام محمد الباقر ، بن السيد الإمام علي زين العابدين ، بن
السيد الإمام أمير المؤمنين الحسين الشهيد بكر بلاء .

ابن السيد الإمام أمير المؤمنين ، وزير سيد المخلوقين ، أسد الله
الغالب ، سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه .

هذا نسب سيدنا السيد أحمد على الوجه الأصح ، وإن وُجد الخلاف في

بعض النسخ . . فمن جهل النسخ الذين حرفوا الكنى ، وعدوها من الأسماء لاغير .

نَسْبُ النَّجَارِيِّ الْأَنْصَارِيِّ مِنْ جِهَةِ أُمَّه

ونسبه - رضي الله عنه - من جهة أمه . . هو كما صححه الثقات الأثبات :
 ابنُ وَلِيَّةِ اللَّهِ ، الحسبية المَعْمَرَةُ الزاهدة ، العابدة الصالحة ، أمُّ الفضل ،
 فاطمة الأنصارية ، أختِ الشيخ منصور الزاهد البطائحي الرَّبَّانِي لأبويه .
 وأبوهما : العارف الكبير ، الشيخ يحيى النجاري ، ابنُ الشيخ موسى
 أبي سعيد ، بنِ الشيخ كامل ، بنِ الشيخ يحيى الكبير ، ابنِ الإمام الصوفي
 الشهير محمد أبي بكر الواسطي .
 ابنُ موسى ، بنِ محمد ، بنِ منصور ، بنِ خالد ، بنِ زيد ، بنِ مت
 وهو أيوب ، بنِ خالد أبي أيوب ، بنِ زيد الأنصاري النجاري الصحابي
 الجليل ، رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين .

نَسْبُ أُمِّ السَّيِّدِ أَحْمَدَ لِأُمِّهَا

هو أنها فاطمة بنتُ السَّيِّدَةِ رابعة ، بنتِ السَّيِّدِ عبدِ الله الطاهر نقيبِ
 واسط ، ابنِ السَّيِّدِ أبي عليِّ سالم النقيب ، ابنِ السَّيِّدِ أبي يعلى النقيب .
 ابنِ السَّيِّدِ أبي البركاتِ محمدِ النقيب ، ابنِ السَّيِّدِ أبي الفتح محمدِ أميرِ
 الحَاج ، ابنِ الأميرِ الجليلِ السَّيِّدِ محمدِ الأَشْتَرِ ، ابنِ السَّيِّدِ عُبيدِ الله
 الثالث .

ابنِ السَّيِّدِ عليِّ ، بنِ السَّيِّدِ عبدِ الله الثاني ، بنِ السَّيِّدِ عليِّ الصَّالح ، بنِ

السَّيِّدُ عُيَيْدُ اللَّهِ الْأَعْرَجُ ، ابْنُ السَّيِّدِ الْحُسَيْنِ الْأَصْغَرِ ، ابْنِ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلِيِّ ، ابْنِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ سِبْطِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

نَسَبُ السَّيِّدِ يَحْيَى جَدُّ الْإِمَامِ الْكَبِيرِ لِأَبِيهِ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ

فَهُوَ يَحْيَى بْنُ أَمْنَةَ ، بِنْتُ يَحْيَى الْعُقَيْلِيِّ ، ابْنِ النَّاصِرِ لِذَيْنِ اللَّهِ عَلِيِّ ، مَلِكِ الْأَنْدَلُسِ .

ابْنِ أَحْمَدَ ، ابْنِ مَيْمُونٍ ، ابْنِ أَحْمَدَ ، ابْنِ عَلِيِّ ، ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، ابْنِ عُمَرَ ، ابْنِ إِدْرِيسَ .

ابْنِ إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ ، الَّذِي فَتَحَ اللَّهُ الْغَرْبَ عَلَى يَدَيْهِ ، ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَخْضُ ، ابْنِ الْحَسَنِ الْمُثَنَّى ، ابْنِ السَّيِّدِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ سِبْطِ النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

نَسَبُ الشَّيْخِ يَحْيَى التَّجَارِيِّ جَدُّ السَّيِّدِ أَحْمَدَ لِأُمِّهِ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ

فَهُوَ يَحْيَى بْنُ عَلَوِيَّةَ ، وَيُقَالُ : عَلَايَةَ ، بِنْتُ الْحَسَنِ اللَّاعِ ، ابْنِ مُحَمَّدَ ، ابْنِ يَحْيَى ، ابْنِ الْحُسَيْنِ مَلِكِ الْيَمَنِ وَمَكَّةَ ، ابْنِ الْقَاسِمِ أَبِي مُحَمَّدِ الرَّسِّيِّ .

ابْنِ إِبْرَاهِيمَ طَباطبَا ، ابْنِ إِسْمَاعِيلَ ، ابْنِ إِبْرَاهِيمَ الْغَمْرِيِّ^(١) ، ابْنِ الْحَسَنِ الْمُثَنَّى ، ابْنِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ السَّبْطِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

(١) أي : واسع الخُلُقِ ، كثير المعروفِ سخِيٌّ ، « لسان » ١١ : ٨١ ، مادة :

إِتِّصَالُ السَّيِّدِ أَحْمَدَ بِالْإِمَامِ أَبِي بَكْرٍ الصَّادِقِ

ويتصلُ نَسَبُ السَّيِّدِ أَحْمَدَ بِالْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي بَكْرٍ الصَّادِقِ ، من طريقِ جَدِّهِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ ؛ فَإِنَّ أُمَّ الْإِمَامِ جَعْفَرِ أُمَّ فَرْوَةَ . . بنتُ القاسم ، بنِ مُحَمَّدٍ ، بنِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
ووالدَةُ أُمَّ فَرْوَةَ الْمَذْكُورَةِ . . أسماءُ بنتُ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

ولهذا كان الإمام جعفر الصادق يقولُ : وَلَدَنِي الصَّادِقُ مَرَّتَيْنِ ^(١) .

إِتِّصَالُهُ بِعَمِّهِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ

ويتصلُ نَسَبُهُ بِعَمِّهِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ السَّبْطِ ، مِنْ طَرِيقِ جَدِّهِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ ؛ فَإِنَّ أُمَّ الْبَاقِرِ فَاطِمَةُ أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ . . بنتُ الْحَسَنِ السَّبْطِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢) .

وَلَادَتُهُ وَنَشَأَتُهُ

قال الحافظُ العِزُّ الْفَارُوقِيُّ فِي كِتَابِهِ « إِرْشَادُ الْمُسْلِمِينَ » ^(٣) عِنْدَ ذِكْرِهِ . . ما نصُّهُ :

(١) « تريباق المحبين » ص (٣ - ٤) ، للإمام تقي الدين عبد الرحمن بن عبد المحسن الواسطي الشافعي ، (ت ٧٤٤ هـ) .

(٢) « صحاح الأخبار » ص (٦٥) ، للسيد محمد سراج الدين الرفاعي الحسيني ثم المخزومي ، (ت ٨٨٥ هـ) .

(٣) ص (٢٩ - ٣٠) .

« وُلِدَ شَيْخُنَا السَّيِّدُ أَحْمَدُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِقَرْيَةِ حَسَنٍ ، بَدَارِ أَبِيهِ السَّيِّدِ عَلِيِّ أَبِي الْحَسَنِ .

وقال آخرون : بل يومَ ولادتهِ كانت أمُّه الشريفَةُ فاطمةُ بدارِ أبيها الشيخِ يحيى النجاريِّ بأمِّ عَيْدَةَ ، وهناك وُلِدَ .

أقولُ : ولا فَرْقَ ؛ فَإِنَّ قَرْيَةَ حَسَنٍ - كَمَا سَبَقَ وَقُرِّرَ^(١) - جُزْءٌ مِنْ أُمَّ عَيْدَةَ ، وكذا في سِجِلَاتِ الدِّيوانِ ؛ فَإِنَّهُمْ يذكرونَ أُمَّ عَيْدَةَ ، ويدخلُ تحتَ هذهِ الكلمةِ :

الفضيلةُ ، وقَرْيَةُ حَسَنٍ ، والرَّبْوَةُ ، وحربونُ ، والمنصوريةُ ، والورديةُ ، وعِدَّةُ قَرْيٍ أُخْرٍ .

وكانت ولادتهُ في يومِ الخُميسِ ، مِنَ النِّصْفِ الأوَّلِ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ عَلَى الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ^(٢) .

وقد بَشَّرَ بِقُدُومِهِ الأوَّلِيَاءُ العارِفونَ ، ونوّهَ عَلَى عِزَّةِ مَكَانَتِهِ وَقُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ أَيَّامَ ولادتهِ الأعيانِ الواصلونَ .

وَسَمِعُوهُ يُهَمِّمُهُمْ حِينَ وُلِدَ هَمِّمَةً فِيهَا تَرْكِيْبُ حُرُوفٍ ، فَعَجِبُوا لِذَلِكَ ! فَذَكَرُوا القِصَّةَ لِخَالِهِ الشَّيْخِ مَنْصُورٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

فَقَامَ بِجَمَاعَةٍ مِنْ أَعْيَانِ أَصْحَابِهِ ، وَدَخَلَ حُجْرَتَهُ ، فَسَمِعُوهُ يَقُولُ : سُبْحَانَ مَنْ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ! .

(١) أي : في كتابه « الإرشاد » ص (٢٦) .

(٢) وما ذكره الشُّبْكِيُّ فِي « طَبَقَاتِهِ » ٦ : ٢٤ : مِنْ أَنَّ ولادتهُ فِي المَحْرَمِ سَنَةِ خَمْسٍ مِئَةٍ ، لَيْسَ بِصَحِيحٍ .

فَسَجَدَ سَيِّدِي الشَّيْخُ مَنْصُورٌ شُكْرًا لِلَّهِ ، وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ
جَوْهَرَ أَهْلِ اللَّهِ فِي هَذَا الْبَيْتِ .

نَقَلَ جَدِّي الْإِمَامُ عَمْرُ أَبُو الْفَرَجِ الْفَارُوقِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ الْفَقِيهِ الثَّبَّتِ الشَّيْخِ
أَحْمَدَ بْنِ سَابُورِ الْفَارُوقِيِّ ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ السَّيِّدِ عَلِيِّ أَبِي الْحَسَنِ الْمَكِّيِّ
الرِّفَاعِيِّ :

أَنَّ سَيِّدَنَا السَّيِّدَ أَحْمَدَ تَقَيَّدَ عَنْ شُرْبِ الْحَلِيبِ فِي رَمَضَانَ كُلِّ يَوْمٍ ، فَإِذَا
وَجَاءَ وَقْتُ الْغُرُوبِ . . شَرِبَ اللَّبَنَ .

وَتَبَّتْ هَذَا مِنْ طُرُقٍ عَدِيدَةٍ ؛ فَإِنَّ شَيْخَنَا الْحَافِظَ الْمُتَفَنِّنَ عَبْدَ الْمَنَعِمِ
الْأَنْصَارِيِّ . . حَدَّثَ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، رَاوِيًا الْقِصَّةَ عَنْ وَلِيِّ اللَّهِ الشَّيْخِ يَحْيَى
النَّجَارِيِّ .

وَنَقَلَهَا - أَيْضًا - الشَّيْخُ عَبْدُ الْمَلِكِ الْوَاسِطِيُّ ، عَنْ أُخْتِهِ الْعَابِدَةِ
الصَّالِحَةِ ، الشَّيْخَةِ الْمَعْمَرَةَ صَالِحَةَ أُمِّ الشُّعُودِ ، وَالِدَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْمَلِكِ
الْحَرَبُونِيِّ ، قَالَتْ :

إِنَّ السَّيِّدَ أَحْمَدَ بْنَ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ . . لَمْ يَشْرَبِ الْحَلِيبَ وَلَا مِنْ
تَذِي أُمِّهِ فِي رَمَضَانَ إِلَّا بَعْدَ إِفْطَارٍ ، وَكُنَّا نَدْفَعُهُ مِنْ حِجْرِ أُمِّهِ إِلَى حِجْرٍ أُخْرَى
لِيَرْضَعَ . . فَلَمْ يَفْعَلْ .

قُلْتُ : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُصْلِحَ شَأْنَ عَبْدِهِ ، وَيَسْتَخْلِصَهُ لَهُ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ
خَاصَّتِهِ . . يَصْرِفُ تَرْبِيَّتَهُ مِنْ مَهْدِهِ إِلَى لَحْدِهِ لِجَنَابِهِ الْكَرِيمِ ، وَيُعَلِّي أَمْرَهُ
بِالتَّوْفِيقِ .

وَإِذَا قَضَى بِشَقَاءِ الْعَبْدِ . . صَرَفَهُ عَنْهُ ، وَوَكَّلَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، حَمَانًا لِلَّهِ ! .

وفي المعنى أقول :

إِنَّ الْعِنَايَةَ إِنْ أَعَانَتْ ضَائِعًا جَمَعَ إِلَهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَتَاتِهِ
فَيَقُومُ مَرَضِيَّ الشُّؤُونِ مُوقِرًا وَتَحْفُهُ الْأَلْطَافُ فِي حَرَكَاتِهِ
وَإِذَا الْعِنَايَةُ فَارَقَتْ ذَا قُدْرَةٍ فَالَسَّيَّاتُ يُلْحَنَ مِنْ حَسَنَاتِهِ
وَيَرُوحُ مَذْمُومَ الصَّنَائِعِ خَائِبًا تُطَوِّى لَهُ الْغُصَّاتُ فِي أَوْقَاتِهِ
سُبْحَانَ مَنْ لَا أَمْرَ إِلَّا أَمْرُهُ نَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ «

وقال سبطه السيد الصياد - رضي الله عنه - في كتابه « المعارف
المحمدية »^(١) عن نشأته . . ما نصه :

« ورؤي عن الشيخ يعقوب بن كُرَازٍ - رحمة الله عليه - قال : كان سيدي
أحمد - قدس الله تعالى روحه - في صِغَرِهِ عَاقِلًا ، حَامِدًا ، ذَلِيلًا ،
مَنكسِرًا ، ما عَرَفَ أَحَدٌ قَطُّ لَهُ كَلِمَةٌ زَائِدَةٌ وَلَا نَاقِصَةٌ ، وَلَا فَاهَ يَوْمًا بِكَلِمَةٍ
بِما يَرِيب ، وَلَا ما يَغِيظُ بِهِ جَلِيسَتَهُ .

ولا سأله أحدٌ قطُّ شيئاً كان بيده أو يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَمَنَعَهُ عَنْهُ . . إِلَّا أَعْطَاهُ
ما طلبه ، وَأَجابَهُ إِلَى ما سَأَلَهُ ، وما وعدَ أَحَدًا قَطُّ وَعَدًا وَعَدَلَ عَنْهُ .

وكان - قدس الله تعالى سره - لا يَراهُ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا ضاحِكًا ، أي :
مُبْتَسِمًا .

وكان يُلازم الوَحْدَةَ ، وَيُحِبُّهَا ، وَلَا يُخَالطُ اللَّعِبَةَ ، وَلَا يَلْعَبُ مَعَهُمْ ،
وَلَا يُمَارِزُهُمْ ، وَإِذَا مَازَحُوهُ . . لَا يَحْرُدُ .

وكان يَقُولُ الحَقَّ ولو على نَفْسِهِ ، وَمَا كَذَبَ قَطُّ لَا هَزْلاً وَلَا جَدَلاً
وَلَا جِدّاً .

وكان إِذَا رَأَاهُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ . . عَبَّرَتْ عَيْنُهُ عَلَيْهِ لِأَجْلِ مَسْكَنَتِهِ ، كَأَنَّهُ كَانَ
يَتِيمًا غَرِيبًا .

وكان جَلِيلَ القَدْرِ ، دَائِمَ البِشْرِ ، قَوِيَّ الهِمَّةِ ، عَزِيزَ العَقْلِ ، شَدِيدَ
العِزِّمِ على طَلَبِ الخَيْرِ .

وكان يُحِبُّ الصَّالِحِينَ ، وَيَزُورُهُمْ ، وَيَتَرَدَّدُ إِلَيْهِمْ ، وَيَغْتَنِمُ بَرَكَتَهُمْ ،
وَيَسْأَلُهُمُ الدُّعَاءَ ، وَيُقَبِّلُ أَقْدَامَهُمْ .

وَلَمَّا كَانَ فِي المَكْتَبِ . . كَانَ يَتَحَمَّلُ أَذْيَةَ الصِّغَارِ ، وَلَا يَخْرُدُ مِنْهُمْ ،
وَيَقْضِي حَوَائِجَهُمْ ، حَتَّى كَانَ يَمْسَحُ الأَلْوَاحَ لِلأَطْفَالِ فِي شِدَّةِ البَرْدِ ،
وَيَقُولُ لَهُمْ :

مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَخْشَى البَرْدَ مِنْ مَسِّ المَاءِ . . يَعْطِينِي لَوْحَهُ أَغْسِلُهُ .

وكان يُشْفِقُ عَلَيْهِمْ ، وَيَقْدُّ لَهُمُ النَّارَ ، وَيُدْفَنُهُمْ ، وَإِذَا جَاءَ وَقْتُ
الصَّلَاةِ . . يَنْهَضُ مِنْ غَيْرِ كَسَلٍ ، وَيُسَبِّغُ الوُضُوءَ ، وَيَقْصِدُ المَسْجِدَ ،
فِيصَلِّي وَيَرْجِعُ .

وكان - قَدَسَ اللهُ تَعَالَى رُوحَهُ - يَقُولُ لِلصِّغَارِ : صَلُّوا مَا دَمْتُمْ فَارغِينَ
مَتَفَرِّغِينَ قَبْلَ إِشغَالِكُمْ بِالدُّنْيَا وَطَلِبِهَا ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ وَأَنْتُمْ فَارغُونَ صغَارًا . .
حَلَّتْ فِي قُلُوبِكُمْ عِنْدَ الكِبَرِ .

وما وضع يده قطُّ على ألمٍ . . إلا شفاهُ اللهُ تعالى ، فكان الناسُ يعرفونَ له ذلكَ من صِغَرِهِ .

وأَنَّهُ - رحمةُ اللهِ عليه - ما ادَّخَرَ شيئاً من الدنيا ، ولا أكلَ وحدهُ قطُّ ، ولا اشتهى شهوةً إلا فرَّقها على الأطفال ، ولا يأكلُ هو منها .

وكان يُشفقُ على المعلمِ ، ولا يقولُ إلا : يا سيدي .

وكانت له الهيبةُ والمحبةُ في قلوبِ الناسِ .

وكان يُقبَلُ يَدَ كُلِّ مَنْ رآه ، ولا يُعطي أحداً يَدَهُ يُقبَلُها .

وكان إذا سأله أحدُ الدُّعاءِ . . رفعَ يَدَهُ نحوَ السماءِ ، فلا يَعلمُ أحدٌ

ما يقولُ ، فيجدونَ بَرَكةَ الدعاءِ ، وتُقضى حوائجُهُم بِبرَكتهِ وَبَرَكةِ دُعائهِ .

وكان إذا سمعَ بمرريضٍ من أهلِ البلدةِ . . يزُورُهُ ، ويتددُّ إليه لِصِغَرِ

نَفْسِهِ ، ولا يستحي من حَسَنَةِ عَمَلِها .

وكان إذا رأى غريباً . . حملَهُ وأكرَمَهُ ، ويحملُ له طعاماً ، وَيُبيِّتُهُ عندهُ .

وكان كثيرَ الإطراقِ ، سريعَ العَبْرَةِ ، حزينَ القلبِ ، حريصاً على فعلِ

الخيراتِ .

وكان - قدسَ اللهُ تعالى روحَه - إذا قرأ القرآنَ على الشيخِ . . لا يتلقنُ أكثرَ

من آيةٍ أو آيتين ، ويدرسُها يومَهُ أَجمعَ وليلتَهُ ؛ لأنَّهُ كان لا ينامُ الليلَ كلَّهُ في

صِغَرِهِ .

وكان يعتبرُ في الآيةِ ، ويتفكَّرُ ، ولا يقرأُ بِعَجَلَةٍ ، بل بِترتيلٍ وخوفٍ ،

ويقرأُ ودموعُهُ تجري على وجهه كالغيثِ .

وكان يُحِبُّ القرآنَ وأهله ، وإذا رأى صغيراً في الدَّرْبِ يلعبُ . . يلعبُ معه ، ويُشفق عليه ، ويُرغِّبه في القراءة ، ويقولُ : نقرأ أنا وأنتَ ، وكلُّ ما تريدهُ عليّ ، ولا يزال عليه حتى يُدخله حلقةَ المقرَّبين ، فإذا رآه وقد تلقنَ شيئاً من القرآن . . فرحَ به ، واستبشر .

وكان إذا رأى شخصاً كبيراً . . كرمه ، وخدمته ، والتفتَ إليه .

وكان إذا رأى أعمى . . أشفقَ عليه ، وقاده إلى موضعِ حاجتهِ .

وكان يقضي للفقراءِ حوائجهم ، ويملأ لهم أباريقهم من الشُّطِّ ، ويحملُ لهم الطعامَ ، ويمنعُ مَنْ يتعرَّضُ لهم .

وكان لا يتركُ مَنْ به فاقةٌ على حَسْبِ طاقتهِ ، ولا يرى مُحتاجاً ، إلا تعرَّضَ به لأجل حاجتهِ ، وهذا دأبهُ إلى أن كبرَ رضي الله عنه . . انتهى .

وقال في مكانٍ آخرَ من كتابه^(١) . . ما نصُّه :

« ورؤي عن سيدي يحيى أنه قال : إن سيدي أحمدَ الرَّفاعيَّ ، ما أكلَ الخُبْزَ السُّخَنَ في عمره أبداً ، وما نامَ أبداً في الليلِ ، وما ضحكَ أبداً .

وفي زمنِ الطفوليةِ . . ما لعبَ مع الأولادِ قطُّ ، وكان وهو طفلٌ من عوائده الحسنة : أنه يجمعُ الخبزَ للغرباءِ والضعفاءِ وقليلي الطاقة والجهد ، ويستسقي لهم الماءَ ، ويُعطيه لهم ، ويتقيَّدُ بخدمتهم .

وكان من عوائده : أنه يزورُ المهجورَ من المساجدِ ، ويزورُ المقابرَ .

وَمِنْ حِينَ كَانَ طِفْلاً كَانَ كُلُّ مَنْ صَاحَبَهُ أَوْ حَادَثَهُ . . لَا يَتَصَاحَبُ مَعَهُ إِلَّا
بِالنَّصِيحَةِ وَالْفَوَائِدِ .

وكان الناسُ يتمنّون الواحدُ منهم أن يُصاحبه لحظةً ، لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِ لَهُ ،
وَكُلُّ مَنْ نَصَحَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَصَاحِبِينَ . . لَا يَرُوحُ إِلَّا وَهُوَ مِنَ الْفَائِزِينَ مِنْ
تِلْكَ النَّصِيحَةِ ، فَرَضِي اللهُ عَنْهُ « . انتهى .

عِنَايَةُ النَّبِيِّ (ﷺ) بِهِ

وقد صحَّ وتواترَ : أَنَّ الشَّيْخَ مَنْصُوراً رَأَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
فِي الْمَنَامِ قَبْلَ وِلَادَةِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ بَارْبَعِينَ يَوْماً فَقَالَ لَهُ :

أُبَشِّرُكَ يَا مَنْصُورُ ! إِنَّ اللهَ يُعْطِي إِلَيَّ أَخْتِكَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَلَدَاً ، يَكُونُ
أَسْمُهُ أَحْمَدَ الرَّفَاعِيِّ ، مِثْلُ مَا أَنَا رَأْسُ الْأَنْبِيَاءِ . . كَذَلِكَ هُوَ رَأْسُ الْأَوْلِيَاءِ .
وَحِينَ يَكْبُرُ . . فَخُذْهُ وَأَذْهَبْ بِهِ إِلَيَّ الشَّيْخِ عَلِيِّ الْقَارِيءِ الْوَاسِطِيِّ ،
وَأَعْطِهِ لَهُ كِي يُرَبِّيَهُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَزِيزٌ عِنْدَ اللهِ ، وَلَا تَغْفُلْ عَنْهُ ! .

قال الشَّيْخُ مَنْصُورٌ : فَقُلْتُ : الْأَمْرُ أَمْرُكُمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، عَلَيْكَ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ . وَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) .

بِشَارَاتُ أَهْلِ التَّمَكِينِ بِقُدُومِهِ قَبْلَ وِلَادَتِهِ

قال العَلَّامَةُ الشَّيْخُ الْقُدُوءَةُ الْفَقِيهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ أَحْمَدَ الدَّيْرِينِيُّ الدَّمِيرِيُّ
الشَّافِعِيُّ الْأَحْمَدِيُّ ، فِي رِسَالَتِهِ « غَايَةُ التَّحْرِيرِ » ، فِي نَسَبِ قُطْبِ الْعَصْرِ

(١) « تِرياق المحبين » ص (٤) .

غوث الزمان سيّدنا أحمد الرفاعي الكبير « . ما نصّه (١) :

« أخبرنا شيخنا سلطان العلماء ، عبد العزيز أبو محمد ، الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام الشافعيّ - قدّس الله سرّه - قال :

قرأت في كتاب الشيخ الصوفيّ العارف الصالح ، المتمسك بالسنة المحمديّة ، بقيّة السلف ، السيّد الشريف محيي الدين أحمد بن سليمان الحسيني الرفاعيّ الهماميّ قدّس الله روحه ، ومن خطّه نقلت هذه الصحيفة .

يقول الفقير إلى الله تعالى عبد العزيز بن أحمد الدميريّ عفا الله عنه : وأنا نقلتها من خطّ شيخنا شيخ الإسلام عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، وقرأتها - بعد نقلها - عليه ، وهذا نصّها :

نزل السيّد محمد أبو القاسم الحسينيّ البغداديّ ، الجدّ التاسع لسيدنا ومولانا السيّد أحمد الرفاعيّ مع أبيه : إلى مكّة ، وتوطنها ، وأحبّه الناس ، واعتقدوا صلاحه ، وعظّموه لأجل الدين ، وبجلّوه حرمةً لنسبه المحمديّ .

ومن غرائب الإتحاف الإلهيّ ، الذي حصل له : أنه رأى ليلة جمعة بمكّة في منامه : أن أبواب السماء فتحت ، ونزل من السماء نور غشّ الأبصار .

ثم أنكشف رداء النور عن أرض نديّة ، خضرة مفروشة بشقق الدياج ،

وعليها الأسيرة ، وفوق الأسيرة رجال تغشاهم من كل جهاتهم الأنوار ، ومعه ولده المهدي .

وإذا برجل قد جاء فدعاهما ، فذهبا معه ، حتى إذا أوقفهما تجاه سرير رفيع ، عليه ستر مرصع باليواقيت والجواهر . . . فأنكشف الستر ، ونزل عن السرير رجل عظيم المهابة ، جليل الطول ، وبيده غصن شجرة رفيع ، فتقدم إليهما وقال :

يا أبا القاسم ! خذ هذه الغريسة ، وأعطها لولدك المهدي ، وأسلك به هذا الطريق إلى الغرب ، فإذا وصلها . . . فليغرس فيها هذه الشجرة ، فإذا نمت . . . فليأخذ أشرف أغصانها ، ويُسلّمه إلى بعض أولاده ، وليسلك به هذا الطريق إلى الشرق ، فإذا انتهى إلى واسط . . . فليغرس الغصن بها ، وليقلع عن السير ؛ فإن هذا الغصن يُنجب شجرة تصل فروعها المشرق والمغرب ، وتصل إلى قبة السماء .

قال أبو القاسم : فكلمت ولدي المهدي في ذلك ؟ فقال ولدي : رفاعه أقوى جلدًا مني على السفر ، فأرسلوه هو .

فكلمت الرجل بما قاله المهدي ؟ فصعد السرير ، ثم عاد ، فقال : نعم فليكن رفاعه ابنه الذي يفعل .

فلم ألبث قليلاً إلا ورفاعة عندي ، فأعطيتُه الغصن ، ثم قلت للرجل : ها نحن قد قمنا لامثال أمركم ، فبالله إلا ما أخبرتني من أنت ومن صاحب هذا السرير الذي أتيتنا بالأمر من قبله ؟ .

قال : أنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، وصاحبُ السَّريرِ . . رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم .

فصَلَّيْتُ عليه ، وَحَمِدْتُ اللهُ ، وَأَخَذْتُ بِيَدِ حَفِيدِي رِفَاعَةَ ، وَسَلَكْتُ بِهِ طَرِيقَ الْغَرْبِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .

فَمَا كَانَ كَطَرْفَةِ عَيْنٍ إِلَّا وَنَحْنُ فِي الْمَغْرَبِ ، فَغَرَسَ رِفَاعَةُ الْغُصْنَ ، فَأَنْبَتَ شَجَرَةً عَظِيمَةً تَسْلُقُ غُصْنَهَا مِنْ ذِرْوَةِ السَّمَاءِ ، فَقَطَعَهُ رِفَاعَةُ .

ثُمَّ قَمْنَا ، فَسَلَكْنَا طَرِيقَ الشَّرْقِ نَزْجًا بِالنُّورِ ، فَمَا كَانَ غَيْرُ يَسِيرٍ وَإِذَا نَحْنُ بِوِاسِطِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعِرَاقِ ، فَغَرَسَ رِفَاعَةُ الْغُصْنَ ، فَأَنْجَبَ شَجَرَةً عَظُمَتْ حَتَّى مَسَّ أَغْصَانُهَا أَطْلُسَ السَّمَاءِ ، وَانْتَهَتْ فُرُوعُهَا طَوْلًا حَتَّى بَلَغَتْ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ ، وَكَأَنَّ الشَّمْسَ أَصْلَحَهَا ، وَالنَّجُومَ أَوْرَاقَهَا .

فَخَشَعْتُ لَذَلِكَ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ مَتَحِيرًا ، وَانصَرَفْتُ إِلَى بَيْتِ اللهِ وَأَنَا فِي بَحْرِ مِنَ الْفِكْرِ ، فَرَأَيْتُ السَّيِّدَ حَمْزَةَ بْنَ عَلِيٍّ الْعَلَوِيِّ ، مَعْبَرًا أَهْلَ الْبَيْتِ ، فَذَكَرْتُ لَهُ قِصَّةَ الرُّؤْيَا ، فَخَشَعَ وَبَكَى ثُمَّ قَالَ :

تُشِيرُ رُؤْيَاكَ إِلَى أَنَّ وَلَدَكَ رِفَاعَةَ يَنْزِلُ الْمَغْرِبَ ، وَيَتْرَكَ فِيهَا الْعَقَبَ الطَّاهِرَ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ بَنِيهِ رَجُلٌ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَيَنْزِلُ وَاسِطًا ^(١) .

وَيُعْقَبُ فِيهَا سَيِّدًا يُنُوبُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم ^(٢) ، فَيُجَدِّدُ

(١) وهو السيّد يحيى بنُ ثابت ، جدُّ السيّد أحمد الرِّفَاعِيِّ لأبيه ، وهو أوَّلُ قَادِمٍ مِنْ عَصَابَةِ بَنِي رِفَاعَةَ الْحُسَيْنِيِّينَ إِلَى الْبَصْرَةِ ، نَزَلَهَا عَامَ (٤٥٠ هـ) ، « خلاصة الإكسير » ص (٢١) ، لأبي الحسن الواسطي ، (ت ٧٣٣ هـ) .

(٢) إشارة إلى السيد أحمد رضي الله عنه ، كما سيمرُّ بك آخرَ القصة .

شريعته ، ويحيي طريقته ، وتملاً أنوار إرشاده الأكوان ، ويجييء من بنيه رجال من خلص أهل البيت ، كلهم كالنجوم ، إن لم يكن ذلك الرجل مهدياً أهل البيت . . فهو مثله .

فكتبت رؤيائي وتعبيرها في رُقعة ، وحفظتها لتكون - إن شاء الله - وديعة محمدية علوية لصاحبها ، انتهى كلام السيد محمد أبي القاسم .

ولا زالت الرُقعة محفوظة يتداولها أهل هذا البيت الشريف ، حتى ظهر شمس هذه العصابة ، ولي الله ، القطب الجامع الأكبر ، السيد أحمد بن علي الرفاعي الحسيني رضي الله عنه ، وبلغ من الظهور في مقام إرشاد أمة جده - صلى الله عليه وسلم - ما بلغ .

حمل هذه الرؤيا أعيان أهل البيت عليه رضي الله عنه ، وأيد ذلك من البشارات المحمدية شياً كثيراً رواه أمة من الصالحين العارفين^(١) .

وكانت وفاة السيد محمد أبي القاسم بمكة سنة - (٢٦٥ هـ) - خمس وستين ومثتين ، طيب الله مرقدَه ، انتهى .

قال الفقير إلى الله ، جامع هذه الكراسة ، عبد العزيز بن أحمد الدميري ، عفا الله عنه :

قال شيخنا شيخ الإسلام ، الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، قدس الله سره :

(١) سيأتي بعضها بعد نهاية هذه القصة .

وأنا ممن يحمل هذه الرؤيا على شيخ مشايخنا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه . انتهى .

وقال الواسطي في « تriage »^(١) : « وبشر أهل التمكن من أعيان القوم بقُدومه قبل ولادته ، وقالوا : إن الدلّ والانكسار سيكونان مَحَجَّة^(٢) في طريقته وإفادته .

وقد صحَّ من طُرُق عديدة : أن الشيخ الأكبر ، تاج العارفين ، السيد أبا الوفا . . . مرَّ يوماً بأُمِّ عَيْدَةَ ، فقال لِمَنْ مَعَهُ :

سَيَظْهَرُ بعدي في هذه القرية السعيدة رجلٌ تُشَدُّ إليه الرِّحالُ ، وتُدلُّ له رِقَابُ الرِّجالِ ، يتواضعُ له كُلُّ صاحبِ سَجَّادَةٍ على وجهِ الأرضِ .

يسلُكُ طريقاً لم يسلكهُ أحدٌ من هذه الخِرَاقَةِ قبلَهُ ولا بعَدَهُ ، وهو طريقُ الدلِّ والانكسارِ والمسكنةِ والافتقارِ ، وهي أصعبُ الطُّرُقِ إلى الله . . .

والدَّوْلَةُ له بعدنا ، وهو صاحبُ الأمرِ والنَّهيِّ والتَّصَرُّفِ في البواطنِ والظُّواهرِ بإذنِ اللهِ تعالى . انتهى .

وقال العزُّ الحافظُ الفاروئيُّ في « النفعة المسكية »^(٣) عندَ ذِكْرِ مَنْ بَشَّرَ به . . . ما نصُّهُ :

« وقد بشرَ به قبلَ ولادتهِ بستينِ أكابرُ الأولياءِ ، وانتظر ظهورَهُ أماجدُ

(١) ص (١١) .

(٢) أي : جَادَتُهُ ؛ لأنَّ المَحَجَّةَ . . . هي جَادَةُ الطريقِ ، « مختار الصحاح » ص

(١٢٣) ، مادة : « حجج » .

(٣) انظر « الرِّشحات الحسنيَّة على النفعة المسكية » ص (٢٩٢ - ٢٩٣) .

الأصفياء ، وأمروا إخوانهم إذا رأوه وصاروا في زمانه . . أن يعرفوا حقَّ حُرْمَتِهِ ، وعظيم منزلته ، وقالوا :

إنه صاحب الوقت والزمن ، والدولة له ولذريته إلى يوم القيامة .

وقالوا : إنه متى ظهر . . يُغلق أبواب الصالحين ، ويصير الوقت له ولأهله ، وتحكّمه وتصرفه يصلان إلى مرتبة عظيمة .

يُضرب داغهُ على جبهات الذراري في أصلاب الآباء ، وسيسلك طريقاً لم يسلكها أحدٌ قبله ولا بعده ، وهي : طريق الذل والانكسار ، والمسكنة والافتقار ، والخضوع والحيرة ، ولم يكن في الطريق إلى الله أعظم وأصعب منها .

وممن بَشَّرَ به بالأسانيد الصحيحة الثابتة . . الشيخ الكبير ، تاج العارفين ، أبو الوفا ، والشيخ أحمد كثر العارفين الزاهد ، والشيخ نصر الهماماني ، والشيخ أحمد بن خميس ، والشيخ أبو بكر النجاري الأنصاري ، والشيخ منصور الرّباني البطائحي ، وغيرهم ، رضي الله عنهم .

والذين عدّدتهم لك^(١) . . من عرفتهم ، غصت بفضائلهم الأوراق ، وانتشر صيتهم في الآفاق . انتهى .

(١) عني به الشيخ الصالح المكاشف إبراهيم بن مِعْضَادِ الجعبري ، (ت ٦٨٧ هـ) ، رحمة الله عليه ، فإن رسالته « النفعة » موجهة إليه بطلب منه ، أنظر « الرّشحات الحسينية » ص (٣٠) .

طَلَبُهُ لِلْعِلْمِ :

قال العزُّ الحافظُ في « إرشاده »^(١) : « تُوِّفِيَ السَّيِّدُ عَلِيُّ وَالِدُ سَيِّدِنَا السَّيِّدِ أَحْمَدَ بَيْغَدَادَ ، وَلِلسَّيِّدِ أَحْمَدَ إِذْ ذَاكَ مِنَ الْعُمُرِ سَبْعُ سِنِينَ .

فَبَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ كَفَّلَهُ خَالُهُ الْبَارِزُ الْأَشْهَبُ الشَّيْخُ مَنْصُورٌ ، وَنَقَلَهُ هُوَ وَوَالِدَتُهُ وَإِخْوَتُهُ إِلَى بَلَدَتِهِ نَهْرِ دَقْلَى مِنْ أَعْمَالِ وَاسِطِ .

وكان شيخنا المشارُ إليه ، سلامُ اللهِ ورضوانُهُ عليه : قد أكملَ يومئذٍ قراءةَ القرآنِ العظيمِ حِفْظاً وترتيلاً بقريه حسنٍ على الشيخِ الورعِ المُقرئِ الصالحِ الأصيلِ عبدِ السميعِ الحربونيِّ رحمه اللهُ .

فلَمَّا صارَ إلى كَنَفِ خَالِهِ . . أَخَذَهُ إِلَى وَاسِطَ بِأَمْرِ سَبَقَ لَهُ مِنَ الْمُصْطَفَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي الْمَنَامِ .

ولا زالَ حتى أدخلَهُ على الإمامِ الفقيهِ العَلامَةِ الزاهدِ المُقرئِ المُفسِّرِ الواعظِ المُحدِّثِ الرُّحَلَةِ الصُّوفِيِّ الكَبيرِ الشَّانِ ، الشيخِ عَلِيِّ أَبِي الْفَضْلِ الْوَاسِطِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

فتولَّى أمرَهُ ، وقامَ بتربيتِهِ وتأديبِهِ وتعليمِهِ امتثالاً للأمرِ النبويِّ .

فَبَرَعَ فِي الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ ، وَمَهَرَ وَاشْتَهَرَ ، وَأَحْرَزَ قَصَبَ السَّبْقِ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَتَفَرَّدَ بِالْعُلُومِ وَالْمَزَايَا فِي زَمَانِهِ .

وكان يُلازمُ دَرَسَ خَالِهِ الشَّيْخِ أَبِي بَكْرِ الْوَاسِطِيِّ ، وَيَتَرَدَّدُ إِلَى حَلَقَةِ خَالِهِ

الشيخ منصور الرّبّانيّ ، ويتلقّى بعض العلوم عن الشيخ عبد الملك الحبرونيّ .
 وحفظ كتاب « التنبيه » للإمام أبي إسحاق الشيرازيّ على ظاهر قلب ،
 واقتفى آثار النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وعظّم الشيوخ ، واستغرق أوقاته
 بجميع المعارف الدينيّة ، وأفاض الله عليه من لدنه علماً خاصاً ، حتى رجّع
 مشايخه إليه ، وتأدّب مؤدّبوه - لجلالة قدره - بين يديه .

ولما بلغ عمره المبارك عشرين سنة . . أجازته شيخه عليّ أبو الفضل
 محدث واسط وشيخها إجازة عامّة بجميع علوم الشريعة والطريقة ، وألبسه
 خرقته المباركة ، ونوّه بذكره ، وأعظم شأنه ، ولقّبه بـ : أبي العلمين ،
 لإشارة سماويّة ظهرت له ، فهم منها : أنه قائد أهل الظاهر والباطن ، وباب
 النجاح في أمرَي الدنيا والآخرة .
 وانهقد عليه في حياة مشايخه الإجماع ، واتفقت بشأنه ورفعة قدره
 الكلمة .

وأقام بنهر دقلّى مدّة يسيرة ، ورجع إلى رواق أبيه بقرية حسن ، فاشتهر
 كلّ الاشتهار ، ومع ذلك فكان يتباعد عن طقطقة النعال ، وحبّ الشّهرة ،
 ويخلو برّبّه على أكمل وقارٍ وأحسن سكينه ، مُلازماً الدلّ والانكسار ،
 والمسكنة والافتقار ، لله الواحد القهار ، مُتخلياً لعبادة ربّه ، لا يعرف
 الراحة ، ولا يُواصل الاستراحة ، همّة ربّه دون الأكوان .

ففي سنة تسع وثلاثين وخمس مئة توفّي شيخه الشيخ عليّ الواسطيّ ،
 فأكمل أمره ، وقضى من الفطام في الطريق وطّره : على يد خاله الشيخ
 منصور .

ودخلت سنة أربعين وخمس مئة ، وتمَّ للسيد أحمد إذ ذاك من العمرِ ثمانٍ وعِشرونَ سنةً ، فعهدَ الشيخ منصورٌ له بمشيخةِ الشيوخ ، وبمشيخةِ الأروقةِ والرُّبُطِ المنسوبةِ إليه .

وفي تلك السنة توفِّيَ الشيخ منصور ، وكان لما عهدَ له أمرُهُ بالإقامةِ في أمِّ عبيدةِ برواقِ أبيهِ الشيخ يحيى النجاريِّ ، فأقام بها ، وتصدَّرَ على سَجادةِ الإرشادِ بذلك العام .

فلما دخلت سنة سبعٍ وأربعين وخمس مئة . . حُصِبَتِ الرُّقَاعُ التي وردت إلى السيد أحمد - رضي اللهُ عنه - من مرديه ، الذين دخلوا الخلوةَ المحرَّمةَ ، فزادت عن سبع مئة ألف رُقعةٍ . انتهى .

وقال أبو الحسن الواسطيُّ في كتابه « خلاصة الإكسير »^(١) . . ما نصُّه :

« حدَّثني الشيخُ جُمعةٌ قال : سَمِعْتُ سَيِّدِي نَجْمَ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ - قَدَّسَ اللهُ تَعَالَى رُوحَهُ - يَقُولُ : كَانَ أَخِي سَيِّدِي إِبرَاهِيمُ الأَعزْبُ - رَحِمَهُ اللهُ - يَقُولُ :

كان سيدي أحمد - رضي اللهُ عنه - يحفظ القرآن ، ويشرِّحُهُ ، وكان يكتبُ خطَّهُ على الفتوى ، وكان نحوياً ، لغوياً ، عالماً ، عارفاً ، بارعاً ، يتكلَّمُ شريعةً وحقيقةً .

وكان - قدَّسَ اللهُ تَعَالَى رُوحَهُ - إذا أشكلَ على الفقهاء أمرٌ . رجَّعوا فيه إليه ، فيفصِّحُهُ لهم .

وكان يقرأ القرآن بواسطة ، ويحضر مع الفقهاء الدرس ، فيسكت
ويُنصت ، فإذا فرغوا مما يتكلمون به .. حفظ كل ما قالوه وتكلموا به ،
وكل ما شرّحه لهم الشيخ .

فيقرأ على كل واحد منهم ما درسه وشرّحه ، فيتعجبون من ذلك ،
ويقولون للمدرّس !؟ فيتعجب ويقول : هذا رجل سعيد ، قد أعطاه الله
تعالى عطاءً بغير حساب ولا تعب .

وكان إذا سمع الحديث حين يحضر الحديث .. فكأنما يضعه على
قلبه ، فلا ينسى منه حرفاً واحداً . انتهى .

وقال الإمام عبد الكريم الرافعي القزويني في مختصره « سواد
العينين^(١) » .. ما نصّه :

« حدّثني الشيخ الإمام أبو شجاع الشافعي فيما رواه قائلاً :

كان السيّد أحمد الرفاعي - رضي الله عنه - علماً شامخاً ، ورجلاً
راسخاً ، وعالمًا جليلاً ، محدثاً ، فقيهاً ، مفسراً ، ذا روايات عاليات ،
وإجازات رفيعات ، قارئاً ، مجوداً ، حافظاً ، مجيداً ، حجّة ، رُحلة ،
متمكناً في الدين ، سهلاً على المسلمين ، صعباً على الضالين .

هيئاً ، ليئاً ، هسّاً ، بشّاً ، لينّ العريكة ، حسن الخلق ، كريم الخلق ،
حلّو المكالمة ، لطيف المعاشرة .

لا يملّه جليسه ، ولا ينصرف عن مجالسه إلا لعبادة .

وفياً إذا عاهد ، صبوراً على المكاره ، جواداً من غير إسراف ، متواضعاً من غير ذلّة ، كاظماً للغيظ من غير حقد ، أعلم أهل عصره بكتاب الله وسنة رسوله ، وأعملهم بها .

بحراً من بحار الشرع ، سيفاً من سيوف الله ، وارثاً أخلاق جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلّم . انتهى .

أقول : جاء في « المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية »^(١) لسببته الإمام القدوة الجدّ السيّد عزّ الدين أحمد الصياد رضي الله عنه . . ما يلي :

« وقد أجازته - أي : شيخه عليّ القاريء - بالعلم والطريق ، ولم يسمح بإجازته لغيره من أصحابه ، فعوتب على ذلك ؟! فقال :

يجبُ على من أنجبَ مثلَ السيّد أحمد : أن ينقرضَ من غيره . يريدُ أن لا يكونَ له خليفةٌ غيره .

وكان أصحابُ الشيخِ عليّ الواسطيّ من أهل الأحوال والعرفان أكثرَ من أربعين ألفاً ، وكان إذا رأى بأحدِهِم الاستعدادَ للفِطام . . يأمرُهُ بملازمة السيّد أحمد ، وتجديدِ البيعةِ على يديه .

فيقالُ له : أما أنتَ شيخُهُ ؟! فيقولُ : نحنُ أشياخُ الجُسوم ، وهو شيخُ الأرواح .

وربما قال : لولا أمرٌ سبق . . لأخذتُ البيعةَ منه ، وتشرّفتُ بملازمته ؛

فإنه كثر من كنوز الله مُطْلَسَم ، استودع الله قلبه أسرار القرآن ، وأقامه بعنايته نائبا عن جدّه صلى الله عليه وسلّم . انتهى .

بناءً طريقته على الأضلين

الكتاب والسنة

أقول : إن طريقتنا . هي طريقة المصطفى صلى الله عليه وسلّم ، وحققتنا . العمل بأعماله ، والتحلّي بأحواله ، صلوات الله عليه وعلى آله ورجاله .

وقد برأ الله طريقنا هذا من لوث الدنيا الدنيّة ، ودسائسها الخفيّة ، وأخطارها الجليّة .

وما هو إلا طريق يُعربُ عن حالٍ محمديّ ، سواءً فيه عندنا العربيّ والعجميّ ، والأبيض والأسود ، والرّفع والوضيع ، إلا في حدود الله وحقوقه .

ولم يُشبّ منهاجنا هذا - والحمد لله - بطلبٍ أمرٍ أو نهْيٍ دُنْيويّ ، ولم يُدَنَّسْ بِغَرَضٍ من أغراضِ الأكوانِ ، ولم يَلْحَقْهُ غُبَارٌ تَفْرَحُ بِهِ نفوسُ أهلِ الحِجابِ .

وإنما كُلُّهُ دِينٌ وِيقينٌ ، ووقوفٌ على جادّةِ السُّنّةِ السَّنيّةِ ، واشتغالٌ بتهديبِ النفوسِ الفاسدةِ والنفوسِ السَّقيمةِ عن طريقِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر ، والتعاونِ على البرِّ والتقوى ، والتباعدِ عن الإثمِ والعدوانِ ، ومعرفةِ قَدْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلّم ، وإعظامِ ما كان عليه ،

والعملِ بِسُنَّتِهِ طلباً لمرضاةِ اللهِ تعالى ، وفناءً بِمُحَبَّةِ رَسُوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
والسَّلَامُ .

وهنا غايةُ الموفقين ، وبغيةُ الصادقين ، وإنَّ اللهَ معَ المتقين ^(١) .

هذه هي طريقَتنا التي سقنا القلوبَ إليها ، وَعَوَّلْنَا فِي المَسِيرِ إِلَى اللهُ
عليها ، وهي طريقَةُ المُتَمَسِّكِينَ ، بِسُنَّةِ سَيِّدِ المرسلينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ .

قال السَّيِّدُ الإِمَامُ الكَبِيرُ أَحْمَدُ الرَّفَاعِيُّ الحَسِينِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

« السُّنَّةُ المَحْمَدِيَّةُ . رُوحُ العارِفِ ، بها يَقُومُ ، وبِهَا يَقَعُدُ ، وهي مَنْارُ
ألبابِ العارفينَ ؛ فَإِنَّ مُسَيِّدَ أركانِها ، وَرافِعَ بُنيانِها - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
لم يَنْطِقْ عَنِ الهوى ، بل هو جَلَجَلَةٌ ^(٢) : ﴿ مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ . . .

وقال لولِدِ بنتِهِ المُقَرَّبِ ، أَبِي إِسْحاقَ السَّيِّدِ إبراهيمَ الأَعزَبِ ، الرَّفَاعِيُّ
قَدَسَ اللهُ سِرَّهُ العَزِيزَ :

ما أَخَذَ جَدُّكَ طريقاً لَهِ اللهُ إِلاَّ أَتَباعُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَإِنَّ مَنْ
صَحَّحَتْ صُحْبَتُهُ مَعَ سِرِّ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . أَتَبَعَ آدابَهُ وَأَخلاقَهُ
وَشَريعَتَهُ وَسُنَّتَهُ .

(١) « رُفوفُ العَنايَةِ » ص (١٣٢ - ١٣٣) ، طَبَعَةُ شَيوخِنا الإِمَامِ الوالِدِ المَاجِدِ ،
قَدَسَ اللهُ رُوحَهُ .

(٢) الجَلَجَلَةُ : التَحريكُ وَشِدَّةُ الصَوْتِ ، « قاموس » ٣ : ٣٦١ ، مَادَةٌ :
« جَل » .

وَمَنْ سَقَطَ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ . . فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهَالِكِينَ « (١) .

وقال الحافظُ الرفاعيُّ الثاني السيّدُ الرّوّاسُ - رضي اللهُ عنه - في كتابه
« رُفْرُفُ الْعِنَايَةِ » (٢) . . ما نصّه :

« وقد رأى العارِفون في أقطارِ مُلْكِ اللهِ : أنَّ العملَ بالسُّنَّةِ . . هو السَّبَبُ
الأعظمُ لهبوطِ العِلْمِ اللدُنِّيِّ إلى قلوبِهِمْ ، وبه يعلمون أسرارَ الكتابِ العزيزِ .
فكانَّ السُّنَّةُ السُّنَّةَ السُّنِّيَّةَ بَمَنْزِلَةِ الْمِفْتَاحِ لِلْكَتْرِ الْفِرْقَانِي ، بِهَا يُلْهَمُ الْمُوقِفُ
مَوْعِظَةً وَذِكْرَى مِنْ حُكْمِ النَّصِّ .

وَلَا يَبْصِحُ لَهُ الْأَخْذُ بِمَا يَعْظُهُ بِهِ قَلْبُهُ ، أَوْ يُذَكِّرُهُ بِهِ إِلَّا إِذَا عَرَضَ ذَلِكَ عَلَى
السُّنَّةِ ؛ إِذْ هِيَ الْمُفَسِّرَةُ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى ، وَالْمُتَرْجِمَةُ لِأَسْرَارِهِ .

ومنها جرت ينابيع الحكمة إلى قلوب أهل الصفاء ، الذين علّمهم نبيهم
- صلى اللهُ عليه وسلّم - حُكْمَ الْإِخْلَاصِ ، وَحِلَاةَ الْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ
تَعَالَى ، وَأَصْلَتَهُمْ بِيَدِ قَدْرَتِهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ سُيُوفاً مُهَنْدَةً قَاضِيَةً بِمَا
قَضَى اللهُ ، مُرِيدَةً لِمَا أَرَادَهُ ، حُجَجاً عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا هُمْ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِهِ ،
الْعَامِلُونَ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

وقال سبطُ الشَّجَّادِ ، مولانا الجَدُّ السيّدُ عزُّ الدِّينِ أحمدُ الصيادُ دفينُ
متكين - رضي اللهُ عنه - في كتابه الماتعِ « المعارفُ المحمدية في الوظائفِ
الأحمدية » (٣) . . ما نصّه :

(١) « رُفْرُفُ الْعِنَايَةِ » ص (١٣٩ - ١٤٠) .

(٢) ص (١١٣ - ١١٤) .

(٣) ص (٤١ و ٦٨) .

« وكان - رضي الله عنه - يأمرُ بملازمةِ الكتابِ والسُّنَّةِ وأتباعِ آثارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وينهى عن الغُلُوِّ وانتحالِ المُحدَثاتِ ، ويقولُ :
 الغُلُوُّ والشَّطْحُ وما شاكلَهُما . زُنْدَقَةٌ بِشَكْلِ تَصَوُّفٍ ، والحقُّ أبلغُ من
 هذا وهذا ، واللهُ يتولَّى الصَّالِحِينَ .

وكان يقولُ : ما رأينا من عواقبِ أهلِ الغُلُوِّ والشَّطْحِ وأتباعِهِمْ . . . إلَّا
 أَنَّهُمْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا ، وما رأينا من عواقبِ التَّشْرِيعِ . . . إلَّا السَّلامَةَ . . .

وكان - رضي الله عنه - مُقتفياً آثارَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وآثارَ
 أصحابِهِ رضوانُ اللهِ تعالى عليهم ، لا يخرجُ عما كانوا عليه ، ولا عما كانوا
 يعملونه مما وردَ به الكتابُ والسُّنَّةُ .

وكان قصدهُ إحياءَ سُنَّتِهِمْ ، وإقامةَ طريقتِهِمْ ، وإيضاحَ منهاجِهِمْ ،
 ويقتدي بقولِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقال في موضعٍ آخرَ من كتابه^(١) : « وهذه الطَّرِيقَةُ المباركةُ . . . بُنِيَتْ
 على الكتابِ والسُّنَّةِ بالأصولِ والفروعِ ، أسرارُها عجيبةٌ ، وأحوالُها غريبةٌ ،
 وهِمَمُ رِجالِها تَدَكُّدُكُ مِنْها الجبالُ » . انتهى .

وقال الرَّافِعِيُّ الشَّافِعِيُّ في مُختصره « سوادِ العِينِينَ »^(٢) عند ذِكرِهِ . .
 ما مُلَخَّصُهُ :

« قال لي شيخنا سَنَدُ المُحدَثِينَ ، عبدُ السَّمِيعِ الهاشميُّ الواسطيُّ ببغداد

(١) ص (١٢١) .

(٢) ص (٥٩) .

وقد جرى ذِكْرُ السَّيِّدِ أَحْمَدَ ابْنِ الرَّفَاعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

أي عبدَ الكَرِيمِ! كانَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ ، وَمِعْجَزَةً مِنْ مِعْجَزَاتِ رَسُولِ اللهِ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

مَا وَقَعَتْ الْأَبْصَارُ عَلَى نَظِيرِهِ فِي عَصْرِهِ ، قَلَّ فِي السَّلَفِ مِثْلُهُ! وَلَا يُوجَدُ فِي الْخَلْفِ عَدِيلُهُ! .

كَانَ طَرِيقَهُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ، كَانَ فَعَالًا لَا قَوْلًا ، شَرِبَهَا وَحَكَمَ عَلَيْهَا ، قَهَرَ حَالَهُ ، وَغَلَبَ طَوْرَهُ .

كَانَ إِمَامًا ، عَالِمًا ، عَدْلًا ، لَوْ رَأَيْتَهُ . . لَرَأَيْتَ كُلَّ السَّلَفِ :

وَلَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وَقَالَ السَّيِّدُ الصَّيَّادُ فِي « الْمَعَارِفِ » (١) : « حَدَّثَنِي وَالِدَتِي وَسَيِّدَتِي الْبَرَّةُ

التَّقِيَّةُ ، الشَّرِيفَةُ الْفَاطِمِيَّةُ ، أُمُّ الرَّجَالِ ، السَّيِّدَةُ زَيْنُبُ بِنْتُ الْإِمَامِ الْأَكْبَرِ

السَّيِّدِ أَحْمَدَ الرَّفَاعِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - عَنْ أَبِيهَا أَنَّهُ قَالَ لَهَا يَوْمًا :

يَا بِنْتَاهُ! مَنْ حُرِّمَ مَعْرِفَةَ قَدْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . فَلَا سَبِيلَ لَهُ

إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ ، وَلَا إِلَى مَحَبَّتِهِ تَعَالَى .

وَمَنْ ضَلَّ عَنْ طَرِيقِهِ وَسُنَّتِهِ . . فَكُلُّ طَرِيقِهِ ضَلَالٌ .

يَا بِنْتَاهُ! حَدَّثَنِي عَنْ أَبِيكَ أَنَّهُ يَقُولُ : لَوْ بَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - أَمْرَ بَقْصِ الْأَعْنَاقِ . . لَقَصَصْنَاهَا أَمْتِثَالًا لِأَمْرِ الشَّرِيفِ .

ونقلَ عنه «جامعُ البرهان»^(١) ، عليه الرحمة والرضوان : أنه قال :
أطلبوا الله بمتابعةِ رسوله صلى الله عليه وسلم .

إياكم وسلوك طريقِ الله بالنفس والهوى ، فمن سلك الطريقَ بنفسه . .
ضلَّ في أولِ قَدَمٍ . انتهى .

وجاء في «حِكْمِهِ»^(٢) . . ما نصُّه :

«كُلُّ حَقِيقَةٍ خَالَفَتِ الشَّرِيعَةَ . . فَهِيَ زَنْدَقَةٌ .

الشيخ . . مَنْ يُلْزِمُكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ، وَيُبْعِدُكَ عَنِ الْمُحَدَّثَةِ وَالْبِدْعَةِ .

الشيخ . . ظَاهِرُهُ الشَّرْعُ ، وَبَاطِنُهُ الشَّرْعُ .

الطَّرِيقَةُ . . الشَّرِيعَةُ . لَوْثَ هَذِهِ الْخِرْقَةَ كَذَّابٌ ، قَالَ : الْبَاطِنُ غَيْرُ

الظَّاهِرِ ! الْعَارِفُ يَقُولُ : الْبَاطِنُ بَاطِنُ الظَّاهِرِ ، وَجَوْهَرُهُ الْخَالِصُ .

القرآن . . بَحْرُ الْحِكْمِ كُلُّهَا ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْأُذُنُ الْوَاعِيَةُ ؟ . انتهى .

وفي «ترياق المحبين»^(٣) للحافظِ الواسطيِّ ما نصُّه : «وسألتُ ذاتَ

يومٍ من شيخنا إمامِ العلماءِ والمُحَدِّثِينَ ، شيخِ الحُفَّاطِ ، أحمدَ عزِّ الدِّينِ

الفَارُوقِيِّ الواسطيِّ . . عن سببِ ارتفاعِ منزلةِ السيِّدِ أحمدَ على الأولياءِ الذين

اشتهرَ أمرُهُمْ ، وسارَ في الخافقينِ ذكْرُهُمْ ؟ فقال :

لِتَمَكِّنِهِ فِي مَقَامِ الْأَدَبِ الْمُحَمَّدِيِّ ، وَالِاتِّبَاعِ الْمُحَضَّرِ لِلْجَنَابِ النَّبَوِيِّ ،

(١) ص (١٤٥-١٤٦) .

(٢) ص (١٤ و ٢٠-٢١) .

(٣) ص (١١-١٢) .

ولبراءة ساحته من دنس الدعوى والأنانية ، ولترفعه عن وهدة الشطح وبليّة الشكر والتجاوز ، ولسلامته من عيب التبجح ، ولتجرّده من علائق نفسه وعوائقها ، وأنسلاخه من جميع شوائبها كانسلاخ الثوب عن البدن .

أي ولدي! صاحبنا الشيوخ ، ورأينا أصحاب من لم نصاحبهم ، وطالعنا أخبار القوم ، وسيرة السلف ، وميزنا بمحك الشريعة الحق من الباطل ، فما بلغ علمنا ، ولا عرفنا شيئاً بعد الصحابة وأئمة الآل الاثنى عشر أعظم خلقاً ، وأكبر منزلةً ، وأصح أتباعاً للنبي - صلى الله عليه وسلم - من السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه .

ولولا جهل العامة . . لحدّثك عن هذا السيّد العظيم القدير بما يكفل له سمعك ، ويذهل عن تحمّله فهمك ، وتنقطع دون إدراكه حيلتك ؛ فإن الله وهبه من المراتب أعلاها ، ومن المشارب أحلاها ، ومن السلطان أعظمه ، ومن المقام أكرمه ، ومن الحال أكمله ، ومن السلوك أفضله .

وهو المجدد لأمر هذا الدين ، والنائب عن جدّه سيّد المرسلين ، ولولاه . . لانقطعت طريقة الحق في هذه الأعصار ، لانكباب الناس على أقوال أهل الشطح والجُموح والافتخار ، وتباعدهم عن الدلّ والانكسار ، وطريقة النبي المختار ، وآله الأبرار ، وأصحابه الأخيار .

وقد صرنا في زمن كدنا أن لا نسمع به إلا كلمة دخيلة في دين الله ، أو عقيدة مخالفة لأمر الله ، أو سنة سيئة قاطعة عن الله . . لولا تقلب ذكر خلق السيّد أحمد في الأوراق ، والتبرك بسيرة انكساره وما كان عليه من الشأن النبوي الذي عمّ نوره الآفاق ، وسبق به أهل الله على الإطلاق .

فجزاهُ اللهُ عن أُمَّةٍ جَدَّهِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ خَيْرِ الْجَزَاءِ ، وجزاهُ اللهُ عن السُّنَّةِ السُّنِّيَّةِ ، والشريعةِ المحمديَّةِ ، والطريقةِ المرضيَّةِ خيراً « . انتهى .

وجاء في « إرشاد المسلمين »^(١) للعزِّ الفاروئيِّ الحافظِ . . ما يلي :
« وكان طريقُهُ العملَ بالكتابِ والسُّنَّةِ ، وبما كان عليه أصحابُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم .

وكان محمديَّ القَدَمِ والمَشْرَبِ والطَّوْرِ والحَالِ ، لا مُشَدِّداً ، ولا مُوسِعاً ، يسلكُ الطريقَ الوَسَطَ ، ويقول : نحنُ أُمَّةٌ وَسَطٌ » . انتهى .

ونقلَ عنه صاحبُ « الترياق »^(٢) قوله : « طريقنا . . الكتابُ والسُّنَّةُ ، إلَّا أنَّ الفقيرَ على الطريقِ . . ما دامَ على السُّنَّةِ ، فمتى انحرفَ عنها . . ضلَّ عن الطريقِ » . انتهى .

وقال سِبْطَةُ الصِّيَّادُ - رضي اللهُ عنه - في « معارفه »^(٣) . . ما نصُّهُ :

« إنَّ آفاتِ طُرُقِ الصُّوفِيَّةِ أربعةٌ : القولُ بالوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ ، والسَّطْحُ ، والغُلُوُّ ، والبَطَالَةُ ، تعزُّزاً بالشيوخِ .

وقد صانَ اللهُ طريقَةَ هذا السَيِّدِ الأيِّدِ من هذه الآفاتِ الأربعةِ ؛ لأنَّه هَدَمَ جِدَارَ الوَحْدَةِ ، وأحكَمَ منزلةَ العبدِيَّةِ ، وطَمَسَ هيكلَ السَّطْحِ ، وتمكَّنَ في مقامِ العبودِيَّةِ ، وأوضحَ الحدودَ ، فهشَمَ وَجْهَ الغُلُوِّ ، وساقَ إلى العملِ الصَّالِحِ بحالِهِ وفعالِهِ وأقوالِهِ ، وأوقفَ بِسَرِّيَّانِ أنكسارِهِ وعزمِ عزمِيَّتِهِ وتمكُّنِهِ

(١) ص (٤١) .

(٢) ص (١٠) .

(٣) ص (٦٤) .

بِعَبْدِيَّتِهِ سَيَّرَ نَفُوسِ أَتْبَاعِهِ عَنِ الْجُمُوحِ إِلَى الشَّطْحِ وَالْعُلُوِّ وَالْبَطَالَةِ وَأَعْتَقَادِ
الْوَحْدَةِ .

فَأَمِنُوا بِبِرْكَتِهِ مِنْ دَاهِيَةِ الزَّيْغِ وَالْفَسَادِ وَسُوءِ الِاعْتِقَادِ .

وَأَخَذَ بِأَزْمَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَحَبَالَ هِمَمِهِمْ إِلَى التَّمَسُّكِ بِالشَّرْعِ الطَّاهِرِ ، فِي
الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، فَمَا فَرَّقُوا بَيْنَ ظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ وَبَاطِنِ الْحَقِيقَةِ ، وَلَا خَافُوا
غَيْرَ اللَّهِ ، وَلَا سَأَلُوا إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا عَوَّلُوا عَلَى طَرِيقِ سِوَى طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ،
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَصَارُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ، وَأَنْصَارَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى .

وقال العلامة السيد محمود الألويسي - رحمه الله تعالى - في كتابه
« الأسرار الإلهية »^(١) . . ما هو بحروفه :

« ولم نسمع عن السيد الرفاعي - قدس سره العالی - أنه صدر منه
ما يقتضي الدلال كما صدر من غيره .

بل لم يزل - رضي الله تعالى عنه - قائماً على ساق العبودية والدل ، مع
كمال الأدب الذي هو مبنى الطريق الموصل إلى الرب .

بل ولا نُقِلَ عنه الشَّطْحُ ؛ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ : عَنْ كَلِمَةٍ عَلَيْهَا رَائِحَةُ
رِعُونَةٍ وَدَعْوَى ، يُفْصَحُ بِهَا الْعَارِفُ مِنْ غَيْرِ إِذْنِ إلهي ، وَهُوَ مِنْ زَلَّاتِ
الْمُحَقِّقِينَ . انتهى .

وقال العزُّ الحافظُ الفارُّوثيُّ في « النفحة المسكية »^(١) :

« قال شيخُ أساتذتنا الشيخُ مكِّيُّ الواسطيُّ : نِمْتُ مع السيِّدِ أحمدَ الرِّفَاعِيِّ ليلةً في أمِّ عَيْبِدَةَ ، فأحصيتُ له أربعينَ خَصْلَةً من خِصَالِ المصطفى صلى اللهُ عليه وسلَّم^(٢) ، وهذا الذي أدركتُهُ من ظاهرِ أحوالِهِ ، فكيفَ يباطِنها !؟ » . انتهى .

نَشَاطَةُ العِلْمِيِّ :

قال سِبْطَةُ السيِّدُ الصِّيَّادُ - رضي اللهُ عنه - في « المعارفِ »^(٣) :

« ثُمَّ بَرَعَ واشتَهَرَ وَمَهَرَ ، وانتهتُ إليه رِياسَةُ وقتِهِ : عِلْمًا وَعَمَلًا ، وتمكَّنًا وفضلًا ، ولم يكن في زمنِهِ مثلهُ .
وبلَّغَتْ مُريدوهُ الشرقَ إلى الغايةِ منه ، والغربَ إلى الغايةِ منه ،
والجنوبَ والشَّمالَ إلى غايَتِهِمَا .

وما بقيَ من بلادِ المُسلمين المعمورةِ ، وديارِها المسكونةِ قَطْرًا أو محلًّا^٤
يخلو رُبْعُهُ من أتباعِهِ وأصحابِهِ ورجالِهِ العارفين .

واتَّسعَ أمرُ إرشادِهِ ، وصارتُ دارُهُ كعبةَ السَّالِكينَ ، وصارَ رِواقُهُ أربعةَ
آلافِ قنطرةٍ ، وبنائُهُ أربعَ حِلِّي ، كُلُّ حَلْقَةٍ تَضُمُّها حَلْقَةٌ أُخرى ، بينَ ساريةِ
القنطرةِ والسَّاريةِ الثانيةِ . . ثلاثةَ أذْرُعٍ بالبغدادي ، ومنَ فَمِ القنطرةِ إلى

(١) ص (٩٥) .

(٢) أقول : هي خِصَالُ لَيْلِيَّةٍ .

(٣) ص (٥٨) .

صدرها . . أربعة أذرع بالبغدادي ، وبين الحلقة الأولى والثانية . . سبع وعشرون ذراعاً بالبغدادي ، وبين الثانية والثالثة . . ثلاثون ذراعاً ، وبين الثالثة والرابعة . . عشرون ذراعاً .

وراء ظهر القبة السعيدة بستان الرواق ، المدعو بستان الشيخ يحيى النجاري ، يأخذ إلى بستان القنوري طولاً ، ولذيل نهر الرواق عرضاً .

وفيه كل ما وصل من الجهات أو يصل منها من أنواع الفواكه .

ويجمع الرواق المبارك المذكور كل يوم أكثر من عشرين ألفاً من الناس ، ويمد لهم السَّمَطُ صباحاً ومساءً .

وما رؤي يوماً مغسباً ولا مغضباً ، بل كان مع كل هذه الوُسعة لا يملك شيئاً من عرض الدنيا . انتهى .

وقال الرفاعي في مختصره « سواد العينين »^(١) عند ذكر نشاطه العلمي . . ما لفظه :

« أخبرني الفقيه العالم الكبير ، بقیة الصالحين ، أبو زكريا ، يحيى بن الشيخ الصالح يوسف العسقلاني الحنبلي ، قال :

كنت في أم عبيدة زائراً عند السيد أحمد الرفاعي ، وفي رواقه وحوله من الزائرين أكثر من مئة ألف إنسان ! .

فيهم الأمراء والعلماء والشيوخ والعامّة ، وقد احتفل بإطعامهم وإكرامهم وحسن البشر لهم كل على حاله .

وكان يصعد الكرسي بعد الظهر فيعظ الناس ، والناس حلقاً حلقاً حوله .

فصعد الكرسي ظهر خميس ، وفي مجلسه وعظ واسط ، وجم غفير من علماء العراق وأكابر القوم .

فبادره قوم بأسئلة من التفسير ، وآخرون بأسئلة من الحديث ، وجماعة من الفقه ، وجماعة من الخلاف^(١) ، وجماعة من الأصول ، وجماعة من علوم آخر .

فأجاب عن متي سؤال من علوم شتى ، ولم يتغير حاله حال الجواب ، ولا ظهر عليه أثر الحدة .

فأخذتني الغيرة من سائليه ! فقلت : أما كفأكم هذا ؟! والله لو سألتموه عن كل علم دون . . لأجابكم بإذن الله بلا تكلف .

فتبسّم وقال : دعهم يا أبا زكريا ! فليسألوني قبل أن يفقدوني ؛ فإن الدنيا زوال ، والله محوّل الأحوال .

فبكى الناس ، وتلاطم المجلس بأهله ، وعلا الضجيج ، ومات في المجلس خمس رجال ، وأسلم من الصابئين والنصارى واليهود ثمانية آلاف رجل أو أكثر ، وتاب أربعون ألف رجل .

فبعد أن صلى صلاة العصر بالناس ، قام ابن جرادة الواسطي ، ووقف تجاهه ، وقال مرتجلاً :

(١) أي : الفقه المقارن .

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ النَّذْبُ الَّذِي شَهِدْتَ لَهُ الْمَآئِرُ وَالْأَفْعَالُ بِالشَّرَفِ
خَلَقْتَ جَدَّكَ خَيْرَ الْخَلْقِ بِالْخُلُقِ الـ
وَأَنْتَ مُعْجِزَةٌ يَا بِنَّ الرَّسُولِ لَهُ
عَالِي، فَأَنْعِمِ بِذَلِكَ السَّبْقِ وَالْخَلْفِ!
فَأَفْخِرْ غَدًا يَا أَخَا الْعَلِيَّا لَدَى السَّلْفِ!

فبكى - رضي الله عنه - وقال :

يَا نَفْسُ جِدِّي وَخَلِّي الكَذْبَ وَأَنْصِرِي
عَنِ الْغُرُورِ وَظَنَّ الْمُخْلِصِ الْبَالِ
رَأَيْكَ أَحْسَنَ مِنْهُ فَأَنْشَى بِنَا
عَلَيْكَ ، وَاللهُ أَدْرَى مِنْهُ بِالحَالِ



فقال ابن جرادة أيضاً :

نَفْسُ زَكَتْ وَذَكَتْ فِي النَّاسِ سَيْرُهَا^(١) وَأَعْرَضَتْ عَنِ صُنُوفِ الْقَيْلِ وَالْقَالِ
طَابَتْ بِنَفْحَةِ سِرِّ الْكُونِ وَالذُّهَا وَلَقَنْتَ حَالَهُ الْعَالِي مِنَ الْخَالِ
لَهَا مِنَ اللَّهِ حِفْظٌ لَا دِفَاعَ لَهُ طَهَارَةٌ خُصِّصَتْ بِالنَّصْرِ لِلالِ

فَدَعَا لابن جرادة بخير ، ودعا لأهل المجلس وللمسلمين ، وأمن على
دُعَائِهِ الحَاضِرُونَ . انتهى .

(١) زَكَتْ : أي : صَلَحَتْ ، « مصباح » ص (٢٥٤) ، مادة : « زكا » .

وَذَكَتْ : أي : غَدَّتْ ذَكِيَّةً ، « لسان » ٦ : ٣٨ ، مادة : « ذكا » .

وقال سِبْطُهُ السَّيِّدُ الصَّيَّادُ فِي « معارفه »^(١) عِنْدَ ذِكْرِ نَشَاطِهِ الْعِلْمِيِّ . .
ما نَصَّهُ :

« وكان الشيخُ جمالُ الدِّينِ الخطيبُ الحدَّادِيُّ يقولُ : انتهت نوبةُ
الفضائلِ للسَّيِّدِ أحمدَ الرَّفَاعِيِّ - رضي اللهُ عنه - في عصره .

وكان إذا جلسَ للدَّرْسِ على كُرْسِيِّهِ . . تُحِيطُ به أئمةُ العلماءِ ، وفحولُ
الفضلاءِ ، وصُنُوفُ أهلِ المعارفِ والعلومِ .

فإذا ابتدرَ الكلامَ . . أحرصَ المُتكلِّمينَ ، وأبْهَتَ الجاحدينَ ، وحَيْرَ
العارفينَ ، وأرقصَ السَّالِكِينَ ، وأبكى الخاشعينَ ، وأذهَلَ المُتمكِّنينَ ،
وأتى بجوامعِ الكَلِمِ وراثَةً من جَدِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وبَرَزَ لِجُلَّاسِهِ
بِكُلِّ فَنٍّ .

فالأدباءُ تأخذُ نصيبَها من فصاحتِهِ ، والعلماءُ من معارفِهِ ، والفلاسفةُ من
تحقيقِهِ ، والمتكلِّمونَ من تبيانهِ ، والبُلغاءُ من رقائقِهِ ، والأولياءُ من
حقائقِهِ ، والعقلاءُ من حِكْمِهِ ، والفقراءُ من أدبهِ ، والصُّلحاءُ من مواعظِهِ ،
وكُلُّهُمْ في حَيْرَةٍ منه ، لِمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِهِ من عظيمِ مواهبِهِ .

ليسَ على وجهِ الأرضِ في هذا العصرِ مِنْ مجلسٍ في عِلْمِ الحَقِيقَةِ ،
معمورِ الأطرافِ بلبابِ الشريعةِ ، يُرَدُّ به الشَّارِدُ ، وتحصُلُ به الفوائدُ ،
وتطيرُ به القلوبُ إلى علامِ الغيوبِ ، لا علُوٌّ فيه ولا علُوٌّ ، ولا تُشَمُّ منه
رائحةُ الدَّعْوَى . . إلا مجلسَ السَّيِّدِ أحمدَ الرَّفَاعِيِّ رضي اللهُ عنه .

فإنه مدرسة للعلماء ، ورباط للفقراء ، ورياضة للسالكين ، ومحجة للعارفين ، ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ . انتهى .

وقال العزُّ الحافظُ الفارُّوثيُّ في « إرشاده »^(١) : « أخبرني والذي - قدسَ اللهُ سرَّهُ وروحهُ - : أنَّ ليلةَ مُحيَّا السيِّدِ أحمدَ بكلِّ ليلةٍ جُمعةٍ ينعقدُ ، ويجمعُ ميعادُ المُحيَّا المباركِ أكثرَ من مئةِ ألفِ إنسانٍ ، يضربون الأُخبيةَ والخيامَ في صحارىِّ أمِّ عبيدةَ .

ورواقهُ الشريفُ يجمعُ كلَّ يومٍ أكثرَ من عشرين ألفَ مُريدٍ ، ويُمَدُّ لهم السَّماطُ صباحاً ومساءً ، ويقومُ بكفايةِ الزائرينَ جميعاً بعونِ اللهِ .

وكانت أُملاكهُ وأحباسُ رواقهِ الشريفِ أكثرَ من أملاكِ الأُمراءِ والملوكِ ، وكلُّ ما يحصلُ منها يُنفقُ في سبيلِ اللهِ تعالى على فقراءِ الرِّواقِ ووارديه من المسلمين ، وهو وأولادُهُ وعيالُهُ لا يملكون شيئاً من عَرَضِ الدُّنيا ، وهم كأحادٍ فقراءِ الرِّواقِ » . انتهى ، وتمامهُ فيه .

وقال - أيضاً - في « إرشاده »^(٢) : « حدَّثنا شيخنا الوالدُ محيي الدِّين إبراهيم ، عن أبيه أبي الفرجِ عمرَ الفارُّوثيِّ قدسَ اللهُ رُوحَيهما .

وحَدَّثَ الشيخُ الكبيرُ الإمامُ أبو المظفرِ ، عن أبيه الشيخِ العارفِ عليِّ بنِ نعيمِ البغداديِّ الحنبليِّ .

وأخبرنا الشيخُ عبدُ الرحيمِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ جعفرِ الحداديِّ .

(١) ص (٣٩) .

(٢) ص (٤٩) .

وأخبرنا الشيخ عبد الله بن مكي ، عن الشيخ الجليل تقي الدين الفقيه ، المعروف بـ الفقير - بالتصغير - النهر وندى .

وأخبرنا الشيخ الصالح الحجة أحمد بن محمد الغزواني ، عن شيخه الشيخ عبد الملك بن حماد الموصلي قدس سره .

وأبانا الشيخ أبو السعود الغزالي ، عن الشيخ العظيم القدر أبي شجاع الفقيه ، كل يروي بمعنى واحد والفاظ قليلة التباين :

أن مُريدي السيد أحمد الرفاعي الذين بايعوه في الله بيده المباركة . . بلغوا عام وفاته إلى أربع وعشرين مئة ألف وزيادة .

وأن خلفاءه وخلفاءهم بلغوا إلى مئة وثمانين ألفاً .

وزاد جدّي أبو الفرج عمر الفاروئي طاب ثراه ، والشيخ الجمال الخطيب - عطر مرقدهما - وهما من أخص أصحابه ، وكلاهما ثقة وعمدة : أن الذين أسلموا على يديه - رضي الله عنه - من اليهود والنصارى والصابئين والخوارج المتزندقين . . أكثر من مئة ألف ، يُعرفون أكثرهم بأسمائهم وأشخاصهم .

وأن وزده الخاص بأصحاب الحضور فيه خمسة آلاف ، والحلق الحافلة في أروقة الرباط تجمع ستة عشر ألفاً .

ولم يكن في بلاد المسلمين وأرضها المسكونة في العرب والعجم ناحية تخلو من أتباعه ومريديه ومحبيه ، رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

قلت : وقد جدّد الله به وبأصحابه أمر الدين ، وأيد بهم شريعة سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم .

وهل يمكن أن يكون التجديد فوق ما ذُكر من حاله ، وما وَفَّقَهُ اللهُ له ،
 نفعنا اللهُ بعلومِهِ ومَدَدِهِ والمسلمين ، وفيه أقول :

لَكَ فِي صُنُوفِ الْعَارِفِينَ لِوَاءُ هُمْ تَحْتَهُ وَالسَّالِكُونَ سَوَاءُ
 يَا أَحْمَدَ الْأَقْطَابِ يَا مَنْ فَضْلُهُ كَالشَّمْسِ حَاشَا يَغْتَرِيهِ خَفَاءُ!
 أَنْتَ الرَّفَاعِيُّ الْإِمَامُ الْمُرْتَجَى إِنَّ مَسَّ حِينًا غُصَّةٌ دَهْمَاءُ
 لِلأَوْلِيَاءِ مَنَاقِبٌ ، وَيَكُلُّهَا لَكَ فِي النَّهَائَاتِ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ
 جَدَّدْتَ سُنَّةَ أَحْمَدٍ بِطَرِيقَةٍ هِيَ فِي السُّلُوكِ مَحَجَّةٌ بَيْضَاءُ
 يَا بَنَ النَّبِيِّ وَيَا أَبَا الْهَمَمِ النَّبِيِّ شَهَدْتَ بِبَاهِرِ طَوْلِهَا الْأَعْدَاءُ
 بِكَ لِلطَّرِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ مَفْخَرٌ بِهِجٌ ، عَلَيْهِ مِنَ الْجَلَالِ رِذَاءُ
 وَلَأَنْتَ شَيْخُ الْأَوْلِيَاءِ وَتَاجُهُمْ وَالأَوْلِيَاءُ لِبَعْضِهِمْ أَكْفَاءُ «

شُيُوخُهُ :

١- الشيخُ الْوَرَعُ الْمُقْرِيُّ الصَّالِحُ عَبْدُ السَّمِيعِ الْحَرَبِيُّ .

قرأ عليه القرآن ، وأكملهُ حِفْظاً وترتيلاً بقريّة حَسَن .

٢- الشيخُ الْفَقِيهُ الْعَلَمَةُ الْمُقْرِيُّ الْمُفَسِّرُ الْوَاعِظُ الْمُحَدِّثُ الرَّحْلَةُ

الصُّوفِيُّ الْكَبِيرُ الشَّانِ ، عَلِيٌّ أَبُو الْفَضْلِ الْوَاسِطِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،

(ت ٥٣٩ هـ) .

قرأ عليه ، وقام بتربيته وتأديبه وتعليمه امتثالاً للأمرِ النَّبَوِيِّ .

٣- الشيخ الكبير أبو بكر الواسطي ، خاله ومعلمه ، وأخو الشيخ منصور .

٤- الولي الجليل ، العارف الكبير الأصيل ، البارز الأشهب ، الثرياق المجرَّب ، السيّد الشيخ منصور بن الشيخ يحيى النجاري الأنصاري ، رضي الله عنه ، (ت ٥٤٠ هـ) .

تربّي بتربيته ، وتخرّج بصحبته ، ولم يغفل عن ملاحظته وإصلاح أمره ساعة قطّ أديباً مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم .

وأخذ علوم الشريعة وتفقه عن جماعة من أعيان الواسطيين^(١) .

خُلَفَاؤُهُ :

قال سبطه السيّد الصياد في « المعارف »^(٢) عند ذكر خُلَفَائِهِ . ما نصّه :

« انتهت إليه مكارم الأخلاق ، وبلغت عدّة خُلَفَائِهِ وخُلَفَائِهِمْ في حياته

مئة وثمانين ألفاً ، منهم :

١- الشيخ عبد الله أبو الحسن البغدادي ، ٢- والشيخ فضل البطائحي ،

٣- والشيخ يوسف الحسيني السمرقندي ، ٤- والشيخ أبو حامد علي بن نعيم

البغدادي ، ٥- والشيخ حياة بن قيس الحراني ، ٦- والشيخ عمر الهروي

الأنصاري ، ٧- والشيخ أبو شجاع الفقيه الشافعي ، ٨- والشيخ عمر

(١) « المعارف المحمدية » ص (٣١) ، و « إرشاد المسلمين » ص (٣١) ، و

« ثرياق المحبين » ص (٥) .

(٢) ص (٣٥) .

الفَارُوثِيُّ ، ٩- والشيخُ جمالُ الدِّينِ الخطيبُ الحداديُّ ، وَخُلِّصَ العَصْرِ ،
رضي اللهُ عَنْهُم « . انتهى .

قلتُ : ومنُ خُلَفَائِهِ أيضاً . . سِبْطَةُ السَّيِّدِ الصَّيَّادُ ؛ فإنه قال في
« معارفه »^(١) :

« وَمِنْ مَنِ اللهُ عَلَيَّ ، وَلُطْفِهِ فِيَّ : أَنِّي وُلِدْتُ قَبْلَ وَفَاتِهِ - أَي : وفاةِ
جَدِّهِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ - رضي اللهُ عنه بأربعِ سنينَ ، وحملني والدي إلى حضرتهِ
المُبَارَكَةِ .

فأخذني إلى حجْرِهِ ، ونَفَخَ في فَمِي ، ودَعَا لي بالبركةِ ، وبشَّرَ والدي
فيَّ بما هو معروفٌ عندَ رجالِ هذه الطائفةِ المُبارَكَةِ ، وأجازني وأنا ابنُ أربعِ
سنينَ إجازةً عامَّةً ، وأوصى أخِي السَّيِّدَ أبا الحَسَنِ عبدَ المحسنِ بإكمالي
وتربيتي ، وأمرَ والدي - أيضاً - بإجازتي ، فأجازني ، وَنَلْتُ مِنْ عوارِفِهِ
ومعارِفِهِ . . ما شَرَّفَنِي اللهُ بهِ بينَ القومِ ، وأكملَ لي أمْرِي « . انتهى .

أقولُ : ولستُ بصَدَدِ تَعْدَادِ خُلَفَائِهِ الذينَ وقفتُ على مواردِ ذِكْرِهِمْ ؛
فإنَّ لذلكَ موضعاً آخرَ غيرَ هذا المحلِّ .

وقال أبو الحَسَنِ الواسطيُّ في « خلاصته »^(٢) عندَ ذِكْرِ خُلَفَائِهِ . .
ما نصُّهُ :

« ولم يكن في بلادِ المُسلمينَ المعمورةِ مدينةٌ أو بُلَيْدَةٌ أو قَطْرٌ . . تخلو

(١) ص (٣٩) .

(٢) ص (٧٢) .

رُبُوعُهُ مِنْ زَوَايَاهُ وَمُحِبِّيهِ وَتَلَامِذَتِهِ الْعَارِفِينَ الْمَرْضِيِّينَ ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ . . انتهى .

إِجَازَاتُهُ :

قال الرَّافِعِيُّ فِي « سَوَادِ الْعَيْنِينَ »^(١) عِنْدَ ذِكْرِ إِجَازَاتِهِ . . مَا نَصَّهُ :

« حَدَّثَنِي الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو شُجَاعِ الشَّافِعِيِّ فِيمَا رَوَاهُ قَائِلًا :

كَانَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ الرَّافِعِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَمًا شَامَخًا ، وَجِبِلًّا رَاسِخًا ، وَعَالِمًا جَلِيلًا مَحَدَّثًا ، فَفِيهَا مُفَسِّرًا ، ذَا رَوَايَاتٍ عَالِيَاتٍ ، وَإِجَازَاتٍ رَفِيعَاتٍ . . انتهى .

وَقَالَ الْعِزُّ الْحَافِظُ الْفَارُوقِيُّ فِي « إِرْشَادِهِ »^(٢) : « أَجَازَهُ شَيْخُهُ عَلِيُّ أَبُو الْفَضْلِ مُحَدَّثٌ وَاسِطٌ وَشَيْخُهَا إِجَازَةٌ عَامَّةٌ بِجَمِيعِ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ ، وَالْبَسَةُ خِرْقَتُهُ الْمُبَارَكَةُ ، وَنَوَّةٌ بِذِكْرِهِ ، وَأَعْظَمَ شَأْنُهُ ، وَلَقَّبَهُ بِأَبِي الْعَلَمَيْنِ لِإِشَارَةِ سَمَاوِيَّةٍ ظَهَرَتْ لَهُ ، فَهَمَّ مِنْهَا أَنَّهُ قَائِدُ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، وَبَابُ النِّجَاحِ فِي أَمْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » . انتهى .

وَقَالَ الْعِزُّ - أَيْضًا - فِي « النِّفْحَةِ الْمَسْكِيَّةِ »^(٣) : « وَهُوَ لَبَسَ الْخِرْقَةَ ، وَأَخَذَ الْعَهْدَ وَالطَّرِيقَةَ مِنْ شَيْخِهِ الشَّيْخِ عَلِيِّ الْوَاسِطِيِّ الْقَارِيِّ .

وَهُوَ لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ كَامَخَ ، وَهُوَ لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ

(١) ص (٥٥) .

(٢) ص (٣١) .

(٣) ص (٢٦٩ - ٢٧٢) ، هِيَ ضَمِنَ كِتَابِنَا « الرَّشْحَاتِ الْحَسَنِيَّةِ عَلَى النِّفْحَةِ

غُلامِ بنِ تَرْكَانَ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ الرَّؤُودِبَارِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ عَلِيِّ الْعَجْمِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ أَبِي بَكْرٍ الشُّبْلِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ أَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ .

وهو لَبَسَهَا مِنْ خَالِهِ الشَّيْخِ سَرِيِّ السَّقَطِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ دَاوُدَ الطَّائِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ حَبِيبِ الْعَجْمِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ أَبِي سَعِيدِ سَيِّدِنَا الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ .

وهو لَبَسَهَا مِنْ زَوْجِ الْبَتُولِ ، وَابْنِ عَمِّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

وهو لَبَسَهَا مِنَ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ ، وَالرَّسُولِ الْمُكْرَمِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَمِنْ طَرِيقِ آخَرَ . أَخَذَ سَيِّدُنَا السَّيِّدُ أَحْمَدُ الرَّفَاعِيُّ الْكَبِيرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الطَّرِيقَةَ ، وَلَبَسَ الْخِرْقَةَ مِنْ يَدِ خَالِهِ شَيْخِ الشُّيُوخِ ، صَاحِبِ الْفَتْحِ الصَّمْدَانِيِّ ، سَيِّدِنَا مَنْصُورِ الْبَطَائِحِيِّ الرَّبَّانِيِّ .

وهو لَبَسَهَا مِنْ خَالِهِ سَيِّدِنَا الشَّيْخِ أَبِي الْمَنْصُورِ الطَّيِّبِ ، وهو لَبَسَهَا مِنْ ابْنِ عَمِّهِ الشَّيْخِ أَبِي سَعِيدِ يَحْيَى النُّجَارِيِّ الْأَنْصَارِيِّ .

وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ أَبِي الْقُرْمُزِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ أَبِي الْقَاسِمِ الشُّنْدُوسِيِّ الْكَبِيرِ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدِ رُوَيْمِ الْبَغْدَادِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ تَاجِ الْعَارِفِينَ أَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ الْبَغْدَادِيِّ .

وهو لَبَسَهَا مِنْ خَالِهِ الشَّيْخِ سَرِيِّ السَّقَطِيِّ ، وهو لَبَسَهَا مِنَ الشَّيْخِ

معروف الكرخي ، وهو لبسها من إمام الزمان ، وحجة أهل العرفان ، الإمام ابن الإمام علي الرضا .

وهو لبسها من أبيه نور حذقة العناية والإمامة ، ونور حذقة الولاية والكرامة ، ملجأ الأولياء الأعظم ، الإمام أبي الحسن موسى الكاظم .

وهو لبسها من أبيه صاحب القدم السابق ، الإمام جعفر الصادق ، وهو لبسها من أبيه صاحب السر الطاهر ، الإمام محمد الباقر .

وهو لبسها من أبيه كهف المحتاجين ، وإمام الأفراد ، أبي محمد ، الإمام زين العابدين علي السجاد .

وهو لبسها من أبيه سبط رسول الله ، شهيد كربلاء ، الإمام الحسين أبي عبد الله .

وهو لبسها من أبيه إمام الأئمة ، ومجن هذه الأمة ، صاحب القدر العظيم والشرف الجلي ، أمير المؤمنين الإمام أبي الحسن علي ، رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

وهو لبسها من سيد المرسلين ، وأكرم المخلوقين ، وحبیب رب العالمين ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين ، آمين . انتهى .

عُلُوُّ قَدْرِهِ :

قال في « سواد العينين »^(١) : « .. وانعقد عليه إجماع الطوائف ،

وقال بِتَقْدِيمِهِ عَلَى جَمِيعِ رِجَالِ عَصْرِهِ . . المُوَافِقُ وَالْمُخَالَفُ .

وَأَطْبَقَ عَلَى عُلُوِّ قَدَمِهِ وَرِفْعَةِ رُتْبَتِهِ وَكِرَمِ خُلُقِهِ وَتَرَقُّبِهِ عَنِ مَنزِلَةِ الْقُطَيْبَةِ الْكَبْرَى ، وَالغَوْثِيَّةِ الْعَظْمَى . . جَحَاجِحَةُ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ .
وَاعْتَرَفَ رِجَالُ وَقْتِهِ بِالْعَجْزِ عَنِ دَرْكِ مُنْتَهَاهُ فِي السَّيْرِ ، وَقَالَ بِذَلِكَ الْخَوَاصُّ وَالْعَوَامُّ .

وقال فيه الشيخ منصور : وَزَنَّتُهُ بِجَمِيعِ أَصْحَابِي وَبِي أَيْضاً . . فَرَجَحْنَا جَمِيعاً .

ويكفيك أن من أصحابه : الشيخ حماداً الدَّبَّاسَ البَغْدَادِيَّ ، أَجَلَ أَشْيَاخِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلِيِّ ، وَالشَّيْخِ عَثْمَانَ الْبَطَّانِحِيَّ ، وَالشَّيْخَ خَمِيْساً ، وَالشَّيْخَ مَكِّيًّا الطُّسْتَانِيَّ ، وَأَمْثَالَهُمْ .

وَيُعْجِبُنِي مَا قَالَ فِيهِ الْفَيْرُوزِ الْأَبَادِي مُفْرِدًا :

أَبَا الْعَلَمَيْنِ أَنْتَ الْفَرْدُ ، لَكِنْ إِذَا حُسِبَ الرَّجَالُ . . فَأَنْتَ حِزْبُ ! «

. . أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْإِمَامُ الْحُجَّةُ الْقُدْوَةُ ، عَمْرُ أَبُو حَفْصٍ ، شَهَابُ الدِّينِ الشُّهْرَوَرْدِيُّ ، عَنِ عَمِّهِ الْوَلِيِّ الْعَارِفِ ، شَيْخِ الشُّيُوخِ ، أَبِي النَّجِيبِ ، عَنِ شَيْخِهِ الْإِمَامِ الْهُمَامِ ، الْبَحْرِ الطَّامِّ ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْبَصْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - قَالَ :

كُلُّ الْأَوْلِيَاءِ أَدْرَكْنَا مَقَامَاتِهِمْ وَمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ ، وَعَرَفْنَا مُنْتَهَاهُمْ فِي السَّيْرِ . . إِلَّا السَّيِّدَ أَحْمَدَ الرَّفَاعِيَّ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ مُنْتَهَاهُ فِي السَّيْرِ ، وَإِنَّمَا رِجَالُ عَصْرِنَا عَلَى الْإِطْلَاقِ يَعْرِفُونَ الْوَجْهَةَ الَّتِي اتَّجَهَ إِلَيْهَا ، وَمَنْ أَدْعَى

الوصول إلى مرتبته ، أو الاطلاع على رتبته . فكذبوه .

أي إخواني ! هذا رجل لا يُعرف ولا يُحدِّد ، هذا رجل أنسلخ من علاقتي
بشريتيه وعواقبي نفسه كانسلاخ الثوب عن البدن .

والأولياء في عصرنا هذا ، كبارهم وصغارهم ، المشاركة والمغاربة ،
الأعارب والأعاجم . . عيال عليه ، يستمدون منه ، ويأخذون عنه .

وهو شيخ الكل في الكل ، يسحُّ النوال من حُجرة جدِّه - عليه الصلاة
والسلام - على قلبه ، وهو يقسمه على الرجال في الأرضين .

ولا ينقطع مددُهُ بإذن الله ، والدولة له ولذريته إلى يوم القيامة ، مع طيب
نفس المحبِّ ، ورغم أنف الحاسدِ ، يفعل الله ما يشاء ، لا رادَّ لأمره ،
ولا منازع لحكمه . انتهى .

وقال سبْطُه الفرْدُ الجوادُ ، مولانا الجدُّ السيِّدُ عزُّ الدِّين أحمدُ الصيَّادُ
- رضي الله عنه - في « معارفه »^(١) . . ما هو بحروفه :

« وقال شيخُه الشيخُ عليُّ الواسطيُّ فيه : أرواحُ الأولياءِ تطيرُ إلى
حضراتِ القدسِ بأجنحةٍ مختلفةٍ ، أطولها ريشاً ، وأنهضها عزماً ، وأقربها
مرمىً من سِدْرَةِ الوصلِ . . روحُ السيِّدِ أحمدَ بنِ السيِّدِ أبي الحسنِ عليِّ
الرِّفَاعِيِّ في هذا العصرِ .

ولولا سرُّ الامتثال . . لأخذتُ عنه ، ولا ريباً ! فأنا شيخُه في الصُّورة ،
وهو شيخِي في المعنى .

وقال فيه أيضاً : السَّيِّدُ أَحْمَدُ سَلَكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى طَرِيقاً أَتَعَبَ بِهِ
السَّالِكِينَ ، وَأَقْصَرَ أَلْسُنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَأَخْرَسَ فِي دِيْوَانِ التَّفْتِيشِ الْمُحَمَّدِيَّ
أَهْلَ الدَّعْوَى .

أَذَلَّ نَفْسَهُ فَعَزَّ ، وَأَخْرَهَا فَتَقَدَّمَ ، وَطَمَسَ أُنَانِيَّةَ اسْتِرَاقِ النَّفْسِ السَّمْعِ .
فَصَارَ نُوراً يُسْتَضَاءُ بِهِ ، وَجِبَالاً أَبْلَقَ يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ ^(١) .

وإنه لَوَجِيهُ الْوَجْهِ عِنْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، نَحْنُ أَشْيَاخُهُ
بِالاسْمِ ، وَهُوَ شَيْخُنَا وَشَيْخُ الْوَقْتِ بِالْحُكْمِ .

ومرَّ به يوماً وهو نائمٌ في بعضِ زوايا الرِّوَاقِ ، مُلْتَفٌّ بِإِزَارِهِ ، وَرَأْسُهُ
عَلَى التَّرَابِ ، فَنَادَى : يَا لِلرِّجَالِ !

فَفَزِعَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا : أَي سَيِّدِنَا ! مَا الْخَبْرُ ؟ فَقَالَ :

هَلُمُّوا وَتَفَكَّرُوا وَاعْتَبِرُوا ، إِنِّي رَأَيْتُ طَوَائِفَ الْغُيُوبِ تُظَلُّ هَذَا
الْمُسَجَّجِي ، وَأَعْلَامَ الْحَضْرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مَنْشُورَةً أَثَوَابُهَا فَوْقَهُ ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ
عَلَمٌ ، وَعِنْدَ قَدَمَيْهِ عِلْمٌ آخَرٌ مَسَّ هَلَالٌ كِلَاهُمَا سَطْحَ السَّمَاءِ ، فَغَرَّتْ لِهَذَا ،
فَنُودِيْتُ مِنَ الْعُلَى :

أَنْ تَأَدَّبَ ! هَذَا شَيْخُكَ وَشَيْخُ أَصْحَابِكَ وَشَيْخُ أَهْلِ الْحَضْرَاتِ بَعْدَكَ ،
وَصَاحِبُ الْبِسَاطِ الْأَحْمَدِيِّ الَّذِي لَا يُطْوَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . انتهى .

وقال العزُّ الحافظُ في « إرشاده » ^(٢) : « وقال الشيخ عبد الواحد بن

(١) البَلَقُ : سوادٌ وبياضٌ ، « مختار الصحاح » ص (٦٤) ، مادة : « بلق » .

(٢) ص (٤٧ - ٤٨) .

زيد بن شهاب الدين أحمد الكيسانى رحمه الله :

رأيتُ وليَّ الله الشيخَ أبا مَدِينَ المغربيِّ - رحمه الله - بمكَّةَ حرسَهَا اللهُ ،
فقلتُ : عندنا في العراقِ شيخٌ عظيمٌ من الصُّوفيَّةِ ، شريفُ النَّسَبِ ، اسمهُ
السَّيِّدُ أحمدُ الرَّفَاعِيُّ ، هل سمعتمُ به في المغربِ ؟ .

فانزعجَ من كلامي وقال لي : سبحان الله! كيف لا وهو إمام
الصُّدِّيِّينَ ، وغوثُ الزَّمانِ ، وَظَلُّهُ على المغربِ والمشرقِ ، وهو سَيِّدُ
الأولياءِ المحمديِّينَ اليومَ ، وكُلُّ وليِّ اللهِ في هذا العصرِ . . مِنْ جُنْدِهِ
وتحتَ رايَّتِهِ .

فقلتُ : أي سيدي! بارك اللهُ بك ، لا تؤاخذني! لم نسمع من فم هذا
السَّيِّدِ الجليلِ كلمةً تُشيرُ إلى ما قلته!

فقال : هذا الرجلُ المتمكِّنُ ، الذي شَرِبَهَا ، وغَلَبَ عليها ، وقهر
أسرارَهُ ، ومَلَكَ أطوارَهُ ، وما أَلَيَقَهُ بمعنى قولِ القائلِ :

وَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِّيْهَا إِلَى مَوْضِعِ الْأَسْرَارِ . . قُلْتُ لَهَا : قِفِي!
مَخَافَةَ أَنْ يَسْطُو عَلَيَّ مُدَامَهَا فَتَظْهَرَ جُلَاسِي عَلَى سِرِّي الْخَفِيِّ

وكان الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ البصريِّ الإمامُ العارفُ باللهِ - رضي اللهُ عنه -
يقولُ :

العصرُ الذي يكونُ فيه السَّيِّدُ أحمدُ الرَّفَاعِيُّ - رضي اللهُ عنه - لا يُلتَجَأُ فيه
إلى غيره .

وهو وَجْهٌ لَا يُخْزِيهِ اللَّهُ فِي أَتْبَاعِهِ أَبَدًا .

وقال الوليُّ الكبيرُ الشيخُ عثمانُ السلمابادي قدسَ اللهُ روحَهُ :
ظَهَرَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ ، وَأَغْلَقَ أَبْوَابَ الصَّالِحِينَ ، وَالدَّوْلَةُ الْغَيْبِيَّةُ لَهُ وَلِذُرِّيَّتِهِ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .

ومرَّ الإمامُ الأكبرُ تاجُ العارفينَ أبو الوفا محمدُ الحسينيُّ - رضي اللهُ عنه -
بِأُمِّ عَيْبِدَةَ ، فَوَقَّفَ عَلَيْهَا قَلِيلًا وَقَالَ :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، سَيَظْهَرُ عَنْ قَرِيبٍ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ السَّعِيدَةِ رَجُلٌ كَرِيمٌ عَلَى
صَحْبِهِ ، عَزِيزٌ عَلَى رَبِّهِ ، تُشَدُّ إِلَيْهِ الرَّحَالُ ، وَتُدْأَلُّ لَهُ رِقَابُ الرِّجَالِ ،
يَتَوَاضَعُ لَهُ كُلُّ صَاحِبِ سَجَّادَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَيُضْرَبُ دَاغُ إِرْشَادِهِ عَلَى
جَبْهَاتِ الدَّرَارِيِّ فِي أَصْلَابِ الْأَبَاءِ .

فقام رجلٌ وقال : أي سيدي ! مَنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، وَمَا أَسْمُهُ ؟ .

فقال له : هو الرَّفَاعِيُّ ، وَأَسْمُهُ أَحْمَدُ ، مَنْ أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، سَيَجِيءُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَيَكْبُرُ ، وَتَرَاهُ أَنْتَ ، وَتَصِيرُ مِنْ
أَصْحَابِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ . . فَبَلِّغْهُ سَلَامِي ، وَسَلِّمْ لِي الدُّعَاءَ .

فَعَاشَ الرَّجُلُ حَتَّى وُلِدَ سَيِّدِي أَحْمَدُ ، وَكَبِرَ ، وَظَهَرَ أَمْرُهُ ، فَذَهَبَ
إِلَيْهِ ، وَبَلِّغْهُ سَلَامَ السَّيِّدِ أَبِي الْوَفَا تَاجِ الْعَارِفِينَ ، وَصَارَ مِنْ خَاصَّةِ أَصْحَابِهِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ . انتهى .

وَنَقَلَ عَنِ الْوَلِيِّ الصَّفِيِّ الشَّيْخِ عَلِيِّ الْهَيْتِيِّ - قَدَسَ اللهُ رُوحَهُ - أَنَّهُ قَالَ :
دَخَلْتُ يَوْمًا مَجْلِسَ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ مَنْصُورِ الْبَطَّانِحِيِّ الرَّبَّانِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،
وَجَرَى بَيْنَنَا حَدِيثُ سَلْبِ الْأَحْوَالِ ، وَكَانَ ابْنُ أُخْتِهِ سَيِّدُنَا السَّيِّدُ أَحْمَدُ

الرِّفَاعِيُّ دُونَ الْعِشْرِينَ جَالِسًا فِي طَرْفِ الْمَجْلِسِ ، فَطَالَ بَيْنَنَا الْكَلَامُ ، وَكُلُّ
تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ .

فَالْتَفَتَ سَيِّدِي مَنْصُورٌ إِلَى السَّيِّدِ أَحْمَدَ وَقَالَ : وَأَنْتَ يَا حَبِيبِي قَل
شَيْئًا ! .

فَقَالَ : حَالٌ يُطْمَسُ بِسَبَبٍ ، وَالْمُسَبَّبُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْفَعَالُ ، وَبَعْدَهُ
فَالسَّالِبُ خَائِفٌ ، وَالْمَسْلُوبُ خَائِفٌ ، وَلَهُ تَعَالَى الْأَمْرُ .

وَإِنِّي أَرَى أَنَّ السَّالِبَ بَعْدَ وَقُوعِ السَّلْبِ عَلَى يَدَيْهِ إِنْ كَانَ عَارِفًا . . لَا بُدَّ
أَنْ يَقُومَ وَيَقْعُدَ خَائِفًا ، وَالْمَسْلُوبَ إِنْ كَانَ مَرْحُومًا . . لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ
وَيَقْعُدَ رَاجِيًا .

فَخَوْفُ السَّالِبِ أَمْنٌ ، وَرَجَى الْمَسْلُوبِ عِنَايَةٌ ، وَفِي الْكُلِّ الْقُوَّةُ وَالْقُدْرَةُ
وَالْفِعْلُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

فَبَكَى الشَّيْخُ مَنْصُورٌ ، وَدَارَ فِي الْمَجْلِسِ حَالٌ عَظِيمٌ ، وَعَلِمْنَا أَنَّ هَذَا
الْكَلَامَ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ قَلْبِ أَيْدِهِ اللَّهُ بِالْعِنَايَةِ الْخَاصَّةِ ، وَقَدَّمَ صَاحِبَهُ - وَهُوَ
صَغِيرُ السِّنِّ - عَلَى الْمَشَايِخِ مِنْ كِبَارِ أَهْلِ الْخِصَائِصِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَعَنْهُمْ . . انتهى .

نُصْحَةُ لِلْأَمْرَاءِ وَالْمُلُوكِ

قَالَ الْعَزُّ الْحَافِظُ فِي « إِرْشَادِهِ »^(١) . . مَا نَصَّه : « فِي سَنَةِ سَبْعِ
وَخَمْسِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ . . وَجَّهَ الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَنْجِدُ بِاللَّهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -

حاجبه نصر بن عماد إلى أم عبيدة بكتاب منه إلى سيدنا السيد أحمد رضي الله عنه ، يطلب به منه النصيحة .

ومن جملة ما كتب له : أسألك بالله أن تكثر من النصيحة لي بجوابك ؛ فإنني في حاجة لنصيحتك ، وأي حاجة .

ولا ريب عندي بحصول بركة نصيحتك لي إن شاء الله .

وقال في الكتاب أيضاً : فإنك مهبط الفتح اليوم .

فلما وصل الحاجب . . أمر السيد - رضي الله عنه - خادمه الشيخ علي بن الطري أن يكتب ما يملأ عليه ، فكتب وهو يملأ ، حتى كتب كتاباً طويلاً ، وهو مشهور ومتداول بأيدي الناس . انتهى .

أقول : ذكره العلامة السيد محمد أبو الهدى الصيادي - رحمة الله عليه - في كتابه المانع « الكليات الأحمدية »^(١) ، فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيد خلقه محمد عبده وحببه ومصطفاه .

أما بعد ، من الفقير إلى الله أحمد بن علي أبي الحسن^(٢) ، كان الله له ،

(١) ص (١٧٦ - ١٨٠) .

(٢) أسقط الفاء التي تتعلق بجواب الشرط على تقدير القول ، أي : أما بعد ، فأقول : من الفقير . . إلخ . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :

« أما بعد ، ما بال رجال يشترون شروطاً ليست في كتاب الله » . البخاري (٤٤٤) ، أي : أما بعد ، فأقول : ما بال رجال . انظر « ابن عقيل » ٤ : ٥٢ ، =

إلى الإمام الخليفة المُطاع أمير المؤمنين ، أبي أحمد ، المستنجد بالله العباسي الهاشمي ، أيده الله بما أيده به عباده الصالحين آمين .

وصلنا كتابك الأمر بالنصيحة ، والحديث الشريف :

« الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ »^(١) .

ولولا هذا الحديث . . لَمَا تَصَدَّرْتُ لِنُصْحِكَ ؛ لِأَنَّ نَصِيحَةَ مِثْلِكَ

- بَارَكَ اللهُ بِكَ - لها شرطان :

الإخلاصُ مِنَ النَّاصِحِ ، والقَبُولُ ، بشرطِ العَمَلِ بِالنَّصِيحَةِ مِنْ أَخِيهِ ،

أَيْدِكَ اللهُ بِتَوْفِيقِهِ .

يا أمير المؤمنين ! إن أنت أنفذت أحكام كتاب الله - تعالى وتقدّس - في

نفسك . . نفذت أحكامك في ملكه .

وإن عظمت أمر الله تعالى باتباع رسوله عليه الصلاة والسلام ، واحتفلت

بشأنه الكريم . . عظم الناس أعمالك ، وولاة الأمور من قبلك .

ولا تنظر - يا أمير المؤمنين - لما عليه القياصرة وملوك المجوس من

القوة في ملكهم مع أنسلاخهم وبعدهم عن كل ما ذكرته لك . . فإنهم جهلوا

الحق ، فأبعدهم عنه ، وقرّبهم من الدنيا ، وقرّبها منهم ، وولاهم أمر من

شاء من خلقه .

= فصل : أما ، ولولا ، ولَوْ مَا .

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٤٥٧٤) ، وأبو عوانه ١ : ٣٧ ، والطبراني

(١٢٦١) ، وأبو داود (٤٩٤٤) .

فإن سأسوهم بما تسكنُ إليه أفئدتهم ، وتطمئنُ له طباعهم . . دام أمرهم
في حجابِ دُنْيَاهُمْ ، إلى أن تنقطعَ حبالُ آجالِهِمْ .

وإن لم يسوسوهم بالرِّفْقِ والمُدَاراةِ ، وأوقعوا فيهم ما يُثْقِلُ عليهم . .
سلطهم عليهم ، فسلبَ دُنْيَا قَوْمٍ بقومٍ ، والتأروا مآوى الكافرين .

وأما أنتَ يا أميرَ المؤمنينَ . . فحافظِ ثُغُورِ ، وحارسِ دماءِ وأموالِ ،
هزَّتْ بِكُلِّ مَفَازَاتِهَا سُيُوفُ الإسلامِ ، لا عِلْمًا بقُدُومِكَ بعدَ حينٍ ،
ولا تمهيداً لك لتفعلَ برأيِكَ ، إنما كان ذلكَ اللهُ ولرسولِهِ .

فأفرغْ في كُلِّ أموركِ إلى اللهُ ، وعظّمْ في كُلِّ شؤنِكَ أمرَ رسولِ اللهُ ،
وأنتَ حينئذٍ - في أمانِ اللهُ وظلِّ نبيِّهِ - نافذُ الأمرِ ، ثابتُ السُّلطانِ ، مؤيَّدٌ
بجُنْدِ اللهُ وكلماتِهِ ، و ﴿ لَا بُدَّيْلَ لِمَا كَانَتِ اللهُ ﴾ .

ثمَّ زِنْ - يا أميرَ المؤمنينَ - كُلَّ ما يَصِلُ إلى خُوَيْصَةِ نَفْسِكَ في هذه الدَّارِ
من طعامٍ تأكلُهُ ، وشرابٍ تشربُهُ ، ورداءٍ ترتديه ، وظلٍّ تستظلُّهُ ، وأجعلِ
الشَّرَّةَ على الدُّنْيَا بِقَدْرِ ذلكِ .

وإِيَّاكَ وظَلَمَ العِبَادِ! وإذا اسْتَفَزَكَ الشَّيْطَانُ ، ورام نزعَكَ إلى الظُّلْمِ . .
فسَلِّ نَفْسَكَ أن لو كُنْتَ مسجوناً أو مظلوماً أو مقهوراً أو مكذوباً عليك ،
ما الذي تُريدُهُ لِنَفْسِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ؟ .

وعاملِ الناسَ بما تُريدُهُ لِنَفْسِكَ ؛ فإنَّكَ إن فعلتَ ذلكَ . . وَفَيْتَ العَدَلَ
والآدميَّةَ حقَّهما .

واعلَمْ أنَّ ما أنتَ فيه مِنَ المُلْكِ والدَّوْلَةِ . . شَيْءٌ يسيرٌ مِنْ مُلْكِ اللهُ ،
وأنتَ جُزْءٌ صَغِيرٌ مِنْهُ .

فإن رأيت لك شيئاً ونسيته وقمت تفعل فعل من يزعم مشاركته في ملكه ، فأهملت حقه ، وغدرت خلقه . . يصرف عنك عونهُ ونصرهُ ، ولك فيمن بادِ عيرةً .

ولا تنظر - يا أمير المؤمنين - إلى من صرفهم عن مشغلة الدنيا من أحبابه المقربين إليه ، كبعض الصحابة الذين نازعهم الناس ، وانتزعوا أزيمة الدنيا من أيديهم ؛ لأن أولئك قومٌ اجتذبهم إليه ، وولّى على الناس من يشارِكهم في أعمالهم ، وكلٌّ عن عمله مسؤول ، ﴿ وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

يا أمير المؤمنين! ظلُّك ما أظلك ، ورداؤك ما سترك ، وطعامك ما أشبعك ، ومالك . . ما لك منه شيء ، و ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ، إنَّ ربِّي على ما يشاء قديرٌ .

نعم! أنت خاتم من خواتم القدر ، يُطبعُ على ألواح الصور ، فيرفعُ الله به ويضعُ ، ويصلُّ به ويقطعُ .

فإن أنت لزمْتَ الأدبَ مع الفعّالِ المُطلقِ برعاية حقِّ شرعهِ الذي شرعَ لعبادِهِ . . أثابك وأدارَ مخورَ الوهبِ بك وبأهلك بعدك .

وإن أهملت أمرهُ ، وهتكت سترَ خلقهِ . . دخلت في أعدادِ الظالمين ، ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

يا أمير المؤمنين! أهلُ الفهمِ السليمِ والدُّوقِ الصالحِ . . تجتمعُ همَّتُهُم على الحقِّ ، ويترعرعون في بُخبوحةِ العدلِ والإحسانِ .

فكبيرُهُم وصغيرُهُم ، أميرُهُم وأمورُهُم ، حُرُّهم وعبدُهُم في الدينِ سواءً ، ولكلُّ منهم مقامٌ معلومٌ .

لا تَشِبُّ فِيهِمْ نَارُ الشَّقَاقِ ، ولا يَتَحَكَّمُ فِيهِمْ سُلْطَانُ سُوءِ الْأَخْلَاقِ .
يَحْكُمُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، ولا يَزَالُونَ فِي أَمَانِ اللَّهِ ، ولو أَحْتَالُوا فِي الْحُكْمِ
فَجَعَلُوا لَهُ وَجْهًا فِي الظَّاهِرِ ، وَأَبْطَنُوا البَاطِلَ . . يقولُ لَهُمُ الْحَكَمُ العَدْلُ :
﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

فإذا أَظْهَرُوا البَاطِلَ ، وهَيَّأُوا لَهُ سَبِيلًا شرعيًا ، أَدْخَلْتُهُ غَلْبَتَهُمْ وشَوْكَتَهُمْ
فِي الْحُكْمِ . . قالَ الحقُّ تَعَالَى لَهُمْ :
﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

فإذا أَظْهَرُوا البَاطِلَ ، وَأَتَّحَلُّوا لَهُ سَبِيلًا مِنَ الرَّأْيِ أَسْتَصْغَارًا لِحِكْمَةِ
الشَّرْعِ ، وَتَعَزُّزًا بِالْأَمْرِ ، فَحَكُمُوا بِهِ . . قالَ لَهُمُ الْمُنتَقِمُ الجَبَّارُ :
﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أروِقَةُ الأَعْمَالِ . . لا تُعْمَرُ بِأَيْدِي الخِيَالِ .
ولا يُصَانُ حَيٌّ . . إِلَّا بِمَادَةِ جَامِعَةٍ تُلْصِقُ القُلُوبَ بِبَعْضِهَا ، وَتُدْفَعُ النِّزَاعَ
والتَّفْرِقَةَ .

وما هِيَ - واللهِ ! - إِلَّا الشَّرْعُ العَادِلُ ، وَالسُّنَّةُ المَحْمُودِيَّةُ الصَّالِحَةُ .
وَكُلُّ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ الَّذِي طَبَعَ الطَّبَاعَ ، وَعَلِمَ مَا يَطِيبُ لَهُ ، وَبِهِ يَرْتَاحُ
الضَّعِيفُ لِطَلَبِ حَقِّهِ مِنْ خَصْمِهِ القَوِي .

وَأَنْتَ تَدْرِي - يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّ ابْنَ عَمِّكَ ، إِمَامَ المُسْلِمِينَ عَلِيًّا أَمِيرَ
المُؤْمِنِينَ ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ . . حَدَّثَ عَنْ ابْنِ عَمِّهِ
سَيِّدِ المَخْلُوقِينَ : أَنَّهُ قَالَ :

« لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَمَتِّعٍ »^(١)
والأمرُ واللهِ كذلك .

وعلمت - يا أميرَ المؤمنين - مِنْ سِيرَةِ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الْفَارُوقِ الْجَلِيلِ
رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : أَنَّهُ لَمْ يُرْهَبْ فَارِسَ وَالرُّومَ وَالْمَغْرِبَ وَالصِّينَ وَالْهِنْدَ
وَالْبَرْبَرَ بِفُرْسِ الدِّيَاجِ ، وَبُسْطِ الْحَرِيرِ ، وَكُؤُوسِ الْجَوْهَرِ ، وَالخِيُولِ
الْمُسَوِّمَةِ^(٢) ، وَالْبَيْوتِ الشَّاهِقَةِ ، وَالْأَقْوَاسِ الْمُدْهَبَةِ .

إِنَّمَا أَرْهَبَهُم بِالْعَدْلِ الْمَحْضِ ، وَأَفْحَمَ شُوسَ رَجَالِهِم بِالْحِكْمَةِ
الْبَالِغَةِ^(٣) ، أَلَا وَهِيَ : شَرِيعَةُ نَبِيِّكَ سَيِّدِ الْحِكْمَاءِ ، وَبُرْهَانِ الْعُقَلَاءِ ، وَإِمَامِ
الْأَنْبِيَاءِ ، مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَلْتَعَلَّمْ - أَمْطَرَ اللَّهُ قَلْبَكَ سَحَابَ الْإِلَهَامِ الْمُبَارِكِ وَالتَّوْفِيقِ ، وَأَحْكَمْ أَمْرَكَ
بِالْأَعْوَانِ الصَّالِحِينَ أَهْلِ الْحِكْمَةِ وَالتَّجْدَةِ - :

أَنَّ الْحَقَّ كَمِينٌ تَحْتَ ضُلُوعِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، الْمُحِقُّ مِنْهُمْ وَالْمُبْطِلِ .
فَرَبَّمَا أَعَانَكَ عَبْدُكَ عَلَى بَاطِلِكَ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ انْقِيَاداً لَوْقَتِكَ ، وَأَنْكَرَهُ

(١) رواه الطبراني في « الكبير » ١٩ : ٣٨٥ عن معاوية ، والبيهقي في « السنن
الكبرى » ٦ : ٩٥ عن بُرَيْدَةَ ، وَابْنِ حَبَّانِ بِنَحْوِهِ (٥٠٥٩) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

(٢) يَعْنِي الرَّاعِيَةَ فِي الْمُرُوجِ وَالْمَسَارِحِ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،
« تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ » ٥ : ٥٢ .

(٣) الشُّوسُ : جَمْعُ الْأَشُوسِ ، وَهُوَ الرَّافِعُ رَأْسَهُ تَكَثُّراً . . وَالْجَرِيُّ عَلَى الْقِتَالِ
الشَّدِيدِ ، « لِسَانٌ » ٨ : ١٦٠ - ١٦١ ، مَادَّةُ : « شُوسٌ » .

عليك بِسِرِّهِ ، وَأَضْمَرَ قَلْبُهُ لَكَ بَعْدَهَا الشُّوْءَ .

فَلَا يُزَكِّي ذِكْرَكَ لَدَيْهِ وَلَوْ جَعَلْتَهُ حُرّاً ، ثُمَّ أَكْبَرْتَهُ ، ثُمَّ أَسْتَوَزَرْتَهُ ، بَلْ وَلَوْ
كَانَ أَشَدَّ مِنْكَ بَاطِلاً ، وَهَذَا سِرُّ اللَّهِ الْمُضْمَرُّ فِي الْحَقِّ .

وَأَعْلَمُ - أَي سَيِّدِي - أَنَّ جَيْشَ الْمُلُوكِ .. الْعَدْلُ ، وَحُرَّاسَهُمْ ..
أَعْمَالَهُمْ ، وَدَفَاتِرَ أحوَالِهِمْ .. عُمَالَهُمْ وَأَصْحَابَهُمْ .

وَهَذِهِ الدَّفَاتِرُ فِي أَيْدِي الْعَامَّةِ ، فَأُضْلِحْ دَفْتَرَ أحوَالِكَ ، وَأَحْكِمْ
حِرَاسَتَكَ ، وَأَيْدِ جَيْشِكَ .

وَعَلَيْكَ بِأَهْلِ الْعَقْلِ وَالِدِّينِ ! وَإِيَّاكَ وَأَرْبَابَ الْقِسْوَةِ وَالْغَدْرِ وَالضَّلَالَةِ ،
فَهُمْ أَعْدَاؤُكَ .

وَصُنْ أَمْرَكَ مِنْ أَنْ تَلْعَبَ بِهِ النِّسَاءُ وَالْأَحْدَاثُ وَالَّذِينَ لَا نَخْوَةَ لَهُمْ ..
فَإِنَّهُمْ مِنْ دَوَاعِي الْخَرَابِ وَالْإِضْمَحْلَالِ .

وَإِذَا أَحْبَبْتَ .. فَحَكِّمِ الْإِنصَافَ فِي عَمَلِكَ حَتَّى لَا تُقَدِّمَ غَيْرَ مُحِقٍّ ، أَوْ
تَرْفَعَ بغيرِ الْحَقِّ .

وَإِذَا كَرِهْتَ .. فَأَذْكُرِ اللَّهَ .

وَنَزَّةٌ طَبَعَكَ مِنْ جَوْرِ الْغَدْرِ ؛ فَإِنَّ مَكَانَكَ مَكَانُ الْأَمْنِ ، يَدُورُ صَاحِبُهُ مَعَ
الْحَقِّ لَا مَعَ الْغَرَضِ .

وَإِذَا غَضِبْتَ .. فَأَجْنَحْ لِلْعَفْوِ ، فَإِنَّ أخطَاكَ فِيهِ .. خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُخطِيءَ
فِي الْعَقُوبَةِ .

وَأَجْعَلْ بِذَلِكَ وَنَوَالِكَ لِأَهْلِ الدِّينِ وَالْحِكْمَةِ وَالْغَيْرَةِ لِلْإِسْلَامِ .

وَأَخْتَرُ مِنْهُمْ : أَشْرَفَهُمْ طَبَعاً ، وَأَكْبَرَهُمْ عَقْلاً ، وَأَوْجَزَهُمْ رَأْيًا وَنُطْقًا ،
وَأَثْبَتَهُمْ حُجَّةً ، وَأَعْلَمَهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَسَاوِ النَّاسَ بَرًّا وَفَاجِرًا ، مُؤْمِنًا وَكَافِرًا فِي بَابِ عَدْلِكَ .
وَأَحْفَظْ حُرْمَةَ الدِّينِ وَأَهْلِهِ .

وَأَعْمَلْ عَمَلًا تُحْسِنُ بِهِ عَاقِبَتَكَ إِذَا لَقِيتَ رَبَّكَ .

وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ ، ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ
وَبَرَكَاتُهُ . انتهى .

قلتُ : قال الفاروئي الحافظُ في « إرشاده »^(١) : « نَقَلَ الْحَاجِبُ ابْنَ
عَمَادٍ : أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَرَأَ الْكِتَابَ وَبَكَى ، ثُمَّ قَرَأَهُ وَبَكَى ، ثُمَّ قَرَأَهُ وَبَكَى ،
وَقَالَ :

وَاللَّهُ! إِنَّ فِي لِسَانِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ نِعْمَةً مِنْ لِسَانِ جَدِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ .

وَلَا شَكَّ! فَهُوَ بَرَكَةٌ بِلَادِ اللَّهِ الْيَوْمَ » . انتهى^(٢) .

مَوْلَفَاتُهُ :

قال سِبْطُهُ الْجَلِيلُ مَوْلَانَا السَّيِّدُ عِزُّ الدِّينِ أَحْمَدُ الصَّيَّادُ - رضي الله عنه -

(١) ص (٣٦-٣٧) .

(٢) وذكره أيضاً الحافظُ تقيُّ الدِّينِ الواسطيُّ في كتابه « ترياق المحبين »

ص (٣١-٣٤) .

في « المعارف »^(١) عِنْدَ ذِكْرِ تَوَالِفِهِ . . ما نصُّهُ :

« هذا ما تيسَّرَ جَمْعُهُ الآنَ من أحزابِ سيِّدي الجَدِّ - رضي اللهُ عنه -
وأورادِهِ الشَّرِيفَةِ .

وقد أفردَ لها بعضُ السَّالِكِينَ مجموعاً لطيفاً ، وعددها اثنان وستون
وَسِتُّ مِئَةً .

وقد أَلَفَ - رضي اللهُ عنه - كُتُباً ، ونُقِلَ عنه من مجالسِهِ المباركِةِ
أبحاثٌ ، دَوَّنَهَا بعضُ الأَكابرِ ، منها :

١- « الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، في معاني : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

٢- و « البرهان المؤيَّد لصاحب مَدِّ اليَدِ » .

٣- و « حالة أهلِ الحَقِيقَةِ معَ اللهِ » .

٤- و « البهجة » .

٥- و « شرح التنبية » ، في الفقه الشافعيّ .

٦- و « المجالس الأحمديَّة » . وغيرُ ذلك رضي اللهُ عنه ، ونفَعَنَا وَأُمَّةً

جَدَّهُ بِعِلْمِهِ . انتهى .

وقال شيخُ الإسلامِ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ سِرَاجُ الدِّينِ الرَّفَاعِيُّ الحُسَيْنِيُّ

- رضي اللهُ عنه - في كتابه « صَحاحُ الأَخْبَارِ »^(٢) عِنْدَ ذِكْرِهِ لشرحِ « التنبية »

هذا . . ما هو بحروفه :

(١) ص (١٠٩) .

(٢) ص (٩٠ - ٩١) .

« أخبرني ابنُ الصَّفَّارِ بسندهِ إلى الشَّريفِ ابنِ الصَّنَادِيقيِّ : أنَّ أباه حَدَّثَهُ
أنَّهُ اعتنى بجمعِ مُؤلَّفاتِ سيِّدنا السيِّدِ أحمدَ وأخبارِهِ ونَسَبِهِ وآثارِهِ ، ومنها :
« شرح التَّنبيه » ، لأبي إسحاق ، في المذهب الشافعيِّ ، كتابٌ جليلٌ ،
يحتوي ستَّ مجلِّداتٍ ، وهو من أندرِ الكتبِ .

ومنها : كتاب « البرهان المؤيَّد » ، وهو سفرٌ مختصرٌ ، جمعه رِوايةً
عنه في مجالسِ وَعِظِهِ الشَّريفِ أبو طالبٍ ، شَرَفَ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّمِيعِ بنِ
عبدِ اللهِ ، أبي تَمَّامٍ ، العبَّاسيِّ الواسطيِّ . انتهى .

صِفَاتُهُ الخَلْقِيَّةُ :

قال سِبْطَةُ الجَدِّ السيِّدِ الصِّياذُ في « معارفه »^(١) : « وكان - رضي اللهُ عنه -
رَبْعَةً مِنَ القَوْمِ ، أَسْمَرَ ، أَزْهَرَ ، خَفِيفُ العَارِضِيْنَ^(٢) ، وَسِيعُ الجَبْهَةِ ،
أَسْوَدَ العَيْنِيْنَ ، مُدَوَّرَ الوَجْهِ ، حَسَنَ المَبْسَمِ .

إِذَا تَكَلَّمَ . . سَلَبَ القُلُوبَ ، وَإِذَا سَكَتَ . . أَهَابَهَا ، اتَّبَعَ سُنَنَ المِصْطَفَى
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسَلَكَ مَسَالِكَهُ ، وَكَانَ عَلَى قَدَمِهِ وَمَشْرِبِهِ ،
إِبْرَاهِيْمِيَّ الشَّأْنِ وَالحَالِ ، مُحَمَّدِيَّ القَدَمِ وَالمَنْهَجِ . . .

وَكَانَ يَلْبَسُ قَمِيصاً أبيضَ ، وَرِداءً أبيضَ ، وَخُفّاً مِنْ صُوفٍ أبيضَ ،

(١) ص (٣١ و ٤٣) .

(٢) العَارِضَانِ : لِلإنسانِ صَفْحَتَا خَدَيْهِ ، فَقَوْلُ النَّاسِ : خَفِيفُ العَارِضِيْنَ . . فِيهِ
حَذْفٌ ، وَالأَصْلُ : خَفِيفُ شَعْرِ العَارِضِيْنَ ، « مصباح » ص (٤٠٤) ، مادة :
« عرض » .

ويتعمَّمُ بِعِمَامَةٍ سَوْدَاءَ دَسْمَاءَ ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَتَعَمَّمُ بِالْبِيَاضِ .
 وَكَانَ رَفِيعَ الْقَوَامِ ، نَحِيفَ الْوَجُودِ ، كَثِيرَ التَّبَسُّمِ ، قَلِيلَ الضَّحِكِ ،
 مَكِينًا فِي طَوْرِهِ ، ذَاهِبِيَّةَ عَظِيمَةٍ ، لَا يَتِمَكَّنُ جَلِيسُهُ مِنْ إِبَاحَةِ النَّظَرِ إِلَيْهِ .
 هَذَا مَعَ رِفْقِهِ وَظَرَفَاتِهِ طَبْعِهِ وَخُلُقِهِ ، وَرِفْقَةِ شَيْمِهِ ، وَذَلِكَ لِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ
 مِنَ الْعِلْمِ ، وَالْعَقْلِ ، وَالْعِبَادَةِ ، وَالْكَمَالِ ، وَالْفَضَائِلِ ، وَالْمَجْدِ ، وَعُلُوِّ
 النَّسَبِ ، وَالْكَرَمِ ، وَالْخَوَارِقِ الْغُرِّ ، وَالْحِكْمَةِ الْبَارِعَةِ ، وَالسَّنَنِ
 الْمَحْمَدِيَّةِ ، وَرِفْعَةِ الْقَدْرِ ، وَبُعْدِ الصَّيْتِ وَالشُّهُرَةِ ، وَالشَّانِ الْوَحِيدِ فِي
 عَصْرِهِ ، نَفَعْنَا اللَّهَ بِهِ وَالْمُسْلِمِينَ آمِينَ . انتهى .

أَخْلَاقُهُ وَتَوَاضُعُهُ

قال العزُّ الحوافظُ في « النَّفْحَةِ الْمِسْكِيَّةِ » ^(١) عِنْدَ ذِكْرِ أَخْلَاقِهِ . . ما نصُّهُ :
 « وَأَمَّا أَخْلَاقُهُ . . فَقَدْ وَافَقَهَا أَعْرَاقُهُ ، طَابَ أَصْلًا وَخُلُقًا ، وَحَالًا
 وَخُلُقًا .

كَانَ خُلُقُهُ السُّنَّةَ الْمَحْمَدِيَّةَ ، وَمَشْرَبُهُ الْحَالَةَ النَّبَوِيَّةَ .

لَمْ يُعْهَدْ وَلَمْ يُسْمَعْ فِي طَبَقَاتِ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ وَأَثَمَةِ الْآلِ
 - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَنْ أَحَدٍ مِنَ الرِّجَالِ : أَنَّهُ بَلَغَ مَا بَلَغَهُ - قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُ -
 مِنَ الصَّفَاءِ ، وَالزُّهْدِ ، وَالصَّدْقِ ، وَالتَّوَضُّعِ ، وَالانْكَسَارِ ، وَالْحَيْرَةِ ،
 وَالِافْتِقَارِ .

أَتَى بِكُلِّ أَخْلَاقِ أَهْلِ عَصْرِهِ وَعِبَادَاتِهِمْ ، وَلَمْ يَأْتِ كُلَّهُمْ بِكُلِّ أَخْلَاقِهِ

وعباداته ، وجاء بكلِّ كراماتهم ومناقبهم ، ولم يجيء كلُّهم بكلِّ كراماته ومناقبه .

فالحمد لله الذي منَّ علينا باتِّباعه ، وجعلنا من أتباعه . انتهى .

وقال العزُّ - أيضاً - في « إرشاده »^(١) : « وسأله الفقيه العظيم ابن بختيار الواسطي عن مشايخ بغداد والرجال الذين رأهم ؟ .

فقال : أمةٌ خير ، وكلُّهم على خير .

والله يابن بختيار! ما وقع بصري على مخلوقٍ دوني .

رضي الله عنه ، ونفعنا به وبسلفه الطاهر ، وجعلنا من العارفين بحقه ، المتمسكين بخلقه ، وحشرنا معه تحت لواء جده - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين أجمعين ، آمين . انتهى .

وقال سبطه في « المعارف »^(٢) من قصيدة له مدح بها جده السيد المترجم . . ما لفظه : «

أوصافُ كلِّ العارفين به أنطوتْ وصفاؤه في كلِّهم لم تُوجدِ «

وفيه أيضاً^(٣) : « كان السيد أحمد - رضي الله عنه - على جانبٍ عظيمٍ من الحلم والرفق والتواضع .

وما خاطب صغيراً ولا كبيراً قط إلا ب : أي سيدي .

(١) ص (٣٩) .

(٢) ص (٦٢) .

(٣) ص (٤٣ و ٧٦ - ٧٧) .

وما رأى نفسه شيئاً قط ، ولا شهد له مزية على أحد من الخلق .
 وكان يبذل بذل المُلوك ، وعيشه في أهله وعياله عيشة الفقراء ،
 ويقول :

« اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ »^(١) .

وكان يغسل ثوبه بالأشنانِ والصَّابُونِ ، وَيَغْسِلُ يَدَهُ بهما بعدَ أكلِ
 الطعامِ ، ولا يستخدمُ أحداً في حاجةٍ لنفسه ، ويقولُ :
 أنا اخترتُ الخِدمةَ ، كيفَ يكونُ للخادمِ خادمٌ !؟ .
 ولا يجمعُ بينَ نوعينِ من الطعامِ ، ولا يأكلُ أكثرَ من قرصٍ أو نصفه ،
 ويقولُ :

إذا أكلتُ أكثرَ من ذلكَ . . . أناُمُ في الليلِ شعبانَ ، ويكونُ في الموضعِ
 أناسٌ جِيعاً ، فأطالبُ بذلكَ ، ويمكنُ أن تُؤدِّيَ المطالبةُ إلى المؤاخذةِ . .
 وكان إذا أتى له بِتَمْرٍ أو رُطْبٍ . . يتناولُ الرديءَ منه ، ويقولُ : أنا أحقُّ
 به ؛ فإنه شبيهي . انتهى .

وقال شيخُ الإسلامِ أحمدُ بنُ جلالِ اللأريُّ الحنفيُّ في كتابه « جلاء
 الصَّديِّ »^(٢) . . ما نصُّه :

« كان السيِّدُ أحمدُ الرَّفاعيُّ - رضي اللهُ تعالى عنه - هَيِّنَ المؤونةَ ، غَنِيَ
 النَّفْسَ ، حَسَنَ المُعاشرةَ ، دائمَ الإطراقِ ، كثيرَ الحياءِ ، كاتماً للسرِّ ،

(١) رواه البخاريُّ (٣٥٨٦) ، ومسلم (١٨٠٤) .

(٢) ص (١٢٢ - ١٥٢) ، البابُ الرَّابِعُ .

حافظاً للعهد ، كثير الدعاء للمسلمين ، هيناً ، ليناً .

يصل مَنْ قَطَعَهُ ، ويُعطي مَنْ مَنَعَهُ ، ويعفو عَمَّن ظَلَمَهُ ، ويُحسِنُ
مُجاورة مَنْ جَاوَرَهُ ، ويصفحُ عن سيئات الإخوان ، ويُطعمُ الجائع ،
ويكسو العريان ، ويعودُ المريضَ بَرّاً كان أو فاجراً ، ويُشيعُ الجنائزَ ،
ويُجالسُ الفقراءَ ، ويُواسي المساكينَ ، ويصبرُ على الأذى ، ويبدلُ
معروفه ، وينصحُ عدوه ، ويبدأ مَنْ لاقاه بالسَّلامِ . انتهى .

وقال الذهبيُّ في « سِيره »^(١) عند ذكره . . ما نصُّه :

« أقسمَ على أصحابه إن كان فيه عيبٌ يُنبهونه عليه ؟ فقال الشيخُ عمرُ
الفارُوثيُّ :

يا سيدي! أنا أعلمُ فيكَ عيباً . قالَ : ما هو ؟ قالَ : يا سيدي! عيبُك أننا
من أصحابك .

فبكى الشيخُ والفقراءُ ، وقالَ : أي عمرًا إن سلِمَ المرُكبُ . . حمَلْ
مَنْ فِيهِ .

وإن هِرَّةً نامتَ على كُمِّ الشيخِ أحمدَ ، وقامتِ الصلاةُ ، فقصَّ كُمَّهُ ،
وما أزعجَها ، ثمَّ قعدَ فوصلَهُ ، وقالَ : ما تغيَّرَ شيءٌ .

وتوضأ ، فنزلتَ بعوضةٌ على يديه ، فوقفَ لها حتَّى طارت . انتهى .

أقولُ : وللوقوفِ على مزيدٍ من هذه الأخلاقِ . . إلزمَ كتابنا « الرِّشحاتِ

الْحَسَنِيَّةَ عَلَى النِّفْحَةِ الْمَسْكِيَّةِ»^(١) ، ففيه الوفاءُ بهذا المبحثِ ، واللهُ أعلم .

عِبَادَتُهُ :

قَالَ سِبْطَةُ الْوَلِيِّ الْكَبِيرُ فِي « الْمَعَارِفِ »^(٢) . . مَا نَصَّهُ :

« وَقَالَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ الْحَاجُّ مَاهَانَ ، خَادِمُ سَيِّدِنَا السَّيِّدِ أَحْمَدَ قَدَّسَ اللَّهُ

رُوحَهُ ، وَرَضِيَ عَنْهُ :

خَطَرَ لِي لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي الدُّخُولُ عَلَى سَيِّدِي السَّيِّدِ أَحْمَدَ وَالْجُلُوسُ مَعَهُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَرَأَيْتُ كَأَنَّمَا جَاذِبَنِي جَاذِبٌ إِلَى نَحْوِهِ بَعِنَانِي .

فَقَمْتُ وَأَتَيْتُ إِلَى أَنْ وَصَلْتُ إِلَى بَابِ الرَّوَّاقِ ، فَرَأَيْتُهُ مَفْتُوحًا ، فَدَخَلْتُ ، وَصَعِدْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي غُرْفَةٍ لَهُ بَعِيدَةٍ عَنِ النَّاسِ .
فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى بَابِ الْغُرْفَةِ . . سَمِعْتُ لَهُ بَكَاءَ عَالِيًا ، وَتَرَدَّدَ زَفَرَاتٍ ، وَتَصَعَّدَ أَنْفَاسٍ وَشَهيقٍ ! .

فَلَمْ أَجْسُرْ أَنْ أَتَكَلَّمَ ، وَأَلْصَقْتُ خَدِّي مَعَ الْبَابِ ، وَإِذَا بِهِ - قَدَّسَ اللَّهُ تَعَالَى رُوحَهُ - قَدْ لَزِمَ لِمَتَّهُ بِيَمِينِهِ^(٣) ، وَقَدْ وَارَى خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ يُمَرِّغُ خَدَّهُ وَشِيْبَتَهُ عَلَى التُّرَابِ ، وَيَقُولُ :

إِلَهِي ! أَنَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ ، الَّذِي قَصَمَتِ الدُّنُوبُ ظَهْرَهُ ، وَحَيَّرَتِ

(١) ص (١٥٩ - ١٧٥) .

(٢) ص (٧١ - ٧٢) .

(٣) اللَّمَّةُ : الشَّعْرُ الَّذِي يُجَاوِزُ شَحْمَةَ الْأُذُنِ ، « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص (٦٠٥) ،

مادة : « لم » .

الخطايا فِكْرَهُ ، وَقَلَّ لضعْفِهِ عملُهُ ، ونهبتْ أَيْدِي المَنُونِ أجَلَهُ .

أناالذي لا قُدْرَةَ ولا قُوَّةَ له ، ولا حَوْلَ له ، ولا عُدْرَ له .

إلهي! مَنْ أنا؟ وأَيْسَ أنا؟ إِنْ أنا إِلَّا جِيفَةٌ لا قِيَمَةَ لها ، ونُظْفَةٌ قَدِرَةٌ
لا أصلَ لها .

إلهي! إِنْ أطَعْتُكَ . . فبِإِرادَتِكَ ، وأنتَ المَحْمُودُ على مِيتِكَ ، فأنْتَ
المَنَّانُ عَلَيَّ ، وإِنْ عصَيْتُكَ . . فَحِلْمُكَ غَرَّبَنِي ، فَلَكَ الحُجَّةُ البالِغَةُ عَلَيَّ .

إلهي! لم أعصِكَ اجْتِراءً مِنِّي عَلَيْكَ ، ولكنْ أَطْمَعَنِي سِتْرُكَ الجَمِيلُ ،
وعلمتُ أَنَّ المَقْدُورَ كائِنْ ، وذلكَ الذي لا مَخْرَجَ مِنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَرَدَتْ ،
وبرحمتِكَ عَصَمْتَ ، فَاجْتَرَأْتُ على نَفْسِي .

وها أنا قد مددتُ إِلَيْكَ كَفَّ النَّدَمِ ، يا مَنْ لا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ ، فارحِمْ
عَبداً أَبَقاً لم يجدْ لِنَفْسِهِ ناصِراً ولا سَنَداً إِلَّا أَنْتَ ، يا أرحمَ الرّاحِمِينَ .

قال : وهو معَ ذلكَ يَتَمَرَّغُ في العُرْفَةِ طُويلاً وَعَرَضاً ، ولم يَزَلْ كَذَلِكَ
زَماناً طويلاً حَتَّى بَكَيتُ رَحمةً له ، وَقَلْتُ : سَبْحَانَ اللَّهِ! قَتَلَ هَذَا الشَّيْخُ
نَفْسَهُ ، وليسَ له ذَنْبٌ ولا خَطِيئَةٌ ، ومَتى سَكَتَ عَنْهُ . . هَلَكَ .

قال : فعندَ ذلكَ تَنَحَّخْتُ ، فلَمَّا سَمَعَنِي . . قَعَدَ وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟
فَقَلْتُ له : ماهان ، فقالَ لي : عَنيتَ نَفْسَكَ أَي ماهان ! .

قال : فدخلتُ وسَلَّمْتُ عليه ، فلَمَّا اسْتَقَرَّ بِنَا الجُلُوسُ . . قال : يا أخي
ماهان! متى جئتُ؟ فقلتُ له : من أوَّلِ اللَّيْلِ أَي سيَّدي ، وقد سمعتُ منك
كذا وكذا .

قال : أسمعْت ؟! فقلتُ : نعم ، فأمسك ، فقلتُ له : سيدي ! حدِّثْكَ
نَفْسُكَ أَمْرًا ، أم تخافُ أن يُعَذَّبَكَ رَبُّكَ ، أم ترى ما صحَّتِ البيعةُ ، أخبرني
بحياةِ الشيخِ منصور ، قدَّسَ اللهُ تعالى روحَه .

قال : فقال : يا شيخ ماهان ! ما لك وللسؤال ؟ فقلتُ له : أي سيدي !
لي معكُ صُحبةٌ ، ولي عليكِ حقُّ خِدْمَةٍ ، فَبِحَقِّ الصُّحْبَةِ إِلَّا ما حَدَّثْتَنِي .
فقال : يا ماهان ! كيفَ لا يبكي حُمَيْدُهُ ، ويُجيبُ معهُ مَنْ يبكي وقد
هتَكَهُ اللهُ تعالى ، وجعلَ المظلومَ يستغيثُ به ، والظالمَ يستغيثُ به ،
ويقولُ : يا سيدي أحمد .

حتى إنَّ النَّعْجَةَ يأخذُها الذُّبُّ من طريقها وهو يأكلها - وقد أُذِنَ له فيها -
وهي تستغيثُ وتقولُ بلغتها : أي سيدي أحمد ، وإنَّ جماعةً من الناسِ
يعملونَ الفواحشَ ، ويستغيثونَ به .

قال : ثم قال له سيدي السيِّدُ أحمدُ قدَّسَ اللهُ تعالى روحَه :
أي سيدي ! أي أخي ماهان ! ما عَرَفَ اللهُ مَنْ لَدَّ له في الدُّنيا عيشٌ ،
ولا وَجَدَ راحةً ولا قراراً .

أي أخي ماهان ! كم يكونُ جُهْدُ حُمَيْدِهِ ؟ وَمَنْ هو ، أَيُّشٍ هو طَعْمُهُ .
يا ماهان ! كُلُّ هذا لِسَوادِ وَجْهِهِ معَ العزيزِ ، وَخَجَلْتِي بينَ يَدَيْهِ ،
﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا ﴾ .

أي ماهان ! كيفَ لا يتمزقُ حُمَيْدُهُ لِرَبِّهِ ، ويستغيثُ إليه في كُلِّ وقتٍ ؟ .
أي ماهان ! الحقُّ - سبحانه - لا يُؤْمَنُ مَكْرُهُ ، ولا نَقِمَاتُهُ ،
ولا سَطَوَاتُهُ ، فادْعُ لي بالسلامةِ ، وأن لا يُؤاخِذَ الناسَ بذنبي .

قال : فقلتُ له : أي سيدي ! إذا قلتَ هذا وأنتَ أنتَ ، فما نقولُ ونحنُ أهلُ الخطايا والاجترام ، وأنتَ بنا تُؤخذ ؟!

فقال : أي ماهان ! الأمرُ عظيم ، فنسألُ اللهَ السلامةَ .

فإذا كان هذا السيدُ المحتشمُ مع ما قد أعطاه اللهُ تعالى مِنْ عُلُوِّ القَدْرِ والمرتلة ، فقد جعلَ أسمه في الشرقِ والغربِ والبحرِ والبرِّ ، وعلى ألسنةِ العربِ والعجمِ ، ويُجري هذا البكاءُ ، ويتمرغُ بالترابِ سرّاً وجهراً ، وآخرتهُ محفوظةٌ ، وحركاتها كلها لله :

فينبغي للمريدين له ، والتابعين لأثره وكلِّ مَنْ يتعلّقُ بجنابهِ وسنتِهِ : أن يُطهّروا سرائرهم ، ويصفّوا بواطنهم ، وينوحوا على أنفسهم ؛ لأنهم أصحابُ الذنوبِ والخطايا والزللِ ، وصاحبُ هذه الأفعالِ أحقُّ بالبكاءِ على نفسه ، وأن يتذكّرَ ظلمَ أجترائه على المحارمِ ، وقُدومه على المآثمِ ، وغروره بالطمعِ الكاذبِ والأمانى الفاسدةِ ، ولم يكن له سابقةُ عملٍ ، ولا استندراكُ ما فات ، ولا ندَمٌ يجبُ به حوْباته بالإقلاعِ عن إصراره^(١) .

فيا ليت شعري ! ماذا غرّه بحكم : ﴿ لَا يظلمُ مثقالَ ذرّةٍ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

(١) الجبُّ : القطعُ ، ومنه الحديثُ : « إنَّ الإسلامَ يجبُ ما قبله ، والتوبةُ تجبُ ما قبلها » . أي : يقطعان ويمحوان ما كان قبلهما من الكفرِ والمعاصي والذنوبِ . « لسان » ٣ : ٦٤ ، مادة : « جب » .

والحوْبَةُ : الخطيئةُ ، « مصباح » ص (١٥٥) ، مادة : « حاب » .

فالعاقل ينبغي له سياسة نفسه ، وإن العاقل العارف من قوِي على مخالفة هواه ، وترك المكوّنات أجمع ، وأقبل على مكوّناتها . انتهى .

شَفَقَتُهُ عَلَى الْإِيْتَامِ وَالْأَرَامِلِ

قال سِبْطُهُ في « المعارف »^(١) : « كان شيخنا السيّد أحمد الرّفاعي - رضي الله عنه - أبا الأيتام ، ربيع المساكين ، للأرامل كالوليّ العزيز ، وللضّوائع كالكهف الحريز^(٢) .

ملجأ المحتاجين ، وكعبة القاصدين ، ومنهلاً عذباً للواردين .

يَجْبُرُ الْيَتِيمَ وَيُرَبِّيهِ ، وَيُقَرِّبُ الْمَسْكِينِ وَيَخْوِيهِ ، يُعْطِي الْأَرَامِلَ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ ، وَيَمْنَحُ الضَّرَائِعَ مِنْ غَيْرِ إِمْهَالٍ ، وَيُسَعِفُ الْمُحْتَاجَ مِنْ غَيْرِ إِهْمَالٍ ، وَيَتَحَنَّنُ عَلَى الْقَاصِدِينَ بِشَفَقَتِهِ ، وَيَتَلَدَّدُ إِلَى الْعَازِرِ بِعُدُوبَتِهِ ، وَيَتَقَرَّبُ لِلخَلْقِ بِقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ ، وَإِيصَالِ الرَّاحَةِ إِلَى قُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ يَزَلْ إِذَا قَالَ قَوْلًا . . . أَتْبَعَهُ بِصِحَّةِ الْفِعْلِ وَصَدَقِ الْقَوْلِ ، وَلَمْ يَخَالَفْ قَوْلُهُ فِعْلُهُ . .

وكان - نور الله مرّقدّه - إذا رجع من بعض الأماكن وقرب من أمّ عبيدة . . يقف ويشدّ وسطه ، ويلفّ كميّه ، ويأخذ حبلاً يكون مدّخراً له من بعض أصحابه الفقراء ، فيمده على الأرض ، ثم يجمع عليه حطّاباً ، ويشدّ حزمته ، فيبادر الفقراء فيصنعون مثله ، ثم يجمعون معه ويحملون الحطّاب

(١) ص (٧٣ - ٧٤) .

(٢) أي : كالموضع الحصين ، « مختار الصّحاح » ص (١٣٠) ، مادة :

« حرز » .

على رؤوسهم فيحطونه عند باب الرواق ، ثم يفرقه السيد على الأراذل
والمساكين والمرضى والزمنى والمشايخ باتفاق الفقراء ، ويقول :
الشفقة على الإخوان . . مما يقرب إلى الله تعالى . انتهى .

زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا

قال العزُّ الحافظُ في « إرشاده »^(١) : « حدَّثني الشيخُ أبو الحسينِ
السَّمَرَقَنْدِيُّ ، عن الشيخِ الكبيرِ عبدِ الصمدِ الحربوني ، أحدِ وكلاءِ الرواقِ
العامرِ الأحمديِّ : أنه قال له سَنَةٌ سَبْعٌ وَسِتِّينَ وَخَمْسِينَ مِئَةً :
بَلَغَ رَيْعُ أَمْلَاكِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ وَأَوْقَافُهُ الْمَحْبُوسَةَ عَلَى رِوَاقِهِ هَذِهِ السَّنَةَ إِلَى
تِسْعِ مِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمِ فِضَّةٍ دِيوَانِيٍّ ، وَعِشْرِينَ أَلْفَ قِطْعَةٍ ذَهَبٍ .
وَجَاءَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بِاسْمِ جَنَابِهِ الشَّرِيفِ مِنَ الْأَقَالِيمِ . . ثَمَانُونَ أَلْفَ
رِدَاءٍ ، وَخَمْسُونَ أَلْفَ تَمَشُكَةٍ ، وَعِشْرُونَ أَلْفَ مِسْحِ عَجَمِيٍّ ، وَاثْنَانِ
وِثْلَاثُونَ أَلْفَ عِمَامَةٍ كَثَانَ ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ أَلْفَ قِطْعَةٍ ذَهَبٍ دَوَانِيقِيَّةٍ ، وَأَلْفٌ
وَسَبْعُ مِئَةِ كِسَاءٍ هِنْدِيٍّ .

وها هو اليومَ غَسَلَ ثُوبَهُ بِشَاطِئِ نَهْرِ الرُّوَاقِ ، وَاسْتَتَرَ بِفُوطَتِهِ ، وَأَخَذَ
ثُوبَهُ عَلَى عَصِيٍّ يُنَشِّفُهُ لِيَلْبَسَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي خِزَانَةِ رِوَاقِهِ وَلَا دِرْهَمٌ وَاحِدٌ .
وَكُلُّ الَّذِي ذَكَرْتُهُ لَكَ تَصَدَّقَ بِهِ عَلَى الضُّعْفَاءِ ، وَوَهَبَهُ لِلْمُسْتَحْقِينَ
وَالسَّائِلِينَ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وكان جدِّي الشيخُ أبو الفرجِ عمرُ الفاروئيُّ - رحمه الله - يقولُ :

جَمَعَ اللهُ لِسَيِّدِنَا السَّيِّدِ أَحْمَدَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - الْأَضْدَادَ ، جَاءَتْهُ الدُّنْيَا رَاغِمَةً
فَأَنْفَقَهَا عَلَى النَّاسِ ، وَبَقِيَتْ عَنْ نَفْسِهِ النَّفِيسَةَ مَمْسُوكَةً كَشَانٍ جَدَّهُ رَسُولِ اللهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَبَلَغَهُ اللهُ مِنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ أَشْمَخَ مَرْتَبَةٍ ، حَتَّى تَوَاضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْخُلَفَاءُ ،
وَهَابَهُ مَلُوكٌ وَاسِطٌ وَسُلَاطِينُ فَارِسَ ، وَخَشَعَ بِحَضْرَتِهِ الْأَوْلِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ ،
وَهُوَ فِي نَفْسِهِ ذَلِيلٌ مُنْكَسِرٌ .

يَخْدُمُ ضَيْفَهُ ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَجْمَعُ الْحَطَبَ وَيَشُدُّهُ بِحَبْلِ مُدْخَرٍ لَهُ
عِنْدَ بَعْضِ خُدَّامِهِ ، فَيَحْمِلُهُ بِنَفْسِهِ إِلَى بِيوتِ الْأَرَامِلِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَصْحَابِ
الْحَاجَاتِ ، وَيَقْدُمُ لِلْعُمَيَّانِ نَعْلَهُمْ ، وَيَقُودُهُمْ إِذَا لَقِيَ مِنْهُمْ أَنَاْسًا إِلَى مَحَلِّ
مَطْلُوبِهِمْ .

وَيُكْرِمُ الشُّيُوخَ ، وَيُرَافُ بِالْيَتِيمِ ، وَيَبْكِي لِحَالِ الْفُقَرَاءِ ، وَيَفْرَحُ
لِفَرَحِهِمْ ، وَيَتَوَاضَعُ لَهُمْ كُلُّ التَّوَاضِعِ ، وَيَعُدُّ نَفْسَهُ مِنْهُمْ ، وَيَقُولُ فِي
الْمَحَافِلِ :

إِنْ عُدَّتْ أَصْحَابُ الْحِرْفِ ، وَذَهَبَ كُلُّ أَهْلِ حِرْفَةٍ زُمْرَةً زُمْرَةً . . فَأَنَا
فَقِيرٌ ، وَفِي زُمْرَةِ الْفُقَرَاءِ » . انتهى .

وَجَاءَ فِي « الْمَعَارِفِ » ^(١) لِسَبْطِهِ الْقَطْبِ السَّيِّدِ الصِّيَّادِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -
مَا يَلِي :

« وَكَانَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يُرْسِلُ عِنْدَ الْاِحْتِيَاجِ إِلَى الشَّيْخِ الْحَاجِّ مَاهَانَ ،

أو إلى الشيخ علي بن الطّري ، أو إلى الشيخ عبد الصمد الأنصاري -
رحمهم الله - فيقول :

عندكم من أجل الله لوالدتكُم أمّ صالح دانقٌ للحاجةِ الفلانية ، أو
لأختِكُم أمّ إبراهيم ، أو لأختِكُم أمّ شمسِ الدّين ، أو لفلانٍ من إخوانكم ،
يعني أسباطُهُ ، أو لنفسهِ الطّاهرة ، فيُعطونه - رضي اللهُ عنه - ما يأمرُ به ، فلا
يَمْسُهُ بيدهِ . انتهى .

أقوالُ العُلَماءِ في شَخِصِهِ الفَدِّ الشَّرِيفِ

قالَ الشيخُ الجليلُ عبدُ الوهابِ الشُّبكيّ - رحمهُ اللهُ عليه - في
« طبقاته » ^(١) عندَ ذِكرِهِ الشَّرِيفِ . . ما نَصَّهُ :
« أحدُ أولياءِ اللهِ العارفينِ ، والسَّاداتِ المُشَمَّرينِ ، أهلِ الكراماتِ
الباهرةِ .

ولو أردنا استيعابَ فضائلِهِ . . لضاقَ الوقتُ . . .
ومناقبُهُ أكثرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ ، وقد أفردَ لها بعضُ الصُّلحاءِ كتاباً
يُخَصُّها » . انتهى .

وقال فيه الإمامُ الذهبيُّ في « سِيرِهِ » ^(٢) عندَ ذِكرِهِ . . ما هو بِحروفِهِ :
« الإمامُ ، القُدوةُ ، العابدُ ، الزَّاهدُ ، شيخُ العارفينِ ، أبو العبَّاسِ ،
أحمدُ بنُ أبي الحسنِ عليِّ الرِّفاعيِّ المغربيِّ ثم البطائحيِّ .

(١) ٦ : ٢٣ - ٢٤ و ٢٧ .

(٢) ٢١ : ٧٧ - ٧٨ و ٨٠ .

كان كثيرَ الاستغفارِ ، عاليَ المقدارِ ، رقيقَ القلبِ ، غزيرَ الإخلاصِ . انتهى .

وقال ابنُ ناصرِ الدِّينِ في « توضيحِ المُشْتَبِه »^(١) عندِ ذِكرِهِ :

« ومنهُمُ الشَّيْخُ أبو العباسِ ، أحمدُ بنُ الشَّيْخِ أبي الحسنِ عليٍّ . .

صارَ قُدْوَةً ، صاحبَ أحوالٍ وكراماتٍ ، وإليه تنتمي الطائفةُ المعروفةُ » . انتهى .

وقال العلامةُ المُنَاوِيُّ في « الكواكبِ الدَّرِّيَّة »^(٢) : « الشَّيْخُ الزَّاهِدُ الكَبِيرُ ، أحدُ الأولياءِ المشاهيرِ .

شريفٌ نما روضُ شرفِهِ ، وهميٌّ على العالمِ غيثُ سلفِهِ .

كان سيِّداً جليلاً ، صُوفياً عظيماً نبيلاً . ويضربُ به المَثَلُ في تحمُّلِ الأذى » . انتهى .

وقال ابنُ خَلِّكانِ في « وَفَيَاتِ الأعيانِ »^(٣) : « كان رجلاً صالحاً ، فقيهاً ، شافعيَّ المذهبِ .

انضمَّ إليه خَلْقٌ عظيمٌ منَ الفقراءِ ، وأحسنوا الاعتقادَ فيه وتبعوه .

وَالطَّائِفَةُ المعروفةُ بالرِّفَاعِيَّةِ والبَطَائِحِيَّةِ منَ الفقراءِ . . منسوبةٌ إليه » .

انتهى .

(١) ٤ : ٢١٣ .

(٢) ٢ : ٢١٨ و ٢٢٠ .

(٣) ١ : ١٧٠ - ١٧١ .

وذكره الذهبي في «الإشارة»^(١) عند ذكر وفيات سنة (٥٧٨ هـ) ،
فقال :

« الشيخ الكبير أبو العباس ، أحمد بن علي الرفاعي » .

وذكره - أيضاً - في «دول الإسلام»^(٢) فقال : « وفيها - أي : سنة
(٥٧٨ هـ) - توفي سيّد العارفين ، الشيخ أحمد بن أبي الحسن عليّ
الرفاعي » . انتهى .

وقال فيه العزّ الحافظ المتّقن أحمد بن إبراهيم الفاروئي في «النفحة
المسكية»^(٣) . . ما هو بحروفه :

« شيخ المشايخ ، الجبل الراسخ ، صاحب المناقب العظيمة ، والمآثر
الكريمة ، تاج أهل القبول ، المتشرف بتقبيل يد الرسول صلى الله عليه
وسلم .

أبو العلمين ، غوث الثقلين ، من نبّئت كراماته بالتواتر في المشرقين
والمغربين .

الخاشع الخاضع ، والشريف المتواضع ، ملجأنا ، ومفرّغنا ،
وشيخنا ، السيّد الشيخ أحمد أبو العباس ، الكبير الرفاعي الحسيني ،
رضي الله عنه » .

(١) ص (٢٩٨) .

(٢) ٢ : ٨٤ .

(٣) ص (٢٨٢) .

وقال فيه في « إرشاده »^(١) : « سيّدنا ، وشيخنا ، وإمام طريقتنا ،
 القطب الغوث الجامع ، الإنسان الكامل ، الوارث المحمدي ، سلطان
 العارفين ، محيي الدين ، شيخ الطرائق ، السيّد أحمد أبو العباس ، الكبير
 الرفاعي الحسيني العلوي ، رضي الله عنه » . انتهى .

وقال فيه الشيخ الجليل الواسطي في « ترياق المحبين »^(٢) :

« القطب الغوث الكبير ، السيّد الشريف ، النسيب الحسيني الغطريف ،
 منة الله الكبرى في عصره على الأنام ، شيخ مشايخ الإسلام ، وليّ الله ،
 سيّدنا وشيخنا ومفزعنا ، السيّد أحمد محيي الدين ، أبو العباس
 الرفاعي » .

وقال فيه الإمام أحمد بن محمد الوترقي - رحمه الله عليه - في كتابه
 « روضة الناظرين »^(٣) . . ما هو بلفظه :

« شيخنا وسيّدنا ، خلاصة الصالحين ، قرّة عين أهل اليقين ، بركة
 الإسلام والمسلمين ، شرف الزاهدين ، حجة الله على أوليائه المتمكّنين ،
 مقبل يد جدّه سيّد المخلوقين .

القطب الغوث الأعظم ، الكنز الربّاني المطلّسّم ، صاحب العلمين ،
 محيي الدين ، أبو العباس ، السيّد أحمد الكبير الرفاعي الحسيني ،
 رضي الله عنه » .

(١) ص (٢) .

(٢) ص (٣) .

(٣) ص (٥١) .

وقال فيه الإمام الحافظُ الشهير ، مولانا السيوطيُ - رضي الله عنه - في كتابه « الشَّرَفُ الْمُحْتَمُّ »^(١) . . ما نصُّه :

« والذي أدينُ اللهُ به : أنَّ السيِّدَ أحمدَ ابنَ الرَّفَاعِي ، الشريفَ الفاطميَّ الحسينيَّ رضي اللهُ عنه . . كان جبلاً راسخاً ، وبطلاً جَحْجَاحاً ، ووليّاً عظيماً ، وبحراً من بحارِ السُّنَّةِ عَجَّاجاً ، وسيِّداً سَنَداً .

انتهت إليه رياسةُ طريقِ القومِ ، وانعقدَ عليه إجماعُ العلماءِ والأولياءِ ، وقال بتقدِيمِهِ رجالُ عصرِهِ كافَّةً ، ومشى أكابرُ قاداتِ عصرِهِ تحتَ لواءِ إرشادِهِ .

تمكَّنَ مِنَ الاتِّبَاعِ للنبيِّ عليه السلامُ ، وصحَّ فيه قَدَمُهُ ، وانتهى إليه التواضعُ ومكارمُ الأخلاقِ :

هَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيَ الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ نفعنا اللهُ بعلومِهِ وإمدادِهِ ، وحالِهِ وإرشادِهِ ، وجعلنا اللهُ في زميرِهِ مع إخوانِهِ أولياءِ اللهُ تحتَ لواءِ نبيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى .

وقال فيه الرافعيُّ القزوينيُّ الشافعيُّ الكبيرُ في « سواد العينين »^(٢) . . ما نصُّه :

« الشيخُ الأكملُ ، والغوثُ المُبَجَّلُ ، قطبُ الدَّوَابِرِ ، أوَّلُ الأقطابِ

(١) ص (٢٣) ، طبعة شيخنا الإمام الوالد ، رحمةُ اللهِ عليه .

(٢) ص (٤٩) .

الأئمة الأكبر، أوحُد الأولياء، إمام الصُّلحاء، واحد الأمة، سَنَدُ
الأئمة، الذي يُفزعُ إليه في المَهَمَّةِ .

وليُّ الله، المُغيثُ بإذنِ الله، مولانا السيّدُ الشَّريفُ، أحمدُ
أبو العَلَمَيْنِ، ابنُ عليِّ أبي الحَسَنِ، الرَّفَاعِيِّ الحُسَيْنِيِّ، رضي اللهُ عنه .
وقال فيه أبو الحسن الواسطيُّ في كتابه « خلاصة الإكسير »^(١) :

« غوثُ الأُمَّةِ ، ومُقتَدَى الأئِمَّةِ ، عَلَمُ الأَعْلَامِ ، شيخُ الإسلامِ ، بَرَكَةُ
الخواصِّ والعوامِّ ، حُجَّةُ اللهِ على أوليائه الكرامِ .

سيّدنا ومولانا وشيخنا وبرككتنا ، الذي شَرَّفَنَا اللهُ بطريقتهِ ، وَعَصَمَنَا
بِحَبْلِهِ ، أبو العباسِ ، مُحْيِي الدِّينِ ، السيّدُ أحمدُ بنُ السيّدِ أبي الحَسَنِ
عليِّ ، الكبيرُ الرَّفَاعِيُّ ، رضي اللهُ عنه .

وقال فيه الإمامُ الشَّعرانيُّ في « طبقاته »^(٢) : « انتهتُ إليه الرِّياسَةُ في
علومِ الطريقِ وشرحِ أحوالِ القومِ وكشفِ مُشكلاتِ مُنازلاتِهِم .

وبِهِ عُرِفَ الأمرُ بتربيةِ المُريدِينَ بالبَطَائِحِ ، وتخرِجَ بصحبتهِ جماعةٌ
كثيرةٌ ، وتلمذَ له خلائقٌ لا يُحصَوْنَ ، ورثاهُ المشايخُ والعلماءُ .

وهو أحدُ مَنْ قَهَرَ أحوالَهُ ، ومَلَكَ أسرارَهُ ، وكان له كلامٌ عالٍ على لسانِ
أهلِ الحقائقِ .

وقال فيه الشيخُ العارفُ شهابُ الدِّينِ عمرُ الشُّهْرَوَرْدِيُّ رحمه اللهُ عليه :

(١) ص (٢٩) .

(٢) ص (٢٠٦) .

« وعظيم جلالِ الله! ما سَبَقَهُ الْجُنَيْدُ - رضيَ اللهُ عنه - إلا بأن جاءَ قَبْلَهُ ،
والأففى مرتبةِ التَّمكِينِ . . أعجزَ الأَحْقِينِ ، وسَبَقَ السَّابِقِينَ .

وللهِ وَضِعُ الْفَضْلِ كَمَا يَشَاءُ ، وَحَيْثُ يَشَاءُ ، يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ، ﴿ لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . »

وقال فيه شيخُ الشُّيوخِ ، العارفُ الكبيرُ ، مولانا الإمامُ السَّيِّدُ عبدُ القادرِ
الجِيلَانِي رضيَ اللهُ عنه :

السَّيِّدُ أَحْمَدُ الرَّفَاعِيُّ : حُجَّةُ اللهِ عَلَى أَوْلِيائِهِ الْيَوْمَ ، وَصَاحِبُ هَذِهِ
الْمَادِيَةِ ، وَأَنْشَدَ :

هَذَا الَّذِي سَبَقَ الْقَوْمَ الْأَوْلَى ، وَإِذَا رَأَيْتَهُ . . قُلْتَ : هَذَا آخِرُ النَّاسِ^(١)
وقال فيه - أيضاً - وقد سُئِلَ عنه ؟ : « أَيُّ فَقِيرٍ! هَذَا رَجُلٌ لَا يُعْرَفُ وَلَا
يُحَدِّثُ ، وَلَا يَصِلُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَامِهِ غَيْرُ رَبِّهِ أَحَدٌ .

هذا رَجُلٌ خُلِقَ الشَّرْعُ وَالْكِتَابُ ، وَقَلْبُهُ مَشْغُولٌ بِرَبِّ الْأَرْبَابِ ، تَرَكَ
الْكُلَّ ، فَنَالَ الْكُلَّ .

خُلِقَ حَسْرَةُ الرِّجَالِ ، وَحَالُهُ مُنْتَهَى الْأَحْوَالِ ، وَمَقَامُهُ غَايَةُ الْأَمَالِ ،
وَبَابُهُ مَحْطُ الرِّجَالِ .

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى الرَّجُلَ الْمُتَمَكِّنَ الَّذِي لَا تُحَرِّكُهُ الرِّعَازِعُ^(٢) . . فَلْيَذْهَبْ

(١) « ترياق المحبين » ص (٩) .

(٢) أي : الشُّدَائِدُ ، « لسان » ٧ : ٣٢ ، مادة : « زرع » .

إلى أُمِّ عَبِيدَةَ ؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا الرَّجُلُ الْمُتَمَكِّنُ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَطَوْرٍ ، وَدُونَهُ
الرَّجَالُ .

وإنَّ اللهَ يَرْحَمُ الوَقْتَ^(١) الذي يَكُونُ فِيهِ مِثْلُ هَذَا الجِهَادِ «^(٢)» .

سَبَبُ تَسْمِيَتِهِ بـ : أَبِي العَلَمَيْنِ

أقولُ : قَدْ مَرَّ بِكَ عن شَيْخِهِ أَبِي الفَضْلِ عَلِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - سَبَبُ
تَكْنِيَتِهِ بـ : أَبِي العَلَمَيْنِ ، لِإِشَارَةِ فُهِمَ مِنْهَا المَقْصُودِ^(٣) .
وجاءَ في « سواد العيينين »^(٤) للرفاعيِّ ما يُشيرُ إلى ذلكَ بوضوحٍ ، ونصُّ
قوله :

« سألتُ الشَّيْخَ العارِفَ باللهِ رُكْنَ الدِّينِ بنَ نَبهانِ الشَّيبانِيَّ عن سَبَبِ
أَشْتِهَارِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ الرَّفَاعِيِّ بـ : أَبِي العَلَمَيْنِ ؟ فقالَ :
لأنَّ عَلمَ الغوثِيَّةِ العُظْمَى ، والقُطَيْبَةِ الكُبْرَى . . رُفِعَ لَهُ مَرَّتَيْنِ فِي
الأَكْوَانِ .

وهو أنَّ الغوثَ أَحْمَدَ بنَ خَلْفِ البَلْخِيِّ الحُسَيْنِيَّ نَزِيلَ بَغدادَ لَمَّا ماتَ . .
رُفِعَ لواءُ الغوثِيَّةِ للسَّيِّدِ أَحْمَدَ الكَبِيرِ ، فوَقَفَ فِي بابِ اللهِ ، وَتَذَلَّلَ وَتَمَلَّمَلَ
عَلَى عَتَبَةِ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ : العَفْوُ العَفْوُ ! .

(١) أي : أهل الوقت ، على حذف مضاف ، فافهم .

(٢) « سواد العيينين » ص (٦١ - ٦٢) . والجِهَادُ : النَّقَادُ الخَبِيرُ ، « قاموس »

١ : ٣٦٥ .

(٣) ص (٤٠ و ٦٣) .

(٤) ص (٦٧ - ٧٠) .

فَقَبِلَ الْحَقُّ مِنْهُ مَقَالَهُ ، فَتَمَكَّنَ فِي مَقَامِ غَوْثِيَّتِهِ بِالْتَّرْقِيِ إِلَى مَا هُوَ فَوْقَ
الْغَوْثِيَّةِ وَالْقُطَيْبِيَّةِ .

فَرَفَعَ لَوَاءَ الْغَوْثِيَّةِ إِلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ وَهُوَ فِي صَحْرَاءِ
الْعِرَاقِ ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ خَمْسٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً . . .

وَتُوُفِّيَ فِي بَغْدَادَ سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ ، عَنْ إِحْدَى
وَتَسْعِينَ سَنَةً .

فَرَفَعَ عِلْمُ الْغَوْثِيَّةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْأَكْوَانِ مَرَّةً ثَانِيَةً لِلسَّيِّدِ أَحْمَدَ الرَّفَاعِيِّ .

فَوَقَفَ عَلَى الْبَابِ ، فَأَحَاطَ بِهِ النَّدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَقُولُ لَهُ :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ ﴾ .

فَلَزِمَ الْبَابَ مُمْتَلِئاً ، وَأَمْتَدَّتْ مُدَّةُ غَوْثِيَّتِهِ الثَّانِيَةِ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً وَأَشْهُرًا
عَلَى الصَّحِيحِ .

فلهذا أشتهر بين أولياء الله في الكونين بـ : أبي العَلَمَيْنِ « . انتهى .

أقولُ : وجاءَ في « طبقاتِ الشعراني »^(١) عندَ ذِكْرِ مَقَامِهِ وَعَظِيمِ
مَرْتَبَتِهِ . . ما نصُّهُ :

وقال له شخصٌ من تلامذته : يا سيدي ! أنتَ القُطْبُ ؟ فقالَ :

نَزَّ شَيْخَكَ عَنِ الْقُطَيْبِيَّةِ . فقالَ له : وأنتَ الغوثُ ؟ فقالَ : نَزَّ شَيْخَكَ
عَنِ الْغَوْثِيَّةِ .

قلت^(١) : وفي هذا دليلٌ على أنه تعدَّى المقاماتِ والأطوارَ ؛ لأنَّ القطبيةَ والغوثيةَ مقامٌ معلومٌ ، ومن كان مع الله وبالله . . فلا يُعلمُ له مقامٌ ، وإن كان له في كلِّ مقامٍ مُقامٌ ، والله أعلمُ . انتهى .

أقولُ : وللجلالِ الشُّيوطيِّ الحافظِ العارفِ المُتقِنِ جزءٌ في حقيقةِ هذه المُسمَّياتِ ، ذكَّرها بأدليتها ، وأوضحها بشواهدِها وأخبارِها ، وسَمَّاهُ : « الخَبَرُ الدَّالُّ ، على وجودِ القُطبِ والأونادِ والتَّجَبَّاءِ والأبْدالِ » .

فلا يُعوَّلُ على إنكارِ أهلِ العنادِ ، واللهُ المُوفِّقُ الهادي إلى سُبُلِ الرِّشادِ .

أقولُ : وليسَ الغرضُ من إيرادِ كلامِ العلماءِ بشأنِهِ الكبيرِ استيفاءَ المقصدِ والوصولَ إلى الغايةِ ، فلذلكَ محلُّ آخرُ عسى اللهُ أن يَمُنَّ علينا به في وقتهِ ، مع العافيةِ التامةِ ، والسلامةِ من الميلِ إلى غيرِهِ ، وهو وليُّ المؤمنين .

مركز بحوث ودراسات إسلامية

زَوَاجُهُ وَعَقْبُهُ :

قال الحافظُ العزُّ الفارُوثيُّ في « إرشادهِ »^(٢) : « وأما شيخنا ووسيلتنا وقُدوتنا السيِّدُ أحمدُ الرَّفاعيُّ رضي اللهُ عنه . . فإنه تزوَّجَ في بدايتهِ بالشيخةِ العارفةِ الصَّالحةِ ، وليَّةِ اللهِ تعالى وبنْتِ وليِّهِ ، السَّتُّ خديجةَ بنتِ سيِّدنا الإمامِ العارفِ الكبيرِ الشيخِ أبي بكرِ الواسطيِّ النَّجاريِّ ، أخي الإمامِ البازِ الأشهبِ الشيخِ منصورِ الرَّبَّانيِّ النَّجاريِّ .

(١) القائلُ : الشعرانيُّ ، رحمةُ اللهِ عليه .

(٢) ص (٩٠ - ٩٣) .

/ فأولدها السيِّدة فاطمة ذات النور ، والسيِّدة زينب أمِّ المكارم ، والدة الأقطاب رضي الله عنهم أجمعين .

ثم توفيت سنة ثلاث وخمسين وخمسة مئة ، ودُفنت بمشهد أبيها وجدِّها بأمِّ عبيدة .

وكانت دينة صابرةً سالحةً حليلةً سليمةً ، ذات حسبٍ ودينٍ ، روت عن أبيها شيخ الفريقين الشيخ أبي بكر الواسطي ، وعن خال أمِّها الفقيه محمد بن أبي بكر ، وروى عنها أخوها الشيخ يحيى ، وجدتي الفاضلة زينب الفاروقية ، وغير واحد .

ثم تزوج سيدنا السيِّد أحمدُ بعدها بأختها البرّة النقيّة ، وليّة الله تعالى ، السيِّدة رابعة أمِّ الفقراء .

فأولدها السيِّد صالحاً قطب الدين رضي الله عنه .

وُلد سنة ثلاثة وخمسين وخمسة مئة ، ومات سنة سبعين وخمسة مئة بأمِّ عبيدة ، ودُفن في مشهد جدِّ أبيه لأمِّه سيِّدي الشيخ يحيى النجاري .

وقد شهد له سيِّدي السيِّد أحمدُ بمقام السلطنة ، ورمقه القومُ بأبصار التعظيم ، وقالوا :

زاحمَ قدمه قدام أبيه في الترقّيات القلبية ، والمطالعات الغيبية ، وكان يُريد العِلْمَ والمخدّة ، وعظّم أمره ، وخشع بين يديه الأكابر من مشايخ الجمع . . .

قال الجمال الحدادي الكبير قُدس سرُّه : زوجه والدّه ، وأعقب ولداً اسمه منصور ، وله ذريّة .

والمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ : أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ ، وَهَكَذَا تُوفِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وعاشت والدته سيدي رابعة أم الفقراء بعده زمناً طويلاً ، وماتت في خلافة سيدي السيد شمس الدين محمد - رضي الله عنه - ليلة الجمعة ، النصف العاشر من شهر شوال ، سنة ثلاث عشرة وست مئة ، ودُفنت في المشهد المبارك الأحمدي .

وكانت جليلاً القدر ، عظيمة الشأن ، مباركة القلب واللسان ، مسموعة الكلمة .

وكانت تقف على ضريح زوجها سيدي أحمد ، وتكلمه ، وتأخذ منه الجواب .

ولم يُكْرَمَ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ بِالْوِلَايَةِ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا . . . إِلَّا وَكَانَتْ عَارِفَةً بِهِ وَبَطْرِيْقِهِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

/ وأما السيِّدةُ فاطمةُ ، والسيِّدةُ زينبُ رضي الله تعالى عنهما . . . فَإِنَّ سَيِّدَنَا السَّيِّدَ أَحْمَدَ - قَدَّسَ اللَّهُ أَسْرَارَهُ - زَوْجَ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ بَابِنِ أُخْتِهِ السَّيِّدَةِ سِتِّ النَّسَبِ ، أَعْنِي مَوْلَانَا السَّيِّدَ عَلِيًّا مُهَذَّبَ الدَّوْلَةِ ، ابْنَ السَّيِّدِ سَيْفِ الدِّينِ عَثْمَانَ (١) .

(١) وقد لُقِّبَ بهذا اللُّقْبِ . . . الخليفةُ الناصرُ لدينِ اللهِ أحمدُ ، كما أفاده الإمام أبو الحسنِ الواسطيُّ في « خلاصته » ص (٧٢) .
وقد كان السَّادَةُ الرَّفَاعِيَّةُ بَعْدَ وَفَاةِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ الرَّفَاعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهَا بِهِ - يَتَوَارَثُونَ الْوِلَايَةَ عَلَى الْبِلَادِ ، كَمَا يَتَوَارَثُونَ الْوِلَايَةَ الْقَلْبِيَّةَ .

وكان الوالي يُرْسَلُ مِنْ قِبَلِ الْخَلِيفَةِ بِشَرْطِ كَوْنِهِ تَحْتَ نَظْرِ شَيْخِ رُوقِ أُمِّ عَيْبَةَ . =

وزَوْجَ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ بِأَخِيهِ لِأُمِّ وَأَبِ مَوْلَانَا السَّيِّدِ عَبْدِ الرَّحِيمِ مُمَهَّدِ
الدَّوْلَةِ .

فالسَّيِّدُ عَلِيُّ . . . أَعْقَبَ مِنَ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الْقُطَيْبِيْنَ الْجَلِيلِيْنَ ، الْعَالَمِيْنَ
الْعَلَمِيْنَ : السَّيِّدُ مُحْيِي الدِّينِ ، إِبْرَاهِيمَ الْأَعْرَبَ ، وَالسَّيِّدَ نَجْمَ الدِّينِ أَحْمَدَ
الْأَخْضَرَ ، وَلَمْ تُعْقِبْ غَيْرَهُمَا .

وَتُوْفِيَتْ بِأُمِّ عَيْبَةَ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّ مِئَةٍ ^(١) ، وَدُفِنَتْ بِالْقُبَّةِ الْأَحْمَدِيَّةِ
الْمُبَارَكَةِ ، وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْخِصَائِصِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْكَرَامَاتِ الْجَزِيلَةِ ،
وَالْقُبُولِ الْعَظِيمِ .

رَأَى جَدِّي الشَّيْخُ عَمْرٌ رَسُوْلَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَنَامِ
وَالسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ هَذِهِ وَأَخْتُهَا السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ،
فَقَالَ :

فَاطِمَةُ فَاطِمَتِي ، وَزَيْنَبُ زَيْنَبِي ، بِنْتَايَ وَبِنْتَا وَلَدِي ، أَنَا أَحِبُّ أَهْلَ هَذَا
الْبَيْتِ يَا عَمْرُ .

= وهذه الألقاب ومثلها كانت تُمنح لمشايخ رُواقِ أُمِّ عَيْبَةَ مِنْ قَبْلِ الْخَلِيفَةِ فِي زَمَنِ
كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، « خِلَاصَةُ الْإِكْسِيرِ » ص (٧١ و ٧٢) ، نَقْلًا عَنِ الْحَدَادِيِّ مِنْ كِتَابِهِ
« رِبْعُ الْعَاشِقِينَ » .

(١) قَالَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ أَبُو الْحَسَنِ الْوَاسِطِيُّ - (ت ٧٣٣ هـ) - فِي كِتَابِهِ « رُوحُ
الْإِكْسِيرِ » ص (٢٢) عِنْدَ ذِكْرِ وِفَاتِهَا . . مَا نَصَّهُ :

« وَأَمَّا مَا ذَكَرُوا مِنْ أَنَّهَا تُوْفِيَتْ فَوْقَ السِّتِّ مِئَةَ . . فَهَفْوَةٌ مُؤَرَّخٌ لَا يُعْبَأُ بِهَا ، وَالَّتِي
تُوْفِيَتْ فَوْقَ السِّتِّ مِئَةَ . . زَوْجَتُهُ الثَّانِيَةُ » .

قُلْتُ : سَيَاتِي ذَكَرَهَا بَعْدَ أُسْطُرٍ ، فَافْطَنُ لَهَا .

فأفاق مندهشاً ، وُغِشِيَ عليه الليلُ كُلُّهُ ، فلَمَّا أصبحَ . . استأذَنَ على
السَيِّدَةِ فاطمةَ ، فلَمَّا صارتُ وراءَ حجابِهَا . . قالتُ له بصوتٍ حزينٍ ،
وخشيةٍ وأنينٍ ، قَبْلَ أن يتكلَّمَ :

جَدُّنا بَرُّ رحيمٍ ، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

وكانت قارئةً ، مُحَدِّثَةً ، صالحةً ، كثيرةَ الخشيةِ والعبادةِ والزُّهدِ ، قال
لي والدي :

حدَّثتني أختي الصَّالِحَةُ خديجةُ الفَارُوقِيَّةُ أَنَّهَا سمعتِ السَيِّدَةَ فاطمةَ تَنشُدُ
في مجلسِ دَرَسِهَا :

نَمُوتُ على التَّقْوَى ونُحْشَرُ في غَدٍ عَلَيَّ خَالِصِ الإِيمَانِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى
تَزَوَّجَ السَيِّدُ عَلِيُّ بَعْدَهَا بِنَفِيسَةَ بِنْتِ سَيِّدِي مُحَمَّدِ بْنِ القَاسِمِيَّةِ ، وهو من
أرحامِهِمْ ، فأولَدَهَا :

السَيِّدَ إِسماعيلَ ، والسَيِّدَ عثمانَ ، والسَيِّدَةَ عائِشَةَ ، والسَيِّدَةَ زينبَ ،
والسَيِّدَةَ خديجةَ ، والسَيِّدَةَ فاطمةَ ، وَعَقِبُهُمْ مُنتَشِرٌ^(١) .

(١) أقول : أما السَيِّدُ المعروفُ بِـ الكَيَّالِ ، فهو ابنُ السَيِّدَةِ فاطمةَ ذاتِ النورِ ،
بِنْتِ الإمامِ الكبيرِ السَيِّدِ أحمدَ الرِّفَاعِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَجْمَعِينَ ، وكذلك أختُ السَيِّدَةِ
خديجةُ .

قال أبو الحسن الواسطيُّ في «روح الإكسير» ص (٢٤ - ٢٥) . . ما نُصِّهُ :
توفيت والدتهُ وهو ابنُ سَتِّينِ ، وكانت ولادتهُ يومَ الجمعةِ ، الثامنَ عشرَ من ربيعِ
الأوَّلِ ، سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ وخمسينَ مئةً ، بحياةِ جَدِّهِ السَيِّدِ أحمدَ الرِّفَاعِي ، رَضِيَ اللهُ
عَنْهُمَا ، بعدَ ولادةِ أختِهِ السَيِّدَةِ خديجةَ بسنةٍ واحدةٍ ، فَرَبَّتُهُمَا السُّنَّ نَفِيسَةً زَوْجَةً =

= أبيهما ، وكثيراً ما يقولان لها : يا أمّاهُ ، فلذلك ظنَّ أكثرُ المؤرِّخين أنهما ولدا نفيسةَ المذكورةِ ، وذكرُوهما في كتبهم ، كشيخنا الفاروئيّ - قدسَ سرّه - في « نفحته » ، بأن قال بعد ذكر ولَدَي فاطمةَ السيّد إبراهيم الأعزبِ ، والسيّد أحمد نجم الدّين :
وتوفيت ولم تُخلّف غيرهما ، وتزوَّج بعدها بنفيسةَ بنتِ سيدي محمد بن القاسميّةِ ، فأولدها : السيّد إسماعيلَ ، والسيّد عثمانَ ، والسيّدَة عائشةَ ، والسيّدَة زينبَ ، والسيّدَة فاطمةَ ، والسيّدَة خديجةَ ، وعقبُهُم معلومٌ .
وتبعَ أثرهُ السيّد نظام الدّين ، نقيبُ واسطَ في « تَبَيُّه » ، وحَدَا حَدْوَهُ ، وكذا منه وعنه نقلتُ في مؤلّفي « خلاصة الإكسير » - ص (٣٤ - ٣٥) - .

وتواتر ذلك عن غيرِ صحبةِ يقينٍ ، والحقُّ ما قلناه هنا ، لما سَنَبَيْتُهُ مُوضَّحاً لِيُعْلَمَ .
وهو أنّهُ لما منَّ اللهُ عليّ بصحبةِ القطبِ الأُمجدِ ، والفردِ الأوحدِ ، سليلِ العُنصرِ المحمديّ ، وطِرَازِ العِقْدِ الأحمديّ ، شيخِ الإسلامِ والمسلمين ، وبِرَكَّةِ الأنامِ والمُوحّدين ، سيّدنا ومولانا أبي صالحِ السيّد محمد شمس الدّين ، بنِ القطبِ الوليّ السيّد صدرِ الدّينِ عليّ بنِ القطبِ الجوادِ ، السيّد عزّ الدّين أحمد الصيادِ ، بنِ السيّد عبد الرحيم الرّفاعيِّ ، قدسَت أسرارُهُم ، ونفَعنا والمُسلمينَ ببركتِهِم آمين ، المذكورِ في صدرِ هذا الكتابِ - ص (٥) - ، وقرأتُ عليه كتابي المُسمّى بـ « خلاصة الإكسير » ، فلمّا وصلتُ إلى ذكرِ السيّد إسماعيلَ في عبارتهِ المعلومَةِ . . قال :
أمسك! فنظرتُ إليه فرأيتُهُ قد غَضِبَ غَضَباً شديداً ، وتغيّرتُ أحوالُهُ ، وقالَ فوراً :

دَعَهُمْ يَخُوضُوا في الخِلافِ بِرِغْمِهِمْ إِنَّ الصَّوَابَ لَنَا لِعِلْمِكَ مُشْتَهَرٌ
وَأَسْمَعُ مَقَالَةَ جَدَّنَا وَأَصْغِي لَهُ : الحَقُّ يَنْطِقُ عَنِ لِسَانِكَ يَا عَمَرَ

وقال : فكيفَ جعلته ابناً لغيرِ والدتهِ السيّدَة فاطمةَ ، وهو آخرُ أولادِها ، وأختُهُ السيّدَة خديجةُ !؟ .

وأما السيّد عبد الرحيم . . فإنه أعقب من السيّدة زينب بنت الإمام الرّفاعي - رضي الله عنهم - ساداتنا :

السيّد شمس الدّين مُحَمَّدًا ، والسيّد قطب الدّين أحمد ، والسيّد أبا الحسن عليّ ، والسيّد عبد المُحسن أبا الحسن ، والسيّد أحمد أبا القاسم ، والسيّد عزّ الدّين أحمد الصيّاد ، والسيّدة عائشة ، والسيّدة فاطمة ، ولقبها : ملكة ، قدّس الله أرواحهم ، ونفعنا بهم .

وتوفيت السيّدة زينب بـ أمّ عبيدة سنة ثلاثين وستّ مئة ، ودُفنت بالقبة المباركة الأحمديّة .

وكانت من أعظم العارفات بالله ، حفّظت القرآن ، وتفقهت ، وسمعت من أبيها ومن خالها الشيخ أبي البدر الأنصاريّ الواسطيّ ، وسمع منها جدّي الشيخ الجليل عمر الفاروئيّ ، وأخذ عنها أولادها الأئمة .
ولها خوارق وكرامات كثيرة ، رواها الثّقاة ، منها :

= فالسيّد إسماعيل قد توفيت والدته السيّدة فاطمة - رضي الله عنها - وهو رضيع ، وأختة خديجة كان عمرها ثلاث سنين ، وقد ربّتها زوجة والدهما الستّ نفيسة ، ونشأ في حجرها ، وترّبيا مع أولادها الآخرين ، فلذلك أوهم بعض المؤرّخين .
ولقد سألت والدي السيّد صدر الدّين ؟ فأخبرني عن والده القطب السيّد عزّ الدّين أحمد الصيّاد ، عن ابن عمّه السيّد أحمد نجم الدّين الرّفاعي : بأن السيّد إسماعيل الأخ الأصغر . . هو من أبيه وأمه ، وكذا أختة خديجة ، وليس لنفيسة إلا السيّد عثمان ، والسيّدة عائشة ، والسيّدة زينب ، والسيّدة فاطمة ، وقال :
يا أخي ! هذه هفوة قلم ، فلا تغرّك قول بعض المؤرّخين ، فكم سابق يكم ، وكم صارم ينبو . انتهى ، وتأمّله فيه .

أنه أقبل على زُرُوعِ واسطَ والبَطَائِحِ الجَرَادُ ، فالتجأ الناسُ إليها ،
فتفتحت ، وصعدت السطح ، وقالت :

إلهي ! عبيدك ساقهم حُسنُ الظنِّ إليَّ ، وأنتَ الذي ألقيتَ ذلك في
قلوبهم ، وإني أقلُّ من أن أسألكَ لذُنُوبي وسوادِ وجهي ، وأنتَ أكرمُ من أن
تردَّ المنكرينَ ، يا أرحمَ الرَّاحمينَ .

فَرَمَّ الجَرَادُ زَمَّةً واحدةً ، وكأنه إبلٌ ساقها رُعَاتُها ، حتى لم يبقَ منه في
الديارِ الواسطيَّةِ جرادَةٌ واحدةً ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . انتهى .

أقول : وللإمامِ الرَّفَاعِيِّ أولادٌ آخرٌ ذكرهم في كتابه « البرهان »^(١) هذا ،
ماتوا كلُّهم أطفالاً ، قال سبطُه في « المعارف »^(٢) عند ذكرهم :

« ورزقَ القاسمَ ، وإبراهيمَ ، وعبدَ المُحسنِ ، وصالحاً قطبَ الدِّينِ ،
وماتوا كلُّهم أطفالاً ، سوى السيِّدِ صالحِ قطبِ الدِّينِ ، بلغَ إلى دونِ السَّبْعِ
عَشْرَةَ سنةً ، وتوفِّيَ في حياةِ أبيه » . انتهى .

أقول : وأما قولُ المُناوِيِّ في « الكواكبِ الدُّرِّيَّةِ »^(٣) : « ولم يُعقبْ ،
وإنما المشيخةُ لابنِ أُختِهِ ، رضي اللهُ تعالى عنهم » .

وقولُ ابنِ خَلْكَانَ في « وَفَيَاتِ الأعيانِ »^(٤) : « ولم يكنْ له عَقِبٌ ،
وإنما العقبُ لأخيه ، وأولادُه يتوارثون المشيخةَ والولايةَ على تلكِ الناحيةِ

(١) ص (٢٥١) .

(٢) ص (٥٨ - ٥٩) .

(٣) ٢ : ٢٢٧ .

(٤) ١ : ١٧٢ .

إلى الآن . فليس بصحيح . . لما علمت ، قال سبطه في « معارفه »^(١) :
 « وبقيت ذريته الطاهرة من بنيه الكريمين الوليين العارفين بالله ،
 السيدة زينب وهي والدتي وإخوتي رضي الله عنها ، وأختها السيدة
 فاطمة ، وهي أم سيدي إبراهيم الأعزب ، وسيدي نجم الدين أحمد ،
 نفعني الله بهم .

وذرية السيدتين المقدمتين المذكورتين . . من أبنني العم لأبيهما ، أعني
 والدي وعمي ، رحمهما الله ، ورضي عنهما » . انتهى .

قلت : وسبب غلطهم في هذا الأمر . . عدم وقوفهم على حياته بالمعنى
 الصحيح ، والاختصاص الصريح ، ولعل في كلام الشيخ الجليل أحمد
 القليوبي الشافعي في كتابه « تحفة الراغب »^(٢) بلاغاً لمن تدبر ، فإنه قال :
 « ولا يخفى عليك : أن المؤرخين من الأدباء والعلماء ورجال
 الطبقات . . على قسمين :

الأول منهم : وهم الأدباء ، قسم صرف همته لسرد حوادث الملوك
 والحروب والوقائع ، مع درج اللطائف الأدبية ، والفكاهة الشعرية ، فأهمل
 حقوق مثل هذا السيد الجليل ، واختصر ترجمته ، فقال :

وفي سنة كذا مات فلان . وتكلف كل التكلف فكتب بشأنه سطرأ أو
 سطرين ، ورجع لما هو عليه من طريقته التي ذكرناها .

(١) ص (٥٩) .

(٢) انظر « التاريخ الأوحى » ص (٢٩ و ٣٣ - ٣٤) ، للسيد الجليل محمد

أبي الهدى الصيادي ، رحمه الله عليه .

والثاني : وهم العلماء ، منهم على الغالب متى أتوا بذكر شيخ من الزهاد والصوفية . . أعينهم الحيل ، وحاروا! فتارة يمدحون ، وتارة يعترضون ، ويريدون الإطالة ويمنعهم التعصب لمذهبهم ومشرَبهم ، وإذا اقتصروا . . سدَّ بابُ الفائدة .

فترى تراجمَ الشيوخ الكاملين مذكورة في التواريخ والطبقات ولكن كأنها لم تُذكر بسبب هاتين العلتين البارذتين^(١) .

/ ولذلك فما بقي للوقوف على حقائق أنسابهم وأحسابهم ومذاهبهم ومشاربهم . . إلا مطالعة كتبهم وآثارهم ، والكتب التي ألفها بشأنهم جماعة من كمل أتباعهم وأنصارهم . انتهى .

كراماته :

قال سبطه الفردُ المُقدَّم ، مولانا الجُدُّ السيِّدُ عزُّ الدِّينِ أحمدُ الصيَّادُ - رضي الله عنه - في كتابه « المعارف »^(٢) عند ذكرها . . ما نصه :

« وأما ما منَّ اللهُ به عليه من قلب الأعيان ، وخرق العادة ، وسريان السرِّ فيه وباسمه أيضاً . . فهو شائع مشهور ، متواتر على ألسن العرب والعجم ، وفي الهند والعراق والحجاز والديلم :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتجَّ النهارُ إلى دليل

(١) كقول ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١ : ١٧٢ عند ذكر عقب السادة

الرفاعية رضي الله تعالى عنهم :

« وأمورهم مشهورة مستفيضة ، فلا حاجة إلى الإطالة فيها! » .

(٢) ص (٥٩) .

وسيد كراماته . . تقبيل يد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد أقيمت بها بطون الدفاتر ، ورعفت بها ألسن الأقلام ، وسالت بها دموع المحابر ، سارت بها الركبان ، وتواتر خبرها في البلدان^(١) .

ومن أبرع كراماته . . كلماته الممزوجة بعذوبة لسان النبوة ، القائمة بالإعجاز لعجائب ما فيها من حُسن الانسجام ورقّة المعنى وحُسن البيان « . انتهى .

أقول : إن تقبيل الإمام الرفاعي السيد أحمد - رضي الله عنه - يد جدّه سنة خمس وخمسين وخمسة مئة (٥٥٥ هـ) . . تواتر ذكرها ، واشتهر أمرها ، وبلغت مبلغ القطع البتّ .

ولم يمتر فيها إلا من أحالها على العقل ، واستبعد وقوعها وتصور حدوثها ، واستعجز قدرة الله تعالى .

ولقد طلب لها المنكرون أسانيد كأسانيد الحديث الشريف ، ولم يفرقوا بينها وبينه ؛ لأنّ الحديث كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفيه التشريع والأحكام والأعمال الزائدة ، وإحداث الشيء في الدين الذي لم يكن ليكون إلا من طريقه صلى الله عليه وسلم .

أما قصة مدّ اليد النبوية للسيد أحمد ، فهي حادثة تاريخية ، وواقعة زمانية ، لا يُشترط لها ما يُشترط للحديث الشريف ، فلها من يُصدّقها ،

(١) للوقوف على قصة مدّ اليد النبوية الشريفة لمولانا السيد الكبير أحمد الرفاعي رضي الله عنه . . عليك بكتاب « الكثر المطلسم » ، للسيد محمد أبي الهدى الصيادي رحمة الله عليه ، بتحقيقنا ، ففيه الوفاء بهذا الأمر .

وَيُوجَدُ مَنْ يُنْكِرُهَا ، وَلَمْ تُؤْتَرْ عَنْ غَيْرِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَقَدْ أَلْفَ بِشَأْنِهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ وَالْوِلَايَةِ ،
وَنَاهِيكَ مِنْهُمْ بِالْإِمَامِ الْحَافِظِ الْعِزِّ الْفَارُوقِيِّ ، أَحْمَدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرٍ .
تَرْجَمَ لَهُ الْإِمَامُ الشُّبْكِيُّ وَغَيْرُهُ^(١) ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِ ، وَرَفَعَ مِنْ شَأْنِهِ ،
وَأَشَارَ إِلَى فَضْلِهِ وَعِلْمِهِ وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ .

فَقَدْ ذَكَرَ الْقِصَّةَ فِي كِتَابِهِ « إِرْشَادَ الْمُسْلِمِينَ » ، وَرِسَالَتِهِ « النِّفْحَةُ
الْمِسْكِيَّةَ » ، وَنَصَّ عَلَى وَقُوعِهَا ، وَذَكَرَ أَنَّهُ شَاهَدَ خَمْسَةَ رِجَالٍ مِمَّنْ رَأَوْا
الْيَدَ النَّبَوِيَّةَ يَوْمَ أَنْ مُدَّتْ لِلسَّيِّدِ أَحْمَدَ ، وَذَكَرَ مَنْ حَضَرَهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ
وَالطَّرِيقَةِ .

وَقَدْ جَمَعَ مَصَادِرَهَا وَاسْتَوْعَبَهَا فِي مَوْئِفٍ . مَوْلَانَا الْعَلَامَةُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ
أَبُو الْهَدْيِ الصِّيَادِيُّ فِي كِتَابِهِ النَّافِعِ « الْكَنْزُ الْمَطْلُوسُ » .

فَمَنْ طَالَعَ الْكِتَابَ الْمَذْكُورَ ، وَقَرَأَهُ بِإِنصَافٍ دُونَ اعْتِسَافٍ . . يَعْلَمُ أَنَّ
لِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ وَاقِعاً وَجِدّاً وَكَانَ ، وَنَقَلَهُ الْأَئِمَّةُ الْأَعْيَانُ ، وَاسْتَوْدَعُوهُ فِي
تَوَالِفِهِمْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْإِذْعَانِ .

قَالَ الْحَافِظُ الْعِزُّ الْفَارُوقِيُّ فِي كِتَابِهِ « إِرْشَادَ الْمُسْلِمِينَ »^(٢) عِنْدَ ذِكْرِهَا . .
مَا نَصَّهُ :

« وَلَا زَالَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَنْشُرُ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَيَعِظُ الْأُمَّةَ ، وَيَنْوِبُ عَنِ

(١) فِي « طَبَقَاتِهِ » ٨ : ٦ - ١٥ .

(٢) ص (٣٣ - ٣٥) .

النبي - صلى الله عليه وسلم - بإحياء السنة ، ويُنهض همَّ السالكين إلى الله . . حتى جاءت سنة خمس وخمسين وخمسة مئة .

وكان في جماعة من أعاضِم أولياء العصر ، كانوا مجتمعين عنده في زيارته ، وقد خرجَ بهم إلى شاطئ نهر دَقْلَى ، وجلسوا جميعاً يتحدثون بغرائب الأسرار الإلهية .

وفي ذلك المجلس . . صاح السيدُ أحمدُ : الله ! .

ثمَّ قامَ وجلسَ مُصَفَّرَ اللَوْنِ ، غائِباً عن نفسه زماناً طويلاً ، فلما حَضَرَ . . سأَلوه عن الواردِ السَّمَاوِيِّ الذي ظَهَرَ له ؟ فقال :

نُودِيْتُ مِنَ العُلَى : أَنْ يَا أَحْمَدُ! قُمْ وَرُزُّ جَدَّكَ المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . فَإِنَّ هُنَاكَ أَمَانَةً يُودِّيها إِلَيْكَ ، وَخُذْ مَعَكَ مَنْ شِئْتَ .

والتفتَ بعدَ هذا إلى الحاضرين ، وقال : ما قولكم في هذه الإشارةِ ؟ فقام رجلٌ منهم^(١) ، وقال :

مُرْ كُلَّ أَمْرٍ فَإِنَّا لَا نَخَالِفُهُ وَحُدَّ حَدًّا فَإِنَّا عِنْدَهُ نَقِفُ

فقام مِنْ مجلسِهِ ، وقامَ مَعَهُ الجماعةُ ، وجاءَ إلى رِباطِهِ السَّعِيدِ ، واشتغلَ بالتهنئةِ إلى السفرِ إلى الحجازِ .

فتهيأَ مَعَهُ خَلْقٌ لَا يُخَصَّوْنَ لكثرتهم ، وَغَصَّتْ صَحَارَى واسطَ بالقوافِلِ .

حَدَّثَنِي الشَّيْخُ الصَّالِحُ الثَّقَةُ أَبُو الْمُظَفَّرِ بْنِ الشَّيْخِ عَلِيِّ الطَّبْرِيِّ ، عَنْ

(١) وهو السيدُ عبدُ الرزَّاقِ الحُسَيْنِيُّ ، كما في « تريباق المحبين » ص (١٢) .

الشيخ ماهان أبي الفتح العباداني ، خادم سيدنا السيد أحمد رضي الله عنه ، قال :

مِنْ حِينَ خَرَجْنَا مِنْ أُمَّ عَبِيدَةَ إِلَى أَنْ صَعِدْنَا جَبَلَ عَرَفَاتٍ وَدَخَلْنَا الْحَرَمَ الْمُبَارَكَ الْمَكِّيَّ ، وَالْحَرَمَ الشَّرِيفَ النَّبَوِيَّ ، لَمْ أَرَ سَيِّدِي السَّيِّدَ أَحْمَدَ أَكَلَ طَعَاماً ، وَلَا هَجَعَ اللَّيْلَ ، وَلَا رَأَيْتُهُ قَعَدَ لِلخَلَاءِ ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ ؟ فَقَالَ :

أَيُّ وَلَدِي ! بَارَكَ اللهُ بِكَ ! أَكْتُمُ مَا أَرَاكَ اللهُ ، وَلَا تَقُلْ لِأَحَدٍ .

أَيُّ مَاهَانَ ! لَوْ أَكَلْتُ . . . لِأَعْيَانِي الْأَكْلُ ، وَقَدْ حَمَانِي رَبِّي بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ، الْآيَةَ .

وَكَانَ وَجْهُهُ الشَّرِيفُ يَتَهَلَّلُ بِالنُّورِ ، وَلَمْ يُغَيِّرْهُ الْجُوعُ ، فَعَجِبْتُ فِي سِرِّي لِهَذَا الْأَمْرِ ، فَكُوشِفَ بِنِي سِرِّي ، فَقَالَ :

أَيُّ حَاجٍ مَاهَانَ ! لَا تَعْجَبْ ! فَإِنِّي بَشَرٌ ضَعِيفٌ ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ كَرَمِهِ يُسْعِفُ الضُّعْفَاءَ ، وَيُصَبِّرُهُمْ ، وَهُوَ لَهُمْ سُبْحَانَهُ ^(١) .

(١) قال الشيخ الجليل التاج الشبكي في « طبقاته » ٨ : ٨ . . ما نصه :

« وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ إِذْنًا خَاصًّا : أَنَّ عَلَاءَ الدِّينِ الْكِنْدِيَّ ذَكَرَ لَهُ : أَنَّ الشَّيْخَ عَزَّ الدِّينَ الْفَارُوقِيَّ شَاهِدًا بِالْعِرَاقِ رَجُلًا مَكَتَ سَنِينَ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ . قَالَ شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : وَقَدْ حَدَّثَنِي عِدَّةٌ أَتَقُّ بِهِمْ : أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ بِالْأَنْدَلُسِ بَقِيَتْ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً لَا تَأْكُلُ شَيْئًا ، وَأَمْرُهَا مَشْهُورٌ .

ذَكَرَ شَيْخُنَا ذَلِكَ فِي تَرْجُمَةِ أَبِي الْعَبَّاسِ عَيْسَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى الطَّهْمَانِيِّ اللَّغَوِيِّ ، وَقَدْ أوردَ مَا ذَكَرَهُ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ فِي « تَارِيخِ نَيْسَابُورِ » : مِنْ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا زَكْرِيَا الْعَنْبَرِيَّ يَقُولُ :

وكان جدِّي الإمامُ الفقيهُ أبو الفرجِ عمرُ الفارُوثيُّ مِنْ حُجَّاجِ ذلك العامِ .
أخبرني أبي الحافظُ مُحيي الدِّين أبو إسحاق إبراهيمُ ، عن أبيه الشيخِ
عمرَ أنه قالَ له :

كنتُ معَ سيِّدنا ومَفزَعِنَا وشيخِنَا السيِّدِ أحمدَ الكبيرِ الرَّفَاعِيِّ الحُسَيْنِيِّ
- رضي اللهُ عنه - عامَ حَجِّه الأوَّلِ ، وذلكَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وخمسِ
مئةٍ ، وقد دَخَلَ المدينةَ المنوَّرةَ يومَ دخوله إليها قوافلُ الزُّوَّارِ مِنَ الشَّامِ
والعراقِ واليمنِ والمغربِ والحجازِ وبلادِ العجمِ ، وقد زادوا عن تسعينَ
ألفاً .

فلَمَّا أشرفَ على المدينةِ المنوَّرةِ . . . ترَجَّلَ عن مَطِيئِهِ ، ومشى حافياً إلى
أن وصلَ الحَرَمَ الشريفَ المحمديَّ ، ولا زالَ حتى وقفَ تُجَاهَ الحُجْرَةِ
العَطْرَةِ النبويَّةِ ، فقالَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا جَدِّي . فقالَ لَهُ - عليه أفضلُ الصَّلَوَاتِ وَأزكى
التسليماتِ - : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا وَلَدِي .

سمعَ كلامه الشريفَ كُلُّ مَنْ فِي الحَرَمِ النبويِّ .
فتواجَدَ لهذه المِنْحَةِ العظيمةِ ، والنَّعمَةِ الكبرى ، وَحَنًّا ، وَأَنَّ ،
وبكى ، وَجَنًّا على رُكْبَتَيْهِ مرتعداً ، ثم قامَ وقالَ - غائِباً عن نَفْسِهِ ، حاضراً
مع أَنْسِهِ - :

= سمعتُ أبا العباس ، فذكرَ قصةَ المرأةِ التي لا تأكلُ ولا تشربُ » . انتهى .
قلتُ : وساقَ الإمامُ الشُّبَكِيُّ قِصَّتَهَا كما وردتُ في « تاريخِ » الحاكمِ ، فارجع
إليها إذا شئتَ .

فِي حَالَةِ الْبُعْدِ رُوْحِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا تَقْبَلُ الْأَرْضَ عَنِّي وَهِيَ نَائِبَتِي
وَهَذِهِ دَوْلَةُ الْأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ فَأَمْدُدْ يَمِينَكَ كَيْ تَحْطَىٰ بِهَا شَفَتِي

فَمَدَّ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدَهُ الشَّرِيفَةَ النُّورَانِيَّةَ مِنْ قَبْرِهِ
الْأَزْهَرِ الْكَرِيمِ ، فَقَبَّلَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ .

وقد كان في الحرم الشريف الألوْفُ حينَ خُرُوجِ الْيَدِ الطَّاهِرَةِ
المحمدية .

وكان من أكابرِ العصرِ فيمنَ حضرَ : الشيخُ حياةُ بنُ قيسِ الحَرَانيِّ ،
والشيخُ عديُّ بنُ مسافرٍ ، والشيخُ عقيلُ المنبجِي .
وهؤلاء الثلاثةُ . . لَبِسُوا خِرْقَةَ السَّيِّدِ أَحْمَدَ - رضي اللهُ عنه وعنهم - بذلك
اليومِ ، واندرجوا بِسِلْكِ أَتْبَاعِهِ .

وكان فيمنَ حضرَ : الشيخُ أحمدُ الكبيرُ الرَّعْفَرَانِي ، والشيخُ عبدُ القادرِ
الجِيلَانِي ، والشيخُ أحمدُ الزَّاهِدُ الأنصاريُّ ، والشيخُ شَرَفُ الدِّينِ
أبو طالب بنُ عبدِ السميعِ الهاشميِّ العباسيِّ ، وخلائقُ .

وكلُّهم تَبَرَّكُوا وتَشَرَّفُوا برؤيا يَدِ المَحمديةِ بِبَرَكَتِهِ رضي اللهُ عنه ،
وبايعوه هم ومنَ حضرَ على المشيخةِ عليهم وعلى أتباعهم ، رَحِمَهُمُ اللهُ
تعالى . انتهى .

قلتُ : قال العِزُّ في « النَفْحَةِ »^(١) عند ذَكرِها : « وقد أدركتُ - بحمدِ اللهِ -

خمسة رجالٍ من حُجَّاجِ ذلك العامِ ، ومنَ الذينَ تشرَّفوا بذلكَ المشهدِ الكريمِ ، نفعنا اللهُ بهم . انتهى .

أقول : ذكرهم بأسمائهم في « الإرشاد »^(١) فقال :

« ومنَ نعمِ اللهِ عليَّ : أنَ والدي - رَحِمَهُ اللهُ - توجَّهَ منَ الفَارُوثِ سنةَ اثنين وعشرين وِسِتِّ مئةٍ إلى أُمِّ عَبِيدَةَ ، وعُمري يومئذٍ ثمان سنين . فحملني معه للزيارة والتشرُّفِ بالموسمِ الأحمدِيِّ ، فدخلنا أُمَّ عَبِيدَةَ في خلافةِ شيخنا ومولانا السيِّدِ شمسِ الدِّينِ محمدِ الرُّفَاعِيِّ ، سبَطِ النَّفْسِ النَّفِيسَةِ الرُّفَاعِيَةِ .

فأفردَ لوالدي غُرْفَةً في الرَّوَّاقِ ، وقد ضربَ الوفودُ والمُحِبُّونَ الأخصاصَ^(٢) والخيامَ حولَ أُمِّ عَبِيدَةَ ، وقد امتلأتِ الصَّحَارَى والبِلَادُ والنَّوَاهِي مِنَ الزُّوَّارِ .

ففي يومِ الجمعةِ . . فتحو قُبَّةَ المشهدِ الشَّريفِ الأحمدِيِّ ، وجاءَ الناسُ الوفاً الوفاً للزيارةِ .

فأخذَ أبي بيدي ، ووقفنا ، وإذا بشيخٍ كبيرِ السِّنِّ ، جليلِ القَدْرِ ، فحملني والدي إليه ، وقبَّلَ والدي يَدَهُ ، وأمرني فقبَّلْتُ يَدَهُ ، وسأله لي وله الدُّعَاءَ ، فدعا لنا ومشى .

فقال لي والدي هذا الشيخُ : أحمدُ بنُ عبدِ المحمودِ الرُّبَعِيِّ ، هو منَ

(١) ص (٣٥ - ٣٦) .

(٢) جمعُ : خُصٌّ ، وهو البيتُ منَ القَصَبِ ، « مختار الصَّحاح » ص (١٧٧) ،

مادة : « خص » .

الذين كانوا عامَّ مُدَّتْ يَدُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلسَّيِّدِ أَحْمَدَ الرَّفَاعِيِّ
رضي الله عنه ، وراها فيمن تشرف برؤيتها .

وبعد قليل . . . جاء شيخ آخر ، ففعل والدي كما فعل أولاً ، وقبّل يده ،
وأمرني بتقبيل يده ، وبعد انصرافه للزيارة ، قال لي :

وهذا من حجاج عام مدّ اليد ، وهو الشيخ ، مبارك بن جعفر الأونيوي .

وبعد قليل . . . جاء شيخ آخر ، ففعل والدي كالأول ، وبعد ذهابه قال
لي : وهذا من حجاج عام مدّ اليد ، وهو الشيخ : عبد الرحمن بن علي
الدّعيني .

ثم جاء رجل آخر ، ففعل والدي كالأول ، وبعد ذهابه قال لي : وهذا
من أولئك ، وهو الحاج : رمضان بن عبد البر بن عبدونه .

ثم جاء رجل آخر فقبّل يده ، وفعل كما فعل بالأول ، وبعد ذهابه للزيارة
قال لي : وهذا منهم ، وهو الشيخ الجليل : عبد المحسن الأنصاري
الواسطي رضي الله عنهم .

ورأيت الناس يزدحمون على كل واحد منهم ، ويُقبّلون يده وقدميه ،
ويعلو النحيب والبكاء من الجميع ، وذلك لتذكّار عهد اليد الشريفة ومن
مدّت له ، رضي الله عنه .

أمرُ بَقِيَعَانَ الحِمَى بَعْدَ أَهْلِهَا أَعْفَرُ شَيْبِي بَاكِياً بِرَأْسِهِمْ
وَأَطْرُقُ أَطْرَافَ الطَّرِيقِ مُوَلَّهَا لَعَلِّي أَرَاهُمْ أَوْ أَرَى مَنْ رَأَاهُمْ

سَلَامُ اللَّهِ ورضوانه على هذا السَّيِّدِ الْأَصِيلِ ، الذي نَصَبَهُ اللَّهُ نَائِباً عَنْ
جَدِّهِ صَاحِبِ جَبْرِيلَ ، عَلَيْهِ صَلَوَاتُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ .

وقد خضعَ بعدَ هذه العنایة المحمديَّة للحضرة الرَّفَاعِيَّةِ رِقَابُ الْقَوْمِ ،
وصارَ بابُهُ مُسْتَمَدًّا أَكْبَرَهُمْ مِنْ عَهْدِهِ الشَّرِيفِ إِلَى الْيَوْمِ .
ولا بَرَحَتْ هذه النِّعْمَةُ هَاطِلَةً ، والعنایة متواصلةً .

وقد عوَّلَ عليه رجالُ عصرِهِ ، واندرجوا في مقامِ التَّربِيَةِ تحتَ سَطْوَةِ نَهْيِهِ
وَأَمْرِهِ .

فهم أتباعُهُ في العَقْدِ والحَلِّ ، وهو شَيْخُهُمْ بِلِ وشَيْخُ الكُلِّ في الكُلِّ :

كَتَبَتْ يَدُ الْإِحْسَانِ رُقْعَةً عَهْدِهِ بِمَدَادِ بُرْهَانِ جَلِيِّ لَمْ يَزَلْ
أَبَدِيَّةً تِلْكَ السَّعَادَةُ ، كَوْنُهَا قَامَتْ بِإِحْسَانِ الْقَدِيمِ مِنَ الْأَزَلِ «

مَرْحَمَةُ كَاتِبَتِي *** سِدِّي

وقال شيخُ الإسلامِ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ سِرَاجُ الدِّينِ الرَّفَاعِيُّ الْحُسَيْنِيُّ ثُمَّ
المخزوميُّ - رضي اللهُ عنه - في كتابه «صَحَاحُ الْأَخْبَارِ»^(١) . . ما هو
بحروفِهِ :

« وأما كراماتُهُ رضي اللهُ عنه . . فأعظَمُها مَدُّ يَدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - جِهَاراً عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَكَلَامُهُ مَعَهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ
وَيَسْمَعُونَ .

ومن كراماتِهِ العَلِيَّةِ . . ما رواه الجَمُّ الغَفيرُ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَنَقَلَهُ

الثقات الأثبات في كتب كثيرة ، وهو : أن السيّد أحمد - رضوان الله عليه - كان على شاطئ نهر أمّ عبيدة مع جم غفير من أصحابه ، فقال :

نشتهي اليوم أن نأكل سمكاً . فما تمّ كلامه حتى خرج إلى شاطئ النهر من الأسماك ما لم ير مثله قبل ذلك اليوم .

فأخذة الفقراء ، وشوؤة ، وأكلوا حتى شبّوا ، وبقي من هذه السمكة رأسها ، ومن هذه بعضها ، فقال بعض أصحابه :

أي سيدي ! ما علامة الرجل المتمكّن ؟ .

قال : علامته أن يقول لهذه الأسماك التي في الطواجن : قومي وأسعي بإذن الله ، فتقوم وتسعي .

ثم ألتفت إلى الطواجن ، وأشار إلى بقية الأسماك ، وقال : أيتها العظام ! عودي كما كنت بإذن الله تعالى .

فوثبت الأسماك صحيحة حيّة كما كانت ، وذهبت في الماء من حيث أتت .

قال الإمام عبد الكريم الرافعي حين ذكر هذه المنقبة : ولا يخفى ما في هذه الكرامة من المشابهة الجليلة بمعجزة عيسى عليه السلام .

والقاعدة المقررة عند العلماء : ما جاز أن يكون معجزة لنبي . . جاز أن يكون كرامة لولي ، كما هو معلوم . انتهى .

قال شيخنا الإمام عبد الكريم الرافعي القزويني ، وشيخنا الإمام الجليل سلطان المحدثين الشيخ عز الدين أحمد بن إبراهيم بن عمر الفاروثي

الكَازِرُونِي ، وَشَيْخُنَا الْحَافِظُ تَقِيُّ الدِّينِ الْوَاسِطِي ، وَجَمَاعَةٌ يُعَوِّلُ فِي
النُّقُولِ الدِّينِيَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَيَرْجِعُ فِي الْأَصُولِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَيْهِمْ :

بَلَغَتْ كَرَامَاتُ السَّيِّدِ أَحْمَدَ الرَّفَاعِيِّ وَوَلَايَتُهُ وَصِحَّةُ طَرِيقِهِ وَفَرْدَانِيَّتُهُ فِي
وَقْتِهِ مَبْلَغَ الْقَطْعِ ، وَثَبَّتْ بِالتَّوَاتُرِ الْبَثِّ ، نَقَلَهَا السَّلْفُ عَنِ الْخَلْفِ ، وَهِيَ
مُسْتَفِيضَةٌ لَا يَمْتَرِي فِيهَا غَيْرُ الْمَمْقُوتِينَ ، وَلَمْ يَبْلُغْ وَلِيٌّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ هَذَا
الْمَبْلَغَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قُلْتُ : أَنَا أَقُولُ بِذَلِكَ كَذَلِكَ ، وَأَقُولُ فَوْقَ ذَلِكَ :

عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ لَنَا دَلِيلٌ وَفَوْقَ دَلِيلِنَا ضَوْءُ النَّهَارِ «
أَقُولُ : وَلَيْسَ هَذَا الْمَحَلُّ مَكَانَ بَسْطِهَا وَالْإِشَارَةِ إِلَى جُمْلَتِهَا ، وَالْمَوْفُوقُ
الْمُؤْمِنُ يَقْنَعُ بِوَاحِدَةٍ ، وَالْجَاحِدُ الْمُنْكَرُ لَا يُؤْمِنُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَلَوْ
جَاءَتْهُمْ حَتَّى تُصِيبَهُ مِنَ اللَّهِ غَفْلَةٌ ، وَيَلْحَقَهُ طَرْدٌ وَبُعْدٌ مِنْهُ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ
مِنْ ذَلِكَ .

وَفَاتَهُ :

قَالَ سِبْطُهُ السَّيِّدُ الصَّيَّادُ فِي «مَعَارِفِهِ»^(١) : «تُوفِّيَ سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا
الْمُشَارُ إِلَيْهِ ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ : سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِينَ مِثَّةً بِأُمِّ عَبِيدَةَ ،
وَكَانَ آخِرُ كَلَامِهِ . . لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ .

وَدُفِنَ بِمَرْقَدِهِ السَّعِيدِ فِي رِوَاقِهِ الْمُبَارَكِ بِقُبَّةِ جَدِّهِ لِأَمِّهِ الشَّيْخِ الْأَعْظَمِ

يحيى النَّجَارِيُّ الأَنْصَارِيُّ - رضي اللهُ عنه - مُحَاذِيًا لَهُ ، إِلاَّ أَنَّ رَأْسَ قَبْرِهِ الْمُبَارِكِ ، يَسْبِقُ قَبْرَ جَدِّهِ نَحْوَ الْبَابِ بِمَقْدَارِ ذِرَاعٍ إِجْلَالًا لِمَقَامِهِ ، نَفَعَنَا اللهُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ . انتهى .

وقال شيخُ الإسلامِ السَّيِّدُ السَّرَاجُ - رضي اللهُ عنه - في « صَحَاحِهِ »^(١) :
 « وَتُوفِّيَ - رضي اللهُ عنه - يَوْمَ الْخَمِيسِ ، الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسٍ مِئَةٍ ، بِبَلَدَةِ أُمِّ عَيْيِدَةَ . . . وَهُوَ مِنَ الْعُمَرِ سِتًّا وَسِتُّونَ سَنَةً وَأَشْهُرًا » .

وقال أبو الحَسَنِ الوَاسِطِيُّ في « الْخُلَاصَةِ »^(٢) : « . . . وَهُوَ مِنَ الْعُمَرِ سِتًّا وَسِتُّونَ سَنَةً ، وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ » .

قلتُ : فَقَوْلُ الْإِمَامِ الشَّعْرَانِيِّ في « طَبَقَاتِهِ »^(٣) : « تُوْفِي سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِئَةٍ » .

وقَوْلُ الْإِمَامِ الذَّهَبِيِّ في « دَوْلِ الْإِسْلَامِ »^(٤) : « وَقَدْ قَارَبَ الثَّمَانِينَ » . . . لَيْسَ فِيهِ مِنَ الصَّحَّةِ شَيْءٌ ، وَإِنَّمَا الصَّوَابُ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ ، وَالْحَقُّ مَا سَطَّرْتُهُ فِي هَذِهِ التَّرْجُمَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قال الإمامُ الحَافِظُ في « تَرْيَاقِ الْمُحِبِّينَ »^(٥) : « كُنْتُ فِي دِمَشْقَ أَقْرَأُ

(١) ص (١٣٨ - ١٣٩) .

(٢) ص (٦٩) .

(٣) ص (٢١٣) .

(٤) ٢ : ٨٤ .

(٥) ص (٣٧) .

الوعظ في جامعها ، فذكرت السيّد أحمد الرّفاعي رضي الله عنه ، فقام رجل من أهل دمشق وقال :

كم كان عمُرُ السيّد أحمدَ ؟ يعني : كم عاش من السنين ، فقلت :
عُمُرُهُ . . شُغْلُهُ مُدَّةَ عُمُرِهِ .

فأشكَلَ عليه ، فقال : وما شُغْلُهُ مُدَّةَ عُمُرِهِ ؟ فقلت : اللهُ . ففَطِنَ لها بعضُ الحاضرين ، وأحصَوْها بِعَدَدٍ أبجد ، فَعَرَفُوا أَنَّ عُمُرَهُ : سِتُّ وَسِتُّونَ سَنَةً .

وقد رثاه يوم وفاته الشعراء والعلماء ، وأكثرُوا حتّى بلغت مرثيته إلى ألف قصيدة ، جمعها بعضُ مُحِبِّيهِ في ثلاثِ مُجَلَّدَاتٍ .

منها : ما قاله حين لَحْدِهِ شاعرُ الرّواقِ الأحمديّ ، نجمُ الدّينِ أبو الغنائم الواسطيّ ، وهي هذه القصيدةُ الفريدةُ :

تَنصَّلَ طَوْرُ العَصْرِ مِنْ رَوْنِقِ الشَّكْلِ	وَدُكَّ ضَحَى طَوْدِ المَكَارِمِ وَالْفَضْلِ
وَكُوْرَتِ الشَّمْسُ المُنِيرَةُ فِي الثَّرَى	وَحَلَّتْ عُرَى العِرْفَانِ وَالعَقْدِ وَالْحَلِّ
وَقَدْ خُسِفَ البَدْرُ الَّذِي عِنْدَ بُرْجِهِ	مَوَاقِعِ زُهْرِ الأفقِ كَالهَامِ وَالرَّجْلِ
وَأظْلَمَتِ الدُّنْيَا وَحَلَّ بِأهلِهَا	مُصَابٌ ، طَوَى جَمْرَ التَّلْهُفِ فِي الكُلِّ
قَضَى نَجْبَهُ الفَرْدُ الرّفاعيُّ أَحْمَدُ	سِرَاجُ بِلَادِ اللهِ فِي الوَعْرِ وَالسَّهْلِ
سَلِيلُ رَسولِ اللهِ إِبْنُ أبْنِ عَمِّهِ	أَبُو العَلَمَيْنِ الطَّيِّبِ القَوْلِ وَالفِعْلِ
إِمَامُ الهُدَى شَيْخُ الطَّرَاقِ ، قُطْبُهَا	سَحَابُ النَّدَى بَحْرُ العَوَارِفِ وَالبَدْلِ
بَقِيَّةُ فِرْعَ أَكْرَمِ الخَلْقِ أَصْلُهُ	فَأكْرِمُ بَفِرْعِ نَابِ فِينَا عَنِ الأَصْلِ !

وَجَدَّدَ أَمْرَ الدِّينِ أَعْلَى دِعَامَةَ الْ
 وَأَوْضَحَ أَسْرَارَ السُّلُوكِ، وَقَدْ مَحَا الـ
 عَلَى فِتْرَةٍ حَيًّا فَأَحْيَا كَمَا الْحَيَا
 هَوَتْ قُبَّةُ الْإِحْسَانِ يَوْمَ وَفَاتِهِ
 وَمُقَلَّةُ دِينِ اللَّهِ حُزْنًا بَكَتْ دَمًا
 وَأُمُّ الْعُلَى الثَّكَلَى تَحَاوَلُ مِثْلَهُ
 يَدٌ كَانَتْ لِلرَّحْمَنِ قَبْضَةً عَهْدَهَا
 وَجُودٌ وَأَخْلَاقٌ عِظَامٌ وَحِكْمَةٌ
 وَصِدْقٌ وَصَبْرٌ خَالِصٌ وَتَوَاضَعٌ
 وَسَيْرٌ عَلَى إِثْرِ الرَّسُولِ وَسِيرَةٌ
 وَعَزْمٌ حُسَيْنِيٌّ الْوَحَا وَعَزِيمَةٌ
 وَعَقْلٌ لَهُ رَأْيٌ يُدِيرُ رَحَى الْوَرَى
 وَبَأْسٌ لَدَيْهِ الْأَسْدُ صَرَغَى ، وَهَيْمَةٌ
 وَفَتْحٌ بِلا شَطْحٍ وَجِدٌّ بِلا هَوَى
 وَوَجْهٌ بِهِ نُسْقَى الْغَمَامَ ، وَنَيْةٌ
 وَذِكْرٌ بِالْوَاكِفِ الْمَعَالِي مُخَلَّدٌ

شَّرِيعَةٌ ، أَحْيَا بِالثَّقَفَى رُمَّةَ النَّقْلِ
 شُكُوكٌ بِعِرْفَانِ ثَوَى سِدْرَةَ الْعَقْلِ
 قُلُوبًا عَفَتْ بِالْإِنْكَسَارِ وَبِالذُّلِّ
 وَكَبْكَبَةُ الْعَلِيَا مُمَزَّقَةُ الشَّمْسِ
 لِصَمُصَامِ عِلْمٍ قَدَّ سِلْسِلَةَ الْجَهْلِ
 وَقَدْ عَقِمَتْ أُمُّ الزَّمَانِ عَنِ الْمِثْلِ
 مَتَى أَنْبَسَطَتْ فَالْوَابِلُ أَنْهَلَ بِالطَّلِّ
 وَدَيْنٌ بِحَبْلِ اللَّهِ مُتَّصِلُ الْحَبْلِ
 وَرُهْدٌ ذَوِي الْأَعْرَاضِ عَنْ مَوَاطِئِ النَّعْلِ
 تُنَالُ بِهَا الْقُرْبَى مِنَ الْحَكَمِ الْعَدْلِ
 يُزَلْزَلُ رَضْوَى ، وَهِيَ ثَابِتَةُ الشَّكْلِ (١)
 وَصَدْرٌ غَدَا أَنْقَى ضَمِيرًا مِنَ الطَّفْلِ
 بِهَا قَامَ زَرْعُ الْخَيْرِ لِلْخَصْمِ وَالْخِلِّ
 وَفِعْلٌ بِلا قَوْلٍ وَوَصْلٌ بِلا فَضْلِ
 لَقَدْ عَدَلَتْ إِلَّا عَنِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ
 وَوَعُظٌّ عَلَى الْأَبَابِ أَمْضَى مِنَ النَّصْلِ (٢)

(١) رَضْوَى : جبلٌ بالمدينة ، « مختار الصحاح » ص (٢٤٦) ، مادة :

« رضى » .

(٢) النَّصْلُ : نصلُ السَّهْمِ وَالسَّيْفِ وَالسُّكَيْنِ وَالرُّمْحِ ، « مختار الصحاح » ص

(٦٦٣) ، مادة : « نصل » .

وَأَنْوَارُ بُرْهَانٍ وَعِزُّ خَوَارِقِ
 وَسَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 مَضَى وَمَضَى الْإِخْلَاصُ وَالصَّدْقُ وَالصَّفَا
 وَمَاتَ فَمَاتَتْ سِيرَةُ السَّلَفِ الْأَلَى
 فَقَدْنَا عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَجَعَفَرًا
 وَكُنَّا نَرَى مِنْ آلِ يَاسِينَ سَيِّدًا
 تَسِيلُ الْمَعَالِي مِنْ جَدَاوِلِ كَفِّهِ
 عَطَاءٌ بِلَا مَنْ وَوُدٌّ بِلَا جَفَا
 مَلَأَ سَلَاطِينَ الشُّيُوخِ ، وَشَيْخُهُمْ
 فِدَاءٌ لَهُ الْأَرْوَاحُ لَوْ أَمَكْنَ الْفِدَا
 سَقَى اللَّهُ قَبْرًا ضَمَّ هَيْكَلَهُ الَّذِي أَنْزَلَ
 وَحْيًا مُحْيِيًا الْكَرِيمَ بِرَحْمَةٍ
 وَأَوْصَلَهُ بِالْمِصْطَفَى الطُّهْرَ جَدِّهِ
 بِهَا وَافَقَ الْمَدَّاحَ ذُو الْحِقْدِ وَالغِلَّ
 فَعَطَّرَتْ الْأَكْوَانَ بِالنَّقْلِ وَالنَّقْلِ (١)
 وَخِصْبُ رَيْعِ الْمَجْدِ بُدَلَّ بِالْمَخْلِ
 وَظَلَّتْ عُيُونُ الْبُعْدِ تَبْكِي عَلَى الْقَبْلِ
 وَلَا بَدَعَ طَوْزُ اللَّيْثِ يُعْرِفُ بِالسَّبْلِ !
 يُذَكِّرُنَا الْمَاضِينَ مِنْ خُلَّصِ الْأَهْلِ
 فَتَفَرَّغُ طَبَعُ الْجُودِ فِي قَالِبِ الْبُخْلِ
 وَوَعْدُ بِلَا خُلْفٍ وَجِدُّ بِلَا هَزْلِ
 وَشَمْسُ هُدَى يَمْحُو سَنَاهَا غِشَا الظِّلِّ
 وَمَنْ فِي الدُّنَا جُزْءٌ أَجَلٌ مِنَ الْكُلِّ ؟!
 جَلَى سُنَّةً فِي صُورَةِ الْبَطْلِ الْفَخْلِ
 إِلَى قَلْبِهِ أَسْرَارَ كَشْفِ الْغَطَا تُمْلِي
 لِيَبْلُغَ مَا يَرْجُوهُ مِنْ ذَلِكَ الْوَصْلِ «

قلتُ : هذا ما أردتُ تَسْطِيرَهُ فِي هَذِهِ الْوَرَقَاتِ ، وَلِسَيِّدِنَا الْكَبِيرِ الرَّفَاعِيِّ
 - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَنَاقِبُ تَزِيدُ عَلَى الْمُجَلَّدَاتِ ، وَلَوْلَا الْإِطَالَةُ فِي هَذَا

(١) النَّقْلُ الْأَوَّلُ : هُوَ ذَكَرُهَا فِي الْمَصَادِرِ وَالْكَتَبِ وَالْمَجَامِيعِ ، وَالثَّانِي : هُوَ
 تَحْوِيلُهُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ ، كَمَا فِي « مَخْتَارِ الصَّحَاحِ » ص (٦٧٧) ،
 مَادَّةُ : « نَقَلَ » .

المقام . . لفتحتُ أبواباً هي للمُحِبِّينَ قُرَّةُ عَيْنٍ ، وللمُنْكَرِينَ دواءٌ للْبَيْنِ ،
وكيفَ لا تكونُ وصاحبُها السَّيِّدُ الكَبِيرُ النَّذْبُ أبو العَلَمِينِ !؟ .

وما ذَكَرْتُهُ كفايَةُ المَوْفَّقِ ، واللهُ وليُّ المؤمنِينَ ، والحمدُ لله رَبِّ
العالمِينَ .

* * *



بيان حالِ راوي كتابِ « البرهان »

الإمام أبي طالب ، عبد الرحمن بن محمد الهاشمي

٥٣٨-٦٢١هـ

قال الإمام الذهبي في « سير أعلام النبلاء »^(١) عند ذكره . . ما نصه :

« الإمام ، العدل ، المأمون ، المقرئ ، المجود ، المحدث ، شيخ
واسط ، أبو طالب ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد السميع ، بن أبي تمام
عبد الله بن عبد السميع ، القرشي الهاشمي الواسطي المعدل .
وُلِدَ سنة ثمانٍ وثلاثين .

وتلا على أبي السَّعَادَاتِ أحمدَ بنِ عليٍّ ، وأبي حميد عبد العزيز بن عليٍّ
السُّمَاتِيِّ .

وسَمِعَ مِنْ جَدِّهِ ، وَمِنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي زَبِقَةَ ، وَخَلَقَ بِوَاسِطَ ،
وهِبَةَ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ الشُّبَلِيِّ ، وَابْنَ الْبَطِّيِّ ، وَابْنَ تَاجِ الْقُرَّاءِ ، وَالشَّيْخَ عَبْدَ
الْقَادِرِ ، وَعِدَّةٍ .

وَكَتَبَ ، وَجَمَعَ ، وَصَنَّفَ ، وَرَوَى الْكَثِيرَ ، وَكَانَ صَدْرًا نَبِيلاً ،
عَالِمًا ، ثِقَةً ، حَسَنَ النَّقْلِ .

حَدَّثَ عَنْهُ أَبُو الطَّاهِرِ بْنُ الْأَنْمَاطِيِّ ، وَعَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ أَبِي الْجَيْشِ ،
وَعَزُّ الدِّينِ الْفَارُوثِيُّ ، وَابْنُ الدُّبَيْثِيِّ ، وَجَمَاعَةٌ .

وبالإجازة : أبو المعالي الأزقوهي .

مات في سادس المحرم ، سنة إحدى وعشرين وست مئة .

وله أرجوزة في الاعتقاد ، يتطرق إليها الانتقاد ، ويُلقَّب بـ : الشيباني
- كما نُظِمَ فيه - :

شرف الدين شيخنا شافعي شاعرٌ شاهدٌ شريفٌ شروطي

وله كتاب « لُباب المنقول في فضائل الرسول » .

وكتاب : « فضائل الأيام والشهور » .

وكتاب : « تعبير الرؤيا » .

و « النخب ، في الخطب » ، وأشياء . انتهى .

قلت : ورد ذكره في « السير » في عدة مواضع ، منها : ١٩ : ٣٩٧ -
٣٩٨ و ٥٦٩ .

ومنها : ٢٠ : ٤٨٨ و ٥١٩ .

ومنها : ٢١ : ٤٧ ، و ٢٣ : ٦٩ .

* * *

سَنَدِي الْمُبَارَكُ بِهَذَا الْكِتَابِ

الطَّرِيقُ الْأَوَّلُ

لنا - بحمدِ اللهِ تعالى - سَنَدٌ مُبَارَكٌ بِهَذَا الْكِتَابِ الْعُجَابِ ، مِنْ طَرِيقِ
شَيْخِنَا الْإِمَامِ الْوَالِدِ الْمَاجِدِ ، قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ .

وَهُوَ أَخَذَهُ عَنِ الشَّيْخِ الْمُعَمَّرِ الصَّالِحِ الْوَرَعِ الزَّاهِدِ الْمُفْتِي مُحَمَّدِ سَعِيدِ
النَّعْسَانَ ، عَنْ شَيْخِهِ الْعَارِفِ الْوَلِيِّ النَّابِغَةِ الْفَذِّ الْعَلَامَةِ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ
أَبِي الْهَدْيِ الصِّيَادِيِّ الرَّفَاعِيِّ الْحُسَيْنِيِّ .

عَنْ شَيْخِهِ شَيْخِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِمَامِ عَصْرِهِ ، الْحَافِظِ الْفَقِيهِ الْمُتَقِنِ ،
الرَّفَاعِيِّ الثَّانِي ، السَّيِّدِ مُحَمَّدِ مَهْدِيِّ بْنِ عَلِيِّ الرَّفَاعِيِّ الْحُسَيْنِيِّ ، الشَّهِيرِ بِ
« الرَّوَّاسِ » ، قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ .

عَنْ شَيْخِهِ السَّيِّدِ إِبْرَاهِيمَ الرَّفَاعِيِّ الْبَصْرِيِّ ، عَنْ شَيْخِهِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ ،
عَنْ أَبِي الْبَرَكَاتِ عَبْدِ اللهِ الْبَصْرِيِّ الْعَبَّاسِيِّ .

عَنْ السَّيِّدِ نُورِ الدِّينِ حَبِيبِ اللهِ الْحَدِيثِيِّ الرَّفَاعِيِّ ، عَنْ السَّيِّدِ حُسَيْنِ
بُرْهَانَ الدِّينِ آلِ خُزَامِ الرَّفَاعِيِّ نَقِيبِ الْبَصْرَةِ .

عَنْ أُخِيهِ النَّقِيبِ السَّيِّدِ نُورِ الدِّينِ ، عَنْ ابْنِ عَمِّهِ الشَّهَابِ الثَّاقِبِ حِزَامِ
الدِّينِ بْنِ خُزَامِ الرَّفَاعِيِّ الْبَصْرِيِّ .

عَنْ ابْنِ عَمِّهِ السَّيِّدِ شُعْبَانَ نَقِيبِ الْبَصْرَةِ ، عَنْ عَمِّهِ السَّيِّدِ تَاجِ الدِّينِ
النَّقِيبِ ، عَنْ ابْنِ عَمِّهِ شَيْخِ مَشَايِخِ الْإِسْلَامِ ، الْقُطْبِ الْغَوْثِ السَّيِّدِ سِرَاجِ

الدِّينِ الرَّفَاعِيِّ ثُمَّ الْمُخْزُومِيِّ ، دَفِينِ صَدْرِيَةِ بَغْدَادِ .

عَنْ شَيْخِهِ السَّيِّدِ جَمَالِ الدِّينِ السُّلَيْمِيِّ الرَّفَاعِيِّ ، عَنِ السَّيِّدِ قَطْبِ الدِّينِ الرَّفَاعِيِّ .

عَنِ الشَّيْخِ عَمَرَ الصَّغِيرِ الْفَارُوثِيِّ ، عَنْ أَبِيهِ وَلِيِّ اللَّهِ عَزَّ الدِّينِ أَحْمَدَ الْفَارُوثِيِّ ، عَنْ أَبِي الْفَضْلِ مُحْيِي الدِّينِ إِبْرَاهِيمَ الْمُصْطَفَوِيِّ الْفَارُوثِيِّ .

عَنِ الْإِمَامِ شَرَفِ الدِّينِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ السَّمِيعِ الْعَبَّاسِيِّ الْهَاشِمِيِّ ، الَّذِي تَلَقَّى « الْبُرْهَانَ الْمُؤَيَّدَ » كِتَابَ سَيِّدِنَا السَّيِّدِ أَحْمَدَ الْكَبِيرِ الرَّفَاعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ مَجَالِسِ وَعَظِ الْإِمَامِ الرَّفَاعِيِّ ، مَجْلِساً مَجْلِساً ، وَدَوْنَهُ ، وَلَهُ بِهِ التَّلْقَى عَنْ صَاحِبِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَلَنَا مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ الْإِجَازَةُ بِقِرَاءَةِ « الْبُرْهَانَ الْمُؤَيَّدَ » .

الطَّرِيقُ الثَّانِي

وَمِنْ طَرِيقٍ آخَرَ : عَنْ شَيْخِي الْوَالِدِ الْإِمَامِ ، إِلَى السَّيِّدِ قَطْبِ الدِّينِ الرَّفَاعِيِّ الْمَذْكُورِ آنفًا .

وَهُوَ عَنِ الشَّمْسِ مُحَمَّدِ الصَّيَّادِيِّ ، وَهُوَ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ الصَّدْرِ عَلِيِّ الصَّيَّادِيِّ .

وَهُوَ عَنِ الْقُطْبِ الْغَوْثِ أَبِيهِ السَّيِّدِ عَزَّ الدِّينِ أَحْمَدَ الصَّيَّادِ ابْنِ الرَّفَاعِيِّ ، سِبْطِ الْحَضْرَةِ الرَّفَاعِيَّةِ .

عَنْ مُدَوِّنِ « الْبُرْهَانَ » ، عَنْ صَاحِبِهِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١) .

(١) « بَوَارِقُ الْحَقَائِقِ » ص (٥٧٢) ، بَعْنَايُنَا .

الْبُرْهَانُ الْمَوْجِبُ

لصاحبِ مَدِّ أَلْيَدِ مَوْلَانَا الْعَوْثِ الشَّرِيفِ الرَّفَاعِيِّ أَحْمَدَ

لِلدِّعَامِ الْحَافِظِ الْفَقِيهِ الْمُفَسِّرِ الرَّحْمَلَةَ الْمُجْتَمِعَةَ
السَّيِّدِ الْكَبِيرِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ الرَّفَاعِيِّ الْحُسَيْنِيِّ
إِمَامِ الطَّرِيقَةِ الْأَحْمَدِيَّةِ الرَّفَاعِيَّةِ
٥١٢ - ٥٧٨ هـ

جَمَعَهُ رِوَايَةً عَنْهُ فِي جَمَالِسِ وَعُظَمِهِ
الشَّرِيفُ الْحَافِظُ أَبُو طَالِبٍ شَرْفُ الدِّينِ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّمِيعِ الْكُفَيْشِيِّ الْوَأَسْطِيُّ
٥٢٨ - ٦٢١ هـ

اعتنى به

شَرْفُ الدِّينِ

حَسَنُ بْنُ عَبْدِ الْحَكِيمِ عَبْدِ الْبَاسِطِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ رَاوِي الْكِتَابِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يُؤَافِي نِعَمَهُ ، وَيُكَافِيءُ مَزِيدَهُ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ
الدَّرَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْفَرِيدَةِ ، جِسْمِ الْوُجُودِ ، وَعِلَّةِ كُلِّ مَوْجُودٍ ، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
وَقُرَّةِ عَيْنُونَا وَنَبِينَا ، الرَّسُولِ الْمُكْرَمِ ، حَبِيبِ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَعَثَرَتِهِ وَأَخْبَابِهِ ، وَتَابِعِيهِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ،
آمِينَ آمِينَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَيَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، شَرَفُ الدِّينِ بَنُو عَبْدِ
السَّمِيعِ ، الْهَاشِمِيُّ الْوَاسِطِيُّ ، كَانَ اللَّهُ لَهُ ، وَغَفَرَ بِفَضْلِهِ ذَنْبَهُ وَرَزَلَهُ :

قَدْ تَلَقَّيْنَا مَعَ جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنَ الْمُحِبِّينَ ، وَالْإِخْوَانَ الصَّالِحِينَ : هَذَا
الْكِتَابَ الْمُبَارَكَ / رِوَايَةً مِنْ فَمِ شَيْخِنَا وَمَلْجَانِنَا ، بَرَكَةِ الْإِسْلَامِ ، وَأُسْتَاذِ
الْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ .

الْقُطْبِ الْغَوْثِ الْمُقَدَّمِ ، الَّذِي أَمْتَازَهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَوْلِيَّائِهِ بِتَقْبِيلِ يَدِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، صَاحِبِ الْأَيْدِي الْجَلِيلَةِ ، وَالْخَوَارِقِ الْجَزِيلَةِ ،
حَامِلِ الْخَفِيفَةِ وَالثَّقِيلَةِ .

سَيِّدَنَا الشَّيْخَ الكَبِيرِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ ، بنِ السَّيِّدِ أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ الرَّفَاعِيِّ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

ابنِ السَّيِّدِ يَحْيَى ، بنِ السَّيِّدِ الثَّابِتِ ، بنِ السَّيِّدِ الحَازِمِ ، بنِ السَّيِّدِ
أَحْمَدَ ، بنِ السَّيِّدِ عَلِيِّ ، بنِ السَّيِّدِ أَبِي المَكَارِمِ الحَسَنِ ، المَعْرُوفِ بـ :
رِفَاعَةَ المَكِّيِّ .

ابنِ السَّيِّدِ المَهْدِيِّ ، بنِ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ أَبِي القَاسِمِ ، بنِ السَّيِّدِ
الحَسَنِ ، بنِ السَّيِّدِ الحُسَيْنِ ، بنِ السَّيِّدِ مُوسَى الثَّانِي ، ابنِ الإِمَامِ إِبْرَاهِيمَ
المُرْتَضَى ، ابنِ الإِمَامِ مُوسَى الكَاطِمِ ، ابنِ الإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ .

ابنِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ البَاقِرِ ، ابنِ الإِمَامِ عَلِيِّ زَيْنِ العَابِدِينَ ، بنِ إِمَامِ
المُسلِمِينَ ، وَزُبْدَةِ آلِ النَّبِيِّ الأَمِينِ ، الَّذِي أَمْتَحَنَ بِأَنوَاعِ البَلَاءِ ، أَمِيرِ
المُؤْمِنِينَ ، أَبِي عَبْدِ اللهِ ، الإِمَامِ الحُسَيْنِ ، الشَّهِيدِ بـ : كَرْبَلَاءَ .

ابنِ سَيِّدِ الأُمَّةِ ، وَسَنَدِ الأُمَّةِ ، زَوْجِ البُتُولِ ، وَصَهْرِ الرَّسُولِ ، الَّذِي
قَدَرَهُ كَأَسْمِهِ حَسَنٌ وَعَلِيٌّ ، أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، أَبِي الحَسَنِ ، الإِمَامِ عَلِيِّ ،
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سِتِّ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ ، السَّنَةِ الَّتِي عَادَ بِهَا مِنْ
سَفَرِ حَجَّةِ المُبَارَكِ ، قَدَسَ اللهُ أَسْرَارَهُ ، وَضَاعَفَ إِرْشَادَهُ وَأَنوَارَهُ ،
فِي رِبَاطِهِ الشَّرِيفِ بـ : أُمِّ عَبِيدَةَ^(١) ، عَلَى كُرْسِيِّ وَعِظِهِ فِي مَجَالِسَ

(١) أي : فِي رِوَاقِهِ الشَّرِيفِ ، وَوَجْهَهُ تَسْمِيَتُهُ رِبَاطًا : أَنَّهُ مِنَ الرِّبَاطِ ، أَي :

المَلَاذِمَةُ عَلَى الأَمْرِ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ المَقَامُ فِي ثَغْرِ العَدُوِّ : رِبَاطًا .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ . وَمَعْنَاهُ : أَنْتَظَرُ الصَّلَاةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، =

مَعْدُودَةٍ ، جَمَعْنَاهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ ، وَسَمَّيْنَاهُ :

« الْبُرْهَانَ الْمُؤَيَّدَ لِصَاحِبِ مَدِّ الْيَدِ مَوْلَانَا الْعَوْتِ الشَّرِيفِ الرَّفَاعِيِّ أَحْمَدَ »
 وَهِيَ ^(١) كَمَا تَلَقَّيْنَاهَا مِنْهُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ نَفَعَنَا اللَّهُ بِهِ :



= لقوله عليه الصلاة والسلام :

« فَذَلِكُمُ الرَّبَاطُ » . أفاده في « القاموس » ٢ : ٣٧٤ ، مادة : « ربط » .

(١) الضمير يعود على المجالس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الْإِمَامِ الرَّفَاعِيِّ

/ الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَرْضَاهُ لِذَاتِهِ ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِ مَخْلُوقَاتِهِ ،
وَرَضِيَ اللَّهُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالْآلِ ، وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْعِ وَالْحَالِ ، وَالسَّلَامَ
عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ .

الزُّهُدُ أَوَّلُ قَدَمِ الْقَاصِدِينَ إِلَى اللَّهِ

أَيُّ سَادَةٍ^(١)! الزُّهُدُ . . . أَوَّلُ قَدَمِ الْقَاصِدِينَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَسَاسُهُ . . .
التَّقْوَى ، وَهِيَ : خَوْفُ اللَّهِ رَأْسُ الْحِكْمَةِ .
وَجِمَاعُ كُلِّ ذَلِكَ . . . حُسْنُ مُتَابَعَةِ إِمَامِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَشْبَاحِ ، السَّيِّدِ الْمُكْرَمِ
رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَوَّلُ طَرِيقِ الْمُتَابَعَةِ ، حُسْنُ الْقُدْوَةِ ، عَمَلًا بِحَدِيثِ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ
بِالنِّيَّاتِ »^(٢) .

(١) وفي « صحيح مسلم » (٢٥٢) من حديثِ أُمِّنا السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عنها . . . قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأُمِّنا السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :
« . . . أَنِّي خَدِيجَةٌ! مَا لِي ؟ » . الْحَدِيثُ ، أَي : يَا خَدِيجَةُ مَا لِي .
وفي « البخاري » (١٤٠٨) ، ومسلم (١٥٠) : « أَقْبِلْ أَيُّ سَعْدُ . . . » . أَي :
تَعَالَ يَا سَعْدُ .

(٢) سيأتي بتمامه مُخْرَجًا ص (١٤٤) .

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَيْفَ قَالَ لِرَجُلٍ قَالَ لَهُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ ، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا^(١)؟ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« لَا أَجْرَ لَهُ » . فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ! فَقَالُوا لِلرَّجُلِ : عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَعَلَّكَ لَمْ تَفْهَمْهُ . فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَجُلٌ
يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُوَ يُرِيدُ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قَالَ :

« لَا أَجْرَ لَهُ » . فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ! وَقَالُوا : عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ الثَّالِثَةُ : رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ
عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ :

« لَا أَجْرَ لَهُ » . رواه الثَّقَاتُ وَصَحَّحُوهُ^(٢) .

نَتَائِجُ الْعَمَلِ تَحْسُنُ وَتَقْبُحُ بِالنِّيَّةِ

فَمِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ . . . عَلِمْنَا : أَنَّ نَتَائِجَ الْعَمَلِ تَحْسُنُ وَتَقْبُحُ بِالنِّيَّةِ .
فَعَامِلُوا اللَّهَ بِحُسْنِ النِّيَّاتِ ، وَأَتَّقُوهُ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ .

صَوْنُ الْعَقَائِدِ عَنِ الْمُتَشَابِهَاتِ

وَصُونُوا عَقَائِدَكُمْ عَنِ التَّمَسُّكِ بِظَاهِرِ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ^(٣) ؛

(١) أي : متاعاً ، كما في « المِضْبَاحِ الْمُنِيرِ » ص (٣٢٩) ، مادة : « عرض » .

(٢) رواه أبو داود (٢٥١٦) .

(٣) في المطبوع ص (١٧) : « مِنَ التَّمَسُّكِ بِظَاهِرِ . . . » ، وهو تصحيف ،

والصحيحُ المُثَبِّتُ ، تقولُ : صَانَ الرَّجُلُ عِرْضَهُ عَنِ الدَّنَسِ . قاله الفَيْثُومِيُّ في =

لأنَّ ذَلِكَ مِنْ أُصُولِ الْكُفْرِ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ .

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ فِي الْمَتَشَابِهِ . . . الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، وَمَا كَلَّفْنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - تَفْصِيلَ عِلْمِ تَأْوِيلِهِ ، قَالَ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ! - :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ .

فَسَبِيلُ الْمُتَّقِينَ مِنَ السَّلَفِ . . . تَنْزِيهُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُهُ ، وَتَقْوِيضُ مَعْنَاهُ الْمُرَادِ مِنْهُ إِلَى الْحَقِّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ، وَبِهَذَا سَلَامَةُ الدِّينِ .

سُئِلَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ عَنِ الْخَالِقِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ؟ ! فَقَالَ لِلسَّائِلِ :

إِنْ سَأَلْتَ عَنْ ذَاتِهِ . . . ف ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ صِفَاتِهِ ، فَهُوَ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ أَسْمِهِ . . . ف ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ فِعْلِهِ . . . ف ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

وَقَدْ جَمَعَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جَمِيعَ مَا قِيلَ فِي التَّوْحِيدِ

بِقَوْلِهِ :

مَنْ أَنْتَهَضَ لِمَعْرِفَةِ مُدَبِّرِهِ ، فَانْتَهَى إِلَى مَوْجُودٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِكْرُهُ . . فَهُوَ مُشَبَّهٌ .

وَإِنْ أَطْمَأَنَّ إِلَى الْعَدَمِ الصَّرْفِ . . فَهُوَ مُعْطَلٌ .

وَإِنْ أَطْمَأَنَّ لِمَوْجُودٍ ، وَأَعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنِ إِدْرَاكِهِ . . فَهُوَ مُوَحَّدٌ .

تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنِ سِمَاتِ الْمُحَدَّثِينَ

أَبِي سَادَةَ! نَزَّهُوا اللَّهَ عَنِ سِمَاتِ الْمُحَدَّثِينَ ، وَصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَطَهَّرُوا عَقَائِدَكُمْ مِنْ تَفْسِيرٍ مَعْنَى الْاِسْتِوَاءِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى : بِالِاسْتِقْرَارِ ، كَاسْتِوَاءِ الْأَجْسَامِ عَلَى الْأَجْسَامِ ، الْمُسْتَلْزِمِ لِلْحُلُولِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ .

وَإِيَّاكُمْ وَالْقَوْلَ بِالْفَوْقِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ وَالْمَكَانِ ، وَالْيَدِ وَالْعَيْنِ : بِالْجَارِحَةِ ، وَالتَّزْوِيلِ بِالِاتِّبَانِ وَالِانْتِقَالِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا يَدُلُّ ظَاهِرُهُ عَلَى مَا ذَكَرَ . . فَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِثْلُهُ مِمَّا يُؤَيِّدُ الْمَقْصُودَ .

فَمَا بَقِيَ إِلَّا مَا قَالَهُ صَلْحَاءُ السَّلَفِ : وَهُوَ الْإِيمَانُ بِظَاهِرِ كُلِّ ذَلِكَ ، وَرَدُّ عِلْمِ الْمُرَادِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَعَ تَنْزِيهِ الْبَارِي - تَعَالَى - عَنِ الْكَيْفِ وَسِمَاتِ الْحُدُوثِ . وَعَلَى ذَلِكَ دَرَجَ الْأَئِمَّةُ .

وَكُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ . . فَتَفْسِيرُهُ : قِرَاءَتُهُ وَالسُّكُوتُ عَنْهُ^(١) ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَهُ . . إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ .

وَلَكُمْ حَمْلُ الْمُتَشَابِهِ عَلَى مَا يُوَافِقُ أَصْلَ الْمُحْكَمِ ؛ لِأَنَّهُ أَصْلُ الْكِتَابِ ، وَالْمُتَشَابِهُ لَا يُعَارِضُ الْمُحْكَمَ .

(١) في المطبوع ص (١٩) : « وقراءته » ، وهو خطأ ، وما أثبت هو الصحيح .

سَأَلَ رَجُلٌ الْإِمَامَ مَالِكََ بْنَ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ؟ .

فَقَالَ : الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ ، وَالْكَتِيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدَعَاةٍ ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا . وَأَمْرٌ بِهِ أَنْ يُخْرَجَ .

وَقَالَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ؟ :

آمَنْتُ بِلَا تَشْبِيهِ ، وَصَدَّقْتُ بِلَا تَمَثِيلٍ ، وَأَتَهَمْتُ نَفْسِي فِي الْإِدْرَاكِ ، وَأَمْسَكْتُ عَنِ الْحَوْضِ فِيهِ كُلِّ الْإِمْسَاكِ .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ قَالَ : لَا أَعْرِفُ اللَّهَ أَفِي السَّمَاءِ هُوَ أَمٌّ فِي الْأَرْضِ . . فَقَدْ كَفَرَ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ . . يُؤْهِمُ أَنْ لِلْحَقِّ مَكَانًا ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنْ لِلْحَقِّ مَكَانًا . . فَهُوَ مُشَبَّهٌ .

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ الْاسْتِوَاءِ ؟ فَقَالَ :

اسْتَوَى كَمَا أَخْبَرَ ، لَا كَمَا يَخْطُرُ لِلْبَشْرِ .

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ جَعْفَرُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فِي شَيْءٍ ، أَوْ مِنْ شَيْءٍ ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ . . فَقَدْ أَشْرَكَ ؛ إِذْ لَوْ كَانَ عَلَى شَيْءٍ . . لَكَانَ مَحْمُولًا ، وَلَوْ كَانَ فِي شَيْءٍ . . لَكَانَ مَخْصُورًا ، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ . . لَكَانَ مُخَدَّنًا .

طَلَبُ اللَّهِ بِالْقَلْبِ مَعَ الْإِخْلَاصِ حَالَةَ ذِكْرِهِ

أَيُّ سَادَةٍ! أَطْلُبُوا اللَّهَ بِقُلُوبِكُمْ ، هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

« الدِّينُ النَّصِيحَةُ »^(١) . إِذَا قُلْتُمْ : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . . فَقُولُوهَا بِالْإِخْلَاصِ الْخَالِصِ مِنَ الْغَيْرِيَّةِ ، وَمِنْ خُطُورَاتِ الشَّيْئَةِ وَالْكَفِيَّةِ ، وَالتَّحْتِيَّةِ وَالْفَوْقِيَّةِ ، وَالْبُعْدِيَّةِ وَالْقُرْبِيَّةِ .

وَخُذُوا نَتَائِجَ الْأَعْمَالِ بِخَالِصِ النِّيَّةِ ، فَقَدْ قَالَ سَيِّدُ الْبَرِيَّةِ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ :

« إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ أُمَّرَأَةٍ يَنْكِحُهَا . . فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »^(٢) .

وَجُوبُ إِحْكَامِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْأَرْكَانِ الْخَمْسَةِ

أَحْكِمُوا أَعْمَالَكُمْ عَلَى الْأَرْكَانِ الْخَمْسَةِ ، الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ »^(٣) .

« إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ »^(٤) ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(١) رواه مسلم (٥٥) .

(٢) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

(٣) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٤) هي جملة من حديث سيأتي بتمامه ص (١٤٨) .

« مَنْ أَحَدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ . فَهُوَ رَدٌّ » (١) .

عَامِلُوا اللَّهَ بِالتَّقْوَى ، وَعَامِلُوا الخَلْقَ بِالصُّدْقِ وَحُسْنِ الخُلُقِ ، وَعَامِلُوا
أَنْفُسَكُمْ بِالمُخَالَفَةِ ، وَقِفُوا عِنْدَ الخُدُودِ .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذْ عَاهَدْتُمْ ﴾ .

﴿ وَمَا أُنذِرْكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .

التَّحْذِيرُ مِنَ الكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَالخَلْقِ

إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَالخَلْقِ ؛ فَإِنَّ الدَّعْوَى . . كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ
وَخَلْقِهِ .

كُلُّ العُبُودِيَّةِ . . مَعْرِفَةٌ مَقَامِ العَبْدِيَّةِ .

الدِّينُ . . عَمَلٌ بِالأَوَامِرِ ، وَاجْتِنَابٌ عَنِ النَّوَاهِي ، وَخُضُوعٌ وَأَنْكِسَارٌ فِي
الأَمْرَيْنِ .

العَمَلُ بِالأَوَامِرِ . . يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ ، وَالاجْتِنَابُ عَنِ النَّوَاهِي . . خَوْفٌ
مِنَ اللَّهِ .

طَلَبُ القُرْبِ بِالأَعْمَالِ . . مُحَالٌ ، وَأَيُّ مُحَالٍ .

الخَوْفُ مَعَ الجُرْأَةِ . . فَصِيحَةٌ .

طَلَبُ اللَّهِ بِمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ (ﷺ)

أَطِيبُوا اللَّهَ بِمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .

إِيَّاكُمْ وَسُلُوكَ طَرِيقِ اللَّهِ بِالنَّفْسِ وَالْهَوَىٰ ، فَمَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ بِنَفْسِهِ . .
ضَلَّ فِي أَوَّلِ قَدَمٍ .

وَجُوبُ تَعْظِيمِ النَّبِيِّ (ﷺ)

أَيُّ سَادَةٍ! عَظَّمُوا شَأْنَ نَبِيِّكُمْ ، هُوَ الْبَرْزَخُ الْوَسْطُ الْفَارِقُ بَيْنَ الْخَلْقِ
وَالْحَقِّ .

عَبْدُ اللَّهِ ، حَبِيبُ اللَّهِ ، رَسُولُ اللَّهِ ، أَكْمَلُ خَلْقِ اللَّهِ ، أَفْضَلُ رُسُلِ اللَّهِ .
الدَّالُّ عَلَى اللَّهِ ، الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ ، الْمُخْبِرُ عَنِ اللَّهِ ، الْآخِذُ مِنَ اللَّهِ ،
بَابُ الْكُلِّ إِلَى الْحَضِيرَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ ، وَسَيْلَةُ الْكُلِّ إِلَى الْحَضِيرَةِ الصَّمَدَانِيَّةِ .
مَنْ أَتَّصَلَ بِهِ . . أَتَّصَلَ ، وَمَنْ أَنْفَصَلَ عَنْهُ . . أَنْفَصَلَ ، قَالَ عَلَيْهِ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ :

« لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ » (١) .

نُبُوَّةُ النَّبِيِّ (ﷺ) بَاقِيَةٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ

أَيُّ سَادَةٍ! اِعْلَمُوا أَنَّ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَاقِيَةٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ ،
كَبَقَائِهَا حَالَ حَيَاتِهِ ، إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا (٢) .

(١) رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَاصِمٍ فِي « السُّنَّةِ » (١٥) ، وَالْبَغَوِيُّ فِي « شَرْحِ
السُّنَّةِ » ١ : ٢١٣ .

(٢) قَالَ الْعَلَمَةُ الْخَفَاجِيُّ فِي « نَسِيمِ الرِّيَاضِ » ١ : ١٣٢ ، مَا نَصَّهُ :
« اِعْلَمَنَّ . . . أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيٌّ فِي قَبْرِهِ ، بَاقٍ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، حَتَّىٰ
سُئِلَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَمَّنْ رَأَاهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَنَامِهِ يَأْمُرُهُ =

وَجَمِيعُ الْخَلْقِ . . مُخَاطَبُونَ بِشَرِيْعَتِهِ النَّاسِخَةِ لِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ .
وَمُعْجَزَتُهُ بَاقِيَةٌ ، وَهِيَ الْقُرْآنُ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ .

حُكْمٌ مِنْ رَدِّ أَخْبَارِهِ الصَّادِقَةِ

أَيُّ سَادَةٍ! مَنْ رَدَّ أَخْبَارَهُ الصَّادِقَةَ . . كَمَنْ رَدَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى .

أَمَّنًا بِاللَّهِ ، وَبِكِتَابِ اللَّهِ ، وَبِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا
تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ . . جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ

أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ . . سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصُّدَيْقُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ثُمَّ سَيِّدُنَا عُمَرُ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ثُمَّ عُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ثُمَّ عَلِيٌّ الْمُرْتَضَى كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ،

وَرَضِيَ عَنْهُ .

= بِأَمْرِ ، هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَمْ لَا ؟ .

فَأَجَابَ : بِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُخَالِفِ الشَّرْعَ ، وَكَانَ لَهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ . . يَنْبَغِي الْعَمَلُ بِهِ ،
وَإِنَّمَا لَمْ يَجِبْ ؛ لِأَنَّ النَّائِمَ لَمْ يَضْبِطْ مَا قِيلَ لَهُ ، وَرُبَّمَا لَمْ يَفْهَمْهُ ، أَوْ يَكُونُ إِشَارَةً لِمَا
يَحْتَاجُ لِلتَّأْوِيلِ .

وهو كَلَامٌ حَسَنٌ ، فَلَا يُنَافِي قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ رَأَى رَأَى ، فَقَدْ رَأَى

حَقًّا » . الْحَدِيثُ . انْتَهَى .

الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ عَلَى هُدًى

وَالصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كُلُّهُمْ عَلَى هُدًى ، رُوي عَنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ :

« أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ ، بِأَيْهِمْ أَفْتَدَيْتُمْ . . . أَهْتَدَيْتُمْ » (١) .

وَجُوبُ الإِمْسَاكِ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

يَجِبُ الإِمْسَاكِ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، وَذَكَرُ مَحَاسِنِهِمْ ، وَمَحَبَّتُهُمْ ، وَالشَّاءُ
عَلَيْهِمْ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

فَاجْتَبُوهُمْ ، وَتَبَرَّكُوا بِذِكْرِهِمْ ، وَأَعْمَلُوا عَلَى التَّحَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِمْ ، قَالَ
النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِأَصْحَابِهِ :

« أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ؛
فَإِنَّهُ مَنْ يَعْشُرُ مِنْكُمْ . . . فَسَيْرِي أختِلافًا كَثِيرًا . . . »

فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا
بِالنَّوَاجِدِ » .

وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » (٢) .

(١) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (٣٨١) : « رواه البيهقي ، وأسنده
الدَّيْلَمِيُّ عن ابنِ عَبَّاسٍ بلفظ : « أَصْحَابِي بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ . . . » .
(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٧٨) ، وقال : « حديث حسن
صحيح » .

النَّوَاجِدُ : هي الأَنْبِاطُ ، وَقِيلَ : الأَضْرَاسُ . « رياض الصالحين » ص (٩٧) .
البِدْعَةُ : ما عُمِلَ عَلَى غيرِ مِثَالِ سَبَقٍ ، « رياض الصالحين » ص (٩٨) .

تَنْوِيرُ الْقَلْبِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَحَبَّةِ آلِهِ

وَنَوَّرُوا كُلَّ قَلْبٍ مِنْ قُلُوبِكُمْ بِمَحَبَّةِ آلِهِ الْكِرَامِ ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَهُمْ
 أَنْوَارُ الْوُجُودِ اللَّامِعَةِ ، وَشُمُوسُ السُّعُودِ الطَّالِعَةِ ، قَالَ تَعَالَى :
 ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللهُ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي » (١) .

مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا . . . أَلْزَمَهُ وَصِيَّةَ نَبِيِّهِ فِي آلِهِ ، فَأَحَبَّهُمْ ، وَأَعْتَنَى
 بِشَأْنِهِمْ ، وَعَظَّمَهُمْ ، وَحَمَاهُمْ ، وَصَانَ حِمَاهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ مُرَاعِيًا ،
 وَلِحُقُوقِ رَسُولِهِ فِيهِمْ رَاعِيًا ، « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » (٢) .

وَمَنْ أَحَبَّ اللهُ . . . أَحَبَّ رَسُولَ اللهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ رَسُولَ اللهِ . . . أَحَبَّ آلَ
 رَسُولِ اللهِ .

وَمَنْ أَحَبَّهُمْ . . . كَانَ مَعَهُمْ ، وَهُمْ مَعَ أَبِيهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .
 قَدَّمُوهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَلَا تَقَدَّمُوهُمْ ، وَأَعَيْنُوهُمْ ، وَأَكْرِمُوهُمْ ، يُعَدُّ (٣) خَيْرُ
 ذَلِكَ عَلَيْكُمْ .

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨) ، وأحمد ٤ : ٣٦٦ عن زيد بن أرقم مرفوعاً بلفظ :

« أَذْكَرُكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي » . ثلاثاً .

(٢) رواه البخاري (٦١٧٠) ، ومسلم (٢٦٤٠) .

(٣) في المطبوع ص (٢٤) : « يعوذ » بالرفع ، وهو خطأ ؛ لكونه مجزوماً جواباً

وَجُوبُ صُخْبَةِ الصَّالِحِينَ

إِصْقُوا بِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، ﴿ آيَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

الرَّوْلِيُّ . . مَنْ وَاذَّ اللَّهُ ، وَآمَنَ بِهِ وَأَتَقَاهُ ، فَلَا تُحَادُّوهُ مِنْ وَاذَّ اللَّهُ ، جَاءَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ :

« مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا . . فَقَدْ آذَنَّهُ بِالْحَرْبِ » (١) .

إِنْتِقَامُ اللَّهِ لِمَنْ يُؤْذِي أَوْلِيَاءَهُ

اللَّهُ يُغَارُ لِأَوْلِيَائِهِ ، يَنْتَقِمُ لَهُمْ مِمَّنْ يُؤْذِيهِمْ ، وَيُكْرِمُهُمْ بِصَوْنِ مُحِبِّيهِمْ وَعَوْنِ مَنْ يَلُودُ بِهِمْ (٢) .

هُمُ أَحْصُ الْمُخَاطَبِينَ بِآيَةٍ : ﴿ تَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ .

عَلَيْكُمْ بِمَحَبَّتِهِمْ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ ، تَخْصُلُ لَكُمْ بِهِمُ الْبَرَكَةُ .

كُونُوا مَعَهُمْ ، ﴿ أَوْلِيَاكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) ، بلفظ : « مَنْ عَادَى . . » .

(٢) في المطبوع ص (٢٤) : « فِيهِمْ » ، وهو تصحيف ، تقول : لَادَ بِهِ يَلُودُ لَوْدًا . . لَجَأَ إِلَيْهِ ، وَعَادَ بِهِ .

وفي حديث الدعاء : « اللَّهُمَّ . . . بِكَ الْوُدُّ » . لَادَ بِهِ . . . إِذَا أَلْتَجَأَ إِلَيْهِ ، وَأَنْضَمَّ وَأَسْتَعَانَ . قاله ابن منظور في « اللسان » ٥ : ٤٤ ، مادة : « لود » ، رحمة الله عليه .

تَحْدِيدُ مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ

أَيُّ سَادَةٍ! حُدُّوا الْمَرَاتِبَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوبَ . أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ .
 أَشْرَفُ النَّوعِ الْإِنْسَانِيَّ . . الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَشْرَفُ
 الْأَنْبِيَاءِ . . نَبِيِّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
 وَأَشْرَفُ الْخَلْقِ بَعْدَهُ . . آلُهُ وَأَصْحَابُهُ .
 وَأَشْرَفُ الْخَلْقِ بَعْدَهُمْ . . التَّابِعُونَ أَصْحَابُ خَيْرِ الْقُرُونِ .
 هَذَا عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ ، وَأَمَّا عَلَى وَجْهِ الْإِفْرَادِ . . فَالْنَّصَّ النَّصَّ ! .

التَّحْدِيدُ مِنَ الْأَخْذِ بِالرَّأْيِ فِي الدِّينِ .

وَإِيَّاكُمْ وَالْأَخْذَ بِالرَّأْيِ ، فَمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ . . إِلَّا بِالرَّأْيِ .
 هَذَا الدِّينُ لَا يُحْكَمُ فِيهِ بِالرَّأْيِ أَبَدًا .

حَكِّمُوا آرَاءَكُمْ فِي الْمُبَاحَاتِ ، ﴿ فَإِنْ لَنْزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ ،

الآيَةُ .

وَجُوبُ ذِكْرِ الْأَوْلِيَاءِ بِخَيْرٍ وَعَدَمُ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَهُمْ

أُذَكِّرُوا الْأَوْلِيَاءَ بِخَيْرٍ ، إِيَّاكُمْ وَتَفْضِيلَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ! رَفَعَ اللَّهُ
 - تَعَالَى - بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لَكِنْ لَا يَعْرِفُهَا غَيْرُهُ ، وَمَنْ أَرْتَضَى
 مِنْ رَسُولٍ .

تَأْيِيدُ الطَّائِفَةِ بِتَرْكِ الدَّعْوَى وَإِحْيَاءِ السُّنَّةِ

أَيَّدُوا هَذِهِ الْعِصَابَةَ بِتَرْكِ الدَّعْوَى^(١) .

شَيَّدُوا أَرْكَانَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . . بِإِحْيَاءِ السُّنَّةِ ، وَإِمَاتَةِ الْبِدْعَةِ .

أَي سَادَةَ! الْفَقِيرُ عَلَى الطَّرِيقِ مَا دَامَ عَلَى السُّنَّةِ ، فَمَتَى حَادَ عَنْهَا . . زَلَّ
عَنِ الطَّرِيقِ .

سَبَبُ تَسْمِيَةِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ بـ : الصُّوفِيَّةِ

قِيلَ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ : الصُّوفِيَّةِ ، وَأَخْتَلَفَ النَّاسُ فِي سَبَبِ التَّسْمِيَةِ ؟

وَسَبَبُهَا غَرِيبٌ ، لَا يَعْرِفُهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْفُقَرَاءِ .

وَهُوَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُضَرَ ، يُقَالُ لَهُمْ : بَنُو الصُّوفَةِ ، وَهُوَ الْغَوْثُ بْنُ
مُرِّ بْنِ أَدِّ بْنِ طَابِحَةَ الرَّيْبِطِ ، كَانَتْ أُمُّهُ لَا يَعْيشُ لَهَا وَلَدٌ ، فَذَرَتْ إِنْ عَاشَ
لَهَا وَلَدٌ . . لِتَرْبِطَنَّ بِرَأْسِهِ صُوفَةً ، وَتَجْعَلَهُ رَيْبِطَ الْكَعْبَةِ .

وَقَدْ كَانُوا يُجِيزُونَ الْحَاجَّ^(٢) ، إِلَى أَنْ مَنَّ اللَّهُ بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ ،
فَاسْلَمُوا ، وَكَانُوا عَبَادًا ، وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ .

(١) الْعِصَابَةُ : هِيَ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ ، « الْمَصْبَاحُ الْمُنِيرُ » ص (٣٣٧) ،

مَادَةٌ : « عَصَبٌ » .

وَالْمَرَادُ بِالْعِصَابَةِ . . طَائِفَةٌ الصُّوفِيَّةِ .

(٢) أَي : يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَيْهِ .

فَمَنْ صَحِبَهُمْ . . . سُمِّيَ بِ : الصُّوفِيِّ ، وَكَذَلِكَ مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَهُمْ ،
أَوْ تَعَبَّدَ وَلَبَسَ الصُّوفَ مِثْلَهُمْ . . . يَنْسُبُونَهُ إِلَيْهِمْ فَيُقَالُ : صُوفِيٌّ .

مَعْنَى التَّصَوُّفِ :

وَنَوْعَ الْفُقَرَاءِ الْأَسْبَابِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : التَّصَوُّفُ : الصَّفَاءُ .
وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : الْمُصَافَاةُ . وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَكَلُّهُ صَحِيحٌ مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهُ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْخِرْقَةِ . . . اِتْرَمُوا الصَّفَاءَ
وَالْمُصَافَاةَ ، وَعَمِلُوا بِالْآدَابِ الظَّاهِرَةِ ، وَقَالُوا : إِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الْآدَابِ
الْبَاطِنَةِ .

وَقَالُوا : حُسْنُ آدَابِ الظَّاهِرِ . . . عُنْوَانُ آدَابِ الْبَاطِنِ .

وَقَالُوا : مَنْ لَمْ يَعْرِفْ آدَابَ الظَّاهِرِ ، لَا يُؤْتَمَنُ عَلَى آدَابِ الْبَاطِنِ .

الآدَابُ كُلُّهَا مُنْحَصِرَةٌ فِي مُتَابَعَتِهِ (ﷺ)

كُلُّ الْآدَابِ مُنْحَصِرَةٌ فِي مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَوْلًا
وَفِعْلًا ، وَحَالًا وَخُلُقًا .

فَالصُّوفِيُّ آدَابُهُ تَدُلُّ عَلَى مَقَامِهِ .

زِنُوا أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ وَأَحْوَالَهُ وَأَخْلَاقَهُ بِمِيزَانِ الشَّرْعِ ، يُعْلَمُ لَدَيْكُمْ ثِقَلُ
مِيزَانِهِ وَخِفَّتُهُ .

خُلُقُ النَّبِيِّ - (ﷺ) - الْقُرْآنُ

خُلُقُ النَّبِيِّ . . . الْقُرْآنُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

الْجِنْسُ يَعْرِفُهُ الْجِنْسُ

مَنْ أَلْتَزَمَ الْآدَابَ الظَّاهِرَةَ . . دَخَلَ فِي جِنْسِيَّةِ الْقَوْمِ ، وَحَسِبَ فِي
أَعْدَادِهِمْ .

وَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمِ الْآدَابَ الظَّاهِرَةَ . . فَهُوَ فِيهِمْ غَيْرٌ ، لَا يَلْتَبِسُ حَالَهُ عَلَيْهِمْ ؛
لَأَنَّ اسْتِعْمَالَ الْآدَابِ . . دَلِيلُ الْجِنْسِيَّةِ ^(١) ، بَلْ تَكُونُ عِلَّةَ الضَّمِّ ^(٢) .

قَالَ زُوَيْمٌ : التَّصَوُّفُ كُلُّهُ آدَبٌ . وَهَذَا الْآدَبُ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ
الطَّائِفَةُ . . آدَبُ الشَّرْعِ .

كُنْ مُتَشَرِّعًا ، وَدَعْ حَاسِدَكَ يَكْذِبُ عَلَيْكَ ، وَيَنْسُبُ مَا يُحِبُّ إِلَيْكَ :

وَلَسْتُ أَبَالِي مِنْ زَمَانِي بِرِيْبَةٍ إِذَا كُنْتُ عِنْدَ اللَّهِ غَيْرَ مُرِيْبٍ

(١) وَمِنْهُ قَوْلُ الْإِمَامِ الْحَافِظِ الْوَلِيِّ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ مَهْدِي الصِّبْيَانِيِّ الرَّفَاعِيِّ
الْحُسَيْنِيِّ ، الشَّهِيرِ بِـ : الرَّؤَاسِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كَمَا فِي دِيْوَانِهِ « مِشْكَاةَ الْيَقِينِ » ص
(٢٢٥) بِعِنَايَتِنَا :

إِذَا كُنْتَ فِي بَابِ النَّبِيِّ فَلَا تَخَفْ
وَإِنْ كُنْتَ مَبْسُوطَ الْفُؤَادِ بِحُبِّهِ
تَقَرَّبْ لِأَقْوَامٍ يَدِينُونَ وَدُهُ
فَإِنَّ مُحِبَّ الْحَقِّ يَأْوِي لِأَهْلِهِ
وَإِنْ عَارَضَتْكَ الْجِرُّ - يَا خَلُّ - وَالْإِنْسُ
فَوَقُتْكَ فِي كُلِّ الشُّؤُونِ بِهِ أَنْسُ
وَبَاعِدْ أَنْسًا قَدْ تَخَبَّطَهُمْ مَسُّ
بِلَا رِيْبَةٍ ، وَالْجِنْسُ يَعْرِفُهُ الْجِنْسُ

(٢) وَمِنْهُ قَوْلُهُ - أَيْضًا - مِنْ قَصِيدَةٍ فِي دِيْوَانِهِ الْمَذْكُورِ ص (٣٨٥) :

نَعَمْ إِنَّا مِنْهُمْ ، وَفِطْرَةٌ جِنْسِنَا
عَدَتْ عِلَّةً فِي النَّخْوِ تَسْتَلْزِمُ الضَّمًّا

إِذَا كَانَ سِرِّي عِنْدَ رَبِّي مُنْزَهًا فَمَا ضَرَّرَنِي وَاشْرَأْتِي بِغَرِيبٍ!

التَّخْذِيرُ مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ وَالْعُرُورِ

أَيُّهَا السَّالِكُ! إِيَّاكَ وَرُؤْيَةَ النَّفْسِ! إِيَّاكَ وَالْعُرُورَ! إِيَّاكَ وَالْكِبْرَ! فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ مُهْلِكٌ .

مَا دَخَلَ سَاحَةَ الْقُرْبِ . . مِنْ أَسْتَصَغَرَ النَّاسَ ، وَأَسْتَعَظَمَ نَفْسَهُ .
مَنْ أَنَا ، وَمَنْ أَنْتَ ؟ ١٩ .

أَيُّ أَخِي! كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا . . مُسَيِّئِينَ ، أَوَّلُهُ مُضْغَعَةٌ ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ .

شَرَفُ جِسْمِ الْإِنْسَانِ جَوْهَرُ عَقْلِهِ

شَرَفُ هَذَا الْعَرَضِيِّ (١) . . جَوْهَرُ الْعَقْلِ ، الْعَقْلُ . . مَا عَقَلَ النَّفْسَ ،

(١) أَرَادَ بِالْعَرَضِيِّ . . الْجِسْمَ ، وَهُوَ خِلَافُ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالْمَتَكَلِّمُونَ ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُمْ : مَا يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ مَرَضٍ وَهَمٍّ وَشُغْلٍ .
وَهُوَ - أَيْضاً - مِنْ أَحْدَاثِ الدَّهْرِ ، مِنْ الْمَوْتِ وَالْمَرَضِ ، وَالْأَمْرُ يَعْرِضُ لِلرَّجُلِ يُبْتَلَى بِهِ ، وَمَا عَرَضَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ أَمْرٍ يَخْبِسُهُ مِنْ مَرَضٍ أَوْ لُصُوصٍ ، وَالْآفَةُ تَعْرِضُ فِي الشَّيْءِ .

وَهُوَ - أَيْضاً - حُطَامُ الدُّنْيَا وَمَتَاعُهَا ، وَالطَّمَعُ ، وَأَنْ يُصِيبَ الشَّيْءَ عَلَى غِرَّةٍ .
وَهُوَ : أَسْمٌ لِمَا لَا دَوَامَ لَهُ .

وعند المتكلمين : ما يقوم بغيره ، كاللون والطعم والروائح والأصوات والقدر والإرادات .

وَهُوَ - أَيْضاً - الْعَطَاءُ وَالْمَطْلَبُ ، كَذَا فِي « تَاجِ الْعَرُوسِ » ١٨ : ٤٠١-٤٠٢-٤٠٣ =

وَأَوْقَفَهَا عِنْدَ حَدِّهَا ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَقْلُ الْمَرْءِ عَاقِلًا لِنَفْسِهِ ، مُوقِفًا لَهَا عِنْدَ حَدِّهَا ، فِي أَخْذِهَا وَرَدِّهَا . . . فَلَيْسَ بِعَقِلٍ .

وَإِذَا حُرِمَ الْمَرْءُ الْجَوْهَرَ . . . ذَهَبَ شَرْفُهُ ، وَبَقِيَ عَرَضًا ثَقِيلًا كَثِيفًا ، لَا يَلْتِقُ لِمَرْتَبَةِ عَزِيزَةٍ ، وَلَا لِمَنْصِبِ نَفِيسٍ .

وَإِذَا تَمَّ عَقْلُهُ وَكَمَلَ . . . صَارَ الْحُكْمُ فِيهِ لِلْجَوْهَرِ الْمَحْضِ ، فَصَلَحَ أَنْ يَكُونَ عَلَى تَبْجَانِ الْمُلُوكِ وَالْأَكَاسِرَةِ .

مَرَاتِبُ الْعَقْلِ :

وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ الْعَقْلِ . . . الْإِنْخِلَاعُ عَنِ الْأَنْبِيَةِ الْكَاذِبَةِ ، وَالِدَّعْوَى الْبَاطِلَةِ ، وَصَوْلَةُ الْفَتَقِ وَالرَّتْقِ ، وَالْوَهْبِ وَالسَّلْبِ .

وَإِذَا حَكَمَهُ الْمَقَامُ ، وَصَارَ صِفَةً عَلَيْهِ أَيْضًا . . . فَالْأَزْمُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مُبْتَدَأَهُ الطَّنِينِيَّ ، وَمُنْتَهَاهُ الثَّرَابِيَّ ، وَأَنْ يَقِفَ بَيْنَ هَذِهِ الْبُدَاءَةِ وَالنَّهَائَةِ بِمَا يُنَاسِبُهُمَا مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ؛ لِأَنَّ وَعَظَ اللَّهُ . . . فِي قَلْبِ كُلِّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ .

الْقَلْبُ الْغَافِلُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ

مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَعَظٌ . . . لَمْ تَنْفَعُهُ الْمَوْعِظَةُ .

كَيْفَ يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ ، مَنْ كَانَ قَلْبُهُ غَافِلًا ؟ .

= و ٤٢٤ ، مادة : « عرض » .

وَيُخْرِجُ قَوْلُ السَّيِّدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَلَى نَظَرَةِ الْعَارِفِ الْمُبْصِرِ ؛ فَإِنَّهُ رَأَى أَنَّ الْجِسْمَ . . . ظِلُّ زَائِلٌ لَا دَوَامَ لَهُ وَلَا بَقَاءَ ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمَ الْعَرَضِ ، وَقَدْ تَخْفَى هَذِهِ النُّكْتَةُ عَلَى الْكَثِيرِ ، فَأَنْهَمُ .

قَالَ سَهْلٌ : الْغَفْلَةُ . . سَوَادُ الْقَلْبِ ، وَقَالَ السَّيِّدُ الْأَمِينُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ حَدِيثٍ :

« . . . أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ . . صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ . . فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » (١) .

كَيْفَ يُنْتَفَعُ بِالْمَوْعِظَةِ ؟

أَيُّ أَخِي ! تَنْتَفِعُ مِنْ مَوْعِظَتِي ، وَأَنْتَفِعُ مِنْ مَوْعِظَتِكَ . . إِذَا أَخْلَصَ كُلُّ مِنَّا .

تَوَاضَعُ السَّيِّدُ وَأَسْلُوبُهُ فِي تَهْذِيبِهِ غَيْرُهُ

أَيُّ أَخِي ! أَنْتَ أَحْسَنُ مِنِّي ، زَحَمَتِكَ ذِلَّةُ التَّلَقِّي ، وَأَنَا أَخَذْتَنِي سَكْرَةَ التَّعْلِيمِ .

أَيُّ أَخِي ! إِنْ أَنَا غَلَبْتُ نَفْسِي الْمِسْكِينَةَ ، وَقُلْتُ لَهَا : عَلَّمَكَ اللَّهُ ، وَأَوْجَبَ عَلَيْكَ تَعْلِيمَ الْإِخْوَانِ ، وَكَاتِمُ الْعِلْمِ . . يُلْجِمُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ، فَتَعَبُكَ لَكَ ، قَفِي عِنْدَ حَدِّكَ ، رَبَّمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَجَلُ مِنْكَ ، أَخْفَاهُ عَنكَ لِيُخْتَبِرَكَ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ : سَكَنْتُ ثَائِرَتَهَا الْكَاذِبَةَ ، وَعَرَفْتُ قَدْرَهَا ، وَوَقَفْتُ عِنْدَ طَوْرِهَا . . فَلَهَا الْحِطُّ الْأَوْفَرُ ، وَكَذَلِكَ أَنْتَ .

(١) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

كَيْفَ يَفُوزُ الْفَقِيرُ ؟

أَيُّ أَخِي ! إِنَّ غَلَبْتَ نَفْسَكَ ، وَأَلْزَمْتَهَا التَّعَلَّمَ ، وَذَبَحْتَ الْهَوَى بِسِكِّينِ
الْاِقْتِدَاءِ ، وَأَخَذْتَ الْحِكْمَةَ غَاضاً طَرْفَكَ عَنِ شَرَفِكَ وَعِلْمِكَ ، وَحَسَبَكَ
وَأَبْنِكَ ، وَمَالِكَ وَحَالِكَ . . فَقَدْ فُزْتَ فَوْزاً عَظِيماً .

كَيْفَ يَنْبُتُ فِي دِيْوَانِ الرَّجَالِ

مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ وَيَتَّهَمَهَا . . لَمْ يُنْبِتْ عِنْدَنَا فِي دِيْوَانِ
الرَّجَالِ (١) .

تَوَاضَعُ السَّيِّدُ لِإِخْوَانِهِ وَنَفِيَهُ التَّقَدُّمَ عَلَيْهِمْ

أَيُّ سَادَةٍ ! أَنَا لَسْتُ بِشَيْخٍ ! لَسْتُ بِمُقَدِّمٍ عَلَى هَذَا الْجَمْعِ ! لَسْتُ بِوَاعِظٍ !
لَسْتُ بِمُعَلِّمٍ !

(١) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَئِيسُهُمْ ، وَقَانِدُ رُكْبَتِهِمْ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَافِظِ
الْوَلِيِّ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ مَهْدِيِّ الصِّيَادِيِّ الْحُسَيْنِيِّ ، الشَّهِيرِ بِـ : الرَّؤَاسِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
مِنْ قَصِيدَتَيْنِ ، مَدَحَ فِيهِمَا جَدَّهُ الْإِمَامَ صَاحِبَ « الْبُرْهَانِ » ، كَمَا فِي دِيْوَانِهِ « مَشْكَاهُ
الْيَقِينِ » ص (٦٦ و ٦٨) ، وَنَصُّهُ : «

فَخَلُّ كُبَارِهِمْ ، عَظِيمُ الْمَزَايَا
عَلَّمَ الْأَوْلِيَاءَ ذُخْرِي أَبُو الْعَدَا
يَا رَيْسَ الْأَقْطَابِ حَيًّا وَمَيِّتًا
الْمُفَدَّى رَبُّ الْيَدِ الْيَضَاءِ
جَسَّاسٍ ، لَيْتُ الْكُتَيْبَةَ الصَّمَاءِ
يَا بَنَ بِنْتِ النَّبِيِّ يَا مَوْلَانِي

وَصَبْرَهُ عَنِ سَيِّدِ الرُّسُلِ نَائِبًا
وَوَرْتَهُ فِي حَالِهِ أَنْبِيَاءَهُ

حُشِرْتُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ / إِنَّ خَطَرَ لِي أَنِّي سَيِّئٌ عَلَى أَحَدٍ مِّنْ خَلْقِ اللَّهِ ، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ ، فَأَكُونُ كَأَحَادِ الْمُسْلِمِينَ .^(١)

بَابُ الْقَبُولِ إِلَى اللَّهِ الْإِسْلَامُ

مُتْ مُسْلِمًا وَلَا تَبَالِ! الْإِسْلَامُ . . حَبْلُ الْوَصْلَةِ إِلَى اللَّهِ .

لَوْ عَبْدَ اللَّهُ غَيْرُ الْمُسْلِمِ بِعِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ^(٢) . . بَعِيدٌ عَنِ اللَّهِ ، مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ .

وَلَوْ أَتَى الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ . . لَهُ مِنَ اللَّهِ حَظُّ الْعِبُودِيَّةِ ، ﴿ قُلْ يَتَعْبَادُونَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، الْآيَةُ .

أَحْكِمُوا رَابِطَةَ الْوَصْلَةِ مَعَ اللَّهِ ، بِشَرَائِطِ الْإِسْلَامِ .

« الْمُسْلِمُ . . مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ »^(٣) .

مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَالصَّدَقِ وَعِظْكَ نَفْسَكَ

أَيْنَ أَهْلُ الصَّدَقِ ، الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ، وَيَأْتِمِرُونَ بِهِ ؟ .

(١) سيأتي مثله في ص (٢٠٥) ، قال العارف الوليُّ عليُّ الحَواصُّ رضيَ اللهُ عنه :
« مِنْ عِلْمَةِ فَقْدِ النَّفْسِ فِي حَقِّ الْفَقِيرِ : عَدَمُ شَهْوَتِهِ لِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ » ، « لَوَاقِحُ الْأَنْوَارِ فِي طَبَقَاتِ الْأَخْيَارِ » ص (٥٢٥) (ترجمة : علي
الحواصُّ) ، للإمامِ العارفِ الشُّغراني ، رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِمَا .

(٢) الثَّقَلَيْنِ : الْجِبُّ وَالْإِنْسُ .

(٣) رواه البخاريُّ (١٠) ، ومسلمٌ (٤٠) .

أَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الْحِكْمَةَ ، وَلَا يَقِفُ نَظَرُهُمْ عِنْدَ مَوْضِعِهَا ؟ .

مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَالصُّدُقِ . . وَعَظُكَ نَفْسِكَ ، وَنَفْعَكَ غَيْرِكَ ، وَأَخْذَكَ الْحِكْمَةَ أَيْنَ وَجَدْتَهَا .

ذِكْرُهُ عَنِ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ !

كُلُّ الْفُقَرَاءِ وَرِجَالِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ . . خَيْرٌ مِنِّي .

أَنَا حُمَيْدُ اللَّاشِ ، أَنَا لِاشُ اللَّاشِ ، لَكِنَّ الْحَقَّ يُقَالُ ، الصُّوفِيُّ : مَنْ صَفَى سِرُّهُ مِنْ كُدُورَاتِ الْأَكْوَانِ ، وَمَا رَأَى لِنَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ مَزِيَّةً .

هَكَذَا كَتَبَ اللَّهُ وَحَكَمَ ، وَهَذَا - وَاللَّهِ - خُلِقَ عَبِيدِهِ ، الَّذِينَ طَهَّرَهُمْ مِنْ رُؤْيَةِ غَيْرِهِ .

الْإِنْسَانُ غَيْرٌ وَمَا يَخْتَلِجُ بِسِرِّهِ فَهُوَ غَيْرُ رَبَّنَا

أَيُّ أَخِي ! أَنْتَ غَيْرٌ ، وَنَفْسُكَ غَيْرٌ ، وَغَيْرُكَ غَيْرٌ ، كُلُّ مَا أَدْرَكَهُ بَصْرُكَ ، وَأَخْتَلَجَ بِشَكْلِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ سِرُّكَ . . فَهُوَ غَيْرُ رَبَّنَا .

لَا نَكَيْفُهُ الْأَفْكَارُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ .

خَوْفُهُ عَلَى أَحْبَابِهِ مِنَ الْفَرَحِ بِالْكَرَامَةِ .

أَيُّ أَخِي ! أَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ الْفَرَحِ بِالْكَرَامَةِ وَإِظْهَارِهَا .

الْأَوْلِيَاءُ يَسْتَتِرُونَ مِنَ الْكَرَامَةِ . . كَأَسْتَتَارِ الْمَرْأَةِ مِنْ دَمِ الْحَيْضِ .

أَيُّ أَخِي ! الْكَرَامَةُ . . عَزِيزَةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُكْرَمِ ، لَيْسَتْ بِشَيْءٍ بِالنَّسْبَةِ

لَنَا ؛ لِأَنَّ هَذَا الْإِكْرَامَ لَمَّا وَرَدَ مِنْ بَابِ الْكَرِيمِ . . عَظُمَ وَعَزَّ ، وَتَلَقَّتْهُ الْقُلُوبُ بِالْإِجْلَالِ .

وَلَمَّا تَحَوَّلَ لَفْظُ النُّسْبَةِ إِلَى الْعَبْدِ . . هَانَ الْأَمْرُ ، وَأَسْتَرَّ الْكَامِلُ مِنْ هَذِهِ النُّسْبَةِ ، الَّتِي تَحَوَّلَ أَمْرُهَا مِنْ بَابِ قَدِيمٍ إِلَى بَابِ حَادِثٍ ، خِيفَةً مِنْ أَسْتِحْسَانِ النُّسْبَةِ الثَّانِيَةِ ؛ فَإِنَّ قَبُولَهَا سُمُّ قَاتِلٌ .

لَيْسَ لِلْعَاقِلِ إِلَّا قَرْعُ بَابِ الْكَرَمِ

كُلْنَا عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَاهُ ، كُلْنَا جَائِعٍ إِلَّا مَنْ أَطْعَمَهُ ، كُلْنَا ضَالًّا إِلَّا مَنْ هَدَاهُ .

لَيْسَ لِلْعَاقِلِ . . إِلَّا قَرْعُ بَابِ الْكَرَمِ فِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ .
 الْمَخْلُوقُ . . ضَعْفٌ ، عَجْزٌ ، فَقْرٌ ، حَاجَةٌ ، عَدَمٌ مَحْضٌ .
 أَكْرَمَ اللَّهُ أَحْبَابَهُ الْمُتَّقِينَ ، وَأَظْهَرَ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْخَوَارِقَ ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِهِ ، وَرَفَعَ مَنَارَهُمْ ، فَاسْتَعْلَوْا بِهِ - تَعَالَى - عَنْ كُلِّ ذَلِكَ .
 خَافُوا اللَّهَ ، فَاسْكَنَهُمْ جَنَّةَ قُرْبِهِ ، وَأَكْرَمَهُمْ إِذْ نَزَّلُوا بِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

الْقَوْلُ بِتَأْتِيرِ غَيْرِهِ شِرْكٌ

شَرُّ الْهَوَىٰ . . رُؤْيَةُ الْأَغْيَارِ ، وَالِاسْتِغَالُ عَنِ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ !
 مَا الَّذِي يَرَاهُ الْعَاقِلُ مِنَ الْاسْتِغَالِ بِغَيْرِهِ ؟ .

الْقَوْلُ بِتَأْيِيرِ غَيْرِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مَا ، قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ ، كُلِّيٌّ أَوْ جُزْئِيٌّ . .
شِرْكٌ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا :

« يَا غُلَامُ! إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ : إِحْفَظِ اللَّهَ . . يَحْفَظْكَ ، إِحْفَظِ اللَّهَ . .
تَحُدُّهُ تُجَاهَكَ .

إِذَا سَأَلْتَ . . فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا أَسْتَعَنْتَ . . فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ .

وَأَعْلَمْ! أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ . . لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا
بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ .

وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ . . لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ
عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ « (١)

تَفَرَّقَتِ الطَّوَائِفُ شِيعَاً

أَيُّ سَادَةٍ! تَفَرَّقَتِ الطَّوَائِفُ شِيعَاً ، وَحُمَيْدٌ / بَقِيَّ مَعَ أَهْلِ الدُّلِّ
وَالْإِنْكِسَارِ ، وَالْمَسْكَنَةِ وَالْإِضْطِرَّارِ .

تَحْذِيرُهُ مِنَ الْكَذِبِ وَقَوْلُهُ فِي الْحَلَّاجِ

إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ! ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

يَنْقُلُونَ عَنِ الْحَلَّاجِ أَنَّهُ قَالَ : أَنَا الْحَقُّ!! أَخْطَأَ بَوْهِمِهِ! لَوْ كَانَ عَلَى
الْحَقِّ . . مَا قَالَ : أَنَا الْحَقُّ!! .

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) ، وقال : « حديث حسن صحيح » .

يَذْكُرُونَ لَهُ شِعْرًا يُؤْهِمُ الْوَحْدَةَ ، كُلُّ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ بَاطِلٌ .
 مَا أَرَاهُ رَجُلًا وَاصِلًا أَبَدًا ، مَا أَرَاهُ شَرِبَ ، مَا أَرَاهُ حَضَرَ ، مَا أَرَاهُ سَمِعَ
 إِلَّا رَنَّةً أَوْ طِينِنًا ، فَأَخَذَهُ الْوَهْمُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ .
 مَنْ أزدَادَ قُرْبًا وَلَمْ يَزِدْ خَوْفًا . . فَهُوَ مَمْكُورٌ .
 إِيَّاكُمْ وَالْقَوْلَ بِهَذِهِ الْأَقْوِيلِ ! إِنْ هِيَ إِلَّا أَبَاطِيلٌ .
 دَرَجَ السَّلْفُ عَلَى الْخُدُودِ بِلَا تَجَاوُزٍ .
 بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ ! هَلْ يَتَجَاوَزُ الْحَدَّ . . إِلَّا الْجَاهِلُ ؟
 هَلْ يَدُوسُ عَنُودَ فِي الْجُبِّ . . إِلَّا الْأَعْمَى ؟
 مَا هَذَا التَّطَاوُلُ ؟ ! وَذَلِكَ الْمُتَطَاوُلُ . . سَاقِطٌ بِالْجُوعِ ، سَاقِطٌ
 بِالْعَطَشِ ، سَاقِطٌ بِالنَّوْمِ ، سَاقِطٌ بِالْوَجَعِ ، سَاقِطٌ بِالْفَاقَةِ ، سَاقِطٌ بِالْهَرَمِ ،
 سَاقِطٌ بِالْعَنَاءِ .
 أَيْنَ هَذَا التَّطَاوُلُ / مِنْ صَدْمَةِ صَوْتِ : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ ؟

تَجَاوُزُ الْعَبْدِ حَدَّهُ مَعَ إِخْوَانِهِ يُعَدُّ نَاقِصًا

الْعَبْدُ مَتَى تَجَاوَزَ حَدَّهُ مَعَ إِخْوَانِهِ ، يُعَدُّ فِي الْحَضْرَةِ نَاقِصًا .

التَّجَاوُزُ . . عِلْمٌ نَقْصٍ ، يُنْشَرُّ عَلَى رَأْسِ صَاحِبِهِ ، يَشْهَدُ عَلَيْهِ
 بِالِدَّعْوَى ، يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِالْغَفْلَةِ ، يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِالزُّهْرِ ، يَشْهَدُ عَلَيْهِ
 بِالْحِجَابِ .

الْوَلَايَةُ لَيْسَتْ بِفِرْعَوْنِيَّةٍ

يَتَحَدَّثُ الْقَوْمُ بِالنِّعَمِ ، لَكِنْ مَعَ مَلَا حَظَّةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ ، الْحُقُوقِ
الْإِلَهِيَّةِ . . تَطْلُبُهُمْ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ .

الْوَلَايَةُ . . لَيْسَتْ بِفِرْعَوْنِيَّةٍ ، وَلَا بِنَمْرُودِيَّةٍ ! قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ
الْأَعْلَى ﴾ . وَقَالَ قَائِدُ الْأَوْلِيَاءِ ، وَسَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« لَسْتُ بِمَلِكٍ » ^(١) . نَزَعَ ثَوْبَ التَّعَالِي وَالْإِمْرَةِ وَالْفَوْقِيَّةِ .

كَيْفَ يَتَجَرَّأُ عَلَى ذَلِكَ الْعَارِفُونَ ، وَاللَّهُ يَقُولُ : ﴿ وَامْتَرُوا الْيَوْمَ أَنبِيَاءَ
الْمُجْرِمُونَ ﴾ !؟ .

وَصَفُّ الْاِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ . . وَصَفُّ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيَّأُ
النَّاسُ أَنَّهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ .

حَتَّى إِخْوَانَهُ عَلَى تَعَلُّمِ عِلْمِ الْقَوْمِ

هَذَا الَّذِي أَقُولُهُ . . عِلْمُ الْقَوْمِ ، تَعَلَّمُوا هَذَا الْعِلْمَ ؛ فَإِنَّ جَذَبَاتِ الرَّحْمَنِ
فِي هَذَا الزَّمَانِ قَلَّتْ .

الْعَاقِلُ كُلُّ أَعْمَالِهِ لِلَّهِ

إِصْرِفُوا الشُّكُورَ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٨٢) ، والحاكم في « المستدرک » ٢ :

٤٦٦ ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٨ :

٥٨٥ ، وقال : « رواه الطبراني في « الأوسط » ، وفيه : مَنْ لَمْ أَعْرِفْهُمْ » .

الْعَاقِلُ . . لَا يَشْكُو لآ إِلَى مَلِكٍ ، وَلَا إِلَى سُلْطَانٍ ، الْعَاقِلُ . . كُلُّ
أَعْمَالِهِ لِلَّهِ .

تَخْلُقُهُ بِمَا يَقُولُ

أَي سَادَةً! مَا قُلْتُ لَكُمْ إِلَّا مَا فَعَلْتُهُ وَتَخَلَّقْتُ بِهِ ، فَلَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيَّ .

كَيْفِيَّةُ الْأَخْذِ عَنِ الْوُعَاظِ

إِذَا رَأَيْتُمْ وَاعِظًا أَوْ قَاصًّا أَوْ مُدْرَسًا . . فَخُذُوا مِنْهُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَلَامَ
رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَلَامَ أئِمَّةِ الدِّينِ ، الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَدْلًا ،
وَيَقُولُونَ حَقًّا ، وَأَطْرَحُوا مَا زَادَ .

وَإِنْ أَتَى بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . فَأَضْرِبُوا بِهِ
وَجْهَهُ .

تَحْذِيرُهُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ النَّبِيِّ (ﷺ)

الْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ! صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ،
قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴾ .

الْعِرَاقُ أَخَاذَةُ الْمَشَايخِ

كَانَ الْعِرَاقُ أَخَاذَةَ الْمَشَايخِ (١) ، وَعَيْبَةَ الْعَارِفِينَ (٢) .

(١) أَي : يَأْخُذُ إِلَيْهِ الْمَشَايخَ ، لِكَثْرَةِ مَا فِيهِ مِنْ عَارِفِينَ ، وَعِلْمَاءِ رَاسِخِينَ .

(٢) الْعَيْبَةُ : مَا يُجْعَلُ فِيهِ الثِّيَابُ ، وَوِعَاءٌ مِنْ أَدَمٍ يَكُونُ فِيهِ الْمَتَاعُ . وَالْعَيْبَةُ مِنْ =

حَتُّهُ إِخْوَانَهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْقَوْمِ

مَاتَ الْقَوْمُ ، اللَّهُ اللَّهُ بِمُتَابَعَتِهِمْ ! أَخْلَفُوهُمْ بِحُسْنِ التَّخَلُّقِ ، أَعْقَبُوهُمْ
بِصِحَّةِ الصَّدَقِ ، لَا تَلْبَسُوا ثَوْبَ قَوْلِهِ :

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ﴾ .

يَطْلُبُ مِنْ إِخْوَانِهِ عَدَمَ تَخْجِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَيُّ إِخْوَانِي ! لَا تُخْجِلُونِي غَدًا بَيْنَ يَدَيِ الْعَزِيزِ سُبْحَانَهُ ، وَقَدْ سَبَقَكُمْ
أَصْحَابُ الْأَعْمَالِ الْمَرْضِيَّاتِ .

كُلُّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْفَقِيرِ . . . أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيَّتِ الْأَحْمَرِ ^(١) .

إِيَّاكُمْ وَضِيَاعَ الْأَوْقَاتِ ؛ فَإِنَّ الْوَقْتَ سَيْفٌ ، إِنْ لَمْ يَقْطَعَهُ الْفَقِيرُ . .
قَطَعَهُ ^(٢) ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ .

الْأَدَبُ بَابُ الْأَرْبِ

عَلَيْكُمْ بِالْأَدَبِ ؛ فَإِنَّ الْأَدَبَ . . . بَابُ الْأَرْبِ ، حُكِيَ عَنِ سَعِيدِ بْنِ
الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ :

= الرَّجُلُ : هُوَ مَوْضِعُ سِرِّهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ :

« الْأَنْصَارُ عَيْبَتِي وَكَرْشِي » . أَي : خَاصَّتِي وَمَوْضِعُ سِرِّي ، قَالَهُ الزَّيْبِدِيُّ فِي

« تَاجِ الْعُرُوسِ » ٣ : ٤٤٩ ، مَادَةٌ : « عَيْبٌ » .

(١) مَرَّ بِكَ بَيَانُ مَعْنَاهُ ص (٩) .

(٢) فِي الْمَطْبُوعِ ص (٣٤) : « إِنْ قَطَعَهُ الْفَقِيرُ ، قَطَعَهُ » . وَالْمُثَبَّتُ هُوَ الظَّاهِرُ ،

وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَمْ يَتَأَدَّبْ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . . . كَانَ مِنَ
الْأَدَبِ فِي عَزَلَةٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

سُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ أَنْفَعِ الْأَدَبِ ؟ فَقَالَ :
التَّقَهُُّ فِي الدِّينِ ، وَالزُّهُدُ فِي الدُّنْيَا ، وَالْمَعْرِفَةُ بِحُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى
عَبْدِهِ .

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ قَهَرَ نَفْسَهُ بِالْأَدَبِ . . . عَبْدَ اللَّهِ
بِالْإِخْلَاصِ .

الْأَدَبُ مَعَ الْمَشَايخِ

وَمِنَ الْأَدَبِ أَيْضًا : الْأَدَبُ مَعَ الْمَشَايخِ ؛ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ قُلُوبَ
الْمَشَايخِ . . . سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْكِلَابَ الَّتِي تُؤْذِنُهُ .

مَرَاتِبُ الْأَدَبِ :

أَدَبٌ صُحْبَةٌ مِنْ فَوْقَكَ . . . الْخِدْمَةُ ، وَمَنْ هُوَ مِثْلُكَ . . . الْإِيثَارُ وَالْفُتُوَّةُ ،
وَمَنْ دُونَكَ . . . الشَّفَقَةُ وَالتَّرِييبَةُ وَالْمُنَاصَحَةُ .

شَأْنُ الْعَارِفِ مَعَ اللَّهِ وَنَفْسِهِ وَغَيْرِهِ

صُحْبَةُ الْعَارِفِ مَعَ اللَّهِ . . . بِالْمُؤَافَقَةِ ، وَمَعَ الْخَلْقِ . . . بِالْمُنَاصَحَةِ ، وَمَعَ
النَّفْسِ . . . بِالْمُخَالَفَةِ ، وَمَعَ الشَّيْطَانِ . . . بِالْعِدَاوَةِ .

إشارته إلى ولايته

إِنْكَارُ الْعَبْدِ نِعْمَةَ اللَّهِ . . مِنْ مُوجِبَاتِ السَّلْبِ .

أَنَا مِنَ الَّذِينَ ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

إِنَّ اللَّهَ إِذَا وَهَبَ عَبْدَهُ نِعْمَةً . . مَا أَسْتَرَدَّهَا .

شُكْرُ النِّعْمَةِ . . مَعْرِفَةُ قَدْرِهَا .

مَنْ أَرَادَ أَنْ تَدُومَ نِعْمَتُهُ . . فَلْيَعْرِفْ قَدْرَهَا . . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهَا ،

فَلْيَشْكُرْهَا .

مَعْنَى الشُّكْرِ :

الشُّكْرُ - مَا قَالَهُ الْجَنِيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ : أَنْ لَا يَسْتَعِينَنَّ الْعَبْدُ بِنِعْمَتِهِ

تَعَالَى عَلَى مَعْصِيَتِهِ .

الشُّكْرُ . . وَقُوفُ الْقَلْبِ عَلَى جَادَةِ الْأَدَبِ مَعَ الْمُنْعِمِ .

الشُّكْرُ . . أَنْ يَتَّقِيَ الْعَبْدُ رَبَّهُ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَذَلِكَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى ،

وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى ، وَيُشْكِرَ وَلَا يُكْفِرَ .

الشُّكْرُ . . أُجْتَنَابُ مَا يُغْضِبُ الْمُنْعِمَ تَعَالَى .

الشُّكْرُ . . رُؤْيَةُ الْمُنْعِمِ ، لَا رُؤْيَةَ النِّعْمَةِ .

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « أَنَا نَبِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

فِي لَيْلَةٍ ، فَدَخَلَ مَعِيَ فِي لِحَافِي ، حَتَّى مَسَّ جِلْدِي جِلْدَهُ ، ثُمَّ قَالَ :

« يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ! ذَرِينِي أَتَعْبُدُ لِرَبِّي » .

قُلْتُ : إِنِّي أَحِبُّ قُرْبَكَ ، وَأَذْنْتُ لَهُ ، فَقَامَ إِلَى قِرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَتَوَضَّأَ ،
وَأَكْثَرَ صَبَّ الْمَاءِ ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَبَكَى حَتَّى سَالَتْ دُمُوعُهُ عَلَى صَدْرِهِ ،
ثُمَّ رَكَعَ فَبَكَى ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَى ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَبَكَى ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى
جَاءَ بِلَالٌ فَأَذَنَهُ بِالصَّلَاةِ .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا يُبْكِيكَ ؟ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا
تَأَخَّرَ ! فَقَالَ :

« أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ ! » (١) .

قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَيُّ رَبِّ ! كَيْفَ أَشْكُرُكَ ، وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مِنْ
عِنْدِكَ ؟ ! .

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : الْآنَ شَكَرْتَنِي .
الشُّكْرُ . . . طَلَبُ الْمُنْعِمِ ، وَرَفْضُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .

طَلَبُ الْمُنْعِمِ . . . يَصِحُّ بِالزُّهْدِ ، وَالزَّاهِدِ . . . مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا ، وَلَا يُبَالِي
مَنْ أَخَذَهَا ، قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ، رُضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
دُنْيَا تُخَادِعُنِي كَأَنَّ سِي لَسْتُ أَعْرِفُ حَالَهَا
ذَمَّ الْإِلَهَ حَرَامَهَا وَأَنَا اجْتَنَبْتُ حَالَهَا

(١) رواه بهذا اللفظ القُشَيْرِيُّ فِي « رِسَالَتِهِ » ١ : ٥٤٥ - ٥٤٦ ، بَابِ الشُّكْرِ ،
وَبِنُحْوِهِ ابْنُ حِبَّانٍ (٦٢٠) ، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي « تَفْسِيرِهِ » ١ : ٤٤١ ، وَانظُرْ « مَوَارِدَ
الظَّمَانِ » ١ : ١٣٩ ، وَ« الْبَيَانَ وَالتَّعْرِيفَ » ١ : ١٢٥ .

بَسَطْتَ إِلَيَّ يَمِينَهَا فَكَفَفْتُهَا وَشَمَّالَهَا
وَرَأَيْتُهَا مُخْتَاجَةً فَوَهَبْتُ جُمْلَتَهَا لَهَا

مَعْنَى الزُّهْدِ :

قَالَ الْعَارِفُونَ : الزُّهْدُ . . . قِصْرُ الْأَمَلِ ، لَيْسَ بِأَكْلِ الْغَلِيظِ ، وَلَا لُبْسِ
الْعَبَاءَةِ .

مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا . . . وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ مَلَكًا يَغْرِسُ الْحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ ، قَالَ
تَعَالَى :

﴿ تِلْكَ الْأْدَارُ الْأَخْرَجَةُ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعِزَّةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ﴿ وَالْعِزَّةُ لِلتَّقْوَى ﴾ .

كُلُّ الْخَيْرِ فِي التَّقْوَى

كُلُّ الْخَيْرِ جَعَلَهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ التَّقْوَى ، قَالَ تَعَالَى :
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ .

تَحْذِيرُهُ مِنَ الدُّنْيَا وَتَرْغِيبُهُ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْمَوْلَى

أَي سَادَةً! أَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا! وَأَحْذَرُكُمْ رُؤْيَةَ الْأَغْيَارِ! الْأَمْرُ صَعْبٌ ،
وَالنَّاقِذُ بَصِيرٌ .

إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْبَطَالَاتِ! إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْغَفَلَاتِ! إِيَّاكُمْ وَالْعَوَالِمِ! إِيَّاكُمْ
وَالْمُخَدَّنَاتِ! .

أَطْلُبُوا الْكُلَّ ، بِتَرْكِ الْكُلِّ ، مَنْ تَرَكَ الْكُلَّ . . نَالَ الْكُلَّ ، وَمَنْ أَرَادَ الْكُلَّ . . فَاتَهُ الْكُلُّ .

كُلُّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّلَبِ . . لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا تَرْكُهُ وَالْوُقُوفُ وَرَاءَهُ .

وَحَدُّوا الْمَطْلُوبَ ، تَنْدَرِجَ تَحْتَ تَوْحِيدِكُمْ كُلُّ الْمَطَالِبِ .

مَنْ حَصَلَ لَهُ اللَّهُ . . حَصَلَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ فَاتَهُ اللَّهُ . . فَاتَهُ كُلُّ شَيْءٍ .

بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ تَمْرٌ ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! مَنْ خَرَجَ عَنْ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ، وَصَفَعَ أَبْهَةً طَبِيعِهِ . . تَخَلَّصَ مِنْ قَيْدِ الْجَهْلِ .

لَيْسَ الْأَمْرُ جِبَّةَ صُوفٍ

لَيْسَ الْأَمْرُ - كَمَا تَظُنُّونَ - جِبَّةَ صُوفٍ ، وَتَاجًا ، وَثُوبًا قَصِيرًا .

جِبَّةٌ حُزْنٍ ، وَتَاجٌ صِدْقٍ ، وَثُوبٌ تَوَكُّلٍ ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ .

الْعَارِفُ ظَاهِرُهُ الشَّرِيعَةُ وَبَاطِنُهُ الْمَحَبَّةُ

الْعَارِفُ لَا يَخْلُو ظَاهِرُهُ مِنْ بَوَارِقِ الشَّرِيعَةِ ، وَبَاطِنُهُ مِنْ نِيرَانِ الْمَحَبَّةِ ،

يَقِفُ مَعَ الْأَمْرِ ، وَلَا يَنْحَرِفُ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَقَلْبُهُ يَتَقَلَّبُ عَلَى جَمْرِ الْوَجْدِ ،

وَجَدُهُ إِيمَانًا ، وَوُقُوفُهُ إِذْعَانًا .

« الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (١) .

هَكَذَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ .

الزَمْنَا الإِحْسَانَ . . أَنْ نَقِفَ أَمَامَهُ وَقُوفَ مَنْ يَرَاهُ ، وَهُوَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ
خَافِيَةٌ .

عِلْمٌ ، وَأَمْرٌ ، وَإِرَادَةٌ ، وَبَعْدَهَا الإِمْكَانُ ، وَبَعْدَ الإِمْكَانِ : التَّكْوِينُ ،
وَبَعْدَهُ التَّكْلِيفُ ، وَبَعْدَهُ : الْفَضْلُ أَوْ الْوَصْلُ .

صِدْقُ الْعُبُودِيَّةِ التَّسْلِيمِ

صِدْقُ الْعُبُودِيَّةِ . . أَنْ يُسَلِّمَ الْعَبْدُ لِسَيِّدِهِ .

الْفَقِيرُ إِذَا أَنْصَرَ لِنَفْسِهِ . . تَعَبَ ، وَإِذَا سَلَّمَ الأَمْرَ لِمَوْلَاهُ . . نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ
عَشِيرَةٍ وَلَا أَهْلِ .

نَبَاتُهُ عَنْ جَدِّهِ الْمُصْطَفَى (ﷺ)

أَقَامَنَا اللهُ أئِمَّةَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ بِالنَّبَايَةِ عَنْ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
مَنْ أَقْتَدَى بِنَا . . سَلِمَ ، وَمَنْ أَنْابَ إِلَى اللهِ بِنَا . . غَنِمَ .

نَحْنُ أَهْلَ بَيْتٍ يُدَافِعُ اللهُ عَنْهُمْ

الْحَقُّ يُقَالُ : نَحْنُ - أَهْلَ بَيْتٍ - مَا أَرَادَ سَلْبَنَا سَالِبٌ . . إِلاَّ وَسَلِبَ ، وَلَا
نَبَحَ عَلَيْنَا كَلْبٌ . . إِلاَّ وَجَرِبَ ، وَلَا هَمَّ عَلَيَّ ضَرْبِنَا ضَارِبٌ . . إِلاَّ وَضَرِبَ ،
وَلَا تَعَالَى عَلَيَّ حَائِطُنَا حَائِطٌ . . إِلاَّ وَخَرِبَ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

إِنْكَارُ بَوَارِقِ الْفَتَّاحِ جَهْلٌ بِهِ

إِنْكَارُ بَوَارِقِ الأَرْوَاحِ . . جَهْلٌ بِمَدَدِ الْفَتَّاحِ ، لَا تَعْطِيلَ لِكَلِمَةِ اللهِ :

﴿ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ .

يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ وَأُمُورَ مُنَادِيهِمْ وَمَنْ يَنْزِلُ بِنَادِيهِمْ ، حَالَ حَيَاتِهِمْ وَيَعُدُّ مَمَاتِهِمْ ، بِلُحُوقِ عِلْمٍ مِنْهُمْ ، وَبِغَيْرِ لُحُوقِ عِلْمٍ مِنْهُمْ .

الْعَبْدُ إِذَا كَانَ رَاحِمًا . . يَسْتُرُ النَّائِمَ ، وَلَا يَذْكُرُ لَهُ ذَلِكَ ، يُوَصِّلُ الْخَيْرَ إِلَى الْفَقِيرِ ، وَلَا يُعْرِفُهُ الْخَبَرَ .

اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، الْعَظِيمُ الْكَرِيمُ ، يَنْتَصِرُ لِعَبْدِهِ الْوَلِيِّ مِنْ حَيْثُ لَا يَذَرِي ، ﴿ وَبَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

تَعْصِمُهُ جِبَالُ عِنَايَتِهِ مِنْ مَاءِ غَرَقِ الْأَكْدَارِ وَالْاِقْتِدَارِ ، تَدْفَعُ عَنْهُ وَعَنْ مُحِبِّيهِ الْأَقْدَارَ بِالْأَقْدَارِ ، لَا بِهِ ! وَلَكِنْ لَهُ التَّنَزُّلَاتُ الْمُحْكَمَةُ :

﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ .

الاعْتِصَامُ بِاللَّهِ فَوْزٌ لِلْعَبْدِ

مَنْ أَعْتَصَمَ بِاللَّهِ . . عَصِمَ ، وَمَنْ وَقَفَ مَعَ الْأَغْيَارِ . . نَدِمَ .

قَالَ سَيِّدِي الشَّيْخُ مَنْصُورُ الرَّبَّانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الْاِعْتِصَامُ بِاللَّهِ . . يُقْتَتِكُ بِهِ ، وَتَنْزِيَهُ خَوَاطِرِكَ عَنْ غَيْرِهِ .

الْقَوْمُ أَرَشَدُونَا ، دَلُّونَا عَلَى الطَّرِيقِ ، كَشَفُوا لَنَا حِجَابَ الْإِغْلَاقِ عَنْ خَزَائِنِ دُرْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، عَرَفُونَا حِكْمَةَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

« هُمْ الْقَوْمُ ، لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » ^(١) .

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ، وَعَرَفَ شَأْنَ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . أَحَبَّهُمْ
وَأَتَّبَعَهُمْ .

الْقَوْمُ بَايَعُوا اللَّهَ بِصِدْقِ النِّيَّاتِ

أَيُّ سَادَةِ! الْقَوْمُ . . بَايَعُوا اللَّهَ بِصِدْقِ النِّيَّاتِ ، وَخَالِصِ الطَّوَيَّاتِ عَلَى
كَثْرَةِ الْمُجَاهِدَاتِ ، وَمُلَازِمَةِ الْمُرَاقِبَاتِ وَالطَّاعَاتِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى جَمِيعِ
الْمَكْرُوهَاتِ ، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِيهِمْ :
﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

بَادَرُوا رُكُوبَ الْعَزَائِمِ بِالْعَزْمِ ، وَقُوَّةِ الْحَزْمِ ، فَهَجَرُوا الْمَنَامَ ، وَتَرَكَوا
الشَّرَابَ وَالطَّعَامَ ، وَقَامُوا بِالْخِدْمَةِ فِي حَنَادِسِ اللَّيْلِ وَالظَّلَامِ ، وَخَدَمُوا
بِالْخُشُوعِ وَالسَّهَرِ وَالْقِيَامِ ، وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالصِّيَامِ ، وَتَمَلَّلُوا فِي
مَحَارِبِهِمْ ، بَيْنَ يَدَيْ مَحْبُوبِهِمْ ، لِنَيْلِ مَطْلُوبِهِمْ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَقَامِ
الْقُرْبِ وَمَحَلِّ الْأُنْسِ ، وَظَهَرَ لَهُمْ سِرُّ قَوْلِهِ تَعَالَى :
﴿ إِنَّا لَا نُنْضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

فَأَعْطَاهُمُ الدَّرَجَةَ الْعُلْيَا ، وَالْمَحَلَّ الْأَذْنَى ، وَلَا رَيْبَ ! .

فَالْقَرِيبُ مِنَ الْقَرِيبِ . . قَرِيبٌ ، وَالْمُحَبَّبُ عِنْدَ أَحْبَابِ الْحَبِيبِ . .
حَبِيبٌ .

حَبِيبٌ لَهُمْ ، حَبِيبٌ لِمُحِبِّيهِمْ ، مَحْبُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ ، تَرْفَعُهُ بَرَكَتُهُ مَحَبَّتِهِ إِلَى
دَرَجَةِ الْمَحْبُوبِيَّةِ : « مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ » (١) .

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٥) .

حَتُّهُ إِخْوَانُهُ عَلَى التَّقَرُّبِ إِلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ

أَي سَادَةً! عَلَيْكُمْ بِالتَّقَرُّبِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ! مَنْ وَالَى وَلِيَّ اللَّهِ . . وَالَى اللَّهُ ،
وَمَنْ عَادَى وَلِيَّ اللَّهِ . . عَادَى اللَّهَ .

مَنْ أَحَبَّ عَدُوَّكَ . . هَلْ تُحِبُّهُ يَا أَخِي ؟ لَا وَاللَّهِ! اللَّهُ أَغْيَرُ مِنَ الْخَلْقِ ،
يَغَارُ ، وَيَفْعَلُ ، وَيَنْتَقِمُ ، وَيَقْهَرُ .

مَنْ أَحَبَّ مُجِبَّكَ . . هَلْ تُبْغِضُهُ ؟ لَا وَاللَّهِ! اللَّهُ أَكْرَمُ مِنَ الْخَلْقِ ، يُحْسِنُ ،
وَيُجَمِّلُ ، وَيُنْعِمُ ، وَيُكْرِمُ ، وَهُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

نِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى تُذَكِّرُ ، مَنْ قَرَّبْتَهُ مِنَ الْعَزِيزِ . . فَهُوَ قَرِيبٌ ، وَمَنْ أَبْعَدْتَهُ
عَنْهُ . . فَهُوَ بَعِيدٌ .

المُؤَفَّقُ مَنْ جَذَبَتْهُ الْعِنَايَةُ إِلَى الْوَلِيِّ

أَيُّهَا الْبَعِيدُ عَنَّا ، الْمَمْقُوتُ مِنَّا ، مَا كَانَ هَذَا مِنْكَ يَا مَسْكِينُ ؟ .

لَوْ كَانَ لَنَا فِيكَ مَقْصَدٌ يَشْهَدُ بِحُسْنِ اسْتِعْدَادِكَ وَخَالِصِ حُبِّكَ إِلَى اللَّهِ
وَأَهْلِهِ . . اجْتَذَبْنَاكَ إِلَيْنَا ، وَحَسَبْنَاكَ عَلَيْنَا ، شِئْتَ . . وَإِلَّا ، لَكِنَّ الْحَقَّ
يُقَالُ :

حَظُّكَ . . مَنَعَكَ ، وَعَدَمُ اسْتِعْدَادِكَ . . قَطَعَكَ ، لَوْ حَسَبْنَاكَ مِنَّا . . مَا
تَبَاعَدْتَ عَنَّا .

كُشِفَ لِي قَبْلَكَ

خُذْ مِنِّي - يَا أَخِي! - عِلْمَ الْقَلْبِ ، خُذْ مِنِّي عِلْمَ الذَّوْقِ ، خُذْ مِنِّي
عِلْمَ الشَّوْقِ .

أَيْنَ أَنْتَ مِنِّي يَا أَخَا الْحِجَابِ ؟! كُشِفَ لِي قَبْلَكَ .

أَيُّ أَخِي ! لَوْ سَمِعْتَ نُصْحِي . . لَتَبِعْتَنِي ، لَا تَقُلْ : لَوْ أَخَذْتَنِي . .
تَبِعْتُكَ ، أَنَا عَلَى النَّصِيحَةِ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ حَالٍ . . عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَعَ وَتَتَّبِعَ .
إِعْمَلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَأَرْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ ، وَأَسْتَأْنِسْ بِذِكْرِ اللَّهِ . . تَكُنْ مِنْ
أَصْفِيَاءِ اللَّهِ .

مَنْ عَرَفَ اللَّهَ . . زَالَ هَمُّهُ .

الْعَارِفُ . . مَنْ هَاجَرَ وَتَجَرَّدَ مِنَ الْخَلْقِ .

الْمَغْبُوبُ مَنْ لَمْ يُطِعِ اللَّهَ

أَيُّ سَادَةٍ! الْمَغْبُوبُ . . مَنْ أَنْفَقَ عُمُرَهُ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ .

وَالزَّاهِدُ . . مَنْ تَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ يَشْغَلُ عَنِ اللَّهِ .

وَالْمُقْبِلُ . . مَنْ أَقْبَلَ إِلَى اللَّهِ .

وَذُو الْمُرُوءَةِ . . مَنْ لَمْ يَنْزِلْ بِدُونِ اللَّهِ .

وَالْقَوِيُّ . . مَنْ اسْتَقْوَى بِاللَّهِ .

تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ :

عَلَيْكُمْ بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ ! وَهُوَ : فَقْدَانُ رُؤْيَةِ مَا سِوَاهُ لِوَحْدَانِيَّتِهِ .

لَفْظُ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) هُوَ الْأَسْمُ الْأَعْظَمُ

إِنْ قُلْتَ : يَا اللَّهُ! . . فَقَدْ ذَكَرْتَهُ بِأَسْمِهِ الْأَعْظَمِ ، وَلَكِنْ حُرِّمَتْ هَيْبَتُهُ ؟
لَأَنَّكَ تَقُولُ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، لَا مِنْ حَيْثُ هُوَ .

الغنى الأكبر الأنس بالله

الغنى الأكبر . . الأنس به سبحانه وتعالى .

والفاقة العظمى . . دوام الأنس بالموتى^(١) ، وأغلظ حجب القلوب . .

الاستناد إلى المرئوب .

مركز المعرفة القلب

معين المعرفة . . القلب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ

قَلْبٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعْبُهُ أَلَا لِلَّهِ فَاِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ .

التقوى باب المشاهدة والوصلة

أَي سَادَةَ! مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ بِحِفْظِ السِّرِّ عَنْ آفَاتِ الْاَلْتِفَاتِ إِلَى السَّوَى . .

يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ حُجْبِ الْاِبْعَادِ ، وَيَرْزُقُهُ الْمَشَاهِدَةَ وَالْوُصْلَةَ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ .

سبب معرفة العبد ربه

سَبَبُ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ . . مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ .

« مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ »^(٢) .

(١) أراد بالموتى . . الأحياء من أهل الغفلة ، فافهم .

(٢) ذكره الملا علي القاري في كتابه « المصنوع في معرفة الحديث الموضوع »

(٣٤٩) ، وقال : « موضوع » .

وقال الإمام أبو المظفر السمعاني في كتابه « القواطع » في أصول الفقه :

مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ لِرَبِّهِ . . أَفْنَى كَلِمَتِهِ بِرَبِّهِ (١) .

أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَلَا مَنْ عَرَفَنِي . . أَرَادَنِي وَطَلَبَنِي ،
وَمَنْ طَلَبَنِي . . وَجَدَنِي ، وَمَنْ وَجَدَنِي . . لَمْ يَخْتَرْ عَلَيَّ حَيِّبًا سِوَايَ » .
عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ : ذَكَرْتُ رَبِّي ! وَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكَرُ مَا نَسِيتُ ؟
أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا وَلَوْلَا مَاءٌ وَضَلِكَ مَا حَيَّيْتُ
فَأَحْيَا بِالْمُنَى وَأَمُوتُ شَوْقًا فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ !
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأَسَا بَعْدَ كَأَسٍ فَمَا نَفَدَ الشَّرَابُ وَلَا رَوَيْتُ !

الذِّكْرُ مَغْنَطِيسُ الْوَصْلِ

عَلَيْكُمْ - أَي سَادَةٌ ! - بِذِكْرِ اللهِ ، فَإِنَّ الذِّكْرَ . . مَغْنَطِيسُ الْوَصْلِ ، وَحَبْلُ
الْقُرْبِ .

مَنْ ذَكَرَ اللهُ . . طَابَ بِاللهِ ، وَمَنْ طَابَ بِاللهِ . . وَصَلَ إِلَى اللهِ .

ذِكْرُ اللهِ . . يَنْبُتُ فِي الْقَلْبِ بِبِرْكَةِ الصُّحْبَةِ .

« الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ » (٢) .

« إِنَّهُ لَا يُعْرَفُ مَرْفُوعًا ، وَإِنَّمَا يُخَكِّي عَنْ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ » . يعني مِنْ قَوْلِهِ . ذَكَرَهُ
السَّخَاوِيُّ فِي « الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ » ص (٤١٩) .

(١) وَقَالَ الْعَارِفُ الْمُرْسِيُّ أَبُو الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِذُلِّهَا
وَعَجْزِهَا . . عَرَفَ اللهُ بِعِزِّهِ وَقُدْرَتِهِ . « لَوَاقِحُ الْأَنْوَارِ فِي طَبَقَاتِ الْأَخْيَارِ » ص
(٣١٤) ، لِلْإِمَامِ الْعَارِفِ الشَّعْرَانِيِّ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٣٣) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣٧٩) بِلَفْظِ : « الرَّجُلُ . . » =

صُحْبَةُ الْأَوْلِيَاءِ تَرْيَاقٌ مُجَرَّبٌ

عَلَيْكُمْ بِنَا ، صُحْبَتُنَا . تَرْيَاقٌ مُجَرَّبٌ ^(١) ، وَالْبُعْدُ عَنَّا . سُمٌّْ قَاتِلٌ .

عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ لَا فَايِدَةٌ مِنْهُ

أَيُّ مَحْجُوبٍ ! تَزَعُمُ أَنَّكَ أَكْتَفَيْتَ عَنَّا بِعِلْمِكَ ؟ !

مَا الْفَايِدَةُ مِنْ عِلْمٍ بِلَا عَمَلٍ ؟ مَا الْفَايِدَةُ مِنْ عَمَلٍ بِلَا إِخْلَاصٍ ؟
الإِخْلَاصُ عَلَى حَافَةِ طَرِيقِ الْخَطَرِ .

مَنْ يَنْهَضُ بِكَ إِلَى الْعَمَلِ ؟ مَنْ يُدَاوِيكَ مِنْ سُمِّْ الرِّيَاءِ ؟ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَى
الطَّرِيقِ الْأَمِينِ بَعْدَ الْإِخْلَاصِ ؟ ﴿ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .
هَكَذَا أَنْبَأَنَا الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ .

تَظُنُّ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ ؟ ! لَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ . . مَا كُنْتَ مَحْجُوبًا عَنْهُمْ ، لَوْ
كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ . . مَا حُرِمْتَ ثَمَرَةَ الْفِكْرِ ، صَدَّكَ حِجَابُكَ ، قَطَعَكَ
عِلْمُكَ ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » ^(٢) .

= وَتَمَامُهُ : « فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » . وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ
غَرِيبٌ » .

(١) التَّرْيَاقُ : هُوَ دَوَاءُ الشُّمُومِ ، « لِسَانٌ » ٢ : ٢٢٢ ، مَادَّةُ : « تَرَقَّى » .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٢٢) ، وَالنَّسَائِيُّ ٨ : ٢٦٠ ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٤٧٨) ، وَقَالَ :

« حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو » .

صَحَّتْ إِنْابَةُ السَّيِّدِ إِلَى اللَّهِ

لَا زِمَ أَبُوَابِنَا أَيُّ مَخْجُوبٍ! فَإِنَّ كُلَّ دَرَجَةٍ وَأَوْنَةٍ تَمْضِي لَكَ فِي أَبُوَابِنَا .
دَرَجَةٌ وَإِنْابَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

صَحَّتْ إِنْابَتُنَا إِلَى اللَّهِ^(١) ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَتَّعِ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ .

هَذِهِ الطَّرِيقَةُ لَا تُورَثُ إِلَّا بِالتَّقْوَى

أَيُّهَا الْمُتَصَوِّفُ! لِمَ هَذِهِ الْبَطَالَةُ؟ صِرْ صُوفِيًّا حَتَّى نَقُولَ لَكَ : أَيُّهَا
الصُّوفِيُّ .

أَيُّ حَبِيبِي! تَنْظُرُ أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ . تُورَثُ مِنْ أَبِيكَ؟ تُسَلْسَلُ مِنْ جَدِّكَ؟
تَأْتِيكَ بِأَسْمِ بَكْرٍ وَعَمْرٍو؟ تَصِيرُ لَكَ فِي وَثِيقَةِ نَسَبِكَ؟ تُنْقَشُ لَكَ عَلَى جَنْبِ
خِرْقَتِكَ؟ عَلَى طَرْفِ تَاجِكَ؟
حَسِبْتَ هَذِهِ الْبِضَاعَةَ ثَوْبَ شَعْرٍ؟ وَتَاجًا؟ وَعُكَّازًا؟ وَدَلْقًا؟ وَعِمَامَةً
كَبِيرَةً؟ وَزِيًّا صَالِحًا؟ .

لَا وَاللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ هَذَا ، يَنْظُرُ إِلَى قَلْبِكَ .

كَيْفَ يُفْرِغُ فِيهِ سِرَّهُ ، وَبَرَكَةَ قُرْبِهِ ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ بِحِجَابِ التَّاجِ ،
بِحِجَابِ الْخِرْقَةِ ، بِحِجَابِ الشُّبْحَةِ ، بِحِجَابِ الْعَصَا ، بِحِجَابِ الْمُسُوحِ؟^(٢) .

(١) هذه المقولة كأختها التي سبقت ص (١٦٨) ، وهي : « أَنَا مِنَ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرَتُونَ » .

(٢) مُفْرَدَةٌ : مَسْحٌ ، وَهُوَ الْبَلَّاسُ : ثَوْبٌ مِنَ الشَّعْرِ غَلِيظٌ ، وَجَمْعُهُ : بُلْسٌ ، وَبِهِ سُمِّيَ الْمَسِيحُ الدَّجَالُ ، لِذَلِكَ وَهَوَانِهِ وَأَبْتِدَالِهِ ، كَالْمَسْحِ الَّذِي يُفْرَشُ فِي الْبَيْتِ . =

أَيْشٍ هَذَا الْعَقْلُ الْخَالِي مِنْ نُورِ الْمَعْرِفَةِ^(١) .

أَيْشٍ هَذَا الرَّأْسُ الْخَالِي مِنْ جَوْهَرِ الْعَقْلِ ؟ !

مَا عَمِلْتَ بِأَعْمَالِ الطَّائِفَةِ ، وَتَلَبَّسْتُ لِبَاسِهِمْ يَا مَسْكِينُ ؟ !

الْأَشْكَالُ مُؤْتَلِفَةٌ وَالْقُلُوبُ مُخْتَلِفَةٌ

يَا أَخِي ! لَوْ كَلَّفْتَ قَلْبَكَ لِبَاسَ الْخَشْيَةِ ، وَظَاهَرَكَ لِبَاسَ الْأَدَبِ ، وَتَفَسَّكَ لِبَاسَ الدُّلِّ ، وَأَنَانِيَّتِكَ لِبَاسَ الْمَخْوِ ، وَلِسَانَكَ لِبَاسَ الذُّكْرِ ، وَتَخَلَّصْتَ مِنْ هَذِهِ الْحُجُبِ ، وَبَعْدَهَا تَلَبَّسْتَ بِهَذِهِ الثِّيَابِ . . . كَانَ أَوْلَى لَكَ ثُمَّ أَوْلَى ! .

لَكِنْ كَيْفَ يُقَالُ لَكَ هَذَا الْقَوْلُ ، وَأَنْتَ تَظُنُّ أَنَّ تَاجَكَ . . . كِتَاجِ الْقَوْمِ ، وَتُؤْتَبِكُ . . . كَثُوبِهِمْ ؟ !

كَلًّا! الْأَشْكَالُ مُؤْتَلِفَةٌ ، وَالْقُلُوبُ مُخْتَلِفَةٌ .

لَوْ كُنْتَ عَلَيَّ بِصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِكَ . . . خَلَعْتَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ ، وَجَدَّكَ وَعَمَّكَ ، وَقَمِيصَكَ وَتَاجَكَ ، وَسَرِيرَكَ وَمِعْرَاجَكَ ، وَأَتَيْتَنَا بِاللَّهِ لِهَ ، وَبَعْدَ حُسْنِ

= وَبِهِ سُمِّيَ كَلِمَةُ اللَّهِ أَيْضاً ، لِلْبَيْسِ الْبِلَاسِ الْأَسْوَدِ تَقَشُّفًا ، فَهِيَ وَجْهَانِ ذَكَرَهُمَا الزَّبِيدِيُّ فِي « تَاجِ الْعُرُوسِ » ٧ : ١٢٢ ، مَادَّةُ : « مَسَحَ » ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

(١) رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي « مَصْنُوعِهِ » (١١٦١٦) ، عَنِ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« مَنْ تَبِعَ جِنَازَةً . . . فَلَهُ قَبْرًا طَافًا ، وَمَنْ تَبِعَهَا حَتَّى تُدْفَنَ . . . فَلَهُ قَبْرًا طَانًا » .

قَالُوا : وَمِثْلُ / أَيْشِ الْقَبْرَاطِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « أَصْغَرُهُمْ . . . مِثْلُ أَحَدٍ » .

وَمَعْنَى : أَيْشٍ : أَيُّ شَيْءٍ ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي قَوْلِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

الْأَدَبِ لَبِستَ ، وَأَظُنُّكَ بَعْدَ الْأَدَبِ ، تَقَطَّعُ نَفْسَكَ عَنِ الثُّوبِ وَالْعَوَارِضِ
الْقَاطِعَةِ .

أَيُّ مِسْكِينٍ! تَمْشِي مَعَ وَهْمِكَ! مَعَ خَيَالِكَ! مَعَ كَذِبِكَ! مَعَ عُجْبِكَ
وَعُزُورِكَ! وَتَحْمِلُ نَجَاسَةَ أَنَانِيِّكَ ، وَتَنْظُرُ أَنَّكَ عَلَى شَيْءٍ!؟ وَكَيْفَ يَكُونُ
ذَلِكَ!؟ .

تَعَلَّمْ عِلْمَ التَّوَاضُعِ ، تَعَلَّمْ عِلْمَ الْحَيَرَةِ ، تَعَلَّمْ عِلْمَ الْمَسْكَنَةِ وَالْإِنْكِسَارِ .

أَيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لَكَ فِي كُلِّ دَعَاوِيكَ؟

أَيُّ بَطَالٍ! تَعَلَّمْتَ عِلْمَ الْكِبَرِ! تَعَلَّمْتَ عِلْمَ الدَّعْوَى! تَعَلَّمْتَ عِلْمَ
التَّعَالِي! .

أَيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لَكَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ؟

تَطْلُبُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْجَفِيفَةَ ، بِظَاهِرِ حَالِ الْآخِرَةِ؟ لَبِستَ مَا صَنَعْتَ! مَا أَنْتَ
إِلَّا كَمُشْتَرِي النَّجَاسَةِ بِالنَّجَاسَةِ .

كَيْفَ تُغْفِلُ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ ، وَتَكْذِبُ عَلَى نَفْسِكَ وَأَبْنَاءِ جَنَسِكَ!؟ .

حَالُ الْمُرِيدِ الصَّادِقِ مَعَ مَوْلَاهُ

لَا يَقْرُبُ الْمُحِبُّ مِنْ مَحْبُوبِهِ . . حَتَّى يَبْعُدَ مِنْ عَدُوِّهِ .

رَمَى بَعْضُ الْمُرِيدِينَ رُكُوتَهُ فِي بَعْضِ الْأَبَارِ لِيَسْتَقِي الْمَاءَ^(١) ، فَخَرَجَتْ

(١) الرُّكُوتُ : دَلْوٌ صَغِيرَةٌ . كَذَا فِي « الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ » ص (٢٣٨) ، مَادَةٌ :

مَمْلُوءَةٌ بِالذَّهَبِ ، فَرَمَى بِهَا فِي الْبِنْرِ وَقَالَ : يَا عَزِيزِي ! وَحَقِّكَ لَا أُرِيدُ
غَيْرَكَ .

مَنْ أَثْبَتَ نَفْسَهُ مُرِيدًا . . صَارَ مُرَادًا .

مَنْ أَثْبَتَ نَفْسَهُ طَالِبًا . . صَارَ مَطْلُوبًا .

مَنْ عَكَفَ عَلَى الْبَابِ . . دَخَلَ الرَّحَابَ .

وَمَنْ أَحْسَنَ الْقَصْدَ بَعْدَ الدُّخُولِ . . تَصَدَّرَ فِي غُرْفَةِ الْوُصْلَةِ .

دَخَلَ عَلَيَّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَرَأَى أَعْرَابِيًّا فِي الْمَسْجِدِ يَقُولُ : إِلَهِي ! أُرِيدُ مِنْكَ شَوْيْهَةً ،
وَرَأَى أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي زَاوِيَةِ أُخْرَى يَقُولُ : إِلَهِي !
أُرِيدُكَ .

شَتَانُ مَا بَيْنَ الْمُرَادَيْنِ ! شَتَانُ مَا بَيْنَ الْهِمَّتَيْنِ !

تَلَعَبُ الْأَمَالِ بِالْعُقُولِ ، تَلَعَبُ بِالْهِمَمِ ، كُلُّ يَطِيرُ بِجَنَاحِ هِمَّتِهِ إِلَى أَمَلِهِ
وَمَقْصِدِ قَلْبِهِ ، فَإِذَا بَلَغَ غَايَةَ هِمَّتِهِ . . وَقَفَ فَلَمْ يُجَاوِزْهَا ، قَالَ تَعَالَى :
﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ . أَي : عَلَى نَيْتِهِ وَهِمَّتِهِ .

الْعَارِفُ الْمُتَمَكِّنُ سُورُورُهُ بِرَبِّهِ

أَيُّ أَخِي ! لَا تَجْعَلْ غَايَةَ هِمَّتِكَ وَمُتَهَيِّ قَصْدِكَ : أَنْ تَمُرَّ عَلَى الْمَاءِ ، أَوْ
تَطِيرَ فِي الْهَوَاءِ ، يَضْنَعُ الطَّيْرُ وَالْحَوْثُ مَا أَرَدَتْ .
طَرِبَ بِجَنَاحِ هِمَّتِكَ إِلَى مَا لَا غَايَةَ لَهُ .

الْعَارِفُ الْمُتَمَكِّنُ . . لَا شَيْءَ عِنْدَهُ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى . . أَعْظَمُ مِنْ

سُرُورِهِ بِرَبِّهِ ، وَالْجَنَّةَ وَكُلَّ مَا فِيهَا فِي جَنبِ سُرُورِهِ بِرَبِّهِ . . أَصْغَرَ مِنْ خَرْدَلَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضِ فَلَآةٍ .

الْعَارِفُونَ تَجَرَّدُوا عَنِ الدَّارَيْنِ

مِنْ خَسَاسَةِ النَّفْسِ وَدَنَاءَةِ الْهَمَّةِ وَقَلَّةِ الْمَعْرِفَةِ . . اِسْتِغَالَكَ بِالنُّعْمَةِ عَنِ الْمُنْعَمِ .

الْعَارِفُونَ . . تَجَرَّدُوا عَنِ الدَّارَيْنِ ، وَطَلَبُوا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، تَجَرَّدُوا عَنِ النَّفْسِ وَالْوَالِدِ .

أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى يَعْقُوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا قَالَ :

﴿ يَا سَفِي عَلَى يُوسُفَ ﴾ : إِلَى مَتَى تَذْكُرُ يُوسُفَ ؟ أَيُّوسُفُ خَلَقَكَ ؟ أَوْ رَزَقَكَ ؟ أَوْ أَعْطَاكَ النُّبُوَّةَ ؟ فَبِعِزَّتِي ! لَوْ كُنْتُ ذَكَرْتَنِي وَسُغِلْتَ بِي عَنْ ذِكْرِ غَيْرِي . . لَفَرَّجْتُ عَنْكَ مِنْ سَاعَتِكَ .

فَعَلِمَ يَعْقُوبُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ مُخْطِئٌ فِي ذِكْرِهِ يُوسُفَ ، فَأَمْسَكَ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ .

قَالَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : إِلَهِي ! أَقْرَبُ أَنْتَ فَأَنَا جِئِكَ ، أَمْ بَعِيدٌ فَأَنَا دِينِكَ ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى :

« أَنَا جَلِيسٌ لِمَنْ ذَكَرَنِي ، وَقَرِيبٌ مِمَّنْ أَنْسَ بِي ، أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »^(١) .

(١) رواه ابنُ أبي شيبة ١ : ١٠٨ ، والبيهقي في « الشعب » ١ : ٤٥١ ، وأبو نعيم

في « الحلية » ٦ : ٣٧ من قولِ كعبِ الأحبار ، وليس فيه : « قَرِيبٌ مِمَّنْ أَنْسَ . . . » إلخ .

فَوَائِدُ الذِّكْرِ :

أَي سَادَةً! قَالَ أَهْلُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ . . فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ^(١) ، وَعَلَى طُمَأْنِينَةٍ مِنْ قَلْبِهِ^(٢) ، وَعَلَى سَلَامَةٍ مِنْ عَدُوِّهِ^(٣) .

وَقَالُوا : ذِكْرُ اللَّهِ . . طَعَامُ الرُّوحِ ، وَالشَّاءُ عَلَيْهِ تَعَالَى . . شَرَابُهَا ، وَالْحَيَاءُ مِنْهُ . . لِبَاسُهَا .

وَقَالُوا : مَا تَنَعَّمَ الْمُتَنَعَّمُونَ بِمِثْلِ أَنْسِهِ ، وَلَا تَلَذَّذَ الْمُتَلَذَّذُونَ بِمِثْلِ ذِكْرِهِ .

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ :

« مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ . . ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ . . ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ ، وَمَنْ ذَكَرَنِي مِنْ حَيْثُ هُوَ . . ذَكَرْتُهُ مِنْ حَيْثُ أَنَا ، وَمَنْ سَأَلَنِي مِنْ حَيْثُ هُوَ . . أَعْطَيْتُهُ مِنْ حَيْثُ أَنَا » .

القَوْمُ شَغَلَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ

القَوْمُ . . شَغَلَهُمْ ذِكْرُهُ ، وَمَقْصَدُهُمْ هُوَ ، يَرُونَ أَنَّ الحَوَادِثَ الكَوْنِيَّةَ تَقُومُ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ، فَلَا يُعَارِضُونَهَا لِأَبْجَلٍ وَلَا بِلِسَانٍ :

(١) قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، قَوْلٌ لِلْقَنَسِيَّةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْتِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

(٢) قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا يَذُكِّرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

(٣) قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ . . . إِلَّا وَعَلَى قَلْبِهِ شَيْطَانٌ ، إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ . . . خَسَّ ، وَإِذَا نَسِيَ اللَّهَ . . . وَسَّوَسَ » (١) .

لَوْ أَنَّ الْعَالَمَ فَرِيقَانِ

أَيُّ سَادَةٍ! لَوْ أَنَّ الْعَالَمَ فَرِيقَانِ : فَرِيقٌ يُبْحِرُنِي بِالنَّدَى وَالْعَنْبَرِ ، وَفَرِيقٌ يُفْرِضُ لَحْمِي بِمَقَارِئِضَ مِنْ نَارٍ . . . مَا نَقَصَ هَوْلَاءِ عِنْدِي ، وَلَا زَادَ هَوْلَاءِ عِنْدِي ، لِعِلْمِي أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَجَارِي الْأَقْدَارِ .

التَّسْلِيمُ بَابُ ذِكْرِ اللَّهِ

إِذَا قَطَعْتُمْ حَبْلَ الْمُعَارَضَةِ بِسَكِّينِ التَّسْلِيمِ لَهُ . . . ذَكَرْتُمُوهُ ، جَاءَ فِي الْخَبَرِ :

« أَذْكُرُوا اللَّهَ ، حَتَّى يَقُولُوا : مَجْنُونٌ » (٢) .

هَذِهِ الْخَيَالَاتُ تَأْخُذُ الْعَبْدَ مِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ

أَيُّ سَادَةٍ! هَذِهِ الْخَيَالَاتُ الْبَاطِلَةُ . . . أَخَذَتْكُمْ مِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ ، وَهَذِهِ الْحُجُبُ الْغَلِيظَةُ . . . حَوَّلَتْكُمْ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ .

(١) رواه ابنُ أبي شيبة ٧ : ١٣٥ ، والحاكم ٢ : ٥٩٠ ، والبيهقي في « الشعب »

١ : ٤٤٩ .

(٢) رواه أبو يعلى (١٣٧٦) ، وابنُ حبان (٨١٧) ، وابنُ عساکر في « تاريخ

دمشق » ٧ : ٢٢٠ .

لَيْسَتْ الْهِمَّةُ أَنْ يَقِفَ الرَّجُلُ عِنْدَ حِجَابِهِ ، بَلِ الْهِمَّةُ . . أَنْ يَفْتَقَ شِرَاعَ
الْحِجَابِ ، وَيَتَدَلَّى إِلَى الرَّحَابِ .

صَوَارِمُ الْهِمَمِ . . تَفْعَلُ مَا لَا يَمُرُّ بِالْأَوْهَامِ .

حُجُبُ الْقُلُوبِ . . لَا تُشَقُّ إِلَّا بِسَهَامِ الْقُلُوبِ ، قَالَ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ :

دَوَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُبْصِرُ وَدَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تَشْعُرُ
وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ أَنْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

العَالَمُ الْأَكْبَرُ الْعَقْلُ

العَالَمُ الْأَكْبَرُ . . الْعَقْلُ ، وَقَدْ أَنْطَوَى بِكَ ، وَمِنَ الْعَالَمِ الْمَطْوِيِّ فِيكَ . .
يَظْهَرُ لَكَ جِرْمُكَ الَّذِي اسْتَضَعْرْتَهُ ؛ إِذْ لَوْلَا وُصُولُ جِرْمِكَ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي
تُحِيطُ بِذَلِكَ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ ، وَتَلِيْقُ لَهُ . . لَمَا صَارَ مَحَلًّا لِلْعَالَمِ الْمَذْكُورِ .

فَخُذْ بِالْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ : عَلَى مِقْدَارِ مَا بَلَغَهُ جِرْمُ هَيْكَلِكَ مِنَ الْإِحَاطَةِ بِالْعَالَمِ
الْأَكْبَرِ ، الَّذِي يَمْتَدُّ شِعَاعُ مَادَّتِهِ إِلَى كُلِّ مَقَامٍ ، وَتَنْتَهِي بِوَارِقِ رُسُلِهِ إِلَى كُلِّ
حَيْطَةٍ ، وَتَشَقُّ عَزَائِمُ مَدَارِكِهِ صَفًّا كُلِّ مَعْمَعَةٍ^(١) ، وَتَبْلُغُ نَجَائِبُ فِكْرَتِهِ إِلَى
كُلِّ حَضْرَةٍ^(٢) .

(١) الْمَعْمَعَةُ : صَوْتُ الْحَرِيقِ فِي الْقَصَبِ وَنَحْوِهِ ، وَصَوْتُ الْأَبْطَالِ فِي الْحَرْبِ .

كَذَا فِي « مَخْتَارِ الصَّحَاحِ » ص (٦٢٨) مَادَّةُ : « م ع ع » .

(٢) النَّجَائِبُ : جَمْعُ نَجِيبٍ ، وَهُوَ مِنَ الْإِبِلِ : الْقَوِيُّ ، وَالْخَفِيفُ السَّرِيعُ ، =

بِهِ اللهُ يُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَيَصِلُ وَيَقْطَعُ ، وَيُفَرِّقُ وَيَجْمَعُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ،
وَعَلَيْهِ جُعِلَ مَدَارُ الْأَكْوَانِ .

وَهُوَ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ مِنَ الْمَوَادِّ الْكُبْرَى الْأَدَمِيَّةِ ، أَنْبَأَنَا الْحَبِيبُ الْكَرِيمُ ،
وَالسَّيِّدُ الْعَظِيمُ ، عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ : أَنَّ :
« أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ . . الْعَقْلُ » (١) .

فَإِذَا عَلِمْتُمْ مَا أَنْطَوَى فِيكُمْ . . عَظَمْتُمْ شَأْنَ ذَوَاتِكُمْ ، وَأَحْتَفَلْتُمْ بِإِعْلَاءِ
شَرَفِ صِفَاتِكُمْ ، حَتَّى تَسْمُوا عَنْ مَنزِلَةِ الْحِجَابِ : بِالْقُوَّةِ ، بِالْجَمَالِ ،
بِالْمَالِ ، بِالْأَهْلِ ، بِالْعَشِيرَةِ ، بِالْمَنْصِبِ ، بِالرِّيَّاسَةِ ، قَالَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

وَكُلُّ رِيَّاسَةٍ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ أَذَلُّ مِنَ الْجُلُوسِ عَلَى الْكُنَّاسَةِ
الْعَقْلُ . . عَاقِلُ الْعِلْمِ . . كَمَنْ تَمَيَّزَ بِمَعْرِفَةِ الْعِلْمِ بِرِسْوَى
لَا يَتَمُّ شَرَفُ الْعِلْمِ لِلْمَخْلُوقِ . . إِلَّا بِالْعَقْلِ .

الْعَقْلُ أَجَلُ مَرْتَبَةٍ مِنْ عِلْمِنَا

قَالَ جَمَاعَةٌ : بِإِعْلَاءِ قَدْرِ الْعِلْمِ عَلَى الْعَقْلِ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ بِالنُّسْبَةِ
إِلَى اللهِ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ . . صِفَتُهُ تَعَالَى ، وَالْعَقْلَ . . صِفَتُهُ الْمَخْلُوقِ .

= « لسان » ١٤ : ١٩٠ ، مادة : « نجب » .

وفي المطبوع ص (٥٠) : « نجاب » . وما أثبت هو الظاهر الصحيح ، والله
أعلم .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » ٨ : ٢٨٣ ، وفي « الأوسط » ٧ : ١٩٠ ، وقال
في « كشف الخفاء » (٨٢٣) : « قال الصَّغَانِي : موضوعٌ باتِّفَاقٍ » .

وَأَمَّا بِالنُّسْبَةِ إِلَى عِلْمِنَا وَعَقْلِنَا . . فَعَقَلْنَا أَجَلَ مَرْتَبَةٍ ، وَأَرْفَعُ مَنْزِلَةً مِنْ عِلْمِنَا ؛ إِذْ لَوْلَا الْعَقْلُ . . لَمَاتَمَّ لَنَا الْعِلْمُ .

الْعَاقِلُ . . يَكْبُو وَيُضْرَعُ ، وَلَكِنْ يُؤَمَّلُ لَهُ النَّجَاحُ ، وَيُزَجَّى لَهُ الْخَيْرُ ، وَالْأَحْمَقُ يُضْرَعُ وَيَكْبُو ، وَيُخْشَى عَلَيْهِ الْقَطِيعَةُ وَعَدَمُ النَّجَاحِ .

الْعَاقِلُ . . مَنْ فِيهِمْ حِكْمَةُ الدِّينِ .

بَلَّغْنَا عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ :

« كُلُّ عَقْلٍ لَمْ يُحِطْ بِالدِّينِ . . فَلَيْسَ بِعَقْلٍ ! وَكُلُّ دِينٍ لَمْ يُحِطْ بِالْعَقْلِ . . فَلَيْسَ بِدِينٍ ! » .

هَذَا الدِّينُ أَتَى بِأَحْكَامِ الزَّمَانِ الْمُبْلَغُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الاجْتِنَابَ عَنْهَا ، وَوَعَدَ وَأَوْعَدَ ، فَإِذَا تَرَيَّضَ الْعَقْلُ بِالْعَمَلِ وَالاجْتِنَابِ . . يَصِلُ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِسِرِّ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ .

الْعَاقِلُ لَا يَجْهَلُ حِكْمَةَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الدِّينِيَّةِ

أَيُّ سَادَةٍ! تَفَكَّرُوا ، هَلْ مِنْ عَقْلٍ ذَكِيٍّ ، قَرَّ بِطَبْعِ سَلِيمٍ ، يَجْهَلُ حِكْمَةَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الدِّينِيَّةِ وَيَرُدُّهَا ؟ لَا وَاللَّهِ ! .

بَلْ كُلُّ عَاقِلٍ ذَكِيٍّ الْعَقْلِ ، سَلِيمِ الطَّبْعِ . . تَعَكَّفُ أَشَعَّةُ عَقْلِهِ عَلَى عَتَبَةِ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، عِلْمًا يَجْمَعُهَا بَيْنَ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَمَا بَقِيَ عِنْدَكُمْ . . إِلَّا مَا جَاءَ فِي الْوَعْدِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ ، وَفِيهِ أَبْحَاثٌ عَلَيْهِ ، تَذَكُّرٌ عَجَائِبَ قُدْرَتِهِ تَعَالَى .

وَمَا جَاءَ فِي الْوَعِيدِ مِنْ بَطْشِ اللَّهِ وَعَذَلِهِ ، وَفِيهِ أَبْحَاثُ غَامِضَةٌ ، تَذَكُّرُ غَرَائِبَ عَظَمَةِ الْأُلُوْهِيَّةِ^(١) ، يَشْهَدُ عَلَى كَوْنِهَا طَبْعَكَ وَحِجَابَكَ ، وَفَهْمَكَ وَفِكْرَكَ .

الْمَشْهُودَاتُ لَا تَنْكَشِفُ حَقِيقَتُهَا إِلَّا بِالْمُتَابَعَةِ

وَكُلُّ مَا تَرَاهُ مِنَ الْمَشْهُودَاتِ الْكَوْنِيَّةِ : الْعُلُوِّيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ . . حَجَبَكَ عَنْ حَقِيقَةِ كَشْفِهَا . عَدَمَ اسْتِعْدَادِكَ ، وَقِلَّةَ قَابِلِيَّتِكَ ، وَقَطِيعَتِكَ ، وَدَنَاءَةَ هِمَّتِكَ .
أَيْنَ الرِّيَاضَةُ الَّتِي جَلَّتْ عَنْ مِرَاةِ عَقْلِكَ غُبَارَ غَفْلَتِكَ ؟
أَيْنَ مُتَابَعَةُ الدَّلِيلِ الْأَعْظَمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَحَالًا وَخُلُقًا ؟ .

هَاتِ هَذِهِ النُّقُودَ ، وَأَطْلُبْ بَعْدَهَا البِضَاعَةَ ! .

أَيُّصِحُّ لِبَوَابِ الْمَلِكِ أَنْ يُنْكَرَ عَلَى جُلَاسِهِ مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ زِينَةِ دَارِهِ ، وَأَمْتِعَةِ بَيْتِهِ ، وَحُسْنِ الْبِسْتِيهِ ، وَأَوَانِيهِ ، وَأَسْلِحَتِهِ ، وَمَخْزُونَاتِهِ ، وَشِدَّةِ عِقَابِهِ وَبَطْشِهِ فَيَمْنُ يَغْضَبُ عَلَيْهِ ، وَكَثْرَةَ عَوَائِدِهِ وَقَوَائِدِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى مَنْ يُحِبُّهُ وَيُقَرِّبُهُ ؟ .

كَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ لِلْبَوَابِ ، وَهُوَ مِسْكِينٌ ، مَخْجُوبٌ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ : أَنْ يَجْتَهِدَ لِإِحْرَازِ رُتْبَةِ الْمُجَالَسَةِ ، كَيْ يَرَى مَا رَأَهُ جُلَاسُ الْمَلِكِ ؟ .

(١) الصَّحِيحُ : الْإِلَهِيَّةُ ؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ الصَّنَاعِيَّ الَّذِي يُصَاغُ مِنْ كَلِمَةِ (إِلَه) . . هُوَ لَفْظُ الْإِلَهِيَّةِ ، لَا الْأُلُوْهِيَّةِ ، إِذْ جَاءَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لُغَةً بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ .

انظر «توحيد الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ» ص (٩-١٠ و٤٩-٥٠) ، لِلْعَلَامَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَبْنَكَةَ الْمِيدَانِيِّ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

هَذَا أَجْمَلُ مِنْ إِنْكَارِهِ ، أَعْمُ مَكْرَمَةٌ وَأَحْسَنُ حَالًا ، وَأَسْلَمَ عَاقِبَةً ،
وَأَصْلَحَ شَأْنَا .

الْغَفْلَةُ عَنِ اللَّهِ تَطْمِسُ وُجُوهَ الْحَقَائِقِ

إِذَا طُبِعَتْ مِرْآةُ بَصِيرَةِ الْقَلْبِ بِتَرَاكُمِ صَدَأِ الْغَفْلَةِ عَنِ الرَّبِّ . . تَوَارَتْ
وُجُوهَ الْحَقَائِقِ عَنِ بَوَاطِنِ الْأَفْهَامِ ، وَأَمْتَنَعَ عَنْهَا إِنْفَادُ نُورِ الْإِلْهَامِ ، فَأَظْلَمَ
وَجْهَ الْبَيَانَ بِتَصَاعُدِ أَنْبَخَةِ الْخَيَالَاتِ وَعَمَامَاتِ الْأَوْهَامِ .

مَا يُغْنِي الشَّمْسُ عَنِ الْمَكْفُوفِ مَعَ كَمَالِ إِشْرَاقِهَا ، وَمَا لَهُ عُيُونٌ تَقْبَلُ مِنْهُ
نُورَهَا وَبُرْهَانَهَا ؟ .

وَمَا يُجِدِي فَرْطُ الْإِشْرَاقِ ، مَعَ ضَعْفِ الْأَحْدَاقِ ؟ .

نَحْنُ فِي مَوْقِفِ إِشْرَاقِ شَمْسِ الْقُدْرَةِ ، وَعُيُونُ أَفْهَامِنَا ضَعِيفَةٌ ،
وَبِعَمَامَاتِ الْغَفْلَةِ مُخْتَجِبَةٌ .

فَمَا لَنَا عُيُونٌ تَصْلُحُ لِرُؤْيَةِ ذَلِكَ الْجَمَالِ ، وَلَا قُلُوبٌ تَحْمِلُ مَهَابَةَ تِلْكَ
الْعَظْمَةِ ، وَعِزَّةَ ذَلِكَ الْجَلَالِ .

كُلُّنَا تَجْرِي بِنَا سُبُلَ الْفَنَاءِ

كُلُّنَا تَجْرِي بِنَا سُبُلَ الْفَنَاءِ ، وَتَقْدِفُنَا فِي أَغْوَارِ غَايَتِنَا الْمُغَيَّبَةِ عَنَّا ،
الْمَخْجُوبَةِ دُونَنَا .

كُلُّنَا تَجْرِي سُنْفُنُ الْمَنَائِي بِرِيَّاحِ حِرْصِنَا وَشِرَاعِ أَطْمَاعِنَا فِي بَحَارِ آمَالِنَا ،
وَتَقْدِفُنَا فِي لُجَجِ آجَالِنَا ، وَهُمْومُنَا مُوَكَّلَةٌ بِقَضَاءِ مِهْمَاتِنَا عَنْ عَاجِلِ أُمُورِنَا ،
وَأَيْدِي الْحَوَادِثِ تَتَلَاعَبُ بِنَا ، وَهَوَاتِفُ الْفَنَاءِ تُزَعِّجُنَا :

النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ
مَا دُونَ دَائِرَةِ الرَّحَى حِصْنٌ لِمَنْ يَتَحَصَّنُ

كُلَّ يَوْمٍ يُنَادِي مَلَكُ الْمَوْتِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا : ﴿ أَيِنَّمَا تَكُونُوا
يُذَرِكُكُمْ الْمَوْتُ ﴾ ، وَظُلُمَاتُ أَجْدَانِنَا^(١) ، تَنْتَظِرُ وُلُوجَ أَجْسَادِنَا ، وَنَحْنُ
غَرَقَى فِي عَمْرَةٍ غَفْلَاتِنَا ، وَسَكْرَةٍ شَهْوَاتِنَا .

فَيَا أَيُّهَا الْعَاقِلُ ! إِلَى مَتَى تَصْرِفُ نَفْسَكَ عَنْ طَرِيقِ النِّجَاةِ إِلَى سَبِيلِ
الْمَعَاطِبِ وَالْمُهْلِكَاتِ .

وَتَصْرِفُهَا عَنْ فُسْحَةِ الطَّاعَاتِ إِلَى مَضَائِقِ الْمُخَالَفَاتِ ، وَتُعَرِّضُهَا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهَا وَتَسْقِيهَا مِنْ كُؤُوسِ الْخَطِيئَاتِ وَأَذْنَانِ السَّيِّئَاتِ ، وَتُورِدُهَا مَوَارِدَ
الْفِتَنِ وَالْآفَاتِ ؟ .

العُمْرُ قَصِيرٌ :

أَيُّ أَخِي ! العُمْرُ قَصِيرٌ ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

يَا أَيُّهَا الْمَعْدُودُ أَنْفَاةُ لَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يَتِمَّ الْعَدَدُ
لَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ بِلاَ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ تَأْتِي بِلاَ يَوْمٍ غَدُ

(١) هي جَمْعُ : جَدَثٍ ، وَهُوَ الْقَبْرُ . « قاموس » ١ : ١٦٩ ، مادة :

الفِكْرُ أَوَّلُ أَعْمَالِ النَّبِيِّ (ﷺ)

أَيُّ سَادَةِ! الفِكْرُ. . . أَوَّلُ أَعْمَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ قَبْلَ فَرَضِيَةِ الْمَفْرُوضَاتِ عِبَادَتُهُ التَّفَكُّرُ فِي آيَةِ اللهِ وَمَصْنُوعَاتِهِ ، حَتَّى كَلَّفَ مَا كَلَّفَ ، عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ .

فَعَلَيْنَاكُمْ بِالتَّفَكُّرِ فِي آيَةِ اللهِ ، وَأَخَذِ الْعِبْرَةَ مِنَ الْفِكْرَةِ ؛ فَإِنَّ الْفِكْرَةَ إِذَا خَلَّتْ مِنَ الْعِبْرَةِ. . . بَقِيَتْ وَسَوَاسًا وَخَيَالًا ، وَإِذَا أَنْتَجَتِ الْعِبْرَةَ. . . بَقِيَتْ وَاعْظًا وَحِكْمَةً .

أَحْكُمُوا الْأَعْمَالَ بَعْدَ التَّفَكُّرِ عَلَى أَصْلِ صَحِيحٍ ، وَأَحْكُمُوا الْأَخْلَاقَ بَعْدَ الْأَعْمَالِ عَلَى طَرِيقِ مَلِيحٍ ، وَزَيَّنُوا كُلَّ ذَلِكَ بِالنِّيَّةِ ، وَخُذُوا بِجِبَالِ السَّخَاءِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ عِلَامَاتِ الزُّهْدِ ، وَأَقُولُ : هُوَ بَابُ الزُّهْدِ .

وَأَقُولُ : إِذَا صَحَّ وَعَلَّتْ طَبَقَتُهُ. . . كُلُّ الزُّهْدِ ، وَهُوَ أَوَّلُ قَدَمِ الْقَاصِدِينَ إِلَى اللهِ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿

تَعْمِيرُ الصَّالِحِينَ بِتَنْكِيسِهِمْ فِي الْخَلْقِ

أَيَّدُوا عُقْدَةَ حَبْلِ الْوَصْلَةِ مَعَ اللهِ ، بِغَضِّ الطَّرْفِ عَمَّا تَرَاهُ أَبْصَارُكُمْ مِنَ النَّكْسِ عِنْدَ الْخَلْقِ ، طَمَعًا بِتَعْمِيرِ الْحَقِّ ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ .

لَا تَجْعَلُوا مُتَهَيِّئًا أَنْظَارِكُمْ ، وَغَايَةَ أَبْصَارِكُمْ . . رُؤْيَةَ الْخَلْقِ . مُلُوكُهُمْ
وَأَوَاسِطُهُمْ وَالطَّبَقَةَ السُّفْلَى مِنْهُمْ . . عَلَى حَالٍ وَاحِدٍ فِي الْعَجْزِ وَالْفَقْرِ
وَالْمَسْكِنَةِ .

حُجْبٌ قَامَتْ عَلَى الْعُيُونِ ، سَتَرٌ بِهَا الْخَالِقُ خَلْقَهُ ، وَقَضَى فِيهِمْ بِأَمْرِهِ .
فَالْعَاقِلُ . . مَنْ أَدْرَكَ هَذَا الشَّانَ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْحِجَابِ وَالْمَحْجُوبِ ،
وَالْتَجَأَ إِلَى الْمُقِيمِ الْقَدِيمِ ، الَّذِي ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ ﴾ .

إِمْسَاكُ الْجَوَارِحِ عَنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُ اللَّهَ

لَا تَطْلُقُوا أَلْسِنَ الْعُلَمَاءِ وَمَعَهَا قُلُوبَ الْجَبَابِرَةِ ، وَجُرْأَةَ الزَّنَادِقَةِ ، وَفُجُورَ
الْكُفْرَةِ .

إِذَا أَطْلَقْتُمُ الْأَلْسِنَ . . أَمْسِكُوا الْجَوَارِحَ وَالْقُلُوبَ عَنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُ
الْمَلِكَ الْعَدْلَ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ .

أَحْسَنُ حَالًا مَعَ اللَّهِ ، وَأَحْسَنُ مَعَ النَّاسِ ، وَأَحْسَنُ مَعَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ . .
إِذَا خَلَوْتُمْ ، إِذَا جَلَوْتُمْ ، إِذَا مِتُّمْ ، إِذَا بُعِثْتُمْ ، إِذَا سُئِلْتُمْ .
هَذَا الْكِتَابُ . . ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ .

اللَّهُ ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ .

اللَّهُ اللَّهُ ! أَحْذَرِكُمْ اللَّهُ أَمْتِيًّا^(١) ، وَيُحَذِرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ أَمْرًا .

(١) أي : لأمره ، حيثُ قَالَ تعالى : ﴿ وَيُحَذِرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ . فَانظُرْ كَيْفَ
يَتَنَاوَلُونَ الْأَمْرَ بِيَابِ النُّصْحِ لِلْعِبَادِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَنَفَعَنَا اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَحَالِهِ ، آمِينَ .

فَقَابِلُوا النَّصِيحَةَ بِالْقَبُولِ ، وَقَابِلُوا الْأَمْرَ الْمُطَاعَ بِالْإِمْثَالِ .
وَأَيَّاكُمْ وَمُحَارَبَةَ اللَّهِ! فَمَا فَازَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ، وَلَا ذَلَّ مَنْ وَالَى اللَّهَ :
﴿ آيَاتُ أُولِي السَّاءِ اللَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

تَلَقِينُ النَّبِيِّ (ﷺ) أَصْحَابَهُ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

(إِعْطَاؤُهُ الطَّرِيقَ) (١)

صَحَّتْ أَسَانِيدُ الْأَوْلِيَاءِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَلَقَّنَ مِنْهُ
أَصْحَابُهُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ جَمَاعَةً وَفُرَادَى ، وَأَتَصَلَّتْ بِهِمْ سَلَاسِلُ الْقَوْمِ .

قَالَ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ : « كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ ؟ » . يَعْنِي : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، قُلْنَا : لَا
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَمَرَ بِغَلْقِ الْبَابِ ، وَقَالَ : « اِرْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ ، وَقُولُوا : لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ » . فَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا ، وَقُلْنَا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ! اللَّهُمَّ إِنَّكَ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا ، وَوَعَدْتَنِي
عَلَيْهَا الْجَنَّةَ ، وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » . ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« أَلَا أَبْشِرُوكُمْ ! فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ » (٢) .

هَذَا وَجْهُ تَلَقُّنِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَصْحَابَهُ جَمَاعَةً .

(١) أي : عهد الطريق ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ .

(٢) رواه أحمد ٤ : ١٢٤ ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١ : ١٩ :

« رواه أحمد والطبراني والبرار ، ورجاله مؤثقون » .

تَلَقِيْنُهُ (ﷺ) جَمَاعَةً مِنْهُمْ فُرَادَى

وَأَمَّا تَلَقِيْنُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - جَمَاعَةً مِنْهُمْ فُرَادَى . . فَقَدْ صَحَّ أَنْ عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ :

« يَا رَسُولَ اللَّهِ! دُلَّنِي عَلَى أَقْرَبِ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ ، وَأَسْهَلِهَا عَلَيَّ عِبَادِهِ ، وَأَفْضَلِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي . . لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »^(١) .

« وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ . . لَرَجَحَتْ بِهِمْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »^(٢) .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« لَا تَقُومُ السَّاعَةُ وَعَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ : اللَّهُ اللَّهُ »^(٣) .

فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَيْفَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(١) رواه مالك في «الموطأ» ١ : ٢١٤ ، والترمذي (٣٥٨٥) ، وعبد الرزاق في «المصنف» ٤ : ٣٧٨ .

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (١٠٩٨٠) ، وابن حبان (٦٢١٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وأحمد ٢ : ١٦٩ ، والبخاري في «الأدب المفرد» ص (١٩٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

(٣) روى بنحوه مسلم (١٤٨) ، وأحمد ٣ : ١٦٢ .

« غَمَضُ عَيْنَيْكَ ، وَأَسْمَعُ مِنِّي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قُلْ أَنْتَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَأَنَا أَسْمَعُ » .

فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ / ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مُغْمِضاً عَيْنَيْهِ ، رَافِعاً صَوْتَهُ ، وَعَلِيٌّ يَسْمَعُ ، ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ / ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مُغْمِضاً عَيْنَيْهِ ، رَافِعاً صَوْتَهُ ، وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْمَعُ ^(١) .

وَعَلَى هَذَا تَسْلَسَلُ أَمْرُ الْقَوْمِ ، وَصَحَّ تَوْحِيدُهُمْ ، وَتَجَرَّدُوا عَنِ الْأَغْيَارِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَأَسْقَطُوا وَهْمَ التَّأْيِيرِ مِنَ الْأَثَارِ ، وَرَدُّوَهَا بِيَدِ اعْتِقَادِهِمُ الْخَالِصِ إِلَى الْمُؤَثَّرِ ، وَقَامُوا عَلَى قَدَمِ الْإِسْتِقَامَةِ ، فَكَمَلَتْ مَعْرِفَتُهُمْ ، وَعَلَتْ طَرِيقَتُهُمْ .

فَعَامِلُوا اللهُ كَمَا عَامَلُوهُ ، تَخَصَّلَ لَكُمْ الْمُنَاسِبَةُ مَعَ الْقَوْمِ ، وَتَيَمَّ نِظَامُ أَمْرِكُمْ وَرَاءَهُمْ ، فَتَكُونُ أَقْدَامُكُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ .

سَمَاعُ الْقَوْمِ وَمَجَالِسُ إِنْشَادِهِمْ

حُكْمُ (الْحَضْرَةِ)

الْقَوْمُ . . سَمِعُوا وَطَابُوا ، وَلَكِنَّهُمْ سَمِعُوا أَحْسَنَ الْقَوْلِ فَاتَّبَعُوهُ ، وَسَمِعُوا غَيْرَ الْحَسَنِ فَاجْتَنَبُوهُ .

تَحَلَّقُوا ، وَفَتَحُوا مَجَالِسَ الذِّكْرِ ، وَتَوَاجَدُوا ، وَطَابَتْ نَفْسُهُمْ ، وَصَعِدَتْ أَرْوَاحُهُمْ .

(١) لم أقف عليه ، والسيد الكبير جمع بين عدة أحاديث كما هو ظاهر ، فافهم .

لَا حَتَّ عَلَيْهِمْ بَوَارِقُ الْإِخْلَاصِ حَالَةَ ذِكْرِهِمْ وَسَمَاعِهِمْ .
تَرَى أَنَّ أَحَدَهُمْ . . كَالْغَائِبِ عَلَى حَالِ الْحَاضِرِ ، كَالْحَاضِرِ عَلَى حَالِ
الْغَائِبِ .

يَهْتَرُونَ أَهْتِرَازَ الْأَغْصَانِ الَّتِي تَحَرَّكَتْ بِالْوَارِدِ ، لَا بِنَفْسِهَا ! .

يَقُولُونَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا تَشْتَغِلُ قُلُوبُهُمْ بِسِوَاهُ .

يَقُولُونَ : اللَّهُ ، وَلَا يَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .

يَقُولُونَ : هُوَ ، وَبِهِ لَا بَغْيَ لَهُ يَتَّبَاهُونَ .

إِذَا غَنَّاهُمْ الْحَادِي . . يَسْمَعُونَ مِنْهُ التَّذْكَارَ ، فَتَعْلُو هِمَّتُهُمْ فِي الْأَذْكَارِ .

مَا الَّذِي أَوْجَبَ أَنْ يُذَكَّرَ الصَّالِحُونَ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ ؟

لَكَ أَنْ تَقُولَ يَا أَخِي : الذِّكْرُ عِبَادَةٌ ، فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ أَنْ يُذَكَّرَ فِي حَلْقَتِهِ
كَلَامُ الْعَاشِقِينَ ، وَأَسْمَاءُ الصَّالِحِينَ ؟ ! .

وَلَكِنْ يُقَالُ لَكَ : الصَّلَاةُ . . أَجَلُ الْعِبَادَاتِ ، يُتْلَى فِيهَا كَلَامُ اللَّهِ ، وَفِيهِ
الْوَعْدُ وَالْوَعْدُ ، وَيُقَالُ فِي تَحِيَّةِ الصَّلَاةِ :

« السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى
عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ » ^(١) .

مَا أَشْرَكَ الْمُصَلِّي ! وَلَا خَرَجَ عَنْ بَسَاطَةِ عِبَادَتِهِ ! وَلَا عَنْ حَدِّ عُبودِيَّتِهِ !
وَكَذَلِكَ الذَّاكِرُ ، سَمِعَ الْحَادِي يَذْكُرُ اللَّقَاءَ . . فَطَابَ بِطَلَبِ لِقَاءِ رَبِّهِ :

(١) رواه البخاري (٨٣١) ، ومسلم (٤٠٢) .

« مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ . . أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ » (١) .

سَمِعَ الْحَادِي يَذْكُرُ الْفِرَاقَ . . فَتَأَهَّبَ لِلْمَوْتِ ، وَتَفَرَّغَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا :

« حُبُّ الدُّنْيَا . . رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » (٢) .

سَمِعَ الْحَادِي يَذْكُرُ الصَّالِحِينَ . . فَتَقَرَّبَ بِحُبِّ أَحْبَابِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ، هَذِهِ

مِنَ الطَّرِيقِ الَّتِي بَعْدَ أَنْفَاسِ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ :

عَنَى بِهِمْ حَادِي الْأَحِبَّةِ فِي الدُّجَى فَأَطَارَ مِنْهُمْ أَنْفَسًا وَقُلُوبًا

فَأَرَادَ مَقْطُوعُ الْجَنَاحِ بُيُوتَهُ وَهُمْوَا أَرَادُوا الْوَاحِدَ الْمَطْلُوبَا

الكَاذِبُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ السَّمَاعُ

نَعَمْ يُؤَاخِذُ الْكَاذِبُ ، يَحْرُمُ عَلَيْهِ السَّمَاعُ ، يُلْزَمُ بَعْدَمِ الْحُضُورِ فِي مَجَالِسِهِ حَتَّى يَصْذُقَ .

أَيْنَ أَوْلَيْكَ ؟ كَادُوا يَدْخُلُونَ أَعْدَادَ الْمَلَائِكِ !

عَلَبُوا نَفُوسَهُمْ فَأَضْمَحَلَّتْ ، وَطَارُوا بِأَجْنِحَةِ الْأَزْوَاحِ فَسَارَتْ بِهِمْ وَدَنَتْ فَتَدَلَّتْ ، ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ .

أَخْلَصُوا فَتَخَلَّصُوا مِنْ قَيْدِ الرَّقِيَّةِ ، وَوَصَلُوا إِلَى مَقَامِ الْحُرِّيَّةِ .

مَا مَلَكَتْهُمْ الْأَغْيَارُ ، كَلَّا ! بَلْ هُمُ الْأَحْرَارُ كُلُّ الْأَحْرَارِ ، كَانُوا وَبَانُوا ، رَحِمَ اللَّهُ الْقَائِلَ :

(١) رواه البخاري (٦١٤٢) ، ومسلم (٢٦٨٣) .

(٢) سيأتي تخريجه ص (٢٦٨-٢٦٩) ، فانظره ثم .

أَتَمَّنَى عَلَى الزَّمَانِ مُحَالاً أَنْ تَرَى مُقْلَتَايَ طَلَعَةَ حُرٍّ

نَحْنُ فِي زَمَانٍ عَمَّتْ بِهِ الْجَهَالَةُ

مَا قُلْتُ لَكَ يَا أَخِي : ذَهَبَ الْقَوْمُ / لِإِسَاءَةِ ظَنِّ بِأَهْلِ الْوَقْتِ ، وَلَكِنَّ
الْقَوْلَ عَلَى الْغَالِبِ .

نَحْنُ فِي زَمَانٍ عَمَّتْ بِهِ الْجَهَالَةُ ، وَكَثُرَتْ بِهِ الْبَطَالَةُ ، وَفَشَتْ فِيهِ
الدَّعْوَى الكَاذِبَةُ ، وَنُقِلَتْ فِيهِ الْأَخْبَارُ الْمُزْخَرَفَةُ .

أَيُّشِ نَعْمَلُ ؟ تَحْرَدُ عَلَى مَنْ ؟ أَكْثَرُ النَّاسِ سَلَكَوا هَذِهِ الطَّرِيقَ .

دَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ ، وَحَيْثِهِمْ مَا دُمْتَ فِي حَيْثِهِمْ ، وَلَكِنْ مَا الْفَائِدَةُ
مِنْ مُدَارَاةٍ تَأْخُذُهُمْ بِهَا الْعِزَّةُ ، وَمِنْ تَحِيَّةٍ تُمَكِّنُ فِيهِمْ الْغَفْلَةَ !؟ .

﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ، ﴿ وَأَعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ .

الاهْتِزَازُ حَالَةَ السَّمَاعِ بِغَيْرِ قَلْبٍ رَقِصٌ

أَيُّشِ أَعْمَلُ بِالسَّمَاعِ الَّذِي رَقِصَ فِيهِ الرَّاقِصُ بِغَيْرِ قَلْبٍ ، وَنَجَّاسَةُ النَّفْسِ
لَطَحَتُهُ !؟ .

كَيْفَ يُحْسَبُ بِرَقِصِهِ وَنَقِصِهِ مِنَ الذَّاكِرِينَ !؟ .

وَرُبَّ تَالٍ تَلَا الْقُرْآنَ مُجْتَهِدًا بَيْنَ الْخَلَائِقِ ، وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ

لِلَّهِ مَلَائِكَةٌ ، جُرْدٌ مُرْدٌ ، تَحْتَ الْعَرْشِ ، يَرْقُصُونَ وَيَذْكُرُونَهُ تَعَالَى ،
وَيَهْتَرُونَ لِذِكْرِهِ .

هَذِهِ أَرْوَاحٌ رَقَصَتْ بِاللهِ اللهُ ، وَأَنْتَ يَا مَسْكِينُ تَرْقُصُ بِنَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ؟ .
أَوْلَيْكَ الذَّاكِرُونَ ، وَأَنْتَ الْمَغْبُونُ الْمَفْتُونُ .

تَسْمِيَةُ الْهَزِّ بِالذِّكْرِ رَقْصًا نِسْبَةً لِلرُّوحِ

سَمَى الْقَوْمُ الْهَزَّ بِالذِّكْرِ : رَقْصًا ، إِذَا كَانَ وَارِدُ الْهَيْزَةِ مِنَ الرُّوحِ ، فَتَسْبُوا
الرَّقْصَ لِلرُّوحِ ، لَا لِلْجِسْمِ ! .

وَالْأَفَائِنَ الرَّاقِصُونَ ، وَأَيْنَ الذَّاكِرُونَ ؟ طَلَبَ هَوْلًا حَقًّا ، وَطَلَبَ
هَوْلًا ضَلَالًا :

سَارَتْ مُشْرِقَةً وَسِرَتْ مُغْرَبًا شَتَّانَ بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمُغْرَبٍ !
الرَّقِصُونَ كَذَّابُونَ ، وَالذَّاكِرُونَ مَذْكُورُونَ ، بَيْنَ الْمَلْعُونِ وَالْمَحْبُوبِ . .
بُونَ عَظِيمٌ (١) .

وُجُوبُ مُرَاقِبَةِ الْمَذْكُورِ لِمَنْ دَخَلَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ

إِذَا دَخَلْتُمْ مَجَالِسَ الذِّكْرِ . . فَرَاقِبُوا الْمَذْكُورَ ، وَأَسْمَعُوا بِأُذُنٍ وَاعِيَةٍ .
إِذَا ذَكَرَ الْحَادِي أَسْمَاءَ الصَّالِحِينَ . . فَأَلْزِمُوا أَنْفُسَكُمْ اتِّبَاعَهُمْ ، لِتَكُونُوا
مَعَهُمْ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » (٢) .

أَوْجِبُوا عَلَيْكُمْ التَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ ، خُذُوا عَنْهُمْ الْحَالَ وَالْوَجْدَ الْحَقَّ .
الْوَجْدَ الْحَقَّ . . وَجِدَانُ الْحَقِّ . لَا تَعْمَلُوا بِالْهَوَى .

(١) الْبُونُ : الْفَضْلُ وَالْمَرْيَةُ . « مُخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص (٧٢) ، مَادَّة :

« ب ي ن » .

(٢) مَرَّ تَخْرِيجُهُ ص (١٤٩) .

تَحَقُّقُ الْإِمَامِ السَّيِّدِ فِي مَقَامِ السَّمَاعِ

لَا أَقُولُ لَكُمْ : إِنِّي أَكْرَهُ السَّمَاعَ ، لِتَحَقُّقِي فِي مَقَامِ سَمَاعِ الْقَوْلِ وَأَتَّبَاعِ أَحْسَنِهِ ، وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ :

إِنِّي أَكْرَهُ السَّمَاعَ لِلْفُقَرَاءِ الْقَاصِرِينَ عَنِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْبَلِيَّاتِ ، الْمُوقَعَةِ فِي أَشَدِّ الْخَطِئَاتِ .

وَإِذَا كَانَ وَلَا بُدَّ . . . فَمِنْ حَادٍ أَمِينٍ مُخْلِصٍ ، يَمْدَحُ الْحَبِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَيَذْكُرُ بِاللَّهِ ، وَيَذْكُرُ الصَّالِحِينَ ، وَهُنَاكَ وَقَفُوا .

الْعَارِفُ يَأْخُذُ حِصَّةَ السَّمَاعِ وَيُفِيضُهَا عَلَى أَهْلِ الْمَجْلِسِ

وَعَلَى الْمُرْشِدِ الْعَارِفِ : أَنْ يَأْخُذَ مِنَ السَّمَاعِ الْحِصَّةَ اللَّازِمَةَ ، وَيُفِيضُهَا عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ حَضْرَتِهِ ، بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ ؛ فَإِنَّ الْحَالَ يَسْرِي كَسْرِيَانِ الرَّائِحَةِ فِي الْمَسَامِّ ، وَنُقْطَةُ الْإِخْلَاصِ . . . إِكْسِيرٌ^(١) .

الرَّجُلُ مَنْ يُرَبِّي بِحَالِهِ

الرَّجُلُ مَنْ يُرَبِّي بِحَالِهِ ، لَا مَنْ يُرَبِّي بِمَقَالِهِ ، وَإِذَا جَمَعَ بَيْنَ الْحَالِ وَالْقَالِ . . . فَهُوَ الرَّجُلُ الْأَكْمَلُ .

كُونُوا مِنَ الْقَوْمِ أَحْبَابِ اللَّهِ

أَخَذْتُمْ هَذِهِ الْمَوَاكِبَ عُدَّةً لِقَمْعِ شَوْكَةِ الْكَافِرِينَ وَالصَّابِئِينَ وَأَصْحَابِ

(١) الْإِكْسِيرُ - بِالْكَسْرِ - : الْكَيْمِيَاءُ . « قَامُوسٌ » ٢ : ١٣٢ ، مَادَّةُ : « كَسَرَ » .

الزَّيْغِ وَالذِّينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فِي هَذِهِ الْبِقَاعِ لِإِزْهَابِهِمْ ، وَإِلْغَاءِ كَلِمَةِ
الذِّينِ ، وَتَشْيِيدِ شَرَفِ الْمُسْلِمِينَ .

أَحْسَنْتُمُ الْعَمَلَ . . . إِنْ حَسَنْتُمْ مَعَهُ النِّيَّةُ .

كَمَلَ الْخَيْرُ . . . إِنْ أَرْجَعْتُمْ كُلَّ أَحْوَالِكُمْ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَوْ مِنْ
بَابٍ ، وَإِلَّا . . . فَبَسَّتِ الْأَحْوَالُ وَالْأَعْمَالُ وَالْأَقْوَالُ .

بَلْ أَقُولُ : إِذَا سَاءَتِ الْمَذَاهِبُ . . . لَا فَرْقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ إِلَّا
بِالْعَلَامَةِ وَالْعِمَامَةِ .

فَكُونُوا مِنَ الْقَوْمِ أَحْبَابِ اللَّهِ ، وَأَهْلِ بَابِ اللَّهِ ، لَا مِنَ الْقَوْمِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ،
الْمَبْعُودِينَ عَنِ اللَّهِ ! .

تَحذِيرُهُ مِنَ الدَّجَلِ فِي الطَّرِيقِ وَأَنَّهُ وَاضِحٌ

أَيُّ سَادَةٍ! إِيَّاكُمْ وَالِدَّجَالِيَّةَ! إِيَّاكُمْ وَالشَّيْطَانِيَّةَ! إِيَّاكُمْ وَالطَّرِيقَ الَّتِي تَقُودُ
إِلَى كِلَا الْوَصْفَيْنِ! .

أَخْجَلُوا الشَّيْطَانَ بِخَالِصِ الْإِيمَانِ ، خَرَبُوا بَيْعَ الدَّجَلِ بِيَدِ الصَّدَقِ (١) .
الطَّرِيقُ وَاضِحٌ ، صَلَاةٌ ، وَصَوْمٌ ، وَحَجٌّ ، وَزَكَاةٌ ، وَالتَّوْحِيدُ وَالشَّهَادَةُ
بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَوَّلُ الْأَرْكَانِ (٢) .

(١) الْبَيْعُ : جَمْعُ بَيْعَةٍ ، وَهِيَ : كَيْسَةُ النَّصَارِيِّ ، « لِسَانٌ » ٢ : ١٩٥ ،
مَادَةٌ : « بَيْعٌ » .

(٢) يُشِيرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٨) وَمُسْلِمٌ (١٦) ،
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ :

وَأَجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ . . حَالُ الْمُؤْمِنِ مَعَ اللَّهِ ، وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ .

أَدَبُ الذِّكْرِ وَحَالُ الْعَارِفِ مَعَ اللَّهِ

وَمِنْ حَالِ الْمُؤْمِنِ مَعَ اللَّهِ أَيْضًا . . ذِكْرُ اللَّهِ - تَعَالَى - كَثِيرًا ، وَمِنْ أَدَبِ
الذِّكْرِ :

١- صِدْقُ الْعَزِيمَةِ .

٢- وَكَمَالُ الْخُضُوعِ وَالانْكِسَارِ .

٣- وَالانْخِلَاعُ عَنِ الْأَطْوَارِ .

٤- وَالْوُقُوفُ عَلَى قَدَمِ الْعُبُودِيَّةِ بِالتَّمَكُّنِ الْخَالِصِ .

٥- وَالتَّنَدُّعُ بِدِرْعِ الْجَلَالِ ، حَتَّى إِذَا رَأَى الذَّاكِرَ رَجُلٌ كَافِرٌ . . أَيْقَنَ أَنَّهُ
يَذْكُرُ اللَّهَ بِصِدْقِ التَّجَرُّدِ عَنْ غَيْرِهِ ، وَكُلُّ مَنْ رَأَهُ . . هَابَهُ ، وَسَقَطَ مِنْ بَوَارِقِ
هَيْبَتِهِ عَلَى قَلْبِ الرَّائِي . . مَا يَجْعَلُ هَشِيمَ خَوَاطِرِهِ الْفَاسِدَةَ هَبَاءً مَنثورًا^(١) .

أَدَبُ الذِّكْرِ وَحَالُ الْعَامَّةِ حَالَةَ ذِكْرِهِمْ

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْمِنْوَالِ . . فَأَحْسَنُهُ بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْعَامَّةِ :

١- التَّمَكُّنُ ، ٢- وَضَبُّ الْقَوْلِ .

٣- وَجَمْعُ الْأَدَبِ الْبَاطِنِيِّ وَالظَّاهِرِيِّ مَهْمَا أَمَكَنَ .

= « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ

الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ » .

(١) الْهَشِيمُ مِنَ النَّبَاتِ : الْيَابِسُ الْمُتَكَسَّرُ ، وَلَا يُقَالُ لَهُ : هَشِيمٌ وَهُوَ رَطْبٌ .

« مصباح » ص (٦٣٨) ، مادة : « هشم » .

٤- وَكَفَّ الطَّرْفَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى أَحَدٍ .

دُعَاءُ السَّيِّدِ فِي مَقَامِ الْمُرَاقَبَةِ

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ رَكَّبْتَ عَلَى جَوَارِحِهِمْ مِنَ الْمُرَاقَبَةِ . . . غِلَظَ الْقِيُودِ ،
وَأَقَمْتَ عَلَى سَرَائِرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ . . . دَقَائِقَ الشُّهُودِ ، فَهَجَمَ عَلَيْهِمْ نَشْرُ
الرَّقِيبِ مَعَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ ، فَتَكَّسُوا رُؤُوسَهُمْ مِنَ الْخَجَلِ وَجِبَاهَهُمْ
لِلسُّجُودِ ، وَفَرَّشُوا لِفَرْطِ ذُلِّهِمْ عَلَى بَابِكَ نَوَاعِمَ الْخُدُودِ ، فَأَعْطَيْتَهُمْ
بِرَحْمَتِكَ غَايَةَ الْمَقْصُودِ .

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

حَتَّى عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ وَاتِّبَاعِ السَّلَفِ

وَقَسَمُهُ الْعَظِيمِ وَنَفْيُهُ عَنِ نَفْسِهِ الْمَشِيخَةِ

يَا فَقِيرُ! اِقْتَدِ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، اِتَّبِعْ آثَارَ السَّلَفِ .

أَيْشٍ أَنَا / حَتَّى أَدْعُو لَكَ ؟! مَا مَثَلِي إِلَّا كَمَثَلِ نَامُوسَةٍ عَلَى الْحَائِطِ لَا
قَدْرَ لَهَا .

حُشِرْتُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ، وَأَخَذَنِي مَا أَخَذَهُمْ ، إِنْ كَانَ خَطَرَ
لِي فِي سِرِّي أَنِّي شَيْخُ هَذَا الْجَمْعِ ، أَوْ مُقَدَّمُهُمْ ، أَوْ مَنْ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ ، أَوْ
نُبْتُ عِنْدِي : أَنِّي فَقِيرٌ مِنْهُمْ! (١) .

(١) مرَّ مثلها ص (١٥٩) .

وَكَيْفَ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَىٰ ذَٰلِكَ . . مَنْ هُوَ لَا شَيْءَ ، وَلَا يَصْلُحُ لِشَيْءٍ ،
وَلَا يُعَدُّ بِشَيْءٍ ؟ ! .

قِيَمَةُ الْوَقْتِ عِنْدَ الْإِمَامِ الرَّفَاعِيِّ

أَيُّ سَادَةٍ! لَا تُضَيِّعُوا أَوْقَاتَكُمْ بِمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ رَاحَةٌ! فَمَا مَضَىٰ مِنْكُمْ
نَفْسٌ . . إِلَّا وَهُوَ مَعْدُودٌ عَلَيْكُمْ .

إِيَّاكُمْ وَمَا تَغْتَرُّونَ بِهِ! وَأَحْفَظُوا أَوْقَاتَكُمْ وَقُلُوبَكُمْ ؛ فَإِنَّ أَعَزَّ الْأَشْيَاءِ . .
الْوَقْتُ وَالْقَلْبُ ، فَإِذَا أَهْمَلْتُمُ الْوَقْتَ ، وَضَيَّعْتُمُ الْقَلْبَ . . فَقَدْ ذَهَبَتْ مِنْكُمْ
الْفَوَائِدُ .

الدُّنُوبُ تُغْمِي الْقُلُوبَ

وَأَعْلَمُوا : أَنَّ الدُّنُوبَ تُغْمِي الْقُلُوبَ ، وَتَسْوِدُهَا ، وَتَسْوِئُهَا ،
وَتَمْرِضُهَا .

مَكْتُوبٌ فِي « التَّوْرَةِ » : « فِي كُلِّ قَلْبٍ مُؤْمِنٍ : نَائِحَةٌ تَنُوحُ عَلَيْهِ ، وَفِي
كُلِّ قَلْبٍ مُنَافِقٍ . . مُغْنٌ يُغْنِي ، وَفِي قَلْبِ الْعَارِفِ . . مَوْضِعٌ لَا يَسْرُهُ أَبَدًا ،
وَفِي قَلْبِ الْمُنَافِقِ . . مَوْضِعٌ لَا يَعْمُهُ أَبَدًا » .

التَّحْقِيقُ فِي وَجْدِ الْفُقَرَاءِ حَالَةَ الذِّكْرِ

أَيُّ سَادَةٍ! أَنْتُمْ تَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي هَذَا الرَّوَّاقِ^(١) ، وَتَتَوَاجَدُونَ وَتَهْتَرُونَ ،

(١) الرَّوَّاقُ - بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ - : مُقَدَّمُ الْبَيْتِ ، وَالْفُسْطَاطُ . « قاموس » ٣ :

فَيَقُولُ الْفُقَهَاءُ الْمَحْجُوبُونَ : رَقَصَ الْفُقَرَاءُ ، وَيَقُولُ الْعَارِفُونَ : رَقَصَ الْفُقَرَاءُ .

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ وَجْدُهُ كَاذِبًا ، وَقَصْدُهُ فَاسِدًا ، وَذِكْرُهُ مِنَ اللِّسَانِ ، مَعَ طَمَحِ الطَّرْفِ إِلَى الْأَغْيَارِ . فَهُوَ رَقَاصٌ كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ ، وَصَدَقَ عَلَيْهِ مَا قَالُوا .

وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ وَجْدُهُ صَادِقًا ، وَقَصْدُهُ صَالِحًا ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا الْقَوْلَ . . قَصَدُوا الْمُرَادَ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُوَ : الْإِجَابَةُ لِدَاعِي اللَّهِ فِي الْأَزْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ ﴾ .

فَسَمِعَ بِلَا حَدٍّ وَلَا رَسْمٍ وَلَا صِفَةٍ ، فَثَبَّتْ حَلَاوَةُ السَّمَاعِ فِيهِمْ بِتَرَدُّدِ .

فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَوْنَهُ ، وَأَظْهَرَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَى الدُّنْيَا . . ظَهَرَ ذَلِكَ السَّرُّ الْمَصُونُ الْمَكْنُونُ فِيهِمْ .

فَإِذَا سَمِعُوا نِعْمَةً طَيِّبَةً ، وَقَوْلًا حَسَنًا . . طَارَتْ هِمَمُهُمْ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي سَمِعُوهُ مِنْ ذَلِكَ النَّدَاءِ .

وَأَوْلَيْكَ . . هُمُ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ - تَعَالَى - فِي الْأَزْلِ ، الْمُتَحَابُّونَ فِيهِ ، الْمُتَرَاوِرُونَ لِأَجْلِهِ ، الذَّاكِرُونَ الْمُهَيَّمُونَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ . . فَذَلِكَ الْفَقِيرُ يُقَالُ لَهُ :

ذَاكِرٌ رَقَصَتْ رُوحُهُ ، وَصَحَّتْ عَزِيمَتُهُ ، وَكَمَّلَ عَقْلُهُ ، وَأَبْيَضَتْ
صَحِيفَتُهُ ، وَأَخَذَ مِنَ السَّمَاعِ الْحِطَّ الْمَكُونِ ، وَنَشَرَ السَّرَّ الْمَطْوِيَّ فِيهِ ؛ لِأَنَّ
السَّمَاعَ مَوْجُودٌ سِرُّهُ فِي طَبَعِ كُلِّ ذِي رُوحٍ يَسْمَعُ .

وَكُلُّ جِنْسٍ يَسْمَعُ بِمَا يُوَافِقُ طَبَعَهُ ، وَيَقْبَهُمُ مِنَ السَّمَاعِ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ
هِمَّتُهُ . أَمَا تَرَى الطُّفْلَ إِذَا سَمِعَ الْحَدْوَّ . . طَرِبَ وَنَامَ ، وَالْجِمَالَ إِذَا
حَدَاهَا الْحَادِي . . سَارَتْ وَنَسِيَتْ أَلَمَ الثَّقَلِ ^(١) ؟ جَاءَ فِي الْآثَارِ :

(١) روى القُشَيْرِيُّ فِي « رسالته » ص (١٥٣) بَابُ فِي السَّمَاعِ : « عَنْ أَبِي بَكْرِ
الدُّنْبُورِيِّ الرَّقِّيِّ قَالَ :

كُنْتُ فِي الْبَادِيَةِ ، فَوَافَيْتُ قَبِيلَةً مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، فَأَضَافَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ ، فَرَأَيْتُ
غُلَامًا أَسْوَدَ مُقَيَّدًا هُنَاكَ ، وَرَأَيْتُ جِمَالَ قَدْ مَاتَتْ بِفِنَاءِ الْبَيْتِ .
فَقَالَ لِي الْغُلَامُ : أَنْتَ ضَيْفٌ ، وَأَنْتَ عَلِيُّ مَوْلَايَ كَرِيمٌ ، فَتَشَفَّعْ لِي ؛ فَإِنَّهُ
لَا يَرُدُّكَ .

فَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْبَيْتِ : لَا آكُلُ طَعَامَكَ حَتَّى تَحُلَّ هَذَا الْعَبْدَ .

فَقَالَ لِي : هَذَا الْغُلَامُ قَدْ أَفْقَرَنِي ، وَأَتَلَفَ مَالِي !

فَقُلْتُ لَهُ : فَمَا فَعَلَ ؟ فَقَالَ : لَهُ صَوْتُ طَيِّبٌ ، وَكُنْتُ أَعِيشُ مِنْ ظَهْرِ هَذِهِ
الْجِمَالِ ، فَحَمَلْتُهَا أَحْمَالًا ثَقِيلَةً ، وَحَدَيْتُ لَهَا ، حَتَّى قَطَعْتُ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي يَوْمٍ
وَاحِدٍ ، فَلَمَّا حَطَّ عَنْهَا . . مَاتَتْ كُلُّهَا ، وَلَكِنْ قَدْ وَهَبْتُ لَكَ . وَحَلَّ عَنْهُ الْقَيْدَ .

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا . . أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ ، فَسَأَلْتُ الرَّاهِبَ ذَلِكَ .

فَأَمَرَ الْغُلَامَ أَنْ يَخْدُوَ عَلَيَّ جَمَلِي كَانَ عَلَيَّ بِئْرَ هُنَاكَ ، يُسْتَقَى عَلَيْهِ .

فَحَدَا ، فَهَامَ الْجَمَلُ عَلَيَّ وَجْهَهُ ، وَقَطَعَ حَبَالَهُ ، وَلَمْ أَظُنْ أَنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا أَطْيَبَ
مِنْهُ ، فَوَقَعْتُ لَوَجْهِهِ ، حَتَّى أَشَارَ إِلَيْهِ بِالسُّكُوتِ . انتهى ، وَأَنْظَرُ =

« إِنَّ اللَّهَ مَا خَلَقَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : أَلَدَّ مِنْ صَوْتِ إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِذَا قَرَأَ فِي السَّمَاءِ . . قَطَعَ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ذِكْرَهُمْ وَتَسْيِيحَهُمْ »^(١) .

لَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ . . بَكَى ثَلَاثَ مِئَةِ عَامٍ ! فَأَوْحَى اللَّهُ - تَعَالَى -
إِلَيْهِ :

« يَا آدَمُ ! فِيمَ بَكَوْكَ ؟ وَمَا جَزَعُكَ ؟ » .

فَقَالَ : « يَا رَبِّ ! لَسْتُ أَبْكِي شَوْقًا إِلَى جَنَّتِكَ ، وَلَا خَوْفًا مِنْ نَارِكَ ، وَإِنَّمَا بَكَئِي شَوْقًا إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْمُتَوَاجِدِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ ، سَبْعِينَ أَلْفَ صَفٍّ ، جُرْدٌ مُرْدٌ ، يَرْقُصُونَ وَيَتَوَاجِدُونَ وَيَدُورُونَ حَوْلَ الْعَرْشِ ، وَيُدُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِيَدِ صَاحِبِهِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ :

« جَلَّ الْمَلِكُ مَلِكُنَا ! لَوْلَا مَلِكُنَا . . هَلَكْنَا ، مَنْ مِثْلُنَا وَأَنْتَ إِلَهُنَا ؟ وَمَنْ مِثْلُنَا وَأَنْتَ حَبِيبُنَا وَمُسْتَعَانُنَا ؟ » . وَذَلِكَ دَأْبُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فَأَوْحَى اللَّهُ - تَعَالَى - إِلَيْهِ : « يَا آدَمُ ! إِزْفِعْ رَأْسَكَ ، وَانظُرْ إِلَيْهِمْ » .

فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَنظَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ يَرْقُصُونَ حَوْلَ الْعَرْشِ :
جِبْرَائِيلُ رَأْسُهُمْ ، وَمِيكَائِيلُ قَوَّالُهُمْ ، فَلَمَّا رَأَهُمْ . . سَكَنَ رَوْعُهُ وَأَبْنَيْتُهُ .

= « إْحْكَامُ الدَّلَالَةِ » ٢ : ٩٣٥ و ٩٥٧ ، لِلشَّيْخِ الْعَلَامَةِ زَكَرِيَّا الْأَنْصَارِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(١) ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي « تَفْسِيرِهِ » ١٦ : ٤٠٦-٤٠٧ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَهَمَّ فِي رَوْضَةٍ يُخْبَرُونَ ﴾ . [الرُّومُ : ١٥] .

وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ ، أَي :
يَسْمَعُونَ^(١) .

هَذَا أَسَاسُ مَقَاصِدِ الْعَارِفِينَ فِي السَّمَاعِ وَالتَّوَاجُدِ ، وَهَذَا الْعَطَاءُ . مَا
هُوَ بِالرَّقْصِ الْمُحَرَّمِ كَمَا يَزْعُمُ بَعْضُ الْجُهَلَاءِ مِنْ مَمْقُوتِي الْفُقَرَاءِ .
هَذَا الْعَطَاءُ . . يَخْصُلُ لِرَجُلٍ يَمْلِكُ خَاطِرَهُ ، وَلَا يَجُولُ بِقَلْبِهِ وَسَوَاسٍ ،
وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى عَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الْأَكْوَانِ ، وَلَا يَقْصِدُ إِلَّا اللَّهَ جَلَّتْ
عَظَمَتُهُ .

وَمَنْ كَانَ مُضْمَخًا بِأَوْسَاحِ الْوَسْوَاسِ وَأَذْنَاسِ الطَّنِيعِ . عَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ
مُحَافِظًا عَلَى أَدَبِ الْقَوْلِ وَالْحَرَكَةِ مَهْمَا أَمَكَنَّ ، وَأَنْ لَا يَخُوضَ بَحْرَ الدَّعْوَى
الْكَاذِبَةِ ، وَيَدَّعِي مَنْزِلَةَ الْقَوْمِ ، ﴿ الرَّيْبُ أَنْ اللَّهَ يَرَى ﴾ ؟ وَاللَّهُ غَيُورٌ ، وَبِهَذَا الْقَدْرِ
كِفَايَةٌ .

كُونُوا مَعَ الشَّرْعِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

أَي سَادَةً! كُونُوا مَعَ الشَّرْعِ فِي آدَابِكُمْ كُلِّهَا ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ؛ فَإِنْ مَنْ كَانَ
مَعَ الشَّرْعِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . . كَانَ اللَّهُ حَظَّهُ وَنَصِيبَهُ ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ حَظَّهُ
وَنَصِيبَهُ . . كَانَ مِنْ أَهْلِ ﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ .

(١) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي « تَفْسِيرِهِ » ١٦ : ٤٠٦-٤٠٧ : « وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ ﴿ فِي
رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ : السَّمَاعُ فِي الْجَنَّةِ ؛ وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ ؛ قَالَ :
إِذَا أَخَذَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي السَّمَاعِ - أَي : الْغِنَاءِ - لَمْ تَبْقَ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا رَدَدَتْ
الْغِنَاءَ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ » . وَتَمَامُهُ فِيهِ .

إِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا كَالْمُنْخَلِ !

أَي سَادَةً! مِنْكُمْ الْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ أَيْضًا ، وَلَكُمْ مَجَالِسُ وَعَظٍ وَدُرُوسٌ تَقْرَأُونَهَا ، وَأَحْكَامٌ شَرْعِيَّةٌ تَذَكَّرُونَهَا وَتَعْلَمُونَهَا النَّاسَ .

إِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا كَالْمُنْخَلِ ، يُخْرِجُ الدَّقِيقَ الطَّيِّبَ ، وَيُمْسِكُ لِنَفْسِهِ الثُّخَالَةَ ، وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ ، تُخْرِجُونَ الْحِكْمَةَ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ ، وَيَبْقَى الْعِلُّ فِي قُلُوبِكُمْ ، تَطَالِبُونَ حِينِنْدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ١٩ .

إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا . . بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ .

إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا . . جَعَلَ فِي قَلْبِهِ الرَّأْفَةَ وَالشَّفَقَةَ لِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَعَوَّدَ كَفَّهُ السَّخَاءَ ، وَقَلْبَهُ الرَّأْفَةَ ، وَنَفْسَهُ السَّمَاحَةَ ، وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ حَتَّى يَسْتَضْغِرَهَا وَلَا يَرَاهَا شَيْئًا .

الْعَارِفُ حَزِينٌ :

الْعَارِفُ . . حَزِينٌ إِذَا فَرِحَ النَّاسُ ، كَثِيبٌ مِنْ غَيْرِ يَأْسٍ ، فَرَحُهُ قَلِيلٌ ، وَبُكَاءُهُ طَوِيلٌ ، مَطْلُوبُهُ . . مَحْبُوبُهُ ، وَهَمُّهُ . . عُيُوبُهُ وَذُنُوبُهُ .

النَّاسُ فِي الْعَيْدِ قَدْ سُرُّوا وَقَدْ فَرِحُوا وَمَا سُرِرْتُ بِهِ وَالْوَاحِدِ الصَّمَدِ لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَا أَعَايِنُكُمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي وَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

أَقْرَبُ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحُهَا الْعَمَلُ بِالسُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

بَدَلْتُ نَفْسِي ، وَلَمْ أَتْرِكْ طَرِيقًا إِلَّا سَلَكْتُهُ ، وَعَرَفْتُ صِحَّتَهُ بِصِدْقِ النَّبِيِّ
وَالْمُجَاهِدَةِ ، فَلَمْ أَجِدْ أَقْرَبَ وَأَوْضَحَ / وَأَحَبَّ مِنَ الْعَمَلِ بِالسُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ،
وَالْتَحَلُّقِ بِخُلُقِ أَهْلِ الدُّلِّ وَالْإِنْكَسَارِ ، وَالْحَيَرَةِ وَالْإِفْتِقَارِ .

كَانَ الصَّدِيقُ الْأَكْبَرُ ، السَّيِّدُ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلِ الْوُصُولَ إِلَيْهِ . . إِلَّا بِالْعَجْزِ ، وَالْعَجْزُ عَنْ دَرْكِ
الْإِذْرَاكِ . . إِذْرَاكِ .

رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يَا مُوسَى ! إِثْنِي بِمَا
لَيْسَ فِي خَزَائِنِي » .

قَالَ : يَا رَبِّ ! أَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَأَيُّ شَيْءٍ نَقَصْتَ خَزَائِنَكَ !؟ .

فَقَالَ : « يَا مُوسَى ! اِعْلَمْ أَنَّ خَزَائِنِي مَمْلُوءَةٌ كِبْرِيَاءً وَعِزًّا وَجَلَالًا
وَجَبْرُوتًا ، وَلَكِنْ إِثْنِي بِالذُّلِّ وَالْإِنْكَسَارِ وَالْمَسْكِنَةِ ، فَأَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ
قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي .

يَا مُوسَى ! مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ بِأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ » (١) .

مُلْتَمِتٌ لَا يَصِلُ :

أَيُّ سَادَةٍ مِنَ الْخَشْيَةِ . . تَكُونُ الْمُحَاسِبَةُ ، وَمِنَ الْمُحَاسِبَةِ . . تَكُونُ
الْمُرَاقَبَةُ ، وَمِنَ الْمُرَاقَبَةِ . . يَكُونُ دَوَامُ الشُّغْلِ بِاللَّهِ ؛ فَإِنَّ أَغْبَطَ النَّاسِ فِي

(١) لم أقف عليه بهذه الرواية ، إلا أن قوله : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلتي »

أجلتي » . . هي عند أحمد في « الزهد » ص (٧٥) .

زَمَانِنَا . . مُؤْمِنٌ عَرَفَ زَمَانَهُ ، وَحَفِظَ لِسَانَهُ ، وَلَزِمَ شَأْنَهُ ، وَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ .

قُلْتُ لِسَيِّدِي عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَرْنُوتِيِّ - قَدَسَ اللهُ سِرَّهُ - : أَوْصِنِي ! قَالَ لِي :
يَا أَحْمَدُ! مُلْتَفِتٌ . . لَا يَصِلُ ، وَمُشْكِكٌ . . لَا يُفْلِحُ ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ مِنْ
نَفْسِهِ التُّقْصَانَ . . فَكُلُّ أَوْقَاتِهِ تُقْصَانٌ .

فَبَقِيتُ سَنَةً أُرَدِّدُ وَصِيَّةَ الشَّيْخِ ، وَمَا يَخْطُرُ لِي خَاطِرٌ إِلَّا أَذْكَرُهَا ، فَيَرْوُلُ
عَنِّي ، ثُمَّ إِنِّي زُرْتُهُ فِي السَّنَةِ الْأُخْرَى ، وَلَمَّا أَرَدْتُ الْخُرُوجَ مِنْ عِنْدِهِ . .
قُلْتُ لَهُ : أَيُّ سَيِّدِي ! أَوْصِنِي ؟ فَقَالَ لِي :

يَا أَحْمَدُ! مَا أَقْبَحَ الْعِلَّةَ بِالْأَطِبَّاءِ ! وَالْجَهْلَ بِالْأَلْبَاءِ ! وَالْجَفَاءَ بِالْأَحِبَّاءِ !^(١)
فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ ، وَصِرْتُ أُرَدِّدُهَا سَنَةً عَلَى نَفْسِي ، وَأَنْتَفَعْتُ بِهِ
وَبِوَصِيَّتِهِ .

الْعَارِفُ عَظِيمُ السِّيَاسَةِ لِنَفْسِهِ

الْعَالِمُ الْعَارِفُ . . عَظِيمُ السِّيَاسَةِ لِنَفْسِهِ بِالْمَخَافَةِ مِنَ اللَّهِ ، وَالْمُرَاقَبَةِ لَهُ ،
وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ . . أَعْتَبَرَهُ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ فِيهِ ، فَإِنْ رَأَى فِيهِ
صَلَاحًا . . أَخْرَجَهُ ، وَإِلَّا ضَمَّ فَمَهُ عَلَيْهِ ؛ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّوَايَاتُ :

(١) الْأَلْبَاءُ : جَمْعُ لَبِيبٍ ، وَهُوَ الْعَاقِلُ ، « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص (٥٨٩) ،
مَادَةٌ : « لَبِيبٌ » .

وَالْأَحِبَّاءُ : جَمْعُ حَبِيبٍ ، « مَصْبَاحٌ » ص (١١٧) ، مَادَةٌ : « حَبِيبٌ » .

« لِسَانِكَ أَسَدُكَ ، إِنْ حَرَسْتَهُ . حَرَسَكَ ، وَإِنْ أَطْلَقْتَهُ . رَفَسَكَ » (١) .

العَارِفُ كَلَامُهُ يُنْقِي الصِّدْقَ

العَارِفُ كَلَامُهُ . . يُنْقِي الصِّدْقَ ، وَصَمْتُهُ يَصْرِفُ الرَّدَى ، يَأْمُرُ
بِالمَعْرُوفِ لِأَهْلِهِ ، وَيَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَفِعْلِهِ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

القَرِيبُ خَائِفٌ :

مَنْ عَرَفَ اللهَ . . زَادَ أَدْبُهُ مَعَهُ .

مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللهِ . . عَظَّمَ خَوْفَهُ مِنَ اللهِ .

أَخْبَرَنِي القَاضِي المُقَرَّبِيُّ الإمامُ الصَّالِحُ سَيِّدِي عَلِيُّ أَبُو الفَضْلِ
الوَاسِطِيُّ ، بِسَنَدِهِ إِلَى الخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ ، يُسَلِّسُهُ إِلَى أَبِي الجَارُودِ
العَبْسِيِّ : أَنَّ جَابِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - قَالَ :

بَلَّغَنِي حَدِيثُ فِي القِصَاصِ ، وَكَانَ صَاحِبُ الحَدِيثِ بِمِصْرَ ، فَأَشْتَرَيْتُ
بِعَيْرًا ، وَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلًا ، ثُمَّ سِرْتُ شَهْرًا ، حَتَّى وَرَدْتُ مِصْرَ ، فَسَأَلْتُ
عَنْ صَاحِبِ الحَدِيثِ ، فَدَلَّلْتُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ بَابٌ لَاطٌ (٢) ، فَفَرَعْتُ

(١) لم أقف عليه .

(٢) أي : مُغْلَقٌ ، يُقَالُ : لَطَّ البَابَ لَطًّا . . أَغْلَقَهُ ، وَلَطَطْتُ الشَّيْءَ . . أَلْصَقْتُهُ .

كذَا فِي « القَامُوسِ » ٢ : ٣٩٧ ، مَادَّةُ : « لَط » ، وَشَرَحَهُ « تَاجُ العُرُوسِ »

٢٠ : ٦٧ ، وَانظُرْ « النِّهَايَةَ » ٤ : ٢٤٩ .

البَابَ ، فَخَرَجَ إِلَيَّ مَمْلُوكًا أَسْوَدًا ، فَقُلْتُ : هَاهُنَا أَبُو فَلَانٍ ؟ فَسَكَتَ عَنِّي ، فَدَخَلَ فَقَالَ لِمَوْلَاهُ : بِالبَابِ أَعْرَابِيٌّ يَطْلُبُكَ ؟ .

فَقَالَ : أَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ .

فَقُلْتُ : أَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ : فَخَرَجَ إِلَيَّ ، فَرَحَّبَ بِي ، وَأَخَذَ بِيَدِي ، ثُمَّ قَالَ لِي : مِنْ أَيْنَ ؟
أَمِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ! بَلَّغَنِي حَدِيثُ فِي الْقِصَاصِ ، وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا
مِمَّنْ بَقِيَ أَحْفَظَ لَهُ مِنْكَ ، فَقَالَ : أَجَلُ ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - يَقُولُ :

« إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ عُرْلًا ، وَهُوَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَائِمٌ عَلَى
عَرْشِهِ ، يُنَادِي بِصَوْتٍ لَهُ رَفِيعٌ غَيْرُ فَظِيعٍ ، يُسْمَعُ الْبَعِيدَ كَمَا يُسْمَعُ الْقَرِيبَ ،
يَقُولُ :

أَنَا الدِّيَانُ ! لَا ظَلَمَ عِنْدِي ! وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ! لَا يُجَاوِزُنِي الْيَوْمَ ظَلَمٌ ظَالِمٌ
وَلَوْ بِلَطْمَةٍ بِكَفٍّ ، وَلَوْ ضَرْبَةً يَدٍ عَلَى يَدٍ ، وَلَا اقْتَصَنَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ ^(١) ،
وَلَا سَأَلَنَ الْحَجَرَ لِمَ نَكَبَ الْحَجَرَ ^(٢) ، وَلَا سَأَلَنَ الْعُودَ لِمَ خَدَشَ صَاحِبُهُ .

فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ عَلَيَّ - يَعْنِي فِي كِتَابِي - ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا
تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ .

(١) الْجَمَاءُ : التي لا قرآن لها ، كذا في « النهاية » ١ : ٣٠٠ ، مادة : « جمم » ،

لابن الأثير ، رحمة الله عليه .

(٢) أي : لِمَ مَالَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي . . . عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ .
أَلَا فَلْيَزْتَقِبْ أُمَّتِي الْعَذَابَ إِذَا كَفَأَ الرَّجَالُ بِالرَّجَالِ ، وَالنِّسَاءُ
بِالنِّسَاءِ » (١) .

هَذَا الْحَدِيثُ أَظْهَرَ مَا لِلَّهِ مِنَ الْعَدْلِ بِإثْبَاتِ الْقِصَاصِ فَيَمْنَنَ لَيْسَ بِمُكَلَّفٍ
كَالْبَهَائِمِ وَغَيْرِهَا .

وَأُطْلِقَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالْقِيَامِ عَلَى الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . مِنْ غَيْرِ
تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ .

وَأَثَبَتِ الْوَعِيدَ فِي اللُّوَاطِ وَالسَّحَاقِ .

النَّاجِي مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ

الْعِلْمُ لَا يُكْتَمُ ، وَالْحَقُّ يُقَالُ ، وَالشَّارِعُ - رُوحِي الْفِدَاءُ لِقَبْرِهِ الْمُبَارَكِ -
أَوْضَحَ لَنَا مَا لَنَا ، وَمَا عَلَيْنَا تَمَامًا .

فَالنَّاجِي . . . مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ ، وَالْحَذَرُ وَالْهَلَاكُ . . . لِمَنْ خَالَفَهُ .
بَلَّغَ كَمَا أَمَرَ ، وَمَا بَقِيَ لَنَا عَلَيْهِ حُجَّةٌ ، وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
صَاحِبُ الْحُجَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ ، وَبِهِ قَامَتِ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ .
هَكَذَا قَضَى - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَقَالَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴾ ، ﴿ وَكُنَّا بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكُنَّا بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ .

(١) رواه الخطيبُ في « الرُّحْلَةِ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ » (١١٦) ، وأبو عبدِ اللهِ
القيسيُّ في جُزْءِ « مجلس في حديث جابر » ص (٤٠) .

مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ عَلَّمَ نَفْسَهُ التَّوَاضُّعَ

أَي سَادَةً! مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ . عَلَّمَ نَفْسَهُ التَّوَاضُّعَ ، وَقَطَعَ عَنْهَا عِلَاقَتَ الدُّنْيَا ، وَآثَرَ اللَّهَ - تَعَالَى - عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، وَأَشْتَغَلَ بِذِكْرِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْ لِنَفْسِهِ رَغْبَةً فِيمَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَامَ بِعِبَادَتِهِ بِحَقَائِقِ الْأَسْرَارِ ، وَخَلَعَ الْمَنَابِرَ وَالْأَسِرَةَ تَوَاضِعاً لِلَّهِ وَإِنْ كَانَتْ يَدُهُ طَائِلَةً إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، وَكَانَ كَمَنْ قِيلَ فِيهِ :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضِعاً وَلَهُ مَنَابِرٌ لَوْ يَشَاءُ وَسَرِيرٌ
وَلِغَيْرِهِ يُجْبَى الْخَرَاجُ^(١) ، وَإِنَّمَا يُجْبَى إِلَيْهِ مَحَامِدٌ وَأَجُورٌ



حَقِيقَةُ الْعَبْدِيَّةِ :

أَي سَادَةً!! الْعَبْدِيَّةُ . . حَقُّهَا الْإِنْقِطَاعُ عَنْ غَيْرِ السَّيِّدِ بِالْكُلِّيَّةِ .
الْعَبْدِيَّةُ . . تَرْكُ كُلِّ كُلِّيَّةٍ وَجُزْئِيَّةٍ .
الْعَبْدِيَّةُ . . رَدُّ الْقَصْدِ عَنْ طَلَبِ كُلِّ مَرْيَّةٍ .
الْعَبْدِيَّةُ . . عَدَمُ رُؤْيَةِ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ عَلَى إِخْوَانِهِ رِفْعَةً أَوْ فَوْقِيَّةً^(٢) .
الْعَبْدِيَّةُ . . الْوُقُوفُ عِنْدَ مَا حُدَّ لِلطَّيْنَةِ الْأَدَمِيَّةِ .
الْعَبْدِيَّةُ . . الْحَشِيَّةُ وَالْخُضُوعُ تَحْتَ مَجَارِي الْأَقْدَارِ الرَّبَّانِيَّةِ .

(١) الْخَرَاجُ وَالْخَرَاجُ : مَا يَخْصُلُ مِنْ غَلَّةِ الْأَرْضِ ، « مَصْبَاح » ص (١٦٦) ،

مَادَةٌ : « خَرَجَ » .

(٢) فِي الْمَطْبُوعِ ص (٧٥) : « فَرْقِيَّةٌ » . وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

مَتَى يَكُونُ الْعَبْدُ كَامِلًا ؟

لَا يَكُونُ الْعَبْدُ عَبْدًا كَامِلًا . . . حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْحُرِّيَّةِ ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ رِقِّ الْأَغْيَارِ بِالْكُلِّيَّةِ .

لَا تَتَّخِذُونِي دَفَّةَ الْمُكْدِيَّةِ

أَي سَادَةً! لَا تَتَّخِذُونِي دَفَّةَ الْمُكْدِيَّةِ ، لَا تَجْعَلُوا رِوَاقِي حَرَمًا ، وَقَبْرِي بَعْدَ مَوْتِي صَنَمًا .

دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُنْفَرِدًا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، فَحَصَلَ مَعَ الْجَمْعِيَّةِ ، وَعَسَانِي أَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَقْصِدِ إِذَا فَارَقْتُ هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ .

إِذَا صَحَّ مِنْهُ الْوَصْلُ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ الثَّرَابِ تُرَابٌ

الْوَسَائِلُ لَا تُنْكِرُ وَالْوَسَائِلُ لَا تُكْفِرُ

وَالضَّارُّ وَالنَّافِعُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى

عَلَيْكُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ! وَحَقُّهُ : لَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ ، وَيَصِلُ وَيَقْطَعُ ، وَيُفْرَقُ وَيَجْمَعُ ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ . . . إِلَّا هُوَ .

الْوَسَائِلُ إِلَيْهِ لَا تُنْكِرُ ، وَالْوَسَائِلُ لَا تُكْفِرُ ، وَإِنَّمَا الْمَادَّةُ الْكُبْرَى . . . كَلِمَةٌ تَقُولُهَا وَتَصِلُ ، وَهِيَ : آمَنْتُ بِاللَّهِ .

فَإِذَا آمَنْتَ بِهِ . . . آمَنْتَ بِكِتَابِهِ ، وَبِرَسُولِهِ ، وَبِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَمِلْتَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَمَا أَلَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .

وَعَظَّمْتَ الْوَسَائِلَ وَالْوَسَائِطَ الَّتِي تَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ ، وَوَحَدَّثْتَ اللَّهَ ،
 وَوَقَفْتَ عَلَى الْبَابِ بِسَائِحِ الدُّمُوعِ ، وَلَثِمْتَ الْأَرْضَ بِالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ ،
 وَعَرَفْتَ إِلَى أَيْنَ الْمَصِيرِ وَالرُّجُوعِ ، وَتَهَيَّأْتَ لِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِ الْمَلَاقَةِ ،
 وَأَخْلَصْتَ فِي أَعْمَالِكَ كُلِّهَا ، فَصِرْتَ إِخْلَاصًا خَالِصًا :

وَبَعْدَهَا تَلِيقُ لَكَ الْمَرَاتِبُ ، وَتَسْحُ عَلَيْكَ سُحُبُ الْمَوَاهِبِ ، وَتَعُودُ
 عَلَيْكَ عَوَائِدُ الْكَرَمِ ، وَتُمَدُّ لَكَ مَوَائِدُ النَّعْمِ ، وَتُنَشَّرُ شَبَكَةُ عِرْفَانِكَ عَلَى
 الْخَلْقِ حَتَّى لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ، وَتَصِلُ دَعْوَةُ نِيَابَتِكَ إِلَى الظُّهُورِ وَالْبُطُونِ
 بِإِذْنِ اللَّهِ .

وَجُوبُ تَعْظِيمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ

أَيُّ سَادَةٍ! عَظَّمُوا شَأْنَ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ، كَتَعْظِيمِكُمْ شَأْنَ الْأَوْلِيَاءِ
 وَالْعُرَفَاءِ ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ وَاحِدًا ، وَهَوْلَاءَ . وَرَأَتْ ظَاهِرَ الشَّرِيعَةِ ، وَحَمَلَتْهُ
 أَحْكَامَهَا الَّذِينَ يُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ ، وَبِهَا يَصِلُ الْوَاصِلُونَ إِلَى اللَّهِ ، إِذْ لَا فَائِدَةَ
 بِالسَّعْيِ وَالْعَمَلِ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُغَايِرِ لِلشَّرْعِ .

وَلَوْ عَبَدَ اللَّهُ الْعَابِدُ خَمْسَ مِئَةِ عَامٍ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ شَرْعِيَّةٍ . . فَعِبَادَتُهُ رَاجِعَةٌ
 إِلَيْهِ ، وَوَزْرُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يُقِيمُ لَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا .

وَرَكْعَتَانِ مِنْ فَقِيهِ فِي دِينِهِ . . أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَلْفِي رَكْعَةٍ مِنْ فَقِيرٍ جَاهِلٍ
 فِي دِينِهِ .

فَأَيَّاكُمْ وَإِهْمَالَ حُقُوقِ الْعُلَمَاءِ! وَعَلَيْكُمْ بِحُسْنِ الظَّنِّ فِيهِمْ جَمِيعًا .
 وَأَمَّا أَهْلُ التَّقْوَى مِنْهُمْ ، الْعَامِلُونَ بِمَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ . . فَهُمْ الْأَوْلِيَاءُ عَلَى

الْحَقِيقَةِ ، فَلْتَكُنْ حُرْمَتُهُمْ عِنْدَكُمْ مَحْفُوظَةً ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

« مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ . . وَرَزَّئَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »^(١) .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْعُلَمَاءُ . . وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » .
الْحَدِيثُ^(٢) .

هُم سَادَاتُ النَّاسِ ، وَأَشْرَافُ الْخَلْقِ ، وَالِدَّالُونَ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ .

نَهْيُهُ عَنِ أَنْ يُقَالَ : نَحْنُ أَهْلُ الْبَاطِنِ وَهُمْ أَهْلُ الظَّاهِرِ

لَا تَقُولُوا كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ : نَحْنُ أَهْلُ الْبَاطِنِ ، وَهُمْ أَهْلُ
الظَّاهِرِ .

هَذَا الدِّينُ الْجَامِعُ . . بَاطِنُهُ لُبُّ ظَاهِرِهِ ، وَظَاهِرُهُ . . ظَرْفُ بَاطِنِهِ .

لَوْلَا الظَّاهِرُ . . لَمَا بَطَّنَ ، لَوْلَا الظَّاهِرُ . . لَمَا كَانَ الْبَاطِنُ وَلَمَا صَحَّ .

الْقَلْبُ لَا يَقُومُ بِلَا جَسَدٍ ، بَلْ لَوْلَا الْجَسَدُ . . لَفَسَدَ ، وَالْقَلْبُ . . نُورُ
الْجَسَدِ .

هَذَا الْعِلْمُ الَّذِي سَمَّاهُ بَعْضُهُمْ : بِعِلْمِ الْبَاطِنِ . . هُوَ إِصْلَاحُ الْقَلْبِ .

فَالأَوَّلُ عَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ ، وَتَصَدِيقٌ بِالْجَنَانِ^(٣) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » ١٠ : ١٥ ، وقال : ذكرَ أحمدُ هذا الكلامَ عن بعضِ التابعينَ عن عيسى بن مريمَ عليه السَّلامُ ، فَوَهَمَ بعضُ الرُّوَاةِ أَنَّهُ ذَكَرَهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَضَعَ هذا الإسنادَ عليه لِسهولتِهِ وقُرْبِهِ .

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذِيُّ (٢٦٨٢) ، وابنُ ماجه (٢٢٣) .

(٣) أي : بِالْقَلْبِ ، « لسان » ٣ : ٢١٧ ، مادة : « جنن » .

إِذَا أَنْفَرَدَ قَلْبُكَ بِحُسْنِ نِيَّتِهِ ، وَطَهَارَةِ طَوْبَتِهِ ، وَوَقَلْتِ ، وَسَرَقْتِ ،
وَزَنَيْتِ ، وَأَكَلْتِ الرِّبَا ، وَشَرِبْتِ الخَمْرَ ، وَكَذَبْتِ ، وَتَكَبَّرْتِ ، وَأَغْلَظْتِ
الْقَوْلَ . . فَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ نِيَّتِكَ وَطَهَارَةِ قَلْبِكَ ؟ ١٩ .

وَإِذَا عَبَدْتَ اللَّهَ ، وَتَعَقَّفْتَ ، وَصُمْتَ ، وَصَدَقْتَ ، وَتَوَاضَعْتَ ، وَأَبْطَنَ
قَلْبُكَ الرِّيَاءَ وَالْفَسَادَ . . فَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ عَمَلِكَ ؟ ١٩ .

فَإِذَا تَعَيَّنَ لَكَ : أَنَّ الْبَاطِنَ . . لُبُّ الظَّاهِرِ ، وَالظَّاهِرَ . . ظَرْفُ الْبَاطِنِ ،
وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا ، وَلَا غِنَى لِكِلَاهُمَا عَنِ الْآخِرِ . . فَقُلْ :

نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الظَّاهِرِ ، وَكَأَنَّكَ قُلْتَ : وَمِنْ أَهْلِ الْبَاطِنِ .

قُلْ : نَحْنُ مِنْ أَهْلِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ ، وَقَدْ ذَكَرْتَ بَاطِنَ الْحَقِيقَةِ .

أَيُّ حَالَةٍ بَاطِنَةٍ لِلْقَوْمِ لَمْ يَأْمُرْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ بِعَمَلِهَا ؟ ١٩ .

أَيُّ حَالَةٍ ظَاهِرَةٍ لَمْ يَأْمُرْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ بِإِصْلَاحِ الْبَاطِنِ لَهَا ؟ ١٩ .

لَا تَعْمَلُوا بِالْفَرْقِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ زَيْغٌ وَبِدْعَةٌ .

تَعْظِيمُ الْعُلَمَاءِ بِالْعِلْمِ

لَا تُهْمِلُوا حُقُوقَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ جَهْلٌ وَحُمُوقٌ .

لَا تَأْخُذُوا بِحَلَاوَةِ الْعِلْمِ ، وَتُبْطِلُوا مَرَارَةَ الْعَمَلِ ؛ فَإِنَّ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ . . لَا

تَنْفَعُ بِغَيْرِ تِلْكَ الْمَرَارَةِ ، وَإِنَّ تِلْكَ الْمَرَارَةَ . . تُنتِجُ الْحَلَاوَةَ الْأَبَدِيَّةَ : ﴿ إِنَّا لَا

نُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

نَصْرُ قُرْآنِي يَشْهَدُ لَكُمْ بِالمُكَافَأَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ .

وَالْإِخْلَاصُ . . . أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ لِلَّهِ ، لَا لِدُنْيَا ، وَلَا لِآخِرَةٍ ، مَعَ حُسْنِ
الظَّنِّ بِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي كُلِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ،
وَقَوْلٍ مِنَ الْأَقْوَالِ ، إِيمَانًا بِهِ ، وَامْتِنَانًا لِأَمْرِهِ ، وَطَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ .

الْحَثُّ عَلَى الْأَخْذِ بِأَقْوَالِ الْأَئِمَّةِ

أَيُّ سَادَةٍ! تَقُولُونَ : قَالَ الْحَارِثُ ، قَالَ أَبُو يَزِيدَ ، قَالَ الْحَلَّاجُ .
مَا هَذَا الْحَالُ ؟! قَبْلَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ قُولُوا : قَالَ الشَّافِعِيُّ ، قَالَ مَالِكٌ ،
قَالَ أَحْمَدُ ، قَالَ نُعْمَانُ .

صَحَّحُوا الْمُعَامَلَاتِ الْبَيْنِيَّةَ ، وَبَعْدَهَا تَفَكَّهُوا بِالْمَقُولَاتِ الزَّائِدَةِ .
قَالَ الْحَارِثُ وَأَبُو يَزِيدَ . . . لَا يَنْقُصُ وَلَا يَزِيدُ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ . .
أَنْجَحِ الطَّرِيقَ وَأَقْرَبِ الْمَسَالِكِ .
شَيْدُوا دَعَائِمَ الشَّرِيعَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَبَعْدَهَا أَرْفَعُوا الْهِمَّةَ لِلْغَوَامِضِ
مِنْ أَحْكَامِ الْعِلْمِ وَحُكْمِ الْعَمَلِ .
مَجْلِسُ عِلْمٍ . . . أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً ، أَيُّ : مِنْ الْعِبَادَاتِ الزَّائِدَةِ
عَنِ الْمَفْرُوضَاتِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ الرَّجُلُ بِهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ .
﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟
﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظَّالِمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ ؟ .

حَثُّ الْقَوْمِ عَلَى لُزُومِ الْعُلَمَاءِ

أَشْيَاخُ الطَّرِيقَةِ ، وَفُرْسَانُ مَيَادِينِ الْحَقِيقَةِ . . . يَقُولُونَ لَكُمْ : خُذُوا بِأَذْيَالِ
الْعُلَمَاءِ .

لَا أَقُولُ لَكُمْ : تَفَلَّسُوا ، وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ : تَفَقَّهُوا :
 « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا . . يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » (١) .

الْوَلِيُّ لَا يَكُونُ جَاهِلًا

« مَا اتَّخَذَ اللهُ وَلِيًّا جَاهِلًا ، وَلَوْ اتَّخَذَهُ . . لَعَلَّمَهُ » (٢) .
 الرَّئِيسُ . . لَا يَكُونُ جَاهِلًا فِي فِقْهِ دِينِهِ .

يَعْرِفُ كَيْفَ يُصَلِّي ، كَيْفَ يَصُومُ ، كَيْفَ يُزَكِّي ، كَيْفَ يَحُجُّ ، كَيْفَ
 يَذْكُرُ ، يُتَقَنُّ عِلْمَ الْمُعَامَلَةِ مَعَ اللهِ .

فَمِثْلُ هَذَا الرَّجُلِ وَإِنْ كَانَ أُمِّيًّا . . فَهُوَ عَالِمٌ ، وَلَا يَقُولُ لَهُ : جَاهِلٌ . .
 إِلَّا مَنْ جَهِلَ الْعِلْمَ الْمَقْصُودَ .

الْعِلْمُ الْمُخْتَصَرُّ وَالْعِلْمُ الْجَامِعُ الْأَتَمُّ

لَيْسَ الْعِلْمُ عِلْمَ الْبَدِيعِ وَالْبَيَانِ ، وَالْأَدَبِ الَّذِي عَنَاهُ الشُّعْرَاءُ ، وَالْجَدَلِ
 وَالْمُنَاطَرَةَ .

الْعِلْمُ الْمُخْتَصَرُّ . . عِلْمٌ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَنَهَى عَنْهُ .

وَالْعِلْمُ الْجَامِعُ الْأَتَمُّ . . عِلْمُ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ .

وَالْفُنُونُ اللَّفْظِيَّةُ ، وَالْقَوَاعِدُ النَّظَرِيَّةُ ، الَّتِي وُضِعَتْ وَسَمَّاهَا وَاضِعُوهَا :

(١) رواه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) ، وابن ماجه (٢٢١) .

(٢) قال القاري في « المصنوع » (٢٦٩) : « ليس بثابت ، ولكن معناه صحيح ،

أي : لو أراد اتخاذه وليًّا . . لعلمه ، ثم اتخذه وليًّا » . انتهى .

عُلُومًا . . هِيَ فُنُونٌ تَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِ الْقَائِلِ : الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ . . وَلَا الْجَهْلُ بِهِ .

النَّهْيُ عَنِ سَمَاعِ قَوْلِ أَهْلِ الْوَحْدَةِ

صُمُّوا أَسْمَاعَكُمْ عَنْ عِلْمِ الْوَحْدَةِ ، وَعِلْمِ الْفَلَسَفَةِ ، وَمَا شَاكَلَهُمَا ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ . . مَزَالَتْ الْأَقْدَامُ إِلَى النَّارِ ، حَمَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ .

الظَّاهِرَ الظَّاهِرَ ! اللَّهُمَّ إِيْمَانًا كَإِيْمَانِ الْعَجَائِزِ :

﴿ قُلِ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

الْأَخْذُ عَنِ الْعُلَمَاءِ

لَا تَقْطَعُوا الْوُصْلَةَ مَعَ الْعُلَمَاءِ ، جَالِسُوهُمْ ، خُذُوا عَنْهُمْ .

لَا تَقُولُوا : فَلَانٌ غَيْرُ عَامِلٍ ! .

خُذُوا مِنْ عِلْمِهِ ، وَأَعْمَلُوا بِهِ ، وَدَعُوهُ وَعَمَلَهُ إِلَى اللَّهِ .

الْأَوْلِيَاءُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - يَأْخُذُونَ الْحِكْمَةَ ، لَا يُبَالُونَ مِنْ أَيِّ لِسَانٍ

ظَهَرَتْ ، وَعَلَى أَيِّ حَجَرٍ كُتِبَتْ ، وَيَبْوَاسِطَةِ أَيِّ كَافِرٍ وَصَلَتْ .

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴾ .

الْأَوْلِيَاءُ قَنَاطِرُ الْخَلْقِ وَصُحْبَتُهُمْ وَاجِبَةٌ

الْأَوْلِيَاءُ . . قَنَاطِرُ الْخَلْقِ ، يَغْبِرُّ الْمُؤَفَّقُونَ عَلَيْهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

أَوْلِيَاكَ الْعَامِلُونَ ، الْمُخْلِصُونَ الْخَالِصُونَ ، اسْتَخْلَصَهُمْ - تَعَالَى -

لِعِبَادَتِهِ ، وَقَرَّبَهُمْ مِنْ حَضْرَتِهِ ، فَمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ حِجَابُ الْغَيْبِ (١) ، طَرْفَةً عَيْنٍ ، أَخْرَجُوا الْبَيِّنَ مِنَ الْبَيِّنِ (٢) .

أَقَامُوا طَلَّاسِمَ الْكُتْمِ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَقَامُوا اللَّيْلَ ، وَصَامُوا النَّهَارَ .
بَعْضُهُمْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْفِكْرُ ، وَبَعْضُهُمْ غَلَبَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ، وَبَعْضُهُمْ جَمَعَ شَتَاتَ الْأَمْرِ .

﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

أَوْصَيْنَكُمْ كُلَّ الْوَصِيَّةِ بَعْدَ عِلْمٍ وَاجِبَاتِ الدِّينِ . . بِصُخْبَتِهِمْ ؛ فَإِنَّهَا تَرْيَاقٌ مُجَرَّبٌ (٣) .

عِنْدَهُمْ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ .

عِنْدَهُمْ . . الصَّدْقُ وَالصَّفَاءُ ، وَالذَّوْقُ وَالْوَفَاءُ ، وَالتَّجَرُّدُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَالتَّجَرُّدُ مِنَ الْأُخْرَى ، وَالتَّجَرُّدُ إِلَى الْمَوْلَى .

وَهَذِهِ الْخِصَالُ . . لَا تَحْصُلُ بِالْقِرَاءَةِ وَالدَّرْسِ وَالْمَجَالِسِ .

لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِصُخْبَةِ الشَّيْخِ الْعَارِفِ ، الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْحَالِ وَالْمَقَالِ ، يَدُلُّ بِمَقَالِهِ ، وَيَنْهَضُ بِحَالِهِ :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتِهِمْ آقَدَةٌ ﴾ .

(١) أي : الغَيْبِ ، « لسان » ١١ : ١١٢ ، مادة : « غين » .

(٢) هو من الأضدادِ ، فيكونُ الْفُرْقَةُ ، ويكونُ الْوَصْلُ ، « لسان » ٢ : ١٩٥ ،

مادة : « بين » .

(٣) مرَّ بيانهُ ص (١٧٩)

حَالُ الشَّيْخِ كَمَالًا أَوْ نُقْصَانًا تَظْهَرُ فِي أَتْبَاعِهِ

حَالَةُ الشَّيْخِ كَمَالًا كَانَتْ أَوْ نُقْصَانًا.. تَظْهَرُ فِي أَتْبَاعِهِ وَمُرِيدِيهِ بَطْنًا بَعْدَ بَطْنٍ .

فَإِنْ كَانَتْ حَالُهُ كَمَالًا.. عَلَا بِهَا حَالُ الْكَامِلِ ، وَزَادَ بِهَا حَالُ النَّاقِصِ .
وَإِنْ كَانَتْ حَالُهُ نُقْصَانًا.. نَقَصَ بِهَا حَالُ الْكَامِلِ ، وَذَهَبَ بِهَا حَالُ
النَّاقِصِ ، إِلَّا إِنْ وَهَبَ الْكَرِيمُ . فَلَا تَأْتِيَرُ لِلْأَحْوَالِ .
إِيَّاكُمْ وَإِبْقَاءَ أَثَرِ يَنْقُصُ حَالَ كَمَلِ أَتْبَاعِكُمْ ، وَيُذْهِبُ حَالَ نَاقِصِهِمْ !
الرَّجُلُ .. مَنْ تَظْهَرُ آثَارُهُ بَعْدَهُ ، قَالَ الرَّجَالُ :

إِنْ آثَارِنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ

حُثُّهُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَمَحَبَّةِ الْعُلَمَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهِ (ﷺ)

أَتْرَكُوا بَعْدَكُمْ أَثَرَ الدُّلِّ وَالْانْكِسَارِ ، وَالتَّجَرُّدِ مِنَ الدَّعْوَى ، وَالخُرُوجِ مِنْ
حِيطَةِ الاسْتِعْلَاءِ ، وَالتَّذَلُّلِ بِبَابِ الْمَوْلَى ، وَمَحَبَّةِ الْفُقَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ،
وَمُوَافَقَةِ الْأَقْدَارِ بِالتَّسْلِيمِ إِلَى اللَّهِ ، وَالتَّمَسُّكِ بِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ .

حُثُّهُ عَلَى صَرْفِ الْوَقْتِ بِالطَّاعَةِ

وَإِيَّاكُمْ وَالْغِرَّةَ بِالْوَقْتِ^(١) ، فَمَا هُوَ عِنْدَ الْعَارِفِ بِشَيْءٍ.. إِلَّا إِذَا لَمْ
يَصْرِفْهُ فِي غَيْرِ الطَّاعَةِ ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ مَا يُثَلِّجُ صَدْرَهُ ، أَجَلٌ :

(١) الْغِرَّةُ : الْغَفْلَةُ ، « مِصْبَاحُ » ص (٤٤٤) ، مَادَةٌ : « غُرٌّ » .

« مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً . فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً . فَعَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (١) .

بَقَاءُ شَأْنِهِ (ﷺ) وَخُلُودُ شَرِيعَتِهِ

مَا بَقِيَ مِنْ قَوْمِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَحَدٌ ، ذَهَبَ مُلْكُهُ ، وَنَسِخَتْ
شَرِيعَتُهُ ، وَنَبِيُّنَا - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - لَا يَذْهَبُ شَأْنُهُ ، وَلَا تُنْسَخُ
شَرِيعَتُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

وَصَفُفُ سُلَيْمَانَ . . نَارَعَهُ وَصَفُ الْمَلِكِ الدِّيَّانِ ، فَطَمَسَهُ :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ .

وَوَصَفُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا كَانَ الْعَبْدِيَّةَ . . أَعَانَهُ وَصَفُ
الرُّبُوبِيَّةِ ، فَدَامَ ذِكْرُهُ ، وَعَلَا أَمْرُهُ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .
وَقَدْ تَرَوْنَ أَنَّ الْمُلُوكَ وَذَرَارِيَهُمْ وَحَوَاشِيَهُمْ تَذْهَبُ ، وَرُسُومَهُمْ . .
تَنْقَلِبُ ، وَالرَّعِيَّةُ عَلَى حَالِهَا .

هُؤُلَاءِ . . نَارَعَتْهُمْ صِفَةُ الرُّبُوبِيَّةِ لَمَّا رَأَوْا الْمَالِكِيَّةَ فَرَأَوْا .

وَهُؤُلَاءِ . . صَانَتْهُمْ صِفَةُ الرُّبُوبِيَّةِ لَمَّا تَحَقَّقُوا بِمَنْزِلَةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ فَدَامُوا .

صَحِيفَةُ حَالِ الشَّيْخِ أَتْبَاعِهِ

قَالَ سَيِّدِي الشَّيْخُ مَنْصُورٌ : صَحِيفَةُ حَالِ الشَّيْخِ . . أَتْبَاعُهُ ، لَهُمْ مِنْ حَالِهِ
وَخُلُقِهِ شَمَّةٌ لَا بُدَّ أَنْ تَفْعَلَ كَيْفَ كَانَتْ ، إِلَّا إِذَا عَلَبَهَا حَالُ سَمَاوِيٍّ أَخْطَصَ بِهِ

التَّابِعُ ، فَرُبَّمَا يَعْلُو مَنزِلَةَ شَيْخِهِ : ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

تَرَى فِي أَصْحَابِ الْحَلَّاجِ . . حُبَّ الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ .

تَرَى فِي أَصْحَابِ أَبِي يَزِيدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حُبَّ الْإِغْمَاضِ ، وَالتَّكَلُّمِ بِالرَّقَاتِي .

تَرَى فِي أَصْحَابِ الْجُنَيْدِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حُبَّ الْجَمْعِ بَيْنَ لِسَانِ الطَّرِيقَةِ وَالشَّرِيعَةِ .

تَرَى فِي أَصْحَابِ السَّلْمَابَادِيِّ . . حُبَّ الْمَعَالِي ، لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَنزِلَةِ .

تَرَى فِي أَصْحَابِ سَيِّدِي الشَّيْخِ أَبِي الْفَضْلِ . . حُبَّ الْوَحْدَةِ إِلَى اللَّهِ بِالذُّلِّ لِلَّهِ وَلِلْخَلْقِ .

وَقَدْ تَنَعَّكِسُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ فِي الْبَعْضِ ، وَلَكِنْ يَكُونُ ذَلِكَ بِالِاخْتِصَاصِ : ﴿ يَخْلُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

مَبْنَى السَّيْرِ عَلَى كَلِمَتَيْنِ

مَعْرُوفُ الْكَرْخِي ، وَدَاوُدُ الطَّائِي ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ، وَمَنْ تَأَدَّبَ بِصُخْبَتِهِمْ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : اخْتَصَرُوا أَسْبَابَ السَّيْرِ عَلَى كَلِمَتَيْنِ :

التَّمَسُّكُ بِالشَّرْعِ ، وَطَلَبُ الْحَقِّ وَوَحْدَهُ . هَذِهِ الشَّرِيعَةُ أَمَامَكَ (١) .

(١) أي : أنظر ما في الأصلين ، فهل تجدُ ثمَّ غيرَ تلكَ الكلمتين ، فأفهم .

حَتَّىٰ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْهَدْيِ النَّبَوِيِّ

وَسُؤَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ

أَيُّ أَخِي! أَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ نَبِيِّكَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتَّسْلِيمَاتِ ،
وَكَيْفَ قَالَ ، وَكَيْفَ خَالَقَ النَّاسَ بَرًّا وَفَاجِرًا ، وَأَعْمَلَ بِعَمَلِهِ ، وَقُلَّ بِقَوْلِهِ ،
وَتَخَلَّقَ بِخُلُقِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ . . فَاسْأَلِ الْعُلَمَاءَ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

الْحِكْمَةُ مِنْ تَحَدُّثِ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

يَتَحَدَّثُ الْقَوْمُ بِالنِّعَمِ . . أَعْتِرَافًا بِنِعْمَةِ الْمُنْعِمِ ، وَشُكْرًا لَهَا ، وَحَثًّا لِلنَّاسِ
عَلَى الْعَمَلِ ، لِتَحْصُلِ لَهُمْ هَذِهِ الْبَرَكَاتِ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

ضَابِطُ التَّحَدُّثِ بِالنِّعْمَةِ

يَقُولُ الْمُتَحَدِّثُ بِالنِّعْمَةِ : أَطَّلَعَنِي رَبِّي عَلَى كَذَا ، وَعَلَّمَنِي كَذَا ،
وَوَهَبَنِي مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ كَذَا .

كَلِمَاتُ الدَّعْوَى الْعَرِيضَةِ

وَلَكِنْ لَا يَقُولُ : أَنَا خَيْرٌ مِنْكُمْ ، أَنَا أَجَلُ مِنْكُمْ ، أَنَا أَشْرَفُ مِنْكُمْ .
هَذِهِ كَلِمَاتُ دَعْوَى ، تَكُونُ مِنْ رُغُونَةِ النَّفْسِ ، يُنْطِقُ بِهَا لِسَانُ
الْأَحْمَقِ .

مَا الَّذِي خَيْرَنِي عَلَيْكَ ، وَأَجَلَنِي ، وَشَرَّفَنِي ؟ صَلَاةٌ وَصَوْمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ
الْعِبَادَاتِ ؟ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

لَوْلَا أَمْنِئَالُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ . . لَخَاطَ الْعَاقِلُ
فَمَهُ بِمِخِيطٍ .

التَّهْمِيُّ عَنِ التَّفَاخُرِ بِالْآبَاءِ وَالْأَشْيَاءِ

أَيُّ أَخِي ! تَفْتَخِرُ بِأَبْنِكَ ؟ آدَمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الصَّفْوَةُ الْأُولَى . . كَفَرَ أَكْثَرُ
أَوْلَادِهِ ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ .

تَفْتَخِرُ بِعِلْمِكَ ؟ إِبْلِيسُ حَلَّ كُلَّ عَوِيصٍ ، حَلَّ وَقَرَأَ صِحَافَ
الْمَوْجُودَاتِ .



تَفْتَخِرُ بِمَالِكَ ؟ قَارُونُ . . هَلَكَ بِمَالِهِ .

تَفْتَخِرُ بِمُلْكِكَ ؟ لَمْ يُغْنِ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً .

مَا هَلَكَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْدَ أَنْ تَجَرَّدَ إِلَى رَبِّهِ .

مَا ذَلَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْدَ أَنْ فَرَشَ بِسَاطَ ذُلِّهِ بَيْنَ يَدَيْ خَالِقِهِ .

مَا ضَاعَ شَأْنُ يُونُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْدَ أَنْ قَالَ بِصِدْقِ الْاَلْتِجَاءِ :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ﴾ .

مَا خَابَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْدَ أَنْ أَسْتَسَلَّمَ لِقَضَائِهِ مُعْتَمِداً عَلَيْهِ .

هَكَذَا النَّبِيُّونَ ، هَكَذَا الْمُرْسَلُونَ ، هَكَذَا الصَّادِقُونَ ، هَكَذَا

الصَّالِحُونَ : ﴿ لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ .

أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْقَطْعِ بَعْدَ الْوَصْلِ

أَيُّ أَخِي! أَيْنَ أَنْتَ؟ فِي أَيِّ وَاوِدٍ؟ تَهَيِّمُ فِي وَاوِدِي وَهَمِكَ! تَسْرَحُ فِي مَيَادِينِ قَطِيعَتِكَ!

اللَّهُ اللَّهُ بِكَ! أَحْرَصُ عَلَيْكَ .

وَاللَّهُ إِنْ تَنْقَطِعَ . . أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تُخَذَلَ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْقَطْعِ بَعْدَ الْوَصْلِ .

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مَوْصُولٌ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ

يَا أَخِي! لَا تَخْرُدْ مِنِّي إِذَا انْقَطَعْتَ وَأَنْتَ تَظُنُّ الْوَصْلَ ، وَرَأَيْتَ أَنَّكَ عَالِمٌ ، وَأَنْتَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْجَهْلِ ، فَقَدْ فَاتَكَ السَّوْمُ^(١) ، وَسَبَقَكَ الْقَوْمُ ، وَعَمَّكَ اللَّوْمُ .

الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ وَعَدَمُ الْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ

لَا أَقُولُ لَكُمْ : انْقَطِعُوا عَنِ الْأَسْبَابِ ، عَنِ التَّجَارَةِ ، عَنِ الصَّنْعَةِ ، وَلَكِنْ أَقُولُ : انْقَطِعُوا عَنِ الْغَفْلَةِ وَالْحَرَامِ فِي كُلِّ ذَلِكَ .

لَا أَقُولُ لَكُمْ : أَهْمِلُوا الْأَهْلَ ، وَلَا تَلْبَسُوا الثُّوبَ الْحَسَنَ ، وَلَكِنْ أَقُولُ :

إِيَّاكُمْ وَالْأَشْتِغَالَ بِالْأَهْلِ عَنِ اللَّهِ! وَإِيَّاكُمْ وَالرُّهُوَ بِالثُّوبِ عَلَى الْفُقَرَاءِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ!

(١) السَّوْمُ : عَرَضُ السَّلْعَةِ عَلَى الْبَيْعِ ، « لِسَانٌ » ٧ : ٣٠٧ ، مَادَّةُ « سَوْمٌ » .

وَأَقُولُ : لَا تُظْهِرُوا الزُّيْنَةَ فَوْقَ مَا يَلْزَمُ بِثِيَابِكُمْ . . . تَنْكَسِرُ قُلُوبُ الْفُقَرَاءِ ،
وَأَخَافُ أَنْ يُخَالِطَكُمْ الْعُجْبُ وَالْغَفْلَةُ .

وَأَقُولُ : نَقُوا ثِيَابَكُمْ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
الرِّزْقِ ﴾ .

وَأَقُولُ : نَقُوا قُلُوبَكُمْ ، وَطَهَّرُوهَا ، فَذَلِكَ أَوْلَى مِنْ تَنْقِيَةِ الثِّيَابِ :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى ثِيَابِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » (١) .

وَكَذَلِكَ ، أَوْ مِثْلُ ذَلِكَ . . . قَالَ لَنَا سَيِّدُنَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ
وَالتَّسْلِيمَاتِ .

حَارِبُوا الشَّيْطَانَ بِبَعْضِكُمْ

حَارِبُوا الشَّيْطَانَ بِبَعْضِكُمْ ، بِبَصِيحَةٍ بِبَعْضِكُمْ ، بِخُلُقٍ بِبَعْضِكُمْ ، بِحَالِ
بَعْضِكُمْ ، بِقَالَ بِبَعْضِكُمْ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَتَسَاوَوْا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَوْا عَلَى الْإِيمَةِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنَيِّنٌ مَرْمُوسٌ ﴾ .

يُقَاتِلُونَ الشَّيْطَانَ ، وَالنَّفْسَ ، وَعَدُوَّ اللَّهِ .

يُقَاتِلُونَ الشَّيْطَانَ كَيْلًا يَقْطَعُهُمْ عَنِ اللَّهِ .

يُقَاتِلُونَ النَّفْسَ كَيْلًا تَشْغَلُهُمْ بِشَهَوَاتِهَا الدُّنْيَا عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ .

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وفيه بدلٌ : « ثيابكم » / « أجسامكم » .

يُقَاتِلُونَ عَدُوَّ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَنَشْرِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ عَلَى اللَّهِ :
﴿ أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا حِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

تَعْظِيمُ الْعِلْمِ وَإِعْطَاءُ الْإِيمَانِ حَقَّهُ
وَلِزُّومِ حُكْمِ الْإِسْلَامِ وَالتَّحَقُّقِ بِالمَعْرِفَةِ
عَظُمُوا شَأْنَ الْعِلْمِ تَعْظِيمًا يَقُومُ بِوَأَجِبَاتِهِ . . لِأَنَّهُ دَرَكُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ
مَسْمُوعًا وَمَعْقُولًا .

أَعْطُوا الْإِيمَانَ حَقَّهُ ، فَهُوَ : إِقْرَارُ بِاللِّسَانِ ، وَأَعْتِقَادُ بِالْجَنَانِ .
الزُّومُوا حُكْمَ الْإِسْلَامِ ، فَهُوَ : مُتَابَعَةُ الشَّرِيعَةِ ، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الطَّبِيعَةِ .
تَحَقَّقُوا بِالمَعْرِفَةِ ، فَهِيَ : أَنْ تَعْرِفُوا اللَّهَ بِالوَحْدَانِيَّةِ .

تَطْهِيرُ النِّيَّةِ وَإِنْفَاقُ الْأَدَبِ وَإِيجَازُ المَوْعِظَةِ وَالمُبَالَغَةُ بِالنَّصِيحَةِ
طَهَّرُوا النِّيَّةَ ، فَهِيَ : الخَطَرَةُ فِي القَلْبِ ، فَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ .
اتَّقِنُوا الْأَدَبَ ، فَهُوَ : وَضْعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ .

أَوْجِزُوا المَوْعِظَةَ ، فَهِيَ : إِرْشَادُ أَصْحَابِ الغَفَلَاتِ .
أَبْلِغُوا بِالنَّصِيحَةِ ، فَهِيَ الاطِّلَاعُ عَلَى حِفْظِ طَرِيقِ الزُّهْدِ .

الصَّدْقُ فِي المَحَبَّةِ وَكَمَالُ الْأَدَبِ فِي الدُّعَاءِ

أُصِدِّقُوا فِي المَحَبَّةِ ، فَهِيَ : نِسْيَانُ مَا سِوَى المَحْبُوبِ .
أَكْمِلُوا الْأَدَبَ فِي الدُّعَاءِ ، فَهُوَ : رَفْعُ الحَاجَاتِ إِلَى رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ .

حُثُّهُ عَلَى إِعْلَاءِ طَرِيقِ التَّصَوُّفِ وَإِتْقَانِ طَرِيقِ الْعُبُودِيَّةِ

شَيْدُوا مَنَارَ التَّصَوُّفِ ، فَهُوَ : تَرْكُ الْاِخْتِيَارِ .

أَتَقِنُوا طَرِيقَ الْعُبُودِيَّةِ ، فَهِيَ : تَرْكُ الدُّنْيَا ، وَتَرْكُ الدَّعْوَى ، وَأَحْتِمَالُ
الْبَلْوَى ، وَحُبُّ الْمَوْلَى .

قُرْبُ الْعَبْدِ مِنَ الرَّبِّ وَالتَّحَقُّقُ بِالصَّدَقِ وَتَعْظِيمُ قَدْرِ الْعَافِيَةِ

مَهْدُوا سَبِيلَ الْقُرْبِ ، فَهُوَ : الْاِنْقِطَاعُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ .

تَحَقَّقُوا بِالصَّدَقِ ، فَهُوَ : مُوَافَقَةُ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ .

عَظَّمُوا قَدْرَ نِعْمَةِ الْعَافِيَةِ ، فَهِيَ : نَفْسٌ بِلَا بَلَاءٍ ، وَرِزْقٌ بِلَا عَنَاءٍ ،
وَعَمَلٌ بِلَا رِيَاءٍ .

الْوُقُوفُ عِنْدَ حَدِّ الْاِسْتِقَامَةِ وَالتَّحَرِّيُّ لِطَلْبِ الْحَلَالِ

قِفُوا عِنْدَ حَدِّ الْاِسْتِقَامَةِ ، فَهِيَ : أَنْ لَا يُخْتَارَ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ .

تَحَرَّوْا الْحَلَالَ ، فَهُوَ : الَّذِي لَا يَضْمَنُهُ أَكْلُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا يُؤَاخَذُ
لَأَجَلِهِ فِي الْآخِرَةِ .

طَلْبُ رِضَاءِ اللَّهِ وَالْأَخْذُ بِعُرْوَةِ الصَّبْرِ

سَدَّدُوا مِنْهَاجَ الطَّاعَةِ ، فَهِيَ : طَلْبُ رِضَاءِ اللَّهِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ
وَالْأَحْوَالِ .

خُذُوا بِعُرْوَةِ الصَّبْرِ ، فَهُوَ : إِيقَافُ الْقَلْبِ عِنْدَ حُكْمِ الرَّبِّ .

التَّبَاعُدُ عَنِ أُنْبَاءِ الدُّنْيَا قَلْبًا

طَهَّرُوا الْعُزْلَةَ وَالْخُلُوعَةَ ، فَهَمَّا : التَّبَاعُدُ عَنِ أُنْبَاءِ الدُّنْيَا ، بِتَرْكِ الطَّمَعِ ،
وَهَجْرِ اخْتِلَاطِ النَّاسِ قَلْبًا وَإِنْ كَانَ الْمَرْءُ بَيْنَهُمْ بِشَخْصِهِ .

عَلَامَةُ الْوَلِيِّ :

أَلَا إِنَّ الْوَلِيَّ : مَنْ وُلِّيَ وَجْهَهُ عَنِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ وَالْدُّنْيَا وَالْهَوَى ،
وَوُلِّيَ وَجْهَهُ وَقَلْبَهُ إِلَى الْمَوْلَى ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، وَلَمْ يَطْلُبْ
إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى .

وَإِنَّ الْقَانِعَ . . . مَنْ رَضِيَ بِالْقِسْمَةِ ، وَاكْتَفَى بِالْبُلْغَةِ .

التَّبَاعُدُ عَنِ الْخِصَالِ الْمَذْمُومَةِ

وَأَحْذَرُكُمْ أَوْصَافًا وَخِصَالًا! إِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ وَالْإِتِّصَافَ بِشَيْءٍ مِنْهَا! فَإِنَّهَا
السُّمُّ النَّاقِعُ^(١) :

١- أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، ٢- وَالتَّبَاعُدِ عَنِ الْخِصَالِ الْمَذْكُورَةِ ، وَهِيَ :

أ- الْحَسَدُ ، وَهُوَ : إِرَادَةُ زَوَالِ نِعَمِ الْمَحْسُودِ .

ب- وَالْكِبْرُ ، وَهُوَ : أَنْ يَرَى الْمَرْءُ نَفْسَهُ خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِ .

ج- وَالْكَذِبُ ، وَهُوَ : اخْتِرَاعُ كَلَامٍ عَلَى خِلَافِ الْوَاقِعِ ، وَقَوْلُ قَبِيحٍ عَارٍ
عَنْ صِفَةِ الْمَنْفَعَةِ .

د- وَالْغَيْبَةُ ، وَهِيَ : بَيَانُ خُبْرٍ الْبَشَرِيَّةِ .

(١) أي : البالغُ القاتِلُ ، « لسان » ١٤ : ٣٤١ ، مادة : « نفع » .

- هـ- وَالْحِرْصُ ، وَهُوَ : عَدَمُ الشَّبَعِ مِنَ الدُّنْيَا .
 و- وَالغَضَبُ ، وَهُوَ : غَلْيَانُ الدَّمِ لِإِرَادَةِ الْإِنْتِقَامِ .
 ز- وَالرِّيَاءُ : وَهُوَ : الْإِسْتِشَارُ بِرُؤْيَةِ الْأَعْيَارِ .
 ح- وَالظُّلْمُ ، وَهُوَ : مُتَابَعَةُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَشْتَهِيهِ .
 وَأَقُولُ لَكُمْ : كُونُوا دَائِمًا بَيْنَ الْحَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، فَالْحَوْفُ . . أَنْ يَخَافَ
 الْقَلْبُ مِنَ اللَّهِ لِمَا عَلِمَ مِنْ ذُنُوبِهِ .
 وَالرَّجَاءُ . . سُكُونُ الْفُؤَادِ بِحُسْنِ الْوَعْدِ .

تَصْفِيَةُ الرُّوحِ بِالرِّيَاضَةِ

وَأَدِيمُوا تَصْفِيَةَ الرُّوحِ بِالرِّيَاضَةِ ، وَهِيَ : اسْتِبْدَالُ الْحَالَةِ الْمَذْمُومَةِ
 بِالْحَالَةِ الْمَحْمُودَةِ .

مَنْ هُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ؟

اجْعَلُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ دِينَكُمْ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
 الْإِسْلَامُ ﴾ .

مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ . فَهُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ،
 وَخَلِيفَةُ رَسُولِهِ ، وَخَلِيفَةُ كِتَابِهِ ، كَذَا أَخْبَرَنَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ، عَلَيْهِ
 أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ .

الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ أَفْضَلُ الْجِهَادِ

وَقَالَ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَفْضَلُ الْجِهَادِ . . الْأَمْرُ
 بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ .

وَمَنْ شَانَ الْفَاسِقِينَ^(١) ، وَغَضِبَ اللَّهُ ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ ، وَلَمْ يَتَّبِعْ غَيْرَ
الْإِسْلَامِ دِينًا . . غَفَرَ اللَّهُ لَهُ .

مَثَلُ رِجَالِ السُّنَّةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَحَالِ الْمُدَاهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ
تَعَالَى ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا . . مَثَلُ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ ، صَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا ،
وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلَاهَا ، فَقَامَ رَجُلٌ بِيَدِهِ فَأَسْرٌ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ ، فَاتَوَّهُ
فَقَالُوا مَا لَكَ ؟ .

فَقَالَ : لَا بُدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ . فَإِنْ أَخَذُوا عَلَيْهِ وَمَنَعُوهُ . . أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا
أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنْ تَرَكَوهُ . . أَهْلَكُوهُ ، وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ^(٢) .

جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « مَا مِنْ قَوْمٍ عَمِلُوا بِالْمَعَاصِي وَفِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُنْكِرَ
عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلْ . . إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ »^(٣) .

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ : إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُحِبًّا فِي
جِيرَانِهِ ، مَحْمُودًا عِنْدَ إِخْوَانِهِ . . فَأَعْلَمَ أَنَّهُ مُدَاهِنٌ . . أَجَلٌ ! .

وَمَنْ شَاهَدَ مُنْكَرًا وَلَمْ يُنْكِرْهُ ، وَسَكَتَ عَنْهُ . . فَهُوَ شَرِيكٌ فِيهِ .
وَالْمُسْتَمْعُ . . شَرِيكُ الْمُعْتَابِ ، وَتَجْرِي فِي هَذِهِ . . جَمِيعُ الْمَعَاصِي
الْمُنْبَهَةِ عَلَيْهَا شَرْعًا .

(١) الشَّيْنُ : خِلافُ الزَّيْنِ ، « مِصْبَاح » ص (٣٣٠) ، مَادَّةُ : « شَيْن » .

(٢) انظُر « صَحِيح » ابْنِ حِبَّانَ (٢٩٧-٢٩٨ و ٣٠١) ، فِيهِ الْمَعْنَى الْمَذْكُورُ بِقَوْلِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(٣) رَوَى بِنُحْوَةَ ابْنِ حِبَّانَ فِي « صَحِيحِهِ » (٣٠٠) ، وَالطَّبْرَانِيُّ (٢٣٨٢) ،

وَأَبُو دَاوُدَ (٤٣٣٩) ، وَأَحْمَدُ ٤ : ٣٦٤ و ٣٦٦ ، وَابْنُ مَاجَهَ (٤٠٠٩) .

مَنْ خَالَطَ النَّاسَ كَثُرَتْ مَعَاصِيهِ

أَلَا إِنَّ مَنْ خَالَطَ النَّاسَ . . كَثُرَتْ مَعَاصِيهِ وَإِنْ كَانَ تَقِيًّا فِي نَفْسِهِ ، إِلَّا أَنْ يَتْرُكَ الْمُدَاهَنَةَ ، وَلَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَيَسْتَعِزُّ بِالْحِسْبَةِ وَالْمَنْعِ .

أَصْلُ الْحِسْبَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَبَيَانُهَا

وَأَصْلُ الْحِسْبَةِ الشَّرْعِيَّةِ شَيْئَانِ : أَحَدُهُمَا . . اللُّطْفُ وَالرَّفْقُ ، وَالْبَدَاءَةُ بِالْوَعْظِ عَلَى سَبِيلِ اللَّيْنِ ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْعُنْفِ وَالتَّرْفَعِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَكِّدُ دَاعِيَةَ النَّفْسِ ، وَيَحْمِلُ الْعَاصِيَ عَلَى الْمُنَاكَرَةِ وَالْإِيذَاءِ^(١) .

وَإِذَا كَانَ الْوَاعِظُ فِظًّا سَيِّئَ الْخُلُقِ . . لَا سَبِيلَ لَهُ - لِحُمَقِهِ - عَلَى دَفْعِ الْمُنَاكَرَةِ ، يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ ، وَيَتْرُكُ الْإِنْكَارَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيَسْتَعِزُّ بِشِفَاءِ غَلِيْلِهِ مِنَ الْمَوْعُظِ . . فَيَصِيرُ بِذَلِكَ عَاصِيًّا .

جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ . . إِلَّا رَفِيقٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، رَفِيقٌ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ ، حَكِيمٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، حَكِيمٌ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ »^(٢) .

وَبَلَّغْنَا أَنَّ أَحَدَ الْوُعَاظِ : وَعَظَ الْمَأْمُونَ الْعَبَّاسِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَأَغْلَظَ عَلَيْهِ ، وَعَنَّفَهُ ، فَقَالَ : يَا رَجُلُ! إِزْفُقْ! فَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ، إِلَى

(١) أي : الْمُحَارَبَةُ ، « لسان » ١٤ : ٣٥٢ ، مادة : « نكر » .

(٢) لم أجده مرفوعاً ، وروى بنحوه أحمد في « الورع » ص (١٥٤) من قول سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ .

مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي ، فَأَمْرُهُ بِالرَّفْقِ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ .

مَا يَطْلُبُهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَمُحِبِّيهِ تَخَلَّقَ بِهِ

أَي سَادَةَ! أَقُولُ لَكُمْ : مَنْ اللَّهُ عَلَيَّ فَتَخَلَّقْتُ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَحَسَّتْكُمْ عَلَيْهِ .

وَلَكِنْ مِنَ الْبِرِّ أَنْ لَا تَطْلُبُوا هَذَا الشَّرْطَ مِنْ وَاغِظٍ وَنَاصِحٍ ، وَلَا تُظْفِرُوا الشَّيْطَانَ بِكُمْ بِهَذِهِ الْخِصْلَةِ ، فَتَقُولُوا :

لَا نَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى نَعْمَلَ بِهِ كُلَّهُ ، وَلَا نَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى نُجْتَنِبَهُ كُلَّهُ .

إِنَّ هَذَا يُؤَدِّي إِلَى حَسْمِ بَابِ الْحِسْبَةِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْصِمُ مِنَ الْمَعَاصِي ؟ !

« مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلَّهُ ، وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ » ^(١) . كَذَا أَمَرْنَا نَبِيَّنَا ، عَلَيْهِ أَكْرَمُ وَأَفْضَلُ صَلَاةِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ .

السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ الْاِقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)

وَأَقُولُ لَكُمْ : مِفْتَاحُ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ . . الْاِقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي جَمِيعِ مَصَادِرِهِ وَمَوَارِدِهِ وَهَيْئَتِهِ ، وَأَكْلِهِ ، وَشُرْبِهِ ،

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٦٢٨) ، وفي « الصغير » (٩٨١) ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧ : ٥٤٣ : « وفيه عبدُ السَّلامِ بنُ عبدِ القُدوسِ بنِ حبيب عن أبيه ، وهما ضعيفان » .

وَقَعُودِهِ ، وَقِيَامِهِ ، وَنَوْمِهِ ، وَكَلَامِهِ ، حَتَّى يَصِحَّ لَكُمْ الْاِتِّبَاعُ الْمُطْلَقُ .

بَلَّغْنَا عَنْ بَعْضِ الْأَيْمَةِ (١) : أَنَّهُ مَا أَكَلَ الْبِطِئِخَ . لِأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ لَهُ كَيْفَ
أَكَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) .

وَسَهَا بَعْضُهُمْ فَأَبْتَدَأَ فِي لُبْسِ الْحُفِّ بِالْيُسْرَى ، فَكَفَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ
الْحِنْطَةِ .

وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَقُولُوا : إِنَّ هَذِهِ الْخِصَالَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْعَادَاتِ
فَتَهْمِلُوهَا ؛ فَإِنَّ إِهْمَالَهَا . يُغْلِقُ بَابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ السَّعَادَةِ .

وَأَمَّا الْعِبَادَاتُ . . فَلَا أَعْرِفُ لِعَدَمِ اتِّبَاعِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِيهَا مِنْ
عُذْرٍ ، إِلَّا أَنْ يَحْصُلَ ذَلِكَ مِنْ كُفْرٍ خَفِيٍّ ، أَوْ حُمُقٍ جَلِيٍّ ، حَمَانَا اللَّهُ
وَإِيَّاكُمْ .

مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) هِيَ : الْحَالَةُ الْمَرْضِيَّةُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْحَلْقُ

أَي سَادَةٌ! وَاللَّهُ مَا أَظُنُّ أَنْ عَلَى بِسَاطِ الْعَبْرَاءِ صَاحِبَ عَقْلِ ، يُمَيِّرُ فِيهِ بَيْنَ

(١) هو الإمام أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه .

(٢) انظر كتاب « الفروع » ٦ : ٣٠٨ ، لابن مفلح الحنبلي ، رحمه الله عليه .

وفي « سنن أبي داود » و « سنن الترمذي » عن عائشة رضي الله عنها : أَنَّ النَّبِيَّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَأْكُلُ الْبِطِئِخَ بِالرُّطْبِ .

زَادَ أَبُو دَاوُدَ فِي رِوَايَتِهِ : « يَقُولُ : نَكْسِرُ حَرَّ هَذَا بِبَرْدِ هَذَا ، وَبَرْدَ هَذَا بِحَرِّ هَذَا » .
وانظر « المصنوع » ص (٧٧) ، للعلامة علي القاري ، بتحقيق الشيخ عبد الفتاح

أبو غُدَّة ، رحمه الله عليهما .

الْحَبِيبِ وَالطَّيِّبِ . . . إِلَّا وَيَعْتَقِدُ قَلْبُهُ ، وَيُذْعِنُ لُبُّهُ^(١) : أَنَّ الْعِبَادَةَ الَّتِي شَرَعَهَا
الْحَبِيبُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ صَلَاةِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ ، وَالْعَادَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا . . . هِيَ الْحَالَةُ
الْمَرْضِيَّةُ عِنْدَ الرَّبِّ وَالْحَلَقِ ، وَهِيَ الْآدَابُ الْمَقْبُولَةُ عِنْدَ الْخَالِقِ ،
وَالْمَخْبُوبَةُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَبِهَا يَطْمَئِنُّ الْقَلْبُ ، وَيَسْكُنُ الرَّوْعُ^(٢) .

أَيُّ فَرْقٍ لَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ مِنْ حَالِ الْمَخْمُورِ وَالصَّاحِي ، وَمِنْ حَالِ
الْكَاذِبِ وَالصَّادِقِ ، وَمِنْ حَالِ الزَّانِي وَالْعَفِيفِ ، وَمِنْ حَالِ السَّارِقِ
وَالْأَمِينِ ، وَمِنْ حَالِ الْمُتَكَبِّرِ وَالْمُتَوَاضِعِ ، وَمِنْ حَالِ الْبَخِيلِ وَالسَّخِيِّ ،
وَمِنْ حَالِ الظَّالِمِ وَالْعَادِلِ ، وَمِنْ حَالِ الْمُبْطِلِ وَالْمُحِقِّ ، وَمِنْ حَالِ الْمُغْتَابِ
وَالْبَرِيِّ ، وَمِنْ حَالِ الْغَادِرِ وَالرَّحِيمِ ، وَمِنْ حَالِ الْعَابِدِ وَالنَّائِمِ ، وَمِنْ حَالِ
الْغَافِلِ وَالْمُتَفَكِّرِ ، وَمِنْ حَالِ الْفَاجِرِ وَالْبَرِّ ، وَمِنْ حَالِ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ :

﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ !؟

حَتَّى عَلَى مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ (ﷺ)

اللَّهُ اللهُ بِالْمُتَابَعَةِ الْمَحْضَةِ لِهَذَا الرَّسُولِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي جَاءَنَا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ ، وَحُجَّةً عَلَى الْمَخْلُوقِينَ ، وَنِعْمَةً لِلْمُؤَحِّدِينَ .

إِيَّاكُمْ وَنَسِيَانَ الْمَوْتِ !

إِيَّاكُمْ وَنَسِيَانَ الْمَوْتِ ؛ فَإِنَّهُ يَتَّبِعُ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَهِيَ مِنْ قِلَّةِ ذِكْرِ اللَّهِ ،
وَذَلِكَ مِنْ قِلَّةِ الْإِيمَانِ ، وَأَمُّ ذَلِكَ . . . الْجَهْلُ ، وَهُوَ مِنَ الضَّلَالِ .

(١) أي : عقله ، « مصباح » ص (٥٤٧) ، مادة : « لب » .

(٢) أي : الفزع ، « مختار الصحاح » ص (٢٦٣) ، مادة : « روع » .

جَاءَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ، أَنَّ الْحَقَّ - تَعَالَتْ ذَاتُهُ - يَقُولُ :

« يَا بَنَ آدَمَ! بِعَافِيَّتِي قَوَيْتَ عَلَيَّ طَاعَتِي ، وَبِتَوْفِيقِي أَذَيْتَ فَرِيضَتِي ،
وَبِرِزْقِي قَوَيْتَ عَلَيَّ مَعْصِيَّتِي ، وَبِمَشِيئَتِي تَشَاءُ مَا تَشَاءُ لِنَفْسِكَ ، وَبِنِعْمَتِي
قُمْتَ وَقَعَدْتَ وَرَجَعْتَ ، وَفِي كَنَفِي أَمْسَيْتَ وَأَصْبَحْتَ ، وَفِي فَضْلِي
عَشْتُ ، وَفِي نِعْمَتِي تَقَلَّبْتَ ، وَبِعَافِيَّتِي تَجَمَّلْتَ ، تَنْسَانِي وَتَذَكُرُ غَيْرِي ،
وَلَمْ تُؤَدِّ شُكْرِي !؟ .

يَا بَنَ آدَمَ! الْمَوْتُ يَكْشِفُ أَسْرَارَكَ ، وَالْقِيَامَةُ تَتَلَوُ أَخْبَارَكَ ، وَالْعَذَابُ
يَهْتِكُ أَسْتَارَكَ .

فَإِذَا أَذْنِبْتَ ذَنْبًا صَغِيرًا . . . فَلَا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِهِ ، وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى مَنْ
عَصَيْتَ .

وَإِذَا رَزَقْتَ رِزْقًا قَلِيلًا . . . فَلَا تَنْظُرْ إِلَى قَلَّتِهِ ، وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى مَنْ رَزَقَكَ .
وَلَا تَحْقِرِ الذَّنْبَ الصَّغِيرَ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي بِأَيِّ ذَنْبٍ عَصَيْتَنِي .
وَلَا تَأْمَنُ مَكْرِي ؛ فَإِنَّ مَكْرِي أَخْفَى عَلَيْكَ مِنْ دَيْبِ النَّمْلَةِ عَلَى الصَّخْرَةِ
فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ .

يَا بَنَ آدَمَ! هَلْ عَصَيْتَنِي فَذَكَرْتَ غَضَبِي فَأَنْتَهَيْتَ ؟ .

وَهَلْ أَذَيْتَ فَرِيضَتِي كَمَا أَمَرْتُكَ ؟ .

وَهَلْ وَاسَيْتَ الْمَسَاكِينَ مِنْ مَالِكَ ؟ .

وَهَلْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ مِنْ أَسَاءِ إِلَيْكَ ؟ .

وَهَلْ غَفَرْتَ لِمَنْ ظَلَمَكَ ؟ .

وَهَلْ وَصَلْتَ مَنْ قَطَعَكَ ؟ .

وَهَلْ أَنْصَفْتَ مَنْ خَانَكَ ؟ .

وَهَلْ كَلَّمْتَ مَنْ هَجَرَكَ ؟ .

وَهَلْ أَدَّبْتَ وَلَدَكَ ؟ .

وَهَلْ أَرْضَيْتَ جِيرَانَكَ ؟ .

وَهَلْ سَأَلْتَ الْعُلَمَاءَ عَنِ أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ ؟ .

فَإِنِّي لَا أَنْظُرُ - مَعَاشِرَ الْأَدَمِيِّينَ - إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَا إِلَى مَحَاسِنِكُمْ ،
وَأَحْسَابِكُمْ وَأَنْسَابِكُمْ ، وَلَكِنْ أَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ ، وَأَرْضَى بِهَذِهِ الْخِصَالِ
عَنْكُمْ .

أَسْمَاءُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

أَيُّ سَادَةٍ! هَذِهِ أُمُورٌ تَنْكَشِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَوْمَ التَّغَابُنِ ، يَوْمَ الْحَاقَّةِ ،
﴿ يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِيمَنْدِرُونَ ﴿ .

يَوْمَ الطَّامَةِ ، يَوْمَ الصَّيْحَةِ ، يَوْمَ تَشْيِبُ الْوُلْدَانُ ، يَوْمَ الزَّلْزَلَةِ ، يَوْمَ
الْقَارِعَةِ ، يَوْمَ يَنْسِفُ الْجِبَالَ ، ﴿ يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ
لِلَّهِ ﴾ .

حَثُّهُ عَلَى مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْعُرَفَاءِ

أَيُّ سَادَةٍ! جَالِسُوا الْعُلَمَاءَ وَالْعُرَفَاءَ ؛ فَإِنَّ لِلْمُجَالَسَةِ أَسْرَارًا تَقْلِبُ
الْجُلَاسَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ .

وَرَدَّ فِي السُّنَّةِ : « مَنْ جَلَسَ مَعَ ثَمَانِيَةِ أَصْنَافٍ . . زَادَهُ اللَّهُ ثَمَانِيَةَ أَشْيَاءَ :

مَنْ جَلَسَ مَعَ الْأَمْرَاءِ . . . زَادَهُ اللَّهُ الْكِبْرَ وَقَسَاوَةَ الْقَلْبِ .
 وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ . . . زَادَهُ اللَّهُ الْحِرْصَ فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .
 وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الْفُقَرَاءِ . . . زَادَهُ اللَّهُ الرِّضَاءَ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .
 وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الصُّبْيَانِ . . . زَادَهُ اللَّهُ اللَّهْوَ وَاللَّعِبَ .
 وَمَنْ جَلَسَ مَعَ النِّسَاءِ . . . زَادَهُ اللَّهُ الْجَهْلَ وَالشُّهُوَةَ .
 وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الصَّالِحِينَ . . . زَادَهُ اللَّهُ الرَّغْبَةَ فِي الطَّاعَةِ .
 وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الْعُلَمَاءِ . . . زَادَهُ اللَّهُ الْعِلْمَ وَالْوَرَعَ .
 وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الْفُسَّاقِ . . . زَادَهُ اللَّهُ الذَّنْبَ وَتَسْوِيفَ التَّوْبَةِ « (١) » .
 وَوَرَدَ أَيْضاً : « الصُّحْبَةُ مَعَ الْعَاقِلِ . . . زِيَادَةٌ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
 وَالصُّحْبَةُ مَعَ الْأَحْمَقِ . . . نَقْصَانٌ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا ، وَحَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ عِنْدَ
 الْمَوْتِ ، وَخَسَارَةٌ فِي الْآخِرَةِ » (٢) .

لِمَنْ تَكُونُ الشَّفَاعَةُ ؟

أَيُّ سَادَةٍ! ثَلَاثَةٌ لَهُمْ شَفَاعَةٌ : الْعَالِمُ ، وَالْخَادِمُ ، وَالْفَقِيرُ الصَّابِرُ .

التَّسْلِيمُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

أَيُّ سَادَةٍ! خُذُوا كُلَّ وَارِدٍ غَيْبِيٍّ ، وَحَادِثِ سَمَاوِيٍّ بِالْبَشْرِ وَالرَّحْبِ ،
 وَكُونُوا رَاضِينَ عَنِ اللَّهِ .

(١) لم أقب عليه .

(٢) لم أجذه .

حَتُّهُ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ الْخَلْقِ وَرَحْمَةِ الْكِرَامِ

قَوْمُوا بِقَضَاءِ حَوَائِجِ خَلْقِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ؛ فَإِنَّ مَنْ قَضَى لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ
حَاجَةً فِي الدُّنْيَا . . قَضَى اللَّهُ لَهُ سَبْعِينَ حَاجَةً فِي الْآخِرَةِ .
إِرْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ أَفْتَقَرَ .

حَتُّهُ عَلَى كَثْرَةِ الصَّدَقَةِ وَإِكْرَامِ الضُّيْفَانِ

أَكْثَرُوا مِنَ الصَّدَقَةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِسَبَبِهَا الْبَلَاءَ .
أَكْرِمُوا الضُّيْفَانَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ عِبَادَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْلَ
أَنْ كُفَّ .

حَتُّهُ عَلَى مُخَالَطَةِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ

خَالِقُوا النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ؛ فَإِنَّ الْخُلُقَ الْحَسَنَ . . أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ .
يُقَالُ : إِذَا لَمْ تَسْعِ النَّاسَ بِمَالِكَ . . فَسَعِ النَّاسَ بِخُلُقِكَ .
« أَحْسَنُ الْحَسَنِ . . الْخُلُقُ الْحَسَنُ » (١) .

يَبْلُغُ صَاحِبُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ . . رُتَبَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ نَائِمٌ ؛
لَأَنَّ ذَلِكَ بَعْدَ الْمَفْرُوضَاتِ . . أَفْضَلُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » ٢ : ١٠٨ ، وابنُ عساکر في « تاريخ

دمشق » ٣ : ١١٦ .

جاء في « العجالة » ص (٧٩) للفياداني : « قال السخاوي : مداره على

الحسن بن دينار ، وهو ممن رماه أحمد وابن معين وغيرهما . . بالكذب .

وتركه ابن مهدي وابن المبارك ووكيع . وقد رواه عنه بعضهم فوقه . »

أَعْبُدِ اللَّهَ بِقَلْبٍ رَاجِبٍ غَيْرِ مُشْمِزٍ

أَيُّشِ تَنْفَعُ عِبَادَتُكَ وَأَنْتَ مُشْمِزٌ ؟ كَأَنَّكَ تَمُنُّ عَلَى اللَّهِ بِهَا ؟ يَا مُسَيِّكِينَ !
إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

إِذَا عَبَدْتَ اللَّهَ . فَأَعْبُدِ اللَّهَ عَاكِفًا عَلَى بَابِهِ ، وَاقِعًا عَلَى أَعْتَابِهِ ، خَاضِعًا
لِسُلْطَنَتِهِ ، مُقْشَعِرًّا مِنْ هَيْبَتِهِ ، مُعْتَرِفًا بِعَجْزِكَ عَنْ أَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ ، مُتَجَرِّدًا مِنْ
رُؤْيَةِ نَفْسِكَ وَعَمَلِكَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، قَارِعًا بَابَ عِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ بِأَكْفٍ ذَلِكَ
وَاحْتِقَارِكَ ، وَحِينَئِذٍ يُرْجَى لَكَ الْقَبُولُ .

حُتُّهُ عَلَى تَطْهِيرِ اللِّسَانِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ

طَهَّرْ لِسَانَكَ مِنْ لَوْثِ الْكَلَامِ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ ، كَيْ يَرْفَعَ كَلَامَكَ إِلَى
حَضِيرَةِ قُدْسِهِ ، إِلَى الْحَضْرَةِ السَّمَاوِيَّةِ الْعَرْشِيَّةِ ، الَّتِي جَعَلَهَا جِهَةً
الطَّلَبِ ، كَمَا جَعَلَ الْكَعْبَةَ فِي الْأَرْضِ جِهَةً الْعُبُودِيَّةِ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ ﴾ .

إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي صَرَفَ إِلَيْهَا هِمَمَ خَلْقِهِ ، إِلَى مَحَلِّ تَنْزُلَاتِ أَمْرِهِ ، لِإِيَّتِكَ
أَمْرُهُ وَكَرَمُهُ وَلُطْفُهُ مِنَ الْعُلُوِّ ، فَتَخَضَعُ دُونَهُ ، وَتَرَكَ حَقِيرًا سَافِلًا .

وَالْأَسْرَارُ الْقُرْآنِيَّةُ . . وَاضِحَةُ الْمُقَادِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا تَوَعَّدُونَ ﴾ ، وَقَالَ - تَعَالَتْ أَسْمَاؤُهُ - :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . / كُنْ حَادِقًا .

كَلَامُ أَهْلِ الْحَضْرَةِ ظَاهِرٌ غَامِضٌ

أَيُّ وَلَدِي! إِذَا سَمِعْتَ كَلَامَ أَهْلِ الْحَضْرَةِ . . فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ غَامِضٌ .

تَكَلَّمَ سَيِّدُ أَهْلِ الْحِكْمَةِ وَالْبَيَانِ ، وَأَفْصَحُ نَوْعِ الْإِنْسَانِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، فَأَوْجَزَ وَأَفْصَحَ ، وَأَوْضَحَ وَأَغْمَضَ ، وَهَكَذَا وَرَأَيْتُهُ وَاتَّبَاعُهُ .

الْخَاطِرُ إِنْ قُوبِلَ بِالْخُضُوعِ انْقَلَبَ فَتْحًا

لَا تَحْرُدْ مِنِّي يَا أَخِي! كُلُّ مَا حَامَ حَوْلَ فِكْرِكَ : مِنْ رُؤْيَا نَفْسِكَ وَمَالِكَ ، وَحَسَبِكَ وَنَسَبِكَ ، وَعِلْمِكَ وَبَلَدِكَ ، وَزَوْجِكَ وَوَلَدِكَ ، وَعَمَلِكَ وَفَتْحِكَ ، وَكِرَامَتِكَ وَمَزِيَّتِكَ . . فَهُوَ خَاطِرٌ ، إِنْ قَابَلْتَهُ بِالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ وَالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالْمَسْكَنَةِ . . انْقَلَبَ فَتْحًا .

وَإِنْ قَابَلْتَهُ بِالْعِزَّةِ وَالْكِبَرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ وَالْغَفْلَةِ . . انْقَلَبَ قُبْحًا وَوَسْوَاسًا وَقَطِيعَةً .

فَتَدَارِكُ نَفْسَكَ ، وَأَصْلِحَ شَأْنَكَ .

بُكَاءُ الْأَرْضِ عَلَى عَبْدٍ عَبَدَ اللهُ عَلَيْهَا

إِذَا انْقَطَعَتْ عَنْ عِبَادَةِ سَيِّدِكَ . . تَبْكِي عَلَيْكَ الْأَرْضُ الَّتِي عَبَدْتَ اللهُ عَلَيْهَا ، وَكَأَنَّهَا تَوَدُّدًا إِلَيْكَ ، وَأَسْفَاً عَلَيْكَ ، تَقُولُ قَوْلَ الْقَائِلِ :

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ جِبَالَ رَضْوَى تَزُولُ ، وَأَنَّ وُدَّكَ لَا يَزُولُ
وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ لَهَا انْقِلَابٌ وَحَالَاتُ ابْنِ آدَمَ تَسْتَحِيلُ

فَإِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ . . تَحِنُّ عَلَيْكَ ، وَتَوَدُّ سَوْقَ الْخَيْرِ إِلَيْكَ ، فَكَيْفَ بِكَ ؟ هَذَا الشَّأْنُ أَوْلَى لَكَ ، وَأَنْتَ - لَوْ فَفَقِهْتَ - أَوْلَى بِهِ .

عَوْدَةٌ عَلَى كَلَامِ أَهْلِ الْحَضْرَةِ

بَلَّغْنِي عَنْ بَعْضِ إِخْوَانِنَا رِجَالِ الْعَصْرِ أَنَّهُ يَقُولُ :

عَقَدْتُ بِيَابِ الدَّيْرِ عُقْدَةَ زُنَّارِي وَقُلْتُ: خُذُوا لِي مِنْ فِقْهِهِ الْحِمَى ثَارِي يُرِيدُ بِذَلِكَ مَعَانِي أُخْرَى ، إِيَّاكُمْ وَالْقَوْلَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ ! .

حُسْنُ الظَّنِّ . . يُلْزِمُنَا بِسَيِّدِنَا الشَّيْخِ ، وَلَكِنْ أَدْبْنَا مَعَ الدِّينِ الْأَزْمِ ، وَوُقُوفُنَا مَعَ الْحَقِّ أَهَمُّ .

لَا نَعْقِدُ الزُّنَّارَ ، وَلَا نَمُرُّ عَلَى بَابِ الدَّيْرِ ، وَنَقْبَلُ يَدَ الْفَقِيهِ وَرِجْلَهُ ، وَنَطْلُبُ مِنْهُ عِلْمَ دِينِنَا ، وَنَقُولُ :

طَلَبَ الشَّيْخُ مَقَاصِدَ سَتْرَهَا بِهَذِهِ الْأَلْفَافِ ، وَلَيْتَهُ لَمْ يَطْلُبْهَا ، وَلَمْ يَسْتُرْهَا ! وَيَقُولُ عَوَضًا عَمَّا قَالَ :

حَلَلْتُ بِيَابِ الشَّرْعِ عُقْدَةَ زُنَّارِي وَطَهَّرْتُ بِالْفِقْهِ الْإِلَهِيِّ أَسْرَارِي وَمَا الدَّيْرُ وَالزُّنَّارُ إِلَّا ضَلَالَةٌ وَمَا الشَّرْعُ إِلَّا الْبَابُ لِلْوَصْلِ بِالْبَارِي

نَعَمْ! حَالَةُ أَهْلِ الْحُبِّ تَأْخُذُ الْقَلْبَ فَيَطِيئُشُ الْعَقْلُ ، فَيَتَكَلَّمُ اللِّسَانُ كَلَامَ مَنْ جُنَّ ، أَوْ خَمِرَ ، أَوْ غَلَا دَمُهُ ، أَوْ أُغْشِيَ عَلَيْهِ .

فَدَعُوا الرَّجُلَ وَرَبَّهُ ، وَهَذَا يَكْفِيهِ مِنْكُمْ ، وَتَمَسَّكُوا بِالْحَبْلِ الْمَتِينِ ،
الَّذِي مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ . . . لَنْ يَضِلَّ أَبَدًا^(١) .

هَذِهِ الْكَلِمَاتُ وَمِثْلُهَا مِنَ الشُّطْحَاتِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ حَدَّ التَّحَدُّثِ بِالنُّعْمَةِ . .
مَثَلُ صَاحِبِهَا : كَمَثَلِ رَجُلٍ نَامَ فِي بَيْتِ الْخَلَاءِ ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ جَلَسَ
عَلَى سَرِيرِ سُلْطَنَةٍ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ . . خَجَلَ وَعَرَفَ مَكَانَهُ .

اللَّهُ اللَّهُ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ! عَضُوا عَلَيَّ سُنَّةَ السَّيِّدِ الْعَظِيمِ بِالنَّوَاجِدِ :

مَالِي وَأَلْفَاظِ زَيْدٍ وَوَهْمِ عَمْرٍو وَبُكَرِ
وَجْهَ الشَّرِينَةِ أَهْدَى مِنْ سِرِّ ذَاكَ وَسِرِّي

« صَدَقَ اللَّهُ! ^(٢) وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ » ^(٣)

(١) والحبل المتين: كتاب الله القرآن، قاله ابن مسعود، ورواه الطبري في
« تفسيره » ٥ : ٦٤٦ .

قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ . [آل عمران : ١٠٣] .
ورواه عليّ وأبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قطعة من
حديث طويل رواه أحمد (٧٠٤) ، والترمذي (٢٩٠٦) .
وحديث أبي سعيد الخدري رواه الطبري ٥ : ٦٤٦ .

(٢) أي : في قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ .
[النحل : ٦٩] .

(٣) رواه البخاري (٥٣٦٠) ، ومسلم (٢٢١٧) ، والترمذي (٢٠٨٣) ،
وقال : « حديث حسن صحيح » .

والحديث فيه قصة ، أنظرها في المصادر المذكورة .

التَقَرُّبُ إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ - بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ عِنْدَهُ

أَيُّ أَحْيٍ! كُلُّ مَا أَنْتَ فِيهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ حَلَالًا.. فَلَا ثَوَابَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُبَاحًا.. فَأَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْهُ.

وَإِنْ جِئْتَ بِالْحَرَامِ.. يُتْلَى عَلَيْكَ إِذَا لَقِيتَ رَبَّكَ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

لَا أَقُولُ لَكُمْ: ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ السُّبُلُ، وَأَخَذَكُمُ السَّيْلُ، وَرُدِدْتُمْ عَنْ بَابِ الْكَرَمِ، لَا وَحَقَّهُ تَعَالَى!

بَلْ سَيَظْهَرُ مِنْ كَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ وَلُطْفِهِ وَفَضْلِهِ غَدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.. مَا يَتَطَاوَلُ إِلَيْهِ طَمَعُ ابْنِئِيسَ، وَظَلَمَةُ الْكَافِرِينَ.

وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: هُوَ سُبْحَانَهُ: ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

فَتَقَرَّبُوا مِنْ بَابِ مَغْفِرَتِهِ.. بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ عِنْدَهُ.

وَتَبَاعَدُوا عَنْ بَابِ عِقَابِهِ.. بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ.

وَخَافُوهُ خَوْفَ عَالِمٍ بِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَأَضْمِرُوا الرَّجَاءَ بِهِ، رَجَاءَ مُوقِنٍ بِكَرَمِهِ وَعَمِيمٍ إِحْسَانِهِ؛ فَإِنَّ رَجَاءَ الْمُؤْمِنِ.. بِقُدْرِ خَوْفِهِ، حَتَّى لَوْ وُزِنَا.. لَمَا زَادَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ.

الْمَصِيرُ إِلَى اللَّهِ:

الْمَصِيرُ إِلَى اللَّهِ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ، وَكُلُّ يَعُودٍ إِلَى مَعْدِنِهِ، وَيَسْتَوْفِي أَجَلَهُ، وَتَعُودُ عَلَيْهِ الْمَسْأَلَةُ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ .
هَذِهِ الْحَبَّةُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا . . نَبَتَتْ بِتُرَابٍ مِثْلِكُمْ .

هَذِهِ الدُّنْيَا وَهَذِهِ أَحْوَالُهَا

كَانَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ ، ذَهَبُوا وَبَاتُوا (١) ، وَكَانَتْهُمْ مَا كَانُوا .
هَذَا تُرَابٌ لَوْ تَفَكَّرَهُ الْفَتَى لَرَأَى عَلَيْهِ مِنَ الْجِبَاهِ بِسَاطًا
وَكَانَتْهَا ذَرَاتُهُ لَوْ مِيزَتْ صِيغَتْ لِاللِّسِنَةِ الْأَلْيِ اسْفَاطًا (٢)

نَدُوسُ السُّنَا وَجِبَاهَا ، وَخُدُودًا وَشِفَاهَا ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .
هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَهَذِهِ أَحْوَالُهَا ، وَهَذِهِ دِيَارُهَا وَرِجَالُهَا .
بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ! هَلْ بَعْدَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَأَخِذِ الْعِبْرَةَ ، مِنْ طَمَعِ بِهَا
وَبِدْيَارِهَا ، وَإِصْلَاحِهَا وَإِعْمَارِهَا ؟ .
أَعْمُرْ هَذَا الرَّوَّاقَ حَتَّى يَسْكُنَهُ صَالِحٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ ، وَأَبُو الْقَاسِمِ ،
وَالنِّسَاءُ ؟ .

أَمْ أَعْمُرُ بَيْتًا أَسْكُنُهُ أَنَا إِذَا فَارَقْتُ الْأَحْبَابَ ، وَتَوَسَّدْتُ التُّرَابَ ؟ .
أَهَذَا الرَّوَّاقُ عَمْرُهُ أَبِي بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ ، وَأَبْقَاهُ لِي مِنْ بَعْدِهِ ؟ .
لَا وَاللَّهِ! بَلِ اللَّهُ وَهَبَ وَأَحْسَنَ ، وَأَكْرَمَ وَتَحَنَّنَ .

(١) أي : بَعُدُوا ، « مصباح » ص (٧٠) ، مادة : « بين » .
(٢) جمعُ سَفَطٍ ، وهو الَّذِي يُعْبَى فِيهِ الطَّيْبُ وما أَشْبَهَهُ من أدواتِ النِّسَاءِ ،
« لسان » ٧ : ١٩٨ ، مادة : « سَفَط » .

هَذِهِ الْمِنَّةُ مَخْصُوصَةٌ بِي ؟ لَا وَاللَّهِ ! بَلِ الدُّنْيَا يُعْطِيهَا لِمَنْ يُحِبُّ ، وَلِمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَالْآخِرَةُ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّ .

رُزِقَ أَبِي بَيْتًا وَمُقَامًا ، وَتَوْبًا وَطَعَامًا .

وَأَنَا كَذَلِكَ وَأَوْلَادِي وَعِيَالِي فِي لَوْحِ غَيْبِهِ الْمَحْفُوظِ بِعِلْمِهِ . لَهُمْ رِزْقٌ ، وَهَكَذَا جَمِيعُ الْخَلْقِ .

فَعَلَامَ هَذِهِ الْخَيَالَاتُ ، وَتَطَّرُقُ سَبِيلَ الضَّلَالَاتِ ؟ !

الْكَيْسُ مَنْ خَافَ رَبَّهُ ، وَدَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آيَةٌ اخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِهَا الرَّجَالُ ؟ :

أ- إِرْثٌ مَعْنَوِيٌّ ، تَحَسُّنٌ بِهِ الْقُرْبَى مِنْ اللَّهِ لِلْعَبْدِ إِذَا تَوَسَّدَ الْأَرْضَ .

ب - أَوْ الصَّالِحُونَ ؛ لِإِرْثِهَا وَسِيَاسَةِ خَلْقِهِ عَلَى مُقْتَضَى اسْتِحْقَاقِ الْخَلْقِ ؛ فَإِنَّ الْأَعْمَالَ .. عَيْنُ الْعُمَالِ .

أَجَلْ ! « أَعْمَالُكُمْ .. عُمَالُكُمْ ، وَكَمَا تَكُونُوا .. يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ » (١) .

﴿ إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ . بَيِّنَةٌ عَلَى مَا ذَكَرَ .

ج - وَفَسَّرَهَا جَمَاعَةٌ بِأَرْضِ الْجَنَّةِ ، وَالْكُلُّ عَلَى هُدَى .

(١) رواه الطبراني عن الحسن ، كما في « كشف الخفاء » (١٩٩٧) .

الإنسان يبرز إلى الدنيا قابضاً كفه

أي أخي! أما تنظرُ الطفلَ إذا وُلِدَ . . . يبرزُ إلى الدنيا قابضاً كفه ، حِرْصاً عَلَيْهَا ، وَإِذَا خَرَجَ . . . يَخْرُجُ بِاسِطاً كَفَّهُ مُعْتَرِفاً بِفِرَاقِ يَدِهِ مِنَ الأَمْرِ العَارِضِ الَّذِي حَرَّصَ عَلَيْهِ ؟ .

كَفَى بِالمَوْتِ وَاِعْظَا! كَفَى بِالمَوْتِ وَاِعْظَا! :

أَبْكَى وَمِثْلِي مَنْ يَبْكِي إِذَا سَبَقَتْ قَوَافِلُ القَوْمِ أَهْلِ العِلْمِ وَالعَمَلِ بُكَاءَ قَوْمٍ لِلْقِيَا الوَالِهَيْنِ بِهِ وَإِنِّي الخَائِفُ البَاكِي مِنَ الزَّلَلِ



مَا تَرَكَ طَرِيقاً صَعْباً إِلَّا سَلَكَهُ

أَي سَادَةَ! مَا تَرَكَتُ طَرِيقاً صَعْباً ، ، وَلَا مَسْلَكَاً غَضّاً . . . إِلَّا كَشَفْتُ قِنَاعَهُ ، وَرَفَعْتُ بِأَكْفِّ عَسَاكِرِ الهِمَّةِ سِتْرَهُ المَسْدُودِ وَشِرَاعَهُ .

مَجِيئُهُ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَابِ الدُّلِّ وَالانكِسَارِ

وَدَخَلْتُ عَلَى اللَّهِ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، فَرَأَيْتُ عَلَى الكُلِّ أزدِحاماً عَظِيماً ، فَجِئْتُهُ مِنْ بَابِ الدُّلِّ وَالانكِسَارِ ، فَرَأَيْتُهُ خَالِياً ، فَوَصَلْتُ وَحَصَلْتُ مَطْلُوبِي ، وَالطَّلَابُ عَلَى الأبْوَابِ .

بِشَارَتِهِ لِأَحْبَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ أَنَّهُمْ مُعَانُونَ وَمَنْصُورُونَ

أَعْطَانِي رَبِّي مِنْ فَضْلِهِ وَمَوَاهِبِهِ . . . مَا لَأَعَيْنُ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ مِنْ أَهْلِ هَذَا العَصْرِ .

وَعَدَنِي رَسُولُ كَرَمِهِ : أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِ مُرِيدِي وَمُحِبِّي ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِي ،
وَبَدَّرْتَنِي ، وَخُلْفَانِي / فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، عِنْدَ
أَنْقِطَاعِ الْحَبْلِ .

بِهَذَا جَرَتْ بَيْعَةُ الرُّوحِ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ .

لَا تَصِحُّ الْمُكَالَمَةُ لِمَخْلُوقٍ مَعَ الْخَالِقِ

لَا تَصِحُّ الْمُكَالَمَةُ لِمَخْلُوقٍ مَعَ الْخَالِقِ بَعْدَ النَّبِيِّنَ وَالْمُرْسَلِينَ ، الَّذِينَ
كَلَّمَهُمْ - سُبْحَانَهُ - وَخِيَا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .

وَإِنَّمَا وَعَدُ إِحْسَانِهِ يَنْجَلِي إِلَى قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ وَأَحْبَابِهِ بِالرُّؤْيَا الْمَنَامِيَّةِ ،
وَالْوَاسِطَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَالْإِلْهَامِ الصَّحِيحِ ، الَّذِي لَا يُخَالِفُ ظَاهِرَ الشَّرِيعَةِ
الْأَحْمَدِيَّةِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ :

مَوَاهِبُ الرَّحْمَنِ لَا تَنْقُضِي وَأُمَّةُ الْمُخْتَارِ مِثْلُ الْمَطَرِ
خَزَائِنُ السُّرِّ لِأَحْبَابِهِ وَالْأَهْلُ لِلْحِكْمَةِ نَسْوَعُ الْبَشَرِ
قَدْ يَضْلَعُ السَّابِقُ فِي سَيْرِهِ وَيَسْبِقُ الضُّوِيلُ الْمُتَنَظِّرُ

اللَّهُمَّ زِدْنِي حِكْمَةً وَفَهْمًا ، وَمَعْرِفَةً وَعِلْمًا ، وَأَجْعَلْنِي وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ
الْمَحْبُوبِينَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَكَ ، الْمُقْتَدِينَ بِنَبِيِّكَ ، إِنَّكَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ ، وَتَحْكُمُ
مَا تَرِيدُ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

حَتُّهُ عَلَى تَعْظِيمِ نِعْمَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَسَائِرِ النِّعَمِ
 أَي سَادَةً! عَظَّمُوا نِعْمَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَالشِّيَابِ وَالْعَافِيَةِ ، وَالْأَمَانِ
 وَالذِّينِ . . تَدُمُ عَلَيْكُمْ النِّعَمُ .

تَضَحِيحُ الْيَقِينِ بِإِشَارَاتِ الصَّالِحِينَ

صَحَّحُوا الْيَقِينَ ، بِإِشَارَاتِ الصَّالِحِينَ ؛ فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَاطِلَةٌ ،
 وَسُحِبَ الْمَدَدُ مِنْهُ إِلَيْهِمْ مُتَوَاصِلَةٌ .

دَلَّهْمُ بِهِ عَلَيْهِ ، وَقَرَّبَهُمْ بِهِ إِلَيْهِ ، وَشَرَحَ صُدُورَهُمْ لِلْإِيمَانِ ، وَجَعَلَهُمْ
 أَعْيَانَ نَوْعِ الْإِنْسَانِ . وَتَعَرَّفَ عَلَيْهِمْ فَعَرَفُوهُ ، وَأَحَبَّهُمْ وَأَحْبُوهُ :

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

حَتُّهُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ

اجْعَلُوا دَعَائِمَ تَوَكُّلِكُمْ عَلَى اللَّهِ رَصِينَةَ الْمَبَانِي ، وَأَسَالِيبَ أَدْعِيَّتِكُمْ لَلَّهِ
 خَالِصَةَ الْمَعَانِي .

وَكُونُوا مِنَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ عَلَى حَذَرٍ .

وَخُذُوا بِالْحَزْمِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، فَمَا خَابَ مَنْ شَدَّ مِثْرَ الْحَزْمِ بِاللَّهِ ، وَرَكِبَ
 مَطَايَا الْعَزْمِ إِلَى اللَّهِ .

التَّاسِي بِالْقُرْآنِ فِي الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ

مَاذَا يَقُولُ الْوَاعِظُ بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ ؟

مَاذَا يُتَرَجَّمُ الْمُوجِزُ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ ؟ .
 مَاذَا يَعِدُ الْمُنبِئُ بَعْدَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ؟ .
 مَاذَا يَدَقُّقُ الْمُحَدِّثُ بَعْدَ قَوْلِهِ - تَقَدَّسَ شَأْنُهُ - : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ،
 ﴿ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ؟ .
 مَاذَا يُوَضِّحُ الْأَمْرَ بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ؟ .

مَاذَا يَصْدَعُ النَّاهِي بَعْدَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ؟ .
 مَاذَا يَزِنُ اللَّيْبُ بَعْدَ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ؟ .

مَنْ تَمَسَّكَ بِالْقُرْآنِ وَبِسُنَّةِ النَّبِيِّ (ﷺ) وَسَلَكَ طَرِيقَ الْقَوْمِ فَقَدْ فَازَ
 هَذَا كِتَابُ اللَّهِ حُجَّةً قَائِمَةً ، وَمُعْجِزَةٌ دَائِمَةٌ .
 أَنْبَاءًا عَمَّا كَانَ وَيَكُونُ ، وَكَشَفَ لَنَا كُلَّ سِرٍّ مَكْنُونٍ .
 مَنْ عَمِلَ بِهِ . . نَجَا وَغَنِمَ ، وَمَنْ أَنْحَرَفَ عَنْهُ . . قُطِعَ وَنَدِمَ .
 وَهَذِهِ سُنَّةُ نَبِيِّهِ سَيِّدِ النَّاجِينَ ، وَوَسِيلَةُ الْمُنَاجِينَ . . مَحَجَّةٌ بَيْضَاءُ ، لَا
 ضَلَالَ بَعْدَهَا أَبَدًا .

وَهَذَا طَرِيقُ الْقَوْمِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ .

تَشْهَدُ لَهُمْ بِالْمَعِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ . . مَعِيَةُ الْاِخْتِصَاصِ ، مَعِيَةُ الْمَعُونَةِ ، مَعِيَةُ الْمَدَدِ .

فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ ، وَأَقْتَدَى بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَنَهَجَ مَنْهَجَ الْقَوْمِ ، وَكَانَ مَعَهُمْ ، وَدَخَلَ حِزْبَهُمْ . . فَازَ ، إِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ .

كُنْ مَعَ اللَّهِ وَأَطْرَحِ النَّاسَ

يَا أَخِي! دَعْ عَنْكَ طُرُقَ الْوَسْوَاسِ ، وَأَطْرَحِ الْاِسْتِثْنَاسَ بِالنَّاسِ ، وَكُنْ مَعَ اللَّهِ ، وَخُذِ الْحُكْمَ وَالْحِكْمَةَ عَنِ اللَّهِ .

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

لَا يَكُنْ حَظُّكَ لِسَانَكَ ، لَا يَكُنْ مُنْتَهَاكَ أَنْ تَكْذِبَ عَلَى نَفْسِكَ بِحَالِكَ .

بَدَّلْتَ بِالْحِنَا بِيَاضَكَ أَحْمَرَ ، وَخُدِعْتَ فِيهِ ، وَقُلْتَ : شَعْرِي أَحْمَرُ

حَتُّهُ الْمُرِيدَ عَلَى مَقَامِ الْقُرْبِ

عَرَّجَ عَلَى حَرَمِ الْقُرْبِ بِقُوَّةِ مَطِيَّةِ الصَّدْقِ ، قَامِعًا صُفُوفَ الْوَهْمِ بِعَسَاكِرِ الْهَمَّةِ ، مُلْتَفِنًا عَنْ دَوَائِرِ الْأَكْوَانِ ، مَشْتَغَلًا بِمُرَاقَبَةِ الْمُكُونِ ، مُعْتَصِمًا بِحَبْلِهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ ، حَامِلًا رَايَةَ الْاِفْتِقَارِ إِلَيْهِ ، ضَارِبًا طَبْلَ الدَّلِّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، مُتَجَرِّدًا مِنْ حِجَابِ الزُّوجَةِ ، مِنْ حِجَابِ الْوَالِدِ ، مِنْ حِجَابِ الْمَالِ ، مِنْ حِجَابِ وُجُودِكَ ، مِنْ حِجَابِ عِبَادَتِكَ ، مِنْ حِجَابِ يَقْظَتِكَ ، مِنْ حِجَابِ غَفْلَتِكَ ؛ فَإِنَّ رُؤْيَاكَ الْبِقْظَةَ . . غَفْلَةُ عُظْمَى ، وَرُؤْيَاكَ نُورَكَ . . ظُلْمَةُ دَهْمَا .

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ حِجَابٌ

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ حِجَابٌ ؛ فَافْتَحْ مِنْهُ بَابًا إِلَى الْمَقْصُودِ ، وَكُلُّ مَقْصُودٍ . .
حَائِلٌ فَتَجَرَّدْ مِنْهُ إِلَى الْمَعْبُودِ .

تَعَسَّ عَبْدُ الزَّوْجَةِ!

تَعَسَّ عَبْدُ الزَّوْجَةِ! تَعَسَّ عَبْدُ الدُّنْيَا! تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ! تَعَسَّ عَبْدُ
الدُّيْنَارِ! تَعَسَّ عَبْدُ الْكِرَامَةِ! تَعَسَّ عَبْدُ الْخَلْقِ! تَعَسَّ مَنْ سَارَ لِلْجَنَابِ الْأَعْلَى
بِالْعَزْمِ الْأَذْنَى! :

سِرٌّ لِلْجَنَابِ بِهَمَّةٍ مَرْفُوعَةٍ عَنِ عَالَمِ التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
وَأَزْفَعُ جَنَابَكَ عَنْ عِبَادَةٍ غَيْرِهِ بِحَقِيقَةِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ

بِرَحْمَةِ كَلِمَاتِهِ الْعَلِيَّةِ

﴿ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

خُذِ الْمَوْعِظَةَ مِنْ نَفْسِكَ

خُذِ الْمَوْعِظَةَ مِنْ جُوعِكَ ، مِنْ عَطَشِكَ ، مِنْ تَحَوُّلِ أَحْوَالِكَ ، كَذَلِكَ
حَالُ الْمَخْلُوقِينَ .

لَا تَعْتَرَّ بِعِلْمِكَ :

لَا تَفْرَحْ بِلِقَلْقَةِ نَحْوِ لِسَانِكَ ، وَأَنْتَ مُنْصَرِفٌ نَحْوِ الْأَغْيَارِ .

لَا تَطْمَئِنُّ لِعَائِلَةٍ فِقْهِكَ ، وَأَنْكِبَابِكَ عَلَيْهِ لَصِيدِ الدِّينَارِ ^(١) .

لَا تَنْقَطِعُ بِفَلْسَفَتِكَ ، وَأَنْتَ مُفْلِسٌ مِنْ مَحَبَّتِهِ .

لَا تَقِفُ عِنْدَ تَصَوُّفِكَ ، وَأَنْتَ مَوْصُوفٌ بِالْبُعْدِ عَنْهُ .

كُلُّ الْعُلُومِ إِذَا تَخَلَّلَهَا السُّوَى صَارَتْ لِذَاعِي الْإِنْفِصَالِ مَعَالِمًا

الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ يَكُونُ بَعْدَ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى سِوَاهُ

أَيُّ سَادَةِ! الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ . . كَطَّرِيقِ الرَّجُلِ إِلَى الْبَلَدَةِ الْأُخْرَى ، فِيهِ الصُّعُودُ وَالهُبُوطُ ، وَالِاعْتِدَالُ وَالِاعْوِجَاجُ ، وَالسَّهْلُ وَالْجَبَلُ ، وَالْأَرْضُ الْقَفْرُ الَّتِي خَلَتْ مِنَ الْمَاءِ وَالسُّكَّانِ ، وَالْأَرْضُ النَّصْرَةَ الْخَضِرَةَ الْكَثِيرَةَ الْمِيَاهِ ، وَالْأَشْجَارِ وَالسُّكَّانِ . وَالْأَرْضُ الْمَقْصُودَةُ . . وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ .

فَمَنْ أَنْقَطَعَ بِلَدَّةِ الصُّعُودِ ، أَوْ بِإِدَّةِ الْهُبُوطِ ، أَوْ بِرَاحَةِ الْاعْتِدَالِ ، أَوْ يَتَعَبُ الْاعْوِجَاجِ ، أَوْ بِبَسِيرِ السَّهْلِ ، أَوْ بِعَسِيرِ الْجَبَلِ ، أَوْ بِغُصَّةِ الْقَفْرِ وَلَوْعَةِ الْعَطَشِ ، أَوْ بِحَلَاوَةِ النَّصَارَةِ وَالْخَضِرَةِ وَالْمِيَاهِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْسِ بِالسُّكَّانِ . . بَقِيَ دُونَ الْمَقْصُودِ .

وَمَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِكُلِّ ذَلِكَ ، حَامِلًا شِدَّةَ الطَّرِيقِ ، مُعْرِضًا عَنْ لَذَائِدِهِ . . وَصَلَ إِلَى الْمَقْصُودِ .

وَكَذَلِكَ سَالِكُ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ إِنْ صَرَفَتْهُ صُعُوبَةُ الْأَحْوَالِ عَنْ مُحَوَّلِ الْأَحْوَالِ ، وَقَلْبَتْهُ سَكْرَةُ إِقْبَالِ الْخَلْقِ عَنْ مُقَلَّبِ الْقُلُوبِ . . فَقَدْ فَاتَهُ

(١) الْغَائِلَةُ : الْفَسَادُ وَالشَّرُّ ، « مُصْبِح » ص (٤٥٧) ، مَادَّة : « غَالَهُ » .

الْغَرَضُ ، وَبَقِيَ دُونَ مَقْصُودِهِ ، وَأَنْقَطَعَ بِلَا رَيْبٍ .

وَإِنْ تَرَكَ عَقَبَاتِ الطَّرِيقِ : حُلُوهَا وَمُرَّهَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ . . فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا .

مُبَايَعَتُهُ اللهُ عَلَى عَرَافَاتِ عَلَى تَرْكِ الْغَرَضِ

أَيُّ سَادَةٍ! أَنَا بَايَعْتُ اللهُ عَلَى عَرَافَاتِ عَلَى تَرْكِ الْغَرَضِ وَالنَّفْسِ وَالْمَالِ .
نَاجَى بَعْضُ الرَّجَالِ رَبَّهُ فِي الْمَنَامِ ، فَقَالَ : يَا رَبُّ! دَلَّنِي كَيْفَ أَصِلُ
إِلَيْكَ ؟ .

فَجَاءَهُ الْجَوَابُ : إِخْلَعْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ .

ذَهَبَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَطْلُبُ قَابِلَةً لِرِزْوَجَتِهِ الطَّاهِرَةَ وَهِيَ تُعَالِجُ
الطَّلُقَ ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ :

﴿ إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَأَيُّكُمْ مِنهَا يَقْبِسُ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ . . . خَبَرَآ مِنْ ذِي
هُدًى يُرْشِدُنِي كَيْفَ أَصْنَعُ لِجَلْبِ الْقَابِلَةِ .

﴿ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ بِمُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ - نَفْسَكَ وَرِزْوَجَتَكَ -

﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ عَنْ رُؤْيَا الزَّوْجَةِ وَالنَّفْسِ .

حَتُّهُ عَلَى حُضُورِ الْقَلْبِ مَعَ اللهِ فِي الْمَسْجِدِ

أَيُّ سَادَةٍ! وَادِنُكُمْ الْمَسْجِدُ ، إِذَا دَخَلْتُمُ الْمَسْجِدَ . . فَاخْلَعُوا نِعَالَ
الْغَيْرِيَّةِ ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يُنَاجِي رَبَّهُ فِي الصَّلَاةِ ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِي رَبَّهُ ، وَكَيْفَ
يَقِفُ فِي حَضْرَةِ مُحَاطَبَتِهِ .

تِلْكَ حَضْرَةُ الْإِحْسَانِ ، الَّتِي طَرَزَتْهَا أَقْلَامُ التَّقْدِيرِ بِحَدِيثٍ :
 « أُعْبِدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . (١)

عَلَامَةُ جَهْلِ الْمُسْلِمِ

عَلَامَةُ جَهْلِكَ . . اسْتِغَالُكَ بِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ .

لَا أَقُولُ لَكَ : دَعَهُمْ عَلَى حَافَةِ الْإِهْمَالِ ، وَخُذْ لَكَ صَوْمَعَةً فِي
 الْجِبَالِ .

بَلْ أَقُولُ لَكَ : تَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بِخِدْمَةِ عِيَالِكَ ، وَرَوِّحْ نَفْسَكَ ، وَطَبِّ
 بِرَبِّكَ عَنِ الْكُلِّ ؛ فَإِنَّ الرُّبُوبِيَّةَ . . تَقَدَّسَتْ وَجَلَّتْ عَنْ وَصْفِ الْمُشَارَكَةِ فِي
 كُلِّ حَالٍ .

رُدَّتْ أَعْمَالُ الشُّرْكِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقُبِلَتْ أَعْمَالُ التَّوْحِيدِ مِنَ
 الْمَوْحِدِينَ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
 أَحَدًا ﴾ .

أَطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ الْحَوَائِجَ بِمَحَبَّتِهِ لِلصَّالِحِينَ

أَيُّ سَادَةٍ! إِذَا اسْتَعَنْتُمْ بِعِبَادِ اللَّهِ وَأَوْلِيَانِهِ . . فَلَا تَشْهَدُوا الْمَعُونَةَ وَالْإِغَاثَةَ
 مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ شِرْكٌ ، وَلَكِنْ أَطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ الْحَوَائِجَ بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ .

(١) مرَّ بك تخریجه ص (١٧١) .

« رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ ، مَذْفُوعٍ فِي الْأَبْوَابِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ . . . لِأَبْرَهُ » (١) .

صَرَفَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَكْوَانِ ، وَقَلَبَ لَهُمُ الْأَعْيَانَ ، وَجَعَلَهُمْ يَقُولُونَ بِإِذْنِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَلَقَ طَيْرًا مِنَ الطِّينِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، أَحْيَا الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ .

نَبِيْنَا وَحَبِيبُنَا سَيِّدُ سَادَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ، مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - حَنَّ الْجِدْعُ إِلَيْهِ ، وَسَلَّمَتِ الْجَمَادَاتُ عَلَيْهِ ، وَجَمَعَ اللَّهُ بِهِ مَا تَفَرَّقَ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ ، وَجَرَّتْ أَسْرَارُ مُعْجَزَتِهِ فِي أَوْلِيَاءِ أُمَّتِهِ .

فَهِيَ لِلأَوْلِيَاءِ . . . كَرَامَاتٌ تَمُرُّ ، وَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . . . مُعْجِزَةٌ تَسْتَمِرُّ .

التَّوَسَّلُ بِالأَوْلِيَاءِ تَوْسَلُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى

أَيُّ وَلَدِي! أَيُّ أَخِي! إِذَا قُلْتَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ! فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : أَسْأَلُكَ بِوِلَايَةِ عَبْدِكَ الشَّيْخِ مَنْصُورٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَوْلِيَاءِ ؛ لِأَنَّ الوِلَايَةَ اخْتِصَاصٌ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فَإِذَا . . . إِيَّاكَ وَإِعْطَاءَ قُدْرَةَ الرَّاحِمِ إِلَى المَرْحُومِ ؛ فَإِنَّ الفِعْلَ والقُوَّةَ وَالحَوْلَ . . . لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَالْوَسِيلَةَ . . . رَحْمَتُهُ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا عَبْدَهُ الوَلِيَّ .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » ، كما في « مجمع الزوائد » ١٠ : ٢٦٤ .

فَتَقَرَّبَ بِرَحْمَتِهِ وَعِنَايَتِهِ الَّتِي أَخْتَصَّ بِهَا خَوَاصَّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ عِنْدَ حَاجَتِكَ ،
وَوَحَّدَهُ فِي كُلِّ فِعْلٍ ، فَهُوَ غَيْرٌ .

الْخُضُوعُ سَبَبٌ لِلْقَبُولِ

أَيُّ سَادَةٍ! مَنْ طَرَقَ الْبَابَ بِالْخُضُوعِ . . . فَتِيحَ لَهُ بِالْقَبُولِ .
وَمَنْ دَخَلَ الرَّحَابَ بِالْإِنْكَسَارِ . . . جَلَسَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ .

حُتُّهُ عَلَى مُلَازِمَةِ الشَّرْعِ

أَيُّ أَخِي! عَلَيْكَ بِمُلَازِمَةِ الشَّرْعِ بِأَمْرِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ!
وَبِحِفْظِ الْقَلْبِ مِنْ نِسْيَانِ ذِكْرِ اللَّهِ .
وَبِخِدْمَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْغُرَبَاءِ .
وَبَادِرُ دَائِمًا بِالشَّرْعَةِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ غَيْرِ كَسَلٍ وَلَا مَلَلٍ .
وَقُمْ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ .

وَقِفْ فِي بَابِ اللَّهِ .
وَعَوِّذْ نَفْسَكَ الْقِيَامَ فِي اللَّيْلِ .
وَسَلِّمْهَا مِنَ الرِّيَاءِ فِي الْعَمَلِ .
وَأَبْكِ فِي خَلَوَاتِكَ وَجَلَوَاتِكَ عَلَى ذُنُوبِكَ الْمَاضِيَةِ .

نَصِيحَتُهُ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَتَهُ

يَا وَلَدِي! إِنَّ الدُّنْيَا خَيَالٌ ، وَمَا فِيهَا زَوَالٌ .
يَا وَلَدِي! هِمَّةُ أُنْبَاءِ الدُّنْيَا . . . دُنْيَاهُمْ ، وَهِمَّةُ أُنْبَاءِ الآخِرَةِ . . . آخِرَتُهُمْ .

وَإِيَّاكَ وَالذَّعْوَى الكَاذِبَةَ ! .

وَأَتْرُكِ الخَوْضَ فِي بُحُورِ التَّوْحِيدِ .

وَأَجْعَلِ أَعْتِقَادَكَ ثُبُوتِيًّا لَا يَتَغَيَّرُ .

وَأَشْغَلْ ذِهْنَكَ عَنِ الوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِيَّةِ .

وَحَدِّزْ نَفْسَكَ مِنْ مُصَاحِبَةِ صَدِيقِ الشُّوْءِ ؛ فَإِنَّ عَاقِبَةَ مُصَاحِبَتِهِ النَّدَامَةُ ،

وَالتَّأْسُفُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى :

﴿ لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ خَلِيلًا ﴾ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَدَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ

المَشْرِقَيْنِ فَيَنسُ القَرَيْنِ ﴾ .

فَاحْفَظْ نَفْسَكَ مِنَ القَرَيْنِ الشُّوْءِ ، لِكَيْلَا تُخَاطِبَهُ مُتَأَسِّفًا عَلَيَّ مُقَارِنْتَهُ بَيْنَ

يَدَيِ اللهُ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ، وَهُنَاكَ نَدَامَتُكَ لَا تَنْفَعُ ، وَكَلَامُكَ لَا يُسْمَعُ .

مركز بحوث ودراسات إسلامية

مَا أَكَلْتَهُ تُفْنِيهِ :

يَا وَلَدِي ! مَا أَكَلْتَهُ تُفْنِيهِ ، وَمَا لَبِسْتَهُ تُبْلِيهِ ، وَمَا عَمِلْتَهُ تَلَاقِيهِ ، وَالتَّوَجُّهُ

إِلَى اللهُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ ، وَفِرَاقُ الأَحِبَّةِ وَعَدْمُ مَا تَرِي .

حَالُ الدُّنْيَا وَانْقِلَابُهَا

وَالدُّنْيَا أَوَّلُهَا ضَعْفٌ وَفُتُورٌ ، وَآخِرُهَا مَوْتُ وَقُبُورٌ ، لَوْ بَقِيَ سَاكِنُهَا . . مَا

خَرِبَتْ مَسَاكِينُهَا .

حُتُّهُ عَلَيَّ رَبُّطِ القَلْبِ بِاللهِ وَالتَّوَاضُّعِ وَالاِسْتِغْفَارِ

فَارَبُّطُ قَلْبِكَ بِاللهِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ غَيْرِ اللهِ ، وَسَلِّمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ لِلهِ .

وَأَجْعَلْ سُلُوكَكَ فِي طَرِيقِ الْفُقَرَاءِ بِالتَّوَاضِعِ ، وَأَسْتَقِمَّ بِالْخِدْمَةِ عَلَى قَدَمِ
الشَّرِيعَةِ .

حَتَّى عَلَى سَلَامَةِ النِّيَّةِ وَأَكْلِ الْحَلَالِ مِنْ كَسْبِ الْيَدِ

وَأَحْفَظْ نِيَّتَكَ مِنْ دَنَسِ الْوَسْوَاسِ .

وَأَمْسِكِ الْقَلْبَ عَنِ الْمَيْلِ إِلَى النَّاسِ .

وَكُلْ خُبْرًا يَابِسًا وَمَاءَ مَالِحًا^(١) مِنْ بَابِ اللَّهِ ، وَلَا تَأْكُلْ لَحْمًا طَرِيًّا وَعَسَلًا
مِنْ بَابِ غَيْرِ اللَّهِ .

وَتَمَسَّكَ بِسَبَبٍ لِمَعِيشَتِكَ بِطَرِيقِ الشَّرْعِ مِنْ كَسْبِ حَلَالٍ ، وَأَتْرِكِ الْحَيْلَةَ
بِالسَّبَبِ .

تَعْذِيرُهُ مِنْ كَسْرِ خَوَاطِرِ الْفُقَرَاءِ

وَإِيَّاكَ مِنْ كَسْرِ خَوَاطِرِ الْفُقَرَاءِ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ، وَأَكْرِمِ الْأَقَارِبَ ، وَأَعْفُ
عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتَوَاضِعْ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْكَ .

وَلَا تَتَرَدَّدْ لِأَبْوَابِ الْوُزَرَاءِ وَالْحُكَّامِ ، وَأَكْثِرْ مِنْ زِيَارَةِ الْفُقَرَاءِ ، وَأَكْثِرْ مِنْ
زِيَارَةِ الْقُبُورِ .

وَلَيْنَ كَلَامِكَ لِلْخَلْقِ ، وَكَلِمَتُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ ، وَحَسَنَ خُلُقِكَ ،
وَأَمْتَرَجِ النَّاسَ بِحُسْنِ الْمِزَاجِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ .

وَقُمْ بِقَضَاءِ حَوَائِجِ الْيَتَامَى وَأَكْرِمُهُمْ ، وَأَكْثِرِ التَّرَدُّدَ لِزِيَارَةِ الْمَتْرُوكِينَ مِنْ

(١) أي : وأشرب ماءً ، فافهم .

الْفُقَرَاءِ ، وَبَادِرُ لِيخْدَمَةَ الْأَرَامِلِ ، وَأَرْحَمُ تَرْحَمُ .

وَكُنْ مَعَ اللَّهِ . . تَرَّ اللَّهُ مَعَكَ ، وَأَجْعَلِ الْإِخْلَاصَ رَفِيقَكَ فِي سَائِرِ الْأَقْوَالِ
وَالْأَفْعَالِ ، وَأَجْتَهِدْ بِهِدَايَةِ الْخَلْقِ لِطَرِيقِ الْحَقِّ .

تَسْتَرُ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْكِرَامَاتِ

وَلَا تَرْغَبْ لِلْكَرَامَاتِ! وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ . . فَإِنَّ الْأَوْلِيَاءَ يَسْتَتِرُونَ مِنَ
الْكَرَامَاتِ ، كَمَا تَسْتَتِرُ الْمَرْأَةُ مِنَ الْحَيْضِ .

حَتُّهُ عَلَى مُلَازِمَةِ بَابِ اللَّهِ وَالِاسْتِمْدَادِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بِوَاسِطَةِ الشَّيْخِ
وَالْإِزْمِ بِبَابِ اللَّهِ ، وَوَجْهَ قَلْبِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَأَجْعَلِ الْاسْتِمْدَادَ مِنْ بَابِهِ
الْعَالِي بِوَاسِطَةِ شَيْخِكَ الْمُرْشِدِ .

خِدْمَةُ شَيْخِ التَّرْبِيَةِ وَآدَابُهَا

وَقُمْ بِخِدْمَةِ شَيْخِكَ بِالْإِخْلَاصِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ وَلَا أَرْبٍ ، وَأَذْهَبْ مَعَهُ
بِمَسَلِّكَ الْأَدَبِ .

وَأَحْفَظْ غَيْبَتَهُ ، وَتَقَيَّدْ بِخِدْمَتِهِ ، وَأَكْثِرِ الْخِدْمَةَ فِي مَنْزِلِهِ ، وَأَقْلِلِ الْكَلَامَ
فِي حَضْرَتِهِ .

وَأَنْظُرْ لَهُ بِنَظَرِ التَّعْظِيمِ وَالْوَقَارِ ، لَا نَظَرَ التَّصْغِيرِ وَالِاخْتِقَارِ .

حَتُّهُ عَلَى نَصِيحَةِ الْإِخْوَانِ وَجَمْعِهِ النَّاسَ عَلَى اللَّهِ

وَقُمْ بِنَصِيحَةِ الْإِخْوَانِ ، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَأَصْلِحْ بَيْنَ النَّاسِ ،
وَأَجْمَعْ النَّاسَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ عَلَى اللَّهِ بِطَرِيقَتِكَ .

حَتُّهُ لِلْمُتَصَدِّرِ وَالْمُرِيدِ عَلَى دُخُولِ النَّاسِ طَرِيقَ الْقَوْمِ
وَرَغْبِ النَّاسِ بِالصَّدَقِ لِلدُّخُولِ فِي بَابِ الْفُقَرَاءِ ، وَالسُّلُوكِ بِطَرِيقِ
الْقَوْمِ .

وَعَمَّرَ قَلْبَكَ بِالذِّكْرِ ، وَجَمَّلَ قَالِبَكَ بِالْفِكْرِ ، وَنَوَّرَ نَيْتَكَ بِالْإِخْلَاصِ .
وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ ، وَأَصْبِرُ عَلَى مَصَائِبِ اللَّهِ ، وَكُنْ رَاضِيًا مِنَ اللَّهِ ، وَقُلْ عَلَى
كُلِّ حَالٍ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .

وَأَكْثِرِ الصَّلَوَاتِ عَلَى الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
وَإِنْ تَحَرَّكَتْ نَفْسُكَ بِالشَّهْوَةِ أَوْ بِالْكِبْرِ . . فَصُمْ تَطَوُّعًا لِلَّهِ ، وَأَعْتَصِمْ
بِحَبْلِ اللَّهِ .

حَتُّهُ عَلَى اغْتِنَامِ الْوَقْتِ وَتَرْكِ مَوَاطِنِ الْفَرَجِ
وَأَجْلِسْ فِي بَيْتِكَ ، وَلَا تُكْثِرِ الْخُرُوجَ لِلْأَسْوَاقِ وَمَوَاضِعِ الْفَرَجِ ، فَمَنْ
تَرَكَ الْفَرَجَ . . نَالَ الْفَرَجَ .

وَأَكْرِمِ ضَيْفَكَ ، وَأَرْحَمْ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ ، وَزَوْجَتَكَ وَخَادِمَكَ .
وَأَذْكُرِ اللَّهَ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَأَخْلِصْ لِلَّهِ بِالسِّرِّ وَالْجَهْرِ .
وَأَعْمَلْ لِلْآخِرَةِ عَمَلًا حَسَنًا ، وَأَجْعَلْ عَمَلَكَ فِي الدُّنْيَا عَمَلًا لِلْآخِرَةِ ، وَ
﴿ قُلِ اللَّهُ ثَمَرُ ذَرَاهِمٍ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

هَذِهِ نَصِيحَتِي لَكَ ، وَلِكُلِّ مَنْ سَلَكَ بِطَرِيقَتِي ، وَإِلِخْوَانِي وَلِجَمِيعِ
الْمُسْلِمِينَ وَالْمُحِبِّينَ ، كَثَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ ، خَفِيَّهَا وَجَلِيَّهَا ، كَبِيرَهَا
وَصَغِيرَهَا ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

حَتَّى عَلَى تَنْقِيَةِ السَّرِّ

يَا وَلَدِي ! قَالَ سَيِّدُ الْأَنْامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« مَا أَسْرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً . . . إِلَّا أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا ، إِنْ خَيْرًا . . . فَخَيْرٌ ، وَإِنْ
شَرًّا . . . فَشَرٌّ » (١) .

يَا وَلَدِي ! قَالَ سَيِّدُ الْأَنْامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ » (٢) .

مَنْ مَلَكَ عَقْلاً مَا مَالَ إِلَى الدُّنْيَا

يَا وَلَدِي ! إِنْ مَلَكَتَ عَقْلاً حَقِيقِيًّا . . . مَا مِلْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَإِنْ مَالَتْ عَنْكَ ؛
لَأَنَّهَا خَائِنَةٌ كَذَّابَةٌ ، تَضْحَكُ عَلَى أَهْلِهَا .

مَنْ مَالَ عَنْهَا . . . سَلِمَ مِنْهَا ، وَمَنْ مَالَ إِلَيْهَا . . . بَلِيَ فِيهَا .

وَفِي الْحَدِيثِ : « حُبُّ الدُّنْيَا . . . رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » (٣) . فَكَمَا أَنَّ

(١) أورده السيوطي في « الجامع الصغير » (٧٨١٣) ، وعزاه إلى الطبراني في
« الكبير » عن جُنْدُبِ الْبَجَلِيِّ ، ورمز لحسنه .

وقال العلامة المُنَاوِي في « فيض القدير » ٥ : ٤٢٠ : « وكذا في « الأوسط » ،
ورمز الْمُصَنَّفُ - أي : السيوطي - لحسنه ، وليس ذا منه بصواب ، فقد قال الهيثمي
وغيره : فيه : حامدُ بْنُ أَدَمَ ، وهو كَذَّابٌ » .

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥) .

(٣) أورده السيوطي في « الجامع » (٣٦٦٢) ، وعزاه إلى البيهقي في « الشعب » =

حُبِّهَا . . رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، فَكَذَلِكَ بُغْضُهَا وَالْإِعْرَاضُ عَنْهَا . . رَأْسُ كُلِّ حَسَنَةٍ .

هِيَ كَالْحَيَّةِ ، لَيِّنٌ لِمُسْهَا ، قَاتِلٌ سُمُّهَا ، لَدَاتُهَا سَرِيعَةُ الزَّوَالِ ، وَأَيَّامُهَا تَمْضِي كَالْحَيَالِ .

فَأَشْغَلْ نَفْسَكَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَلَا تَغْفُلْ عَنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى ذَرَّةً وَاحِدَةً ، وَإِنْ طَرَقَكَ طَارِقُ الْغَفْلَةِ ذَرَّةً . . فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، وَأَرْجِعْ لِبَابِ الْمُلَاحَظَةِ .
وَأَذْكُرِ اللَّهَ ، وَأَسْتَحْيِ مِنْهُ ، وَرَاقِبْهُ فِي الْخَلَوَاتِ وَالْجَلَوَاتِ ، وَأَحْمَدُهُ وَأَشْكُرْهُ عَلَى الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَأَتْرُكِ الْأَغْيَارَ ، فَمَا فِي الدَّارِ غَيْرُهُ دَيَّارٌ .

حَتُّهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مُرِيدَهُ صُوفِيًّا

يَا وَلَدِي! كُنْ صُوفِيًّا صَافِيًّا ، وَلَا تَكُنْ صُوفِيًّا مُنَافِقًا فَتَهْلِكَ .

التَّصَوُّفُ . . الإِعْرَاضُ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ ، وَعَدَمُ شُغْلِ الْفِكْرِ بِذَاتِ اللَّهِ ،

= عن الحسن مرسلًا ، ورمز لضعفه .

وقال المُنَاوِيُّ فِي « الْفَيْضِ » ٣ : ٣٦٩ : « قَالَ الْبِيهَقِيُّ : وَلَا أَصْلَ لَهُ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال الحافظُ الزَّيْنُ الْعِرَاقِيُّ : وَمَراسيلُ الْحَسَنِ عِنْدَهُمْ . . شِبْهُ الرِّيحِ ، وَمِثْلُ بِهِ فِي « شَرْحِ الْأَلْفِيَةِ » لِلْمَوْضُوعِ مِنْ كَلَامِ الْحَكَمَاءِ ، وَقَالَ :

هُوَ مِنْ كَلَامِ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ ، كَمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا ، أَوْ مِنْ كَلَامِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَمَا رَوَاهُ الْبِيهَقِيُّ فِي « الزُّهْدِ » ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحِلْيَةِ » .

وَعَدَّ ابْنُ الْجَوْزِيِّ الْحَدِيثَ فِي الْمَوْضُوعَاتِ ، وَتَعَقَّبَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : بِأَنَّ ابْنَ الْمَدِينِيِّ أَثْنَى عَلَى مَراسيلِ الْحَسَنِ ، وَالْإِسْنَادُ إِلَيْهِ حَسَنٌ .

وَأوردته الدَّيْلَمِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ ، وَبَيَّضَ لِسَانَهُ .

وَالْتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَإِلْقَاءُ زِمَامِ الْحَالِ فِي بَابِ التَّفْوِيضِ ، وَأَنْتِظَارُ فَتْحِ بَابِ الْكَرَمِ ، وَالْاعْتِمَادُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ ، وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ .

نَجَاةُ الْعَالِمِ عَمَلُهُ بِعِلْمِهِ

يَا وَلَدِي! إِذَا تَعَلَّمْتَ عِلْمًا ، وَسَمِعْتَ نَقْلًا حَسَنًا . فَأَعْمَلْ بِهِ ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَلَا يَعْمَلُونَ .

يَا وَلَدِي! نَجَاةُ الْعَالِمِ . . عَمَلُهُ بِعِلْمِهِ ، وَهَلَاكُهُ . . تَرْكُ الْعَمَلِ .

فِي الْحَدِيثِ : « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ »^(١) .

فَلَا تُضَيِّعْ أَوْقَاتَكَ بِاللَّهْوِ وَالطَّرْبِ وَسَمَاعِ الْآلَاتِ وَكَلِمَاتِ الْمُضْحِكِينَ .

الْفَرَحُ فِي الدُّنْيَا جُنُونٌ

وَأَتْرِكِ الْفَرَحَ ؛ فَإِنَّ الْفَرَحَ فِي الدُّنْيَا . . جُنُونٌ ، وَالْحُزْنَ فِيهَا . . عَقْلٌ ، وَكَمَالَ الْخُلُودِ فِيهَا . . مُحَالٌ ، وَالْانْكِبَابَ عَلَيْهَا . . جَهْلٌ وَضَلَالٌ .

(١) رواه الطبراني في « المعجم الصغير » ١ : ١٨٢ - ١٨٣ ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١ : ١٨٥ :

« رواه الطبراني في « الصغير » ، وفيه : عثمان البرسي ، قال الفلاس : صدوقٌ ، لكنَّهُ كَثِيرُ الْغَلَطِ ، صَاحِبُ بِدْعَةٍ ، ضَعَفَهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَالدَّارَقُطْنِيُّ » .

ورواه البيهقي في « الشعب » (١٧٧٨) ، وَتَمَامُ تَخْرِيْجِهِ فِي « فَيْضِ الْقَدِيرِ » ١ : ٥١٨ ، لِلْعَلَامَةِ الْمُنَاوِي ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

مَاتُوا وَكَانَهُمْ مَا كَانُوا

إِجْعَلْ فِكْرَكَ - يَا وَلَدِي - مَشْغُولًا بِمَنْ سَلَفَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمُرْسَلِينَ ، وَالْجَبَابِرَةِ وَالسَّلَاطِينِ .

مَاتُوا وَكَانَهُمْ مَا كَانُوا! هُمُ السَّابِقُونَ ، وَنَحْنُ اللَّاحِقُونَ .

فَسِرْ عَلَيَّ مِنْهَاجِ الصَّالِحِينَ ؛ لِتُخَشَرَ فِي زُمْرَتِهِمْ ، وَلِتَكُونَ مِنْ فِرْقَتِهِمْ
﴿ أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ إِلَّا إِنْ حِزِبَ اللَّهُ هُمْ الْمَفْلِحُونَ ﴾ .

سِرُّ الْحَقِيقَةِ ظَاهِرٌ

أَيُّ سَادَةِ! سِرُّ الْحَقِيقَةِ ظَاهِرٌ ، وَعَلِمُ الْمَعْرِفَةِ مَنْصُوبٌ ، وَيَابُ الْوُصُولِ
مَفْتُوحٌ .

حَجَبِكُمْ عَن رُؤْيَةِ هَذِهِ الْمَعَانِي الشَّرِيفَةِ . . حُبُّ الدُّنْيَا ، وَنَسْيَانُ
المَوْتِ .

وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَمُوتُ . . كَيْفَ يَنْسَى المَوْتَ ! .

وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُفَارِقُ الدُّنْيَا . . كَيْفَ يَنْكَبُ عَلَيْهَا ، وَيَقْطَعُ أَيَّامَهُ
بِمَحَبَّتِهَا ! .

وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ . . كَيْفَ يَنْحَرِفُ عَنْهُ ، وَيَلْتَفِتُ
لِغَيْرِهِ ! .

وَاللَّهُ! غَفَلْتُمْ هَذِهِ خَطْبُ جَسِيمٍ! ^(١) لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ
العَظِيمِ .

(١) أي : عَظِيمٌ ، « مختار الصحاح » ص (١٠٤) ، مادة : « جسم » .

حَالُ الْبَطَّالِينَ :

بِالْكَذِبِ تُشْرَحُونَ ، وَفِي بَسَاتِينِ الْجَهْلِ تَسْرَحُونَ ، وَيَأْمُرِ الرَّزْقِ
تَحْتَالُونَ ، وَمِنَ الْعَذَابِ تَأْمَنُونَ ، وَكَأَنَّكُمْ مَا قَرَأْتُمْ :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ؟ .

أَوْ كَأَنَّكُمْ مَا سَمِعْتُمْ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ
رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ ؟ .

اِسْتِغَالَهُمْ بِمَا تَكْفَلُ بِهِ لَهُمْ ضَيِّعَ أَوْقَاتِهِمْ

تَكْفَلُ بِرِزْقِكُمْ فَبِحِيلَتِهِ اِسْتَعْلَمْتُمْ ، وَلَمْ يَتَكْفَلْ لِأَحَدٍ بِالْجَنَّةِ ، وَبِعَمَلِ
الْمُبَشِّرِينَ بِهَا مَا عَمِلْتُمْ ! .

ضَيَّعْتُمُ الْأَوْقَاتَ بِاللَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ ، وَقَطَعْتُمُ الْأَيَّامَ بِالْغَفْلَةِ وَالْعِصْيَانِ .

مُزَاحِكُمْ . . مُزَاحٌ مَنْ أَمِنَ النَّدَامَةَ ، وَلَهُوُّكُمْ . . لَهُوٌّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ بِيَوْمِ

الْقِيَامَةِ .

كَأَنَّكُمْ إِلَى الْقُبُورِ لَا تَنْظُرُونَ ، وَبِمَنْ سَكَنَهَا لَا تَعْتَبِرُونَ ؟ .

أَيْنَ آبَاؤُكُمْ ؟ أَيْنَ أَجْدَادُكُمْ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ؟ أَيْنَ مَنْ جَمَعُوا مَالًا

أَكْثَرَ مِنْكُمْ ، وَحَمَلُوا جَهْلًا أَزِيدَ مِنْ جَهْلِكُمْ ؟ أَيْلَهُ كَفَرْتُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ

اِسْتَكْبَرْتُمْ ؟ .

حَنَّهُ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ

إِخْوَانِي ! مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالْفَنَاءِ ، وَعَرَفَ اللَّهَ بِالْبَقَاءِ . . مَيَّلَ نَفْسَهُ عَنِ

الدُّنْيَا ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

خَاطَبَ حَبِيبُهُ ، مَعْدِنَ جَوْهَرِ سِرِّهِ الْمَكْنُونِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِلَيْهِمْ مَيِّتُونَ ﴾ .

/ فَأَجْمِعُوا هِمَّتَكُمْ عَلَى الْوُصُولِ لِمَرَاتِبِ السَّلَفِ ؛ لِكَيْلَا تَدْخُلُوا تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ ، الْآيَةَ .

وَأَقْرَعُوا بَابَ الْكَرِيمِ بِيَدِ الْفَقْرِ وَالْاضْطِرَّارِ ، وَأَدْخُلُوا عَلَيْهِ تَعَالَى مِنْ بَابِ الذَّلِّ وَالْانْكِسَارِ .

فَلَا بُدَّ - وَاللَّهِ - مِنْ نُقْلَتِي وَإِيَّاكُمْ لِدَارِ الْآخِرَةِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ وَضْعَتِي وَإِيَّاكُمْ فِي الْقُبُورِ الدَّائِرَةِ :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

فَالنَّاجِي . . مَنْ عَامَلَ اللَّهَ بِتَقْوَاهُ ، وَكَانَ فِي الْحَيَاةِ يَخْشَاهُ .

أَصْعَبُ الْأَشْيَاءِ مُفَارَقَةُ الْأَحْبَاءِ

إِخْوَانِي ! أَصْعَبُ الْأَشْيَاءِ . . مُفَارَقَةُ الْأَحْبَاءِ ، وَمُقَارَنَةُ الْأَعْدَاءِ ، وَأَحْلَاهَا . . مُفَارَقَةُ الْأَعْدَاءِ ، وَمُقَارَنَةُ الْأَحْبَاءِ .

فَفَارِقُوا أَعْمَالَ السُّوءِ . . لِتُقَارِنُوا أَعْمَالَكُمْ الصَّالِحَةَ فِي قُبُورِكُمْ ، فَوَاللَّهِ لَمْ يُقَارِنِ الْمَرْءَ مِنْ أَصْحَابِهِ تَحْتَ طَيِّ لِحْدِهِ . . إِلَّا عَمَلُهُ الصَّالِحُ .

حَتُّهُ عَلَى زِيَارَةِ الْمَقَابِرِ لِلرُّهْدِ بِالْذُّنْيَا

إِخْوَانِي ! إِنَّ غَرِّكُمْ لِبَاسُ الْحُكَّامِ وَالْأَعْيَانِ وَزِينَتُهُمْ وَسِلَاحُهُمْ ، وَصَاقَتْ
صُدُورَكُمْ بِهِذَا . . فَأَذْهَبُوا إِلَى الْمَقَابِرِ ، وَأَنْظُرُوا آبَاءَكُمْ وَأَبَاءَهُمْ ، تَجِدُونَ
الْكُلَّ فِي الثَّرَابِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ فِي النَّعِيمِ ، وَبِمَنْ هُوَ فِي الْعَذَابِ ،
فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ مَعَ هَؤُلَاءِ تَسَاوُونَ : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

تَحْذِيرُهُ مِنَ الْاِسْتِغَالِ بِمَا لَا يَعْنِي

يَا وَلَدِي ! إِيَّاكَ مِنَ الْاِسْتِغَالِ بِمَا لَا يَعْنِيكَ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَعْمَالِ
وَعُغْرِيهَا ! .

وَأَرْجِعْ بِنَفْسِكَ عَنْ طَرِيقِ الْغَفْلَةِ ، وَأَدْخُلْ مِنْ بَابِ الْيَقَظَةِ .

وَقِفْ بِمَيْدَانِ الدَّلِّ وَالْاِنْكِسَارِ ، وَأَخْرُجْ مِنْ مَقَامِ الْعِظَمَةِ وَالْاِسْتِكْبَارِ ؛
فَإِنَّكَ مِنْ مُضْغَةٍ اِبْتَدَأُوكَ ، وَجِيفَةٍ اَنْتَهَأُوكَ ، فَتَقِفُ بَيْنَ الْاِبْتِدَاءِ وَالْاِنْتِهَاءِ بِمَا
يَلِيْقُ لِمَقَامِهَا .

تَحْذِيرُهُ مِنَ الْحَسَدِ

وَإِيَّاكَ - يَا وَلَدِي - مِنَ الْحَسَدِ ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ . . أُمُّ الْخَطَايَا ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ
لَمَّا حَسَدَ آدَمَ . . تَكَبَّرَ عَلَيْهِ ، وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ ، وَكَذَبَ عَلَيْهِ حِينَ حَلَفَ لَهُ
وَلِحَوَاءَ : ﴿ إِنِّي لَكُمُ الْبَشِيرُ وَالنَّاصِحُ ﴾ ، فَطُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

فَالْكَذِبُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ . . سَبَبٌ لَطُرْدِ الْعَبْدِ مِنْ بَابِ الرَّبِّ .

فَلَا تَعُوذْ نَفْسَكَ عَلَى هَذِهِ الْخَصَائِلِ قَطْعًا ، وَأَقْطَعْ نَفْسَكَ إِلَى اللَّهِ ،

وَأَعْلَمَ بِأَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ ذَلِكَ . . مَا حَسَدْتَ .
وَأَعْلَمَ بِأَنَّكَ مَيِّتٌ ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ ذَلِكَ . . مَا تَكَبَّرْتَ .
وَأَعْلَمَ بِأَنَّكَ مُحَاسَبٌ ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ ذَلِكَ مَا كَذَبْتَ .

كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

وَأَغْضَضُ طَرْفَكَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى أَعْرَاضِ النَّاسِ ، فَضْلاً عَنِ الْعَمَلِ
الرَّدِيِّ ؛ فَإِنَّكَ كَمَا تَدِينُ . . تُدَانُ ، وَكَمَا أَنَّ لَكَ عَيْنًا . . فَلِغَيْرِكَ عُيُونٌ ،
وَكََمَا أَنْتَ . . يُؤَلَّى عَلَيْكَ .

وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ عَنِ مَذْمَةِ الْخَلْقِ ؛ فَإِنَّ لِلْخَلْقِ أَلْسِنًا .
نَظْرَكَ فِيكَ . . يَكْفِيكَ ، وَكَمَا تَقُولُ بِالنَّاسِ . . يَقُولُونَ فِيكَ .
وَحَاسِبْ نَفْسَكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ كَثِيرًا .
وَكَنْ طَيِّبَ نَفْسِكَ وَمُرْشِدَهَا ، وَلَا تَغْفُلْ عَنِ حِسَابِ نَفْسِكَ ، وَإِيَّاكَ مِنَ
الِاسْتِغْثَالِ بِحِظِّ النَّفْسِ ! .

مَتَى يَكُونُ الْأُنْسُ بِاللَّهِ ؟

أَيُّ سَادَةٍ! الْأُنْسُ بِاللَّهِ . . لَا يَكُونُ إِلَّا لِعَبْدٍ قَدْ كَمَلَتْ طَهَارَتُهُ ، وَصَفَا
ذِكْرُهُ ، وَأَسْتَوْحَشَ مِنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

تَعْرِيفُ التَّوْحِيدِ :

التَّوْحِيدُ . . وَجْدَانُ تَعْظِيمِ فِي الْقَلْبِ ، يَمْنَعُ عَنِ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ^(١)

(١) في المطبوع ص (١٢٢) : « يَمْنَعُ مِنْ . . » . وظاهرها التَّصْحِيفُ ، قال في =

حَقِيقَةُ الْكَشْفِ وَكَيْفِيَّتُهُ عَلَى إِنْسَانِ عَيْنِ السَّرِّ

الْكَشْفُ . . قُوَّةٌ جَادِبَةٌ بِخَاصِّيَّتِهَا ، نُورٌ عَيْنِ الْبَصِيرَةِ إِلَى فِضَاءِ الْغَيْبِ ؛
فَيَنْصِلُ نُورُهَا بِهِ اتِّصَالَ الشُّعَاعِ بِالزُّجَاجَةِ الصَّافِيَةِ حَالَ مُقَابَلَتِهَا إِلَى فَيْضِهِ ،
ثُمَّ يَنْصَرِفُ نُورُهُ مُنْعَكِسًا بِضَوْوِهِ عَلَى صَفَاءِ الْقَلْبِ ، ثُمَّ يَتَرَقَّى سَاطِعًا إِلَى
عَالَمِ الْعَقْلِ ؛ فَيَنْصِلُ بِهِ اتِّصَالًا مَعْنَوِيًّا ، لَهُ أَثَرٌ فِي اسْتِفَاضَةِ نُورِ الْعَقْلِ عَلَى
سَاحَةِ الْقَلْبِ ، فَيُشْرِقُ الْقَلْبُ عَلَى إِنْسَانِ عَيْنِ السَّرِّ ، فَيَرَى مَا خَفِيَ عَنِ
الْأَبْصَارِ مَوْضِعُهُ ، وَدَقَّ عَنِ الْأَفْهَامِ تَصَوُّرُهُ ، وَأَسْتَرَّ عَنِ الْأَغْيَارِ مَرَاهُ .

الْقَلْبُ مَهْبِطُ الْوَحْيِ إِنْ صَلَحَ

أَيُّ سَادَةٍ! إِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ . . صَارَ مَهْبِطُ الْوَحْيِ وَالْأَسْرَارِ ، وَالْأَنْوَارِ
وَالْمَلَائِكَةِ ، وَإِذَا فَسَدَ . . صَارَ مَهْبِطُ الظُّلْمِ وَالشَّيَاطِينِ .
إِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ . . أَخْبَرَ صَاحِبَهُ بِمَا وَرَاءَهُ وَأَمَامَهُ ، وَبَيَّنَّهُ عَنِ أُمُورٍ لَمْ
يَكُنْ لِيَعْلَمَهَا بِشَيْءٍ دُونَهُ .

وَإِذَا فَسَدَ . . حَدَّثَهُ بِبَاطِلَاتٍ يَغِيبُ عَنْهَا الرُّشْدُ ، وَيَسْتَفِي مَعَهَا السَّعْدُ .

نَفْسُ الْمُرِيدِ أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيَّتِ الْأَحْمَرِ (١)

وَلِذَلِكَ أَرَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ الْفَقِيرِ : أَنْ يَرَى كُلَّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ . .

= « مختار الصحاح » ص (٦٣٦) ، مادة : « منع » :

« الْمَنْعُ ضِدُّ الْإِعْطَاءِ . . وَمَنْعُهُ عَنِ كَذَا ، فَأَمْتَنَعَ مِنْهُ » . انتهى .

(١) انظر ص (٩) .

كَالْكِبْرِيَّتِ الْأَحْمَرِ ، بَلْ أَعَزَّ مِنْهُ ، وَيُودِعُ كُلَّ نَفْسٍ أَعَزَّ مَا يَصْلُحُ لَهُ ، فَلَا يَضِيعُ لَهُ نَفْسٌ .

الْأَمْرُ أَعْظَمُ مِمَّا تَنْظُنُونَ ، وَأَصْعَبُ مِمَّا تَتَوَهَّمُونَ .

مُرَاقَبَةُ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ

أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ . . مُرَاقَبَةُ الْحَقِّ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ .

عَلَامَةُ الْأَنْسِ . . رَفْعُ الْحُجُبِ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَبَيْنَ عَلَامِ الْغُيُوبِ .

الْمَحَبَّةُ . . أَغْصَانُ تُزْرَعُ فِي الْقَلْبِ ، فَتُثْمِرُ عَلَى قَدْرِ الْعُقُولِ .

مَا أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ إِلَّا شَقِيٌّ

مَا أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ . . إِلَّا شَقِيٌّ ، لَيْسَ مِنَ التَّصَوُّفِ : أَحِبُّونِي ، وَلَا

أَكْرِمُونِي ، وَلَا زُورُونِي ! .

مَا وَقَفَ عَلَى بَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا رَجُلٌ كَامِلٌ الْمَعْرِفَةِ ! .

الْأَنْسُ بِالْخَلْقِ . . أَنْقَطَاعٌ عَنِ الْحَقِّ .

مَنْ أَعْتَرَّ بَعِيرَ اللَّهِ . . ذَلَّ .

وَمَنْ حُرِمَ دَرَجَةَ الْيَقِينِ . . سَقَطَ مِنْ مَرَاتِبِ الْمُتَّقِينَ .

وَمَنْ أَنْقَطَعَ اللَّهُ . . وَصَلَهُ .

الْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ . . حَالُ أَهْلِ الْحَالِ مَعَ اللَّهِ .

لِسَانِ الْحَالِ لَا تَتَّبِعِي تَرْجَمَتُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَمَالِ

لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ . . لَوَقَرْتُ لَكُمْ سِتِّينَ بَعِيرًا
بِإِذْنِ اللَّهِ .

وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ : لَوْ تَكَلَّمْتُ الْمُتَكَلِّمُ حَتَّى أَصَمَّ الْأَسْمَاعَ ، وَكَانَ كَلَامُهُ
مَرْدُودًا عِنْدَ الظَّاهِرِ . . فَتَرَكُهُ الْكَلَامَ أَوْلَى لَهُ .

وَإِذَا سَكَتَ حَتَّى ظَنَّ جَلِيسُهُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ سَانِحَةٍ
مِنَ الْبَاطِنِ ، سَابِحَةٍ فِي الظَّاهِرِ ، مَقْبُولَةٍ عِنْدَ الشَّرْعِ . . فَتَحَّ اللَّهُ لِسْمَاعِ كَلِمَتِهِ
الْقُلُوبَ ، وَتَلَقَّاهَا السَّامِعُونَ بِالْإِذْعَانِ .

وَتَكْفِيهِ : كُلُّ حَقِيقَةٍ رَدَّتْهَا الشَّرِيعَةُ . . فَهِيَ زَنْدَقَةٌ .

دَلِيلُ صَلَاحِ الرَّجُلِ وَوُقُوفُهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ

إِذَا رَأَيْتُمْ شَخْصًا تَرَبَّعَ فِي الْهَوَاءِ . . فَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ حَتَّى تَنْظُرُوا حَالَهُ عِنْدَ
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ .

حَالُ الْقَوْمِ كُلِّهِمْ تَحْتَ أَرْبَعِ دَرَجَاتٍ

أَيُّ سَادَةٍ! كُلُّ حَالِ الْقَوْمِ مِنْ أَوْلِيهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ . . تَحْتَ أَرْبَعِ دَرَجَاتٍ ،
وَكُلُّ حَالِ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ . . كَذَلِكَ .

فَأَمَّا الدَّرَجَةُ الْأُولَى مِنْ حَالِ الْقَوْمِ . . فَدَرَجَةُ رَجُلٍ طَلَبَ الْمُرْشِدَ لِمَا رَأَى
مِنْ إِقْبَالِ الْعَامَّةِ عَلَى الطَّائِفَةِ ، فَأَحَبَّ ذَلِكَ ، وَفَرِحَ بِالرَّوَاقِ وَالْجَمْعِيَّةِ
وَالزِّيِّ .

وَالدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ طَلَبَ الْمُرْشِدَ عَنْ حُسْنِ ظَنٍّ بِالطَّائِفَةِ ،
فَأَحْبَبَهُمْ وَأَحَبَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ بِصَمِيمِ الْقَلْبِ كُلِّ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ بِالِاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ النَّظِيفِ .

وَالدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ سَلَكَ الْمَقَامَاتِ ، وَقَطَعَ الْعَقَبَاتِ ، وَبَلَغَ
مِنَ الطَّرِيقِ الْعَوَالِي مِنَ الدَّرَجَاتِ ، وَلَكِنْ وَقَفَ تَارَةً عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى :
﴿ سَرَّيْهِنَّ أَيَّتَنَّا ﴾ ، الْآيَةَ .

فَسَاعَةً يَرَى الْكُونَ بِمَشْهَدِ الْآيَةِ الَّتِي أُرِيَتْ لَهُ ، فَيَغِيبُ بِهَا عَمَّنْ أَرَاهُ
إِيَّاهَا .

وَسَاعَةً يَرَى نَفْسَهُ بِمَشْهَدِ الْآيَةِ الَّتِي أُرِيَتْ لَهُ فِي نَفْسِهِ ، فَيَغِيبُ بِهَا .
وَهَذَا الْمَشْهَدُ . . مَشْهَدُ الْإِذْلَالِ ، وَمِنْهُ تَحْصُلُ الشَّطْحَاتُ وَالتَّجَاوُزُ ،
وَإِظْهَارُ الْعُلُوِّ عَلَى الْأَعَالِي ، وَالْبُرُوزُ بِحَالِ السَّلْطَنَةِ ، وَالظُّهُورُ بِالْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ ، وَالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ .

وَالدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ سَلَكَ الطَّرِيقَ مُقْتَفِيًا آثَارَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ وَحَالٍ وَخُلُقٍ ، حَامِلًا رَايَةَ الْعَبْدِيَّةِ ، فَارِشًا
جَبِينَ الدُّلِّ فِي الْحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، يَشْهَدُ عَلَى [كُلِّ] هَامَةٍ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا
وَجْهَهُ ﴾ ، وَيَقْرَأُ مِنْ صَحِيفَةِ جَنَّةِ كُلِّ ذَرَّةٍ مَخْلُوقَةٍ : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ ﴾ .

يَقِفُ عِنْدَ حَدِّهِ ، وَيَبْسُطُ عَلَى تُرَابِ الْأَدَبِ بِسَاطَ خَدِّهِ ، وَيَمُرُّ فِي أَثْنَاءِ
سَيْرِهِ عَلَى عَقَبَاتِ الْآيَاتِ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهَا إِلَى الْمَعْبُودِ ، ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
أَحَدًا ﴾ .

فَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الْأُولَى . . مَخْجُوبٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ . . مُحِبٌّ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ . . مَشْغُولٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ . . كَامِلٌ .

وَفِي كُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْمَذْكُورَاتِ . . دَرَجَاتٌ كَثِيرَةٌ تَطْهَرُ لِلْعَارِفِ
مِنْ حَالِ الرَّجُلِ .

دَرَجَاتُ الْعُلَمَاءِ

وَأَمَّا دَرَجَاتُ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ . . فَالدَّرَجَةُ الْأُولَى : دَرَجَةُ رَجُلٍ طَلَبَ
الْعِلْمَ لِلْمُمَارَاةِ ، وَالْجِدَالِ وَالتَّفَاخُرِ وَجَمْعِ الْمَالِ ، وَكَثْرَةِ الْقَيْلِ وَالْقَالِ .
وَالدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ طَلَبَ الْعِلْمَ لَا لِلْمُنَاطَرَةِ وَلَا لِلرِّيَاسَةِ ،
وَلَكِنْ لِيُحَسَبَ فِي أَعْدَادِ الْعُلَمَاءِ ، فَيَمْدَحَ بَيْنَ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَأَهْلِ قَرْيَتِهِ ،
مُكْتَفِيًا بِهَذَا الْمِقْدَارِ ، مُتَمَسِّكًا بِالظَّاهِرِ لَا غَيْرُ .

وَالدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ حَلَّ عَوِيصَ الْمُشْكِلَاتِ ، وَكَشَفَ دَقَائِقَ
الْمَنْقُولَاتِ وَالْمَعْقُولَاتِ ، وَغَاصَ بِحُورِ الْجَدَلِ ، مُضْمِرًا الْهِمَّةَ لِنُصْرَةِ
الشَّرْعِ فِي أَحْوَالِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَخَذَتْهُ عِزَّةُ الْعِلْمِ عَلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ .

وَإِذَا أَنْصَرَ لِلشَّرْعِ وَعُورِضَ بِدَلِيلٍ . . اخْتَطَفَتْهُ نُصْرَةُ نَفْسِهِ ، فَأَفْرَطَ ،
وَأَقَامَ الْأَدِلَّةَ عَلَى خَصْمِهِ ، وَشَنَّ عَلَيْهِ ، وَرَبَّمَا كَفَرَهُ ، وَطَعَنَ فِيهِ ، وَهَجَمَ
عَلَيْهِ مُجُومَ الْحَيَوَانِ الْمُفْتَرِسِ ، مَعَ عَدَمِ رِعَايَةِ الْحَدِّ الْمَحْدُودِ شَرْعًا فِي كُلِّ
حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ خَصْمِهِ .

وَالدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ عَلَّمَهُ اللهُ ، فَنَصَبَ نَفْسَهُ لِتَنْبِيهِ الْغَافِلِ ،
وَأَرْشَادِ الْجَاهِلِ ، وَرَدِّ الشَّارِدِ ، وَنَشْرِ الْفَوَائِدِ ، وَالنَّصِيحَةِ ، وَإِنْكَارِ مَا يُنْكَرُ
شَرْعاً ، وَقَبُولِ مَا يُقْبَلُ شَرْعاً ، بِحُسْنِ التَّجَرُّدِ مِنَ الْغَرَضِ .

يَرَى أَنَّ الْحَسَنَ . . مَا حَسَنَهُ الشَّرْعُ ، وَالْقَبِيحَ . . مَا قَبَحَهُ الشَّرْعُ .

يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَمْرَ حَكِيمٍ ، غَيْرَ غَلِيظٍ وَلَا فَظٍّ ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ نَهْيَ
مُشْفِقٍ ، غَيْرَ ظَالِمٍ وَلَا عَادٍ .

فَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الْأُولَى . . سَيِّءٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ . . مَخْرُومٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ . . مَغْرُورٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ . . عَارِفٌ .

وَفِي كُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْمَذْكُورَاتِ . . كَذَلِكَ دَرَجَاتٌ تَظْهَرُ مِنْ
حَالِ الرَّجُلِ .

وَالْمَعْصُومُ . . مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ، وَقَدْ ظَهَرَ لَكُمْ .

الطَّرِيقَةُ هِيَ الشَّرِيعَةُ وَالشَّرِيعَةُ هِيَ الطَّرِيقَةُ

أَيُّ سَادَةٍ! إِنَّ نِهَايَةَ طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ . . نِهَايَةَ طَرِيقِ الْفُقَهَاءِ ، وَنِهَايَةَ طَرِيقِ
الْفُقَهَاءِ . . نِهَايَةَ طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ .

وَعَقَبَاتِ الْقَطْعِ الَّتِي أَبْثَلِي بِهَا الْفُقَهَاءَ فِي الطَّلَبِ . . هِيَ الْعَقَبَاتُ الَّتِي
أَبْثَلِي بِهَا الصُّوفِيَّةَ فِي السُّلُوكِ .

وَالطَّرِيقَةُ هِيَ الشَّرِيعَةُ ، وَالشَّرِيعَةُ هِيَ الطَّرِيقَةُ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا لَفْظِيٌّ ،
وَالْمَادَّةُ وَالْمَعْنَى وَالتَّيْبِجَةُ وَاحِدَةٌ .

وَمَا أَرَى الصُّوفِيَّ إِذَا أَنْكَرَ حَالَ الْفَقِيهِ . . إِلَّا مَمْكُورًا ، وَلَا الْفَقِيهَ إِذَا أَنْكَرَ
حَالَ الصُّوفِيَّ . . إِلَّا مَبْعُودًا ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْفَقِيهُ أَمِيرًا بِلِسَانِهِ ، لَا بِلِسَانِ
الشَّرْعِ ، وَالصُّوفِيَّ سَالِكًا بِنَفْسِهِ لَا بِسُلُوكِ الشَّرْعِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا .
وَالشَّرْطُ هُنَا . . الصُّوفِيُّ الْكَامِلُ ، وَالْفَقِيهُ الْعَارِفُ ، كَمَا ذَكَرْنَا .

كَيْفَ يَعْمَلُ الصُّوفِيُّ الْكَامِلُ إِذَا قَالَ لَهُ الْفَقِيهُ الْعَارِفُ : أَنْتَ تَقُولُ
لِتَلَامِذَتِكَ : لَا تَصَلُّوا ، لَا تَصُومُوا ، لَا تَقْفُوا عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ ؟ .

بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ! هَلْ يَقْدِرُ أَنْ يَنْطِقَ إِلَّا بِحَاشَا لِلَّهِ !؟ .

كَيْفَ يَعْمَلُ الْفَقِيهُ الْعَارِفُ إِذَا قَالَ لَهُ الصُّوفِيُّ الْكَامِلُ : أَنْتَ تَقُولُ
لِتَلَامِذَتِكَ : لَا تَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ ، لَا تُحَارِبُوا النَّفْسَ بِالْمُجَاهَدَاتِ ، لَا تَعْمَلُوا
بِصِحَّةِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ ؟ .

بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ! هَلْ يَقْدِرُ أَنْ يَنْطِقَ إِلَّا بِحَاشَا لِلَّهِ !؟ .

فَحِينَئِذٍ أَتَحَدَّثُ الْمَادَّةَ وَالْمَعْنَى وَالتَّيْبِجَةَ ، وَأَخْتَلَفْتُ اللَّفْظَةَ لِغَيْرٍ .

فَمَنْ حَجَبَهُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ حِجَابُ اللَّفْظَةِ عَنْ أَخِذِ ثَمَرَةِ الْمَادَّةِ وَالْمَعْنَى
وَالتَّيْبِجَةِ . . فَهُوَ جَاهِلٌ .

« مَا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِيًّا جَاهِلًا » (١) .

وَمَنْ حَجَبَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ حِجَابُ اللَّفْظَةِ عَنْ أَخَذِ ثَمَرَةٍ مَا ذَكَرْنَاهُ . . فَهُوَ
مَخْرُومٌ .

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ »^(١) .

قُلْ - يَا أَخِي - لِلْمَسَاكِينِ الْمَخْجُوبِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ : مَا تُرِيدُونَ أَنْ يُوجَدَ
فِي قُطْرِكُمْ هَذَا . . رَجُلٌ عَالِمٌ يَدْفَعُ شُبَّةَ الْمُلْحِدِينَ ، وَأَهْلِي الْبِدْعِ وَالزَّيْغِ /
بِالْحُجَجِ الظَّاهِرَةِ ؟ .

قُلْ - يَا أَخِي - لِلْمَسَاكِينِ الْمَخْجُوبِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ : مَا تُرِيدُونَ أَنْ يُوجَدَ
فِي بِلَادِكُمْ هَذِهِ . . رَجُلٌ يَقْهَرُ أَهْلَ الْجُحُودِ وَالضَّلَالِ وَالْعِنَادِ / بِالْكَرَامَاتِ
الْبَاهِرَةِ ؟ .

يَسْتَهِي خَاطِرُكُمْ أَنْ سِرَّ اللِّسَانِ الْمُحَمَّدِيِّ يَنْقَطِعُ ؟ .
تُحِبُّ نَفْسُكُمْ أَنْ سُلْطَانَ الْمُعْجِزَةِ النَّبَوِيَّةِ يُخَذَلُ :

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَيَإِثْمَانِهِمْ ﴾ .

تَشْهَدُ بِبَقَاءِ هَذَا اللِّسَانِ النَّبَوِيِّ ، وَهَذَا السُّلْطَانِ الْمُحَمَّدِيِّ :

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ .

تُثَبِّتُ دَوَامَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ .

تَخْفِرُونَ آبَارَ قَطْعِكُمْ بِأَيْدِيكُمْ ؟ .

يَا خَاصَّةُ! يَا عَامَّةُ! يَا رِجَالَ الطَّائِفَتَيْنِ! أَنْتُمْ طَائِفَةٌ وَاحِدَةٌ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

لَا تَدْخُلُوا تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ! .
عَلَيْكُمْ أَنْ يَنْصَحُ فَيَقِيرُكُمْ جَاهِلِكُمْ ، وَأَنْ يَقُودَ كَامِلَكُمْ نَاقِصَكُمْ ، عَمَلًا
بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ .

لَا يَقْهَرِ ، وَلَا يَغْدِرِ ، وَلَا يَظْلِمِ ، وَلَا يَكْبِرِ ، وَلَا يَبْغُو .
لَا بَأْسَ إِنْ صَدَعْتَ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَلَكِنْ قَبْلَ الصَّدْعِ : عُرْفُ الْمَعْرُوفِ . مَغْنَطِيسُ جَدَّابٍ .

حَالُ الصُّوفِيِّ الْكَامِلِ مَعَ الْخَلْقِ

أَيْشِ تُرِنْدُ يَا صُوفِي؟ يَا فِقِيهَهُ! يَا مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الشَّأْنَيْنِ؟ .

تُرِنْدُ أَنْ تَسُبَّ الْعِبَادَ وَتَبْغِيَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ تَعْلُوَ وَتَعْلُوَ؟ .

مَا هَذِهِ - وَاللَّهِ - طَرِيقَةُ نَبِيِّكَ ، وَلَا سُنَّةُ وَلِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

كَانَ إِذَا نَهَى عَنْ خُلُقٍ لَمْ يُسَمِّ فَاعِلُهُ ، وَيَقُولُ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ
كَذَا » ، أَوْ : « مَا بَالُ الرَّجُلِ يَقُولُ كَذَا »^(١) . أَوْ كَمَا قَالَ .

(١) انظر « البخاري » (٤٤٤) ، و (٧١٧) ، ومسلم (١٤٠١) ، وفي « سنن

أبي داود » (٤٧٨٨) قوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا » .

وَكَانَ يَقُولُ^(١) : كَيْفَ إِذَا قُلْتُ لَكُمْ : يَا أَهْلَ أُمَّ عَبِيدَةَ! أَنْتُمْ كَذَا وَكَذَا ،
وَشَتَمْتُمْكُمْ ، وَأَغْلَظْتُ عَلَيْكُمْ ، وَنَسَبْتُ إِلَيْكُمْ الْقَبَائِحَ ، ثُمَّ طَرُتُ فِي مَجْلِسِي
هَذَا إِلَى الْجَوِّ ، وَرَجَعْتُ ؟ .

هَلْ لَا تَبْقَى فِي قُلُوبِكُمْ مَرَارَةُ الشَّتْمِ وَالسَّبِّ وَلَوْ غَلَبَكُمْ سُلْطَانُ طَيْرَانِي ،
وَهَيْبَةُ حَالِي ؟ .

بلى - والله! - وهذا الذي انطوت عليه الطباع كلها .

وَلَعَلَّ الْفَقِيهَةَ أَبَا شُجَاعٍ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : مَا أَغْلَظَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَوَاعِظِهِ / بِشْتَمٍ وَسَبِّ ، وَلَا صَرَخٍ بِأَسْمِ أَحَدٍ ، وَلَا طَارَ ،
وَلَا تَسَلَّطَ بِقُوَّةِ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الطَّبَاعِ ! .

وَلَعَلَّ الشَّيْخَ الْفَقِيهَةَ عُمَرَ الْفَارُوقِيَّ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا
الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

وَكَيْفَ لَوْ قَالَ لَكُمْ وَاعِظُ فِي مَسْجِدِ الشُّطِّ عَلَى حَصِيرَةٍ مَقْطُوعَةٍ بِشِيَابِ
رَثَّةٍ :

أَيُّ أَحْبَابِي! أَيُّ إِخْوَانِي! شَارِبُ الْخَمْرِ مَلْعُونٌ ، الْكَذَّابُ مَلْعُونٌ ،
الظَّالِمُ مَلْعُونٌ .

وَكَانَ فِي مَجْلِسِهِ مَنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ ، هَلْ تَنْفِرُ نَفْسُهُ مِنَ الرَّجُلِ

(١) أي : السيد الكبير أحمد الرفاعي الحسيني ، رضي الله عنه ، وهي من الراوي

لهذا الكتاب .

نَفْرَةَ اسْتِعْظَامٍ ، أَوْ تَأْخُذُهُ حَالَةٌ فَفَرِهَ وَأَنْكَسَارِهِ إِلَى التَّوْبَةِ وَإِنْ لَعِبَتْ نَفْسُهُ عَلَيْهِ ؟ .

وَأَيُّ حَالٍ أَقْرَبُ ؟ بَلَى - وَاللَّهِ - حَالُ الْإِتْعَازِ بِتَجَرُّدِ الرَّجُلِ عَنِ نَفْسِهِ وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ . . أَقْرَبُ وَأَشَدُّ وَقَعَا فِي النُّفُوسِ مِنَ الْغَلْبَةِ الْقَاهِرَةِ ؛ فَإِنَّ الْغَلْبَةَ الْقَاهِرَةَ تُبْقِي بَقِيَّةً فِي النَّفْسِ كَيْفَ كَانَتْ ، وَحَالَةَ الْإِنْكِسَارِ لَا تُبْقِي وَلَا تَذُرُ .
تَدْخُلُ إِلَى دَائِرَةِ النَّفْسِ فَتُطَهِّرُهَا ، وَإِلَى دَائِرَةِ الْقَلْبِ فَتَقْرِئُ فِيهِ ، وَلَا يَبْقَى مَعَهَا ضِدُّهَا أَبَدًا .

فَإِذَا وَعَظْتُمُ النَّاسَ . . إِيَّاكُمْ وَالتَّضْرِيحَ ! وَخُذُوا بِالتَّلْوِيحِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ رَائِحَةَ السُّنَّةِ ، وَسَمَّةَ النَّفْحَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَبِهَا - وَاللَّهِ - يُصْلِحُ اللَّهُ الْقُلُوبَ ، فَلَا حَاجَةَ مَعَهَا لِأَحْوَالِكُمْ أَبَدًا .

تَحْذِيرُهُ مِنَ الْعُلُوِّ عَلَى النَّاسِ

أَيْسِ نَقُولُ لِلَّذِي يُعْجِبُهُ عُلُوُّهُ عَلَى النَّاسِ ، وَيُحِبُّ أَنْ يَقِيَادَ الرَّقَابِ إِلَيْهِ ؟ ! .

خَلَّ عَنْكَ يَا مَسْكِينُ ! انْقَادَتْ لَكَ الرَّقَابُ ، وَمَا انْقَادَتْ لَكَ الْقُلُوبُ .
مَتَى سَقَطَتْ مِنْ حَالِكَ وَوَارِدِكَ . . تَقَلَّبَتْ عَنْكَ الْقُلُوبُ ، وَدَاسَتْكَ الْأَقْدَامُ ، وَبَقِيَتْ أَسْوَدَ الْوَجْهِ .

حَوْلَ مَقْتَلِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْحُسَيْنُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - طَلَبَتْ بِشَرِيئَتِهِ حَقَّهَا الشَّرْعِيَّ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِيهِ ، فَغَارَتِ الرُّبُوبِيَّةُ ، فَرَفَعَتْ رُوحَهُ إِلَى مَقْعَدِ صِدْقٍ .

فَلَمَّا قَرَّتِ الرُّوحُ فِي مَقَامِهَا . . حَنَّتْ لِقَابِلِهَا الْمُبَارِكِ ، ﴿ فَتَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، وَتَحَكَّمَ سَيْفُ الْعَدْلِ فِي الْأَمْرَيْنِ ، فَكَانَتْ شَهَادَةُ الْإِمَامِ رِفْعَةً
لَهُ ، وَكَانَ ظَفَرُ أَعْدَاءِ اللَّهِ خِزْيَا لَهُمْ .

وَإِنَّمَا الْغَارَةُ الْإِلَهِيَّةُ فَعَلَتْ فِي بَشَرِيَّةِ الْإِمَامِ مَا فَعَلَتْ ، وَكَانَهَا تَقُولُ لَهَا :
طَلَبْتِ قَوْدَ الرَّقَابِ إِلَيَّ وَأَنَا أُرِيدُ قَوْدَكَ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَيَّ .

فَطَلَبْتُكَ إِلَيَّ . . أَضْمَحَلَّ عِنْدَ إِرَادَتِي إِيَّاكَ إِلَيَّ ، فَبَارَزْتُكَ إِرَادَتِي بِأَكْفٍ مَنْ
قَطَعْتُهُمْ عَنِّي ؛ فَأَدْنَيْتُكَ بِمَنْ قَطَعْتُهُمْ عَنِّي ، وَعَرَفْتُكَ أَنِّي أُرِيدُ فَاَفْعَلُ ، وَيُرَادُ
لِي قَبْلَ إِرَادَتِي فَلَا أَفْعَلُ .

وَلَكِ ثَوَابُ الطَّلَبِ ؛ لِأَنَّكَ طَلَبْتِ قَوْدَ الرَّقَابِ إِلَيَّ لَا إِلَيْكَ .

وَلَوْ أَنَّكَ طَلَبْتِ قَوْدَ الرَّقَابِ إِلَيْكَ . . لَمَا قُدْتُكَ إِلَيَّ ؛ فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ قَوْدَ
الرَّقَابِ إِلَيْهِ ^(١) . . بَيْنَ خَطَرِ الْقَهْرِ وَالْإِسْتِدْرَاجِ ، فَإِنَّ قَهْرَتَهُ . . قَهْرَتُهُ بِأَكْفٍ
عِبَادٍ وَصَلَّتُهُمْ بِي ^(٢) ، فَقَطَعْتُ الْآخَرَ ^(٣) بِهِمْ ^(٤) عَنِّي .

وَإِنْ فَتَكَتْ بِهِ وَبِنَفْسِهِ وَمُرَادِهِ عَسَاكِرُ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ . . فَقَدْ ضَلَّ .

أَيُّ سَادَةٍ! طَلَبُ الْقَوْدِ إِلَيَّ اللَّهُ قَبْلَ تَعَلُّقِ إِرَادَتِهِ . . جَرَأَ أَعْدَاءَ اللَّهِ عَلَى ابْنِ
وَلِيِّ اللَّهِ ، وَسَبَطَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَمَحْجُوبِ اللَّهِ ، وَأَبْنِ أَحْبَابِ اللَّهِ ، الَّذِي قَامَ

(١) كأعداء سيدنا الحسين سلام الله عليه .

(٢) كسيدنا الإمام الحسين ومن كان معه ، سلام الله عليهم أجمعين .

(٣) أي : عدو الإمام الحسين عليه السلام .

(٤) أي : بالحسين وبأهل بيته ، رضوان الله عليهم أجمعين .

مَنَارُ بَشَرِيَّتِهِ الْكَرِيمِ ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، وَطَارَ طَائِرُ رُوحِهِ النُّورَانِيَّ إِلَى حَضْرَةِ
قُدْسِ اللَّهِ .

فَكَيْفَ بِمَنْ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ !؟ بَشَرِيَّتُهُ مَقْتُولَةٌ ، وَرُوحُهُ مَبْعُودَةٌ ،
وَحَالُهُ شَاهِدٌ عَلَيْهِ .

التَّأْدِبُ مَعَ الْخَلْقِ بَابُ الْقَبُولِ عِنْدَ اللَّهِ

اللَّهُ اللَّهُ ! بِالْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ خَلْقَ اللَّهِ . . . حُجِبَتْ وَأَبْوَابٌ ، فَإِنْ أَدْرَكْتُمْ
سِرَّ الْأَدَبِ مَعَ خَلْقِ اللَّهِ . . . فَتِيحَتْ لَكُمْ أَبْوَابُ الْقَبُولِ عِنْدَ اللَّهِ .

وَإِنْ جَهَلْتُمْ أَمْرَ الْأَدَبِ مَعَ خَلْقِ اللَّهِ . . . حُجِبْتُمْ بِالْخَلْقِ عَنِ اللَّهِ .

وَمِنْ ثَمَّ أَشْتَغَلَ أَهْلُ الْعِرْفَانِ وَالذُّوقِ الْخَالِصِ بِجَبْرِ الْقُلُوبِ ، وَوَضَعُوا
الْخُدُودَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ تَحْتَ الْأَرْجُلِ ، وَطَافَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي حَضْرَاتِ الْقَبُولِ
بِهَذِهِ الْأَجْنِحَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، فَعَرَفُوا الْحَقَّ بِالْخَلْقِ ، وَنَزَّهُوا الْحَقَّ عَنِ الْخَلْقِ .

« أَنَا عِنْدَ الْمُتَكَسِّرَةِ قُلُوبُهُمْ لِأَجَلِي » (١) .

نَصْرٌ قُدْسِيٌّ يَدُلُّكُمْ كَيْفَ يُعْرَفُ الْحَقُّ بِالْخَلْقِ .

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَا
تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ » (٢) . وَذَلِكَ الْفِكْرُ الْمَأْمُورُونَ بِهِ . . . فِكْرُ الْأَدَبِ مَعَ الصَّانِعِ
فِي مَصْنُوعَاتِهِ جَلًّا وَعَلَاءً .

(١) مرّ بك تخريجُه ص (٢١٢) .

(٢) رواه أبو نُعَيْمٍ فِي « الْجَلِيَّةِ » ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَالْأَصْبَهَانِي فِي « تَرْغِيْبِهِ » ،
وَتَمَامٌ تَخْرِيجُهُ فِي « كَشْفِ الْخُفَاءِ » (١٠٠٥) .

عَالَمُ النُّبُوَّةِ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ

أَي سَادَةً! عَالَمُ النُّبُوَّةِ . . الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ ، الْجَامِعُ لِجَمِيعِ الْعَوَالِمِ .
وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . . خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ،
وَأَصْحَابُ الْهِمَمِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَالْقُلُوبِ الْعَرَشِيَّةِ ، وَالْأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّةِ ،
وَالْإِنْخِلَاعِ عَنِ الْأَغْيَارِ بِالْكُلِّيَّةِ ، قَادَاتُ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ .
بَيْنَ مَرَاتِبِهِمُ الْبِدَائِيَّةِ ، وَمَرَاتِبِ الصَّدِّيقِينَ النَّهَائِيَّةِ . . ثَلَاثٌ مِئَةٌ أَلْفٌ
وَأَمَّا مَرَاتِبُهُمْ فَسِتُّونَ أَلْفٌ مَرْتَبَةً ، لَيْسَ لِلصَّدِّيقِينَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ مِنْ سَبِيلٍ .
وَبَيْنَ مَرَاتِبِ النَّبِيِّينَ وَمَرْتَبَةِ سَيِّدِ الْمَخْلُوقِينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
مَرَاتِبٌ وَدَرَجَاتٌ .

فِي مَرْتَبَةٍ مَحْبُوبِيَّتِهِ . . مَرَاتِبٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحَدُّ ،

وَلَا تَمُرُّ آوَنَةٌ إِلَّا وَوَلَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَرْتَبَةٌ تُرْفَعُ ، وَدَرَجَةٌ
تُنصَبُ ، وَمَقَامٌ يَذْنُو مِنَ اللَّهِ .

لَا تُحِيطُ بِهِ الْأَسْرَارُ ، وَلَا تُدْرِكُ كَيْفِيَّتَهُ الْأَوْهَامُ وَالْأَفْكَارُ ، تَتِمِّمًا
لِلنُّعْمَةِ ، وَتَكْمِيلًا لِشَرَفِ الْمَحَبَّةِ .

تَفْصِيلٌ فِي مَرَاتِبِ الصَّدِّيقِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَصَلَحَاءِ الْأُمَّةِ

وَبَيْنَ مَرَاتِبِ الصَّدِّيقِينَ الْبِدَائِيَّةِ ، وَمَرَاتِبِ الْأَوْلِيَاءِ الْمُقَرَّبِينَ النَّهَائِيَّةِ . .
أَلْفٌ وَمِئَةٌ وَأَنْتَانِ وَخَمْسُونَ مَرْتَبَةً ، فُتِحَ السَّبِيلُ إِلَيْهَا لِلْأَوْلِيَاءِ ، وَلَكِنْ لَا
يَصِلُونَ إِلَى مَرَاتِبِهِمُ النَّهَائِيَّةِ أَبَدًا .

وَأَنَّ لِلْقُطَيْبَةِ الْجَامِعَةِ . ثَمَانِيَةَ وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَسِتِّ عَشْرَةَ مَرْتَبَةً ، كُلُّ مَرْتَبَةٍ . مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى عَالَمٍ مِنَ الْعَوَالِمِ .
 وَكُلُّ مَرَاتِبٍ أَوْلِيَاءِ الْعَصْرِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى مَرْتَبَةِ الْقُطْبِ الْجَامِعِ . . وَاقِفَةٌ فِي الْأَرْضِ ، وَرُتْبَتُهُ مُتَسَنِّمَةٌ أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ ^(١) .
 وَبَيْنَ مَرَاتِبِ الْأَوْلِيَاءِ الْبِدَائِيَّةِ ، وَمَرَاتِبِ صُلَحَاءِ الْأُمَّةِ ، الَّذِينَ لَمْ يُحْسَبُوا فِي أَعْدَادِ الْأَوْلِيَاءِ . . كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .
 وَبَيْنَ مَرَاتِبِ الصُّلَحَاءِ وَعَامَّةِ الْأُمَّةِ الْأَحْمَدِيَّةِ . . مَرْتَبَتَانِ : التَّوْبَةُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ .

الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنَ التُّبُوَّةِ

« الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ . . جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ » ^(٢) .
 وَتِلْكَ رُؤْيَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنَّ رِسَالَتَهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، فَكَانَ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْهَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي الرُّؤْيَا .
 فَإِذَا قَسَمْتَ السَّنِينَ الْبَاقِيَةَ إِلَى سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَجْرَاءً . . عَلِمْتَ أَنَّ رُؤْيَاهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - جُزْءٌ مِنْ نُبُوَّتِهِ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالتَّحِيَّةُ .
 وَمَنْزِلَةُ نُبُوَّتِهِ الْجَلِيلَةِ . . مَصُونَةٌ الْمَرَاتِبِ يَقْظَةٌ وَمَنَامًا .
 وَإِنَّمَا الرُّؤْيَا . . وَحْيُ الْمُؤْمِنِ بِتَنْزُلِ الْمَلَائِكَةِ .

(١) أي : تَعْلُو أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَا شَيْئًا . . فَقَدْ تَسَنَّمَهُ ، « مصباح » ص (٢٩١) ، مادة : « سَنَم » .
 (٢) رواه البخاري (٦٥٨٨) من حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ ، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة .

وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ التَّنَزُّلُ . . . إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ، وَذَكَرَهُ ، وَأَسْتَقَامَ عَلَى مَا يُرْضِيهِ ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ التَّنَزُّلُ الْمَلَكِيُّ عَلَيْهِ أَمْنًا وَبُشْرَى :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ﴾ ، الآية . . . شَاهِدُ عَدْلٍ يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ .

الْوَلِيُّ لَا يُدْرِكُ الصَّدِيقِينَ وَالصَّحَابَةَ

أَي سَادَةَ! حُدُّوا الْمَرَائِبَ ، وَإِلَّا أَخَذَتْكُمْ الْخَيْلُ تَحْتَ السَّنَابِكِ .

لَا يَصِلُ الْوَلِيُّ إِلَى غَايَةِ أَحَدٍ مِنَ الصَّدِيقِينَ وَالصَّحَابَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ نَهَضَتْهُمْ النَّظْرَةُ الطَّاهِرَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ ، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى مَحْبُوبِيَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَأَحْبَبُوهُ وَأَحَبَّهُمْ :

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

فَإِذَا أَرَدْتُمْ الْقُرْبَى مِنْ اللَّهِ ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ بِمَحَبَّتِهِ ، وَالْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أِقْتِدَاءً ﴾ .

وَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَصْحَابِي كَالْجُومِ ، بَأْيِهِمْ أَقْتَدَيْتُمْ . . . أَهْتَدَيْتُمْ » (١) .

مَاذَا يَقُولُ أَهْلُ الْحَالِ ؟

أَي أَخِي! قَالَ لَكَ أَهْلُ الْحَالِ : رَبُّكَ يُوجِدُكَ ثُمَّ يُفِينِكَ ، وَيَبْصُرُكَ ثُمَّ

(١) مرّ تخریجه ص (١٤٨) .

يَعْنِيكَ ، فَيُجْلِسُكَ بِلَا أَنْتَ عَلَى بَسَاطِ الْأَصْطِفَاءِ لِلتَّعْلِيمِ ، وَيُقِيمُكَ مَقَامَ
الْأَنْسِ لِلتَّكْلِيمِ .

ثُمَّ يُفْنِيكَ عَمَّا أَبْدَى بِظُهُورِهِ بِسَطْوَةِ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ ، ثُمَّ يُلْبِسُكَ خِلْعَةَ
التَّوْقِيرِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَيُحْظِيكَ بِمَلَاَحِظَةِ التَّكْلِيمِ ، فَيُنْبِتُ فِيكَ شَاهِدَ التَّوْفِيقِ
وَالتَّضْمِيمِ ، وَيَقُولُ لَكَ :

خُذْ مَا آتَيْتُكَ بِقُوَّةِ التَّثْبِيْتِ ، بَرِيئاً مِنْ حَوْلِكَ الْبَشَرِيِّ وَقُوَّتِكَ الْآدَمِيَّةِ ،
شَاكِراً لِلْمِنَحِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْمَوَاهِبِ الرَّبَّانِيَّةِ ، دَاخِلاً فِي كُلِّ أُمُورِكَ تَحْتَ كَنَفِ
الرَّضَى وَالتَّسْلِيمِ : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

ذَلِكَ فَضْلُهُ لَا كَسْبُكَ ، وَجُودُهُ لَا أَجْتِهَادُكَ ، وَأَخْتِصَاصُهُ لَا حِرْصُكَ ،
وَإِلَهَامُهُ لَا عِلْمُكَ ، وَأَصْطِنَاعُهُ لَا اسْتِحْقَاقُكَ .

إِنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الْأَسْرَارِ حَقِيقَةَ إِبْصَارِ

تَسَاوَتْ طِينَةُ الْبَشَرِ مِنْ حَيْثُ الصُّورِ ، وَتَبَايَنْتَ فِي التَّفْضِيلِ بِمَا بَدَأَ عَلَيْهَا
وَوَضَعَهَا ، فَكُلُّ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا . . فَبِقَدْرِ .

فَإِذَا أَنْبَلَجَ الصُّبْحُ مِنْ غَيْمِهِ وَأَسْفَرَ ، وَأَشْرَقَ النُّورُ عَلَيْهَا فَبَهَرَ ، وَأَمْتَدَّ
مِنْهَا إِلَى سِوَاهَا وَأَنْتَشَرَ سُلْطَانُهُ فَقَهَرَ ، وَتَمَكَّنَ شَاهِدُهُ وَأَسْتَقَرَّ ، وَظَهَرَتْ
الْإِشَارَاتُ وَالْمَعَانِي عَلَى الصُّورِ . . فَقَدْ نَفَخَ فِي الصُّورِ ، وَوَضَعَ الْكِتَابَ
الْمَسْطُورَ ، وَكَانَ الْغَائِبُ الْمُحْتَجِبُ . . هُوَ الظَّاهِرُ الْمَشْهُودُ الْمَنْظُورَ ،
حِينَئِذٍ يُبْعَثُ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَيُحْصَلُ مَا فِي الصُّدُورِ ، وَيَزُولُ الْغُرُورُ ،

وَيَحْظِي الْمُتَّقُونَ بِالْحُبُورِ^(١) ، وَيَنَالُ الْمَحْبُوبُ غَايَةَ الشَّرُورِ .

إِنَّ وِرَاءَ هَذِهِ الْأَسْرَارِ حَقِيقَةَ إِبْصَارٍ ، أَكْثَرَ الْخَلْقِ عَنْهَا . . عَمِيَّةٌ ، لَا يُدْرِكُهَا . . إِلَّا مَنْ ظَهَرَتْ لَهُ مِنْهُ فِيهِ ، وَتَجَلَّتْ شَوَاهِدُهَا مِنْهُ عَلَيْهِ ، وَبَرَزَتْ آثَارُهَا مِنْ كَوْنِهِ عَلَيْهِ :

﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ .

مَا تَمَّ اتِّصَالٌ وَلَا انْفِصَالٌ

وَاللَّهُ يَا هَذَا! مَا تَمَّ اتِّصَالٌ وَلَا انْفِصَالٌ ، وَلَا حُلُوفٌ وَلَا انْتِقَالٌ ، وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا زَوَالٌ ، وَلَا مَمَاسَّةٌ وَلَا مُجَاوِرَةٌ ، وَلَا مُحَادَاةٌ وَلَا مُقَابَلَةٌ ، وَلَا مُسَاوَاةٌ وَلَا مُمَائِلَةٌ ، وَلَا مُجَانَسَةٌ وَلَا مُشَاكَلَةٌ ، وَلَا تَجَسُّدٌ وَلَا تَصَوُّرٌ ، وَلَا أَنْفِعَالٌ وَلَا تَكْوُنٌ وَلَا تَغْيِيرٌ! .

كُلُّ هَذِهِ . . نَعُوتٌ حَدِيثُكَ ، وَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - مِنْ وِرَاءِ نَعُوتِكَ وَصِفَاتِكَ ، إِذْ هِيَ مُبْدَعَاتُهُ وَمُخْتَرَعَاتُهُ .

فَكَيْفَ يَظْهَرُ بِهَا ، أَوْ فِيهَا ، أَوْ عَنْهَا ، أَوْ مِنْهَا ، وَبِهِ ظَهَرَتْ لَا بِهَا ظَهَرَ!؟ .
وَهُوَ وِرَاءَ الْأَشْكَالِ وَالْمَعَانِي وَالصُّورِ ، وَمَا بَطَّنَ فِيهَا وَلَا ظَهَرَ ، وَلَا أُدْرِكَ بِالْفِكْرِ وَلَا حُصِرَ فِي النَّظْرِ!؟ .

وِنَطَاقِ النُّطْقِ . . يَضِيقُ عَنِ الْإِفْصَاحِ بِحَقِيقَةِ الْخَبْرِ ، وَإِنَّمَا سُوِّمَ فِي اللَّفْظِ لِضَرُورَةِ تَفْهِيمِ الْبَشَرِ .

فَكُلُّ صِفَةٍ لَا تَعْقِلُهَا إِلَّا بِالْمُقَايَسَةِ إِلَى صِفَاتِكَ . . فَإِنَّمَا سِيَقَتْ لِضَرُورَةِ

(١) أي : بالشُّرُورِ ، « مختار » ص (١٢٠) ، مادة : « حبر » .

تَفْهِيمِكَ بِمَعْنَى ثَبَتَ عِنْدَكَ مَوْجُودًا مُتَحَقِّقًا مِنْ حَيْثُ طَاقَتُكَ ، لَا مِنْ حَيْثُ حَقِيقَةُ مَا نُعِتَ لَكَ نَعْتُ مِنْ نُعُوتِهِ .

تَقَدَّسَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ ظَوَاهِرُ النُّعُوتِ ! .

وَهُوَ الْمُنَزَّهُ عَنِ دِلَالَةِ النُّعُوتِ الظَّاهِرِ مِنْ حَيْثُ دَلَّتْ بِنَفْسِهَا عَلَى مُقَابِلَةِ وَصْفِ الْمُحَدَّثِ ، وَلَا تَنْفَكُ فِي دِلَالَتِهَا عَنْ ذَلِكَ .

فَلَهُ مِنَ النُّعُوتِ وَالتَّعْرِيفِ . . لِإثْبَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ ، وَالَّذِي يَسْتَحِقُّهُ وَرَاءَ إِحَاطَةِ الْعِلْمِ ، وَحَضْرِ الْفَهْمِ ، وَإِحْصَاءِ الْعَقْلِ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ :
« لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » (١) .

كَلَّمْتُ - وَاللَّهِ - الْأَلْسُنُ

يَا قَوْمِ! أَيُّشٍ يُقَالُ؟ أَيُّشٍ يُنَحَدَّثُ؟ كَلَّمْتُ - وَاللَّهِ - الْأَلْسُنُ ، وَطَاشَتِ الْعُقُولُ ، وَذَهَلَتِ الْأَلْبَابُ (٢) ، وَأَخْتَرَقَتِ الْقُلُوبُ ، وَلَمْ يَبْقَ . . إِلَّا الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ . . زِدْنِي فِيكَ تَحْيِيرًا .

قَبْلَ مِنْكَ ظَاهِرَ تَوْحِيدِكَ مُهَادَنَةً لَكَ

يَا هَذَا! إِنَّمَا أَفْرَدْتَّ عَلَى ظَاهِرِ تَوْحِيدِكَ . . مُهَادَنَةً لَكَ ، وَمُسَالَمَةً لِدُخُولِكَ تَحْتَ قَهْرِ الدَّعْوَةِ .

(١) رواه أحمد ٦ : ٢٠١ ، ومسلم (٤٨٦) ، وأبو داود (٨٧٩) ، وابن ماجه

(٣٨٤١) .

(٢) أي : العقول ، جمع لُبٍّ ، وهو العقل ، « مصباح » ص (٥٤٧) ، مادة :

« لَبَّ » .

وَبِالْمُسَالَمَةِ وَالتَّسْلِيمِ دُونَ المُنَازَعَةِ . . قَنِعَ مِنْكَ بِالطَّاعَةِ وَالدَّعْوَةِ ، لِئَلَّا تَرْجِعَ عَلَيَّ عَقِبَكَ ، وَتَرْتَدَّ بَعْدَ إِسْلَامِكَ .

وَلِهَذَا . . سُمِّيَتْ مُسْلِمًا ، وَلَمْ يَطْلُبْ مِنْكَ حَقِيقَةَ هَذَا ، إِذْ لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ ، وَاللَّهُ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وَلَا يُحْمَلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا .

فَمَا أُفْرِدَتْ بِهِ مِنْ شَهَادَةِ التَّوْحِيدِ . . هُوَ حَظُّكَ مِنَ الإِسْلَامِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ عَنْ جُمْلَةِ الْجَاهِلِينَ وَإِنْ لَمْ تَثْبُتْ بِهِ فِي زُمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَضَلًّا أَنْ تَصِلَ بِهِ رُتْبَةَ العَارِفِينَ ، أَوْ تَرْقَى إِلَى ذِرْوَةِ المُكَاشِفِينَ :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ .

الَّذِي عِنْدَكَ مِنَ العِلْمِ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ الأنبياءِ وَالصِّدِّيقِينَ . . كَالَّذِي عِنْدَ الأنبياءِ مِنَ العِلْمِ بِالإِضَافَةِ إِلَى عِلْمِ مُبْدِيهِ عَلَيْهِمُ ، بَلْ رَبُّمَا كَانَ عِلْمُكَ جُزْءًا مِنْ عِلْمِهِمْ ، وَعِلْمُهُمْ لَيْسَ جُزْءًا مِنْ عِلْمِهِ .

وَلَا تَظُنَّ أَنَّ أَحَدًا حَصَلَ مِنَ التَّوْحِيدِ عَلَيَّ حَقِيقَةَ مُدْرَكَةٍ .

إِنَّمَا ذَلِكَ . . تَوْحِيدُ ذَلِكَ الشَّخْصِ ، أَغْنِي : حَظَّهُ مِنَ الكَشْفِ .

مُتَنَاهٍ . . لَا يَخْصُرُ مَا لَا يَتَنَاهَى ، مُحَدَّثٌ . . لَا يُدْرِكُ قَدِيمًا ، إِنَّمَا هِيَ

مَوَاهِبُ الكَشْفِ .

لَوْ ثَبَّتُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَيَّ حَقِيقَةَ . . لَبَلَّغُوا إِلَى غَايَةِ التَّرْقِيِّ مِنَ المَطَالِبِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ الغَايَةِ تَرَقُّ ، وَلَا بَعْدَ كَمَالِ المَعْرِفَةِ زِيَادَةٌ .

وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ . . لَمَا قِيلَ لِأَكْمَلِهِمْ عِلْمًا ، وَأَعْظَمِهِمْ كَشْفًا ، وَأَرْقَاهُمْ مَنزِلَةً ، وَأَعْلَاهُمْ حَالًا : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

رُويَ عَنْهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « كُلَّ يَوْمٍ لَا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا يُقَرِّبُنِي إِلَى خَالِقِي . . . فَلَا بَارَكَ اللهُ فِي صُحْبَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ » (١) .

إِذَا كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ الْمُحْتَسِمِ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ ، وَهُوَ فِي دَرَجِ التَّرَقِّي ، لَا فِي مَنَرِ الوُصُولِ الغَائِي .

وَلَوْ كَانَ ثَمَّ غَايَةٌ . . . لَكَانَتْ نِهَآيَةً ، وَلَوْ تَنَاهَى . . . لَانْحَصَرَ ، وَلَوْ أَنْحَصَرَ . . . لَتَجَزَأَ ، وَلَوْ تَجَزَأَ . . . لَفَنِيَ ، وَلَوْ حَصَرَ سِوَاهُ . . . لَكَانَ أَعَمَّ مِنْهُ .

وَالْحَدِثُ . . . لَا يَكُونُ أَعَمَّ مِنَ الْقِدَمِ .

وَكَوْلُ هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ . . . مُسَامِحَةٌ لَفِظِيَّةٌ ، وَتَقْدِيرَاتٌ كَلَامِيَّةٌ ، وَسُوءُ عَادَاتٍ جَدَلِيَّةٍ ، وَإِلَّا :

فَمَنْ عِنْدَهُ خَبْرٌ مِنْ ذَوْقِ الْحَقَائِقِ . . . يَسْتَغْنِي عَنْ هَذِهِ الْمُسَامِحَاتِ اللَّفْظِيَّةِ ، بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الشَّوَاهِدِ الْبُرْهَانِيَّةِ ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ .

وَيَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ حَالِهِ : أَنَّ بِضَاعَتَهُ الْعَجْزُ ، وَغَايَتُهُ الْقُصُورُ ، وَمَنْ يَدُهُ فِي الْمَاءِ إِلَى زَنْدِهِ ، يَعْرِفُ حَرَّ الْمَاءِ مِنْ بَرْدِهِ .

فَكُلُّ مَا تَرَجَمَ عَنْهُ لِسَانٌ ، أَوْ كَشَفَ عَنْهُ بَيَانٌ ، أَوْ أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ جَنَانٌ (٢) . . . فَنِهَآيَتُهُ مَحْصُورَةٌ ، وَغَايَتُهُ مُدْرَكَةٌ ، حَتَّى تَصِلَ الْأُمُورُ بِأَرْبَابِهَا إِلَى الْعَجْزِ وَالتَّقْصِيرِ ، فَيَقُولُ سَيِّدُهُمْ :

(١) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١ : ٣٥١ : « رواه الطبراني في

« الأوسط » ، وفيه : الْحَكَمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : كَذَّابٌ .

(٢) أي : قلب ، « مختار » ص (١١٤) ، مادة : « جنن » .

« لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ » (١) .

وَيَقُولُ الْآخَرُ (٢) : « الْعَجْزُ عَنِ دَرْكِ الْإِدْرَاكِ . . . إِدْرَاكِ » .

وَهَذَا إِشْعَارٌ بَعْدَ حَاصِلِ مُتَحَقِّقٍ مِنْ جِنْسِ الشَّاهِدِ ، مَعَ إِبْتَاتِ وُجُودِهِ
الْمُنَزَّهِ عَمَّا يَقُومُ فِي الشَّاهِدِ ؛ لِأَنَّ فِيهِ كَافَ الْخِطَابِ لِلتَّخَاطُبِ .

أَيُّ : عَرَفْتُ وُجُودَكَ ، وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى إِحْصَاءِ صِفَاتِكَ ، وَلَا إِدْرَاكِ
ذَاتِكَ .

فَمِنْ ضَرُورَةٍ وُجُودِي . . . وُجُودَكَ ؛ لِأَنِّي مَعْلُومُكَ ، وَأَنْتَ الْقَائِمُ بِي ،
فَلَزِمَنِي الْاعْتِرَافُ بِكَ مِنْ حَيْثُ لَا يُمَكِّنُنِي جَعْدُهُ .

فَنَاقِصُنِي تَجَلِّيكَ فِيَّ بِي مِنْ حَيْثُ ضَرُورَةُ فَقْرِي إِلَيْكَ وَفَاقَتِي ، وَشَاهِدُ
نَقْصِي ، وَلِزُومُ قُصُورِي وَعَجْزِي .

فَطَلَبْتُ صِفَاتِ كَمَالِكَ الَّتِي لَا تَتَنَاهَى بِصِفَاتِ نَقْصِي الْمُتَنَاهِيَةِ ، فَلَمْ أَطِقْ
لَكَ قَدْرًا .

وَنَادَيْتَنِي سُبْحَاتُ جَلَالِكَ مِنْ وَّرَاءِ سُرَادِقَاتِ عَظَمَتِكَ : أَيُّهَا الْمُخَدَّثُ
الْمُتَنَاهِي ، إِرْجِعْ إِلَى مَحَلِّ حَدِيثِكَ قَسْرًا ، فَلَقَدْ حَاوَلْتُ أَمْرًا إِمْرًا (٣) .

(١) مرَّ تخريبُ ص (٢٩٤) .

(٢) هو سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ، كما في « الْمُفْهِم » ٢ : ٩٠ ،
للإمام أبي العباس ، أحمد بن عمر القرطبي ، رحمه الله عليه .

(٣) أي : عجباً ، قاله القنبي في « تفسير القرآن » ص (٢٦٩) .

وقيل : مُنْكَرًا ، قاله مجاهد في « تفسيره » ١ : ٣٧٩ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ . [الكهف : ٧١] .

فَعَجَبٌ لِي كَيْفَ أَطْلُبُكَ وَأَنْتَ مَعِي ؟ وَكَيْفَ لَا أَشْهَدُكَ وَأَنْتَ
عِنْدِي !؟ .

أَعْجَبُ مِنْهُ كَيْفَ أَعْرِفُكَ وَلَسْتَ بِمُجَانِسٍ لِمَعْرُوفٍ ، وَلَا مُشَاكِلٍ
لِمَأْلُوفٍ ، وَلَا مُتَنَاهٍ فَتُخَصَّرُ ، وَلَا بِجَسَدٍ فَتُصَوَّرُ ، وَلَا بِبِذِي صُورَةٍ
فَتُبَصَّرُ ! .

فَمِنْ أَيْنَ تُعْرِفُ أَوْ تُقَدِّرُ ؟ فَلَسْتَ بِغَائِبٍ فَتُطَلَّبُ ، وَلَا بِحَاضِرٍ فَتُذْرَكُ ،
وَلَا ظَاهِرٍ فَتُنَالُ ، وَلَا بَاطِنٍ فَتُنَكَّرُ وَتُحَالُ ، وَلَا مَقْيَسٍ فَتُصَوَّرُ بِمِثَالٍ :

فَيَا غَائِبًا حَاضِرًا فِي الْفُؤَادِ فَدَيْتُكَ مِنْ غَائِبٍ حَاضِرٍ
أَنْتَ قَرِيبٌ مِنْ حَيْثُ ضَرُورَةٌ وَجُودِ الْأَشْيَاءِ بِكَ ، فَلَا أَقْرَبَ مِنْكَ .

بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا ، فَلَا أَبْعَدَ مِنْكَ :

فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : هِيَ الشَّمْسُ ضَوْءُهَا قَرِيبٌ ، وَلَكِنْ فِي تَنَاوُلِهَا بُعْدٌ

يَا عَجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ ! مِمَّنْ يُنَكِّرُ مَا أَقُولُ ، وَبَاعُ هِمَّتِهِ إِلَى تَنَاوُلِ الْفَهْمِ .
لَا يَطُولُ^(١) ، وَشَمْسُ عَقْلِهِ أَبَدًا فِي أَقْوَالِ^(٢) ! .

أَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الشَّاهِدِ ظَاهِرٌ بَاطِنٌ ، وَبَاطِنٌ ظَاهِرٌ !؟ .

أَلَيْسَ نُورُ الشَّمْسِ إِذَا أُنْتَشَرَ عَلَى مَبْسُوطٍ مِنَ الْأَرْضِ . . ظَهَرَتْ بِهِ الْأَلْوَانُ
وَالْأَشْكَالُ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ مَا كَانَ مَخْفِيًّا ، وَبَرَزَ بِهِ مَا كَانَ مُحْتَجِبًا !؟ .

(١) الْبَاعُ : هُوَ مَسَافَةٌ مَا بَيْنَ الْكَفَيْنِ إِذَا بَسَطْتَهُمَا يَمِينًا وَشِمَالًا ، « مَصْبَاح » ص
(٦٦) ، مَادَّة : « بَوَع » .

(٢) أَي : غِيَاب ، « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص (١٩) ، مَادَّة : « أَفْل » .

فَإِذَا بَرَزَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ وَأَشْكَالُهَا بِهِ . . خَفِيَ عَلَى النَّاطِرِينَ وَجُودُهُ لِشِدَّةِ
ظُهُورِهِ .

إِنَّمَا خَفِيَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ وَأَخْتَجَبَ لِإِشْرَاقِ نُورِهِ

وَلَقَدْ ظَنَّ قَوْمٌ مِمَّنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ : أَنْ لَيْسَ ثَمَّ مَعَ
الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ شَيْءٌ زَائِدٌ عَلَيْهَا ، وَأَنَّهَا ظَاهِرَةٌ بِذَوَاتِهَا ، حَتَّى هَجَمَ
عَلَيْهِمُ الظُّلُّ بِأَمْتِدَادِهِ ، وَأَزْحَى الظُّلَامُ سُدُولَهُ ، وَجَرَ عَلَيْهِمْ كَلَاكِلَهُ^(١) ،
فَأَذْرَكُوا تَفْرِقَةَ ضَرُورِيَّةِ بَيْنِ النُّورِ وَالضُّوءِ^(٢) ، وَعَلِمُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ
وَاضِحَةً بِذَوَاتِهَا . . لَمَا جَازَ أَنْ تَخْفَى وَتُنْشَرَّ ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ الْمَوْضِحَ لَهَا
غَيْرُهَا ، وَإِنَّمَا خَفِيَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وَأَخْتَجَبَ لِإِشْرَاقِ نُورِهِ ، فَقَدْ بَطَّنَ فِي
ظُهُورِهِ لِشِدَّةِ الظُّهُورِ ، وَبَعَدَ فِي قُرْبِهِ لِإِفْرَاطِ القُرْبِ ، وَظَهَرَ بِذَاتِهِ فِي
بُطُونِهِ .

وَكَيفَ لَا يَكُونُ ظَاهِرًا ، وَمَا ظَهَرَتِ الْأَلْوَانُ وَالْأَشْكَالُ إِلَّا بِهِ ، وَقَرُبَ فِي
بُعْدِهِ عَنِ الْإِذْرَاقِ !؟ .

وَكَيفَ لَا يَكُونُ قَرِيبًا وَإِذْرَاقُهُ قَبْلَ إِذْرَاقِ مَا أُذْرِكُ بِهِ !؟ .

وَاللَّيْبُ . . يَعْلَمُ أَنَّ نُورَ الشَّمْسِ هُوَ الْوَاضِحُ فِي نَفْسِهِ ، الْمَوْضِحُ
لِغَيْرِهِ .

(١) أَي : جَمَاعَتُهُ ، « لِسَان » ١٣ : ١٠٤ ، مَادَّة : « كَلَل » .

(٢) النُّورُ وَالضُّوءُ : هُمَا الضُّيَاءُ ، « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص (٦٨٤) ، مَادَّة :

« نُور » ، ص (٣٨٥) ، مَادَّة : « ضَوْأ » .

وَيَعْلَمُ أَنَّ الْأَلْوَانَ وَالْأَشْكَالَ بِتَجَلِّيهِ ظَهَرَتْ ، وَبِإِشْرَاقِهِ أَشْرَقَتْ ، وَهِيَ مُظْلِمَةٌ فِي ذَاتِهَا ، إِذِ الْأَجْسَامُ الصُّلْبَةُ الْكَثِيفَةُ . . مُظْلِمَةٌ بِطَبْعِهَا وَجِبِلَّتِهَا ، وَالنُّورُ مُسْتَعَارٌ لَهَا مِنْ غَيْرِهَا .

وَهَذَا رُبَّمَا هَزَكَ لِفَهْمِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ رَسَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ » ^(١)

فَالظُّهُورُ الْحَقِيقِيُّ . . الْمُظْهِرُ لَا الْمُظْهَرُ .

فَأَوَّلُ مَا ثَبَتَ فِيهِمْ . . الْمَعَارِفُ إِلَى الْمُظْهِرِ لَا إِلَى الْمُظْهَرِ .

فَرُبَّمَا غَابَتْ رُؤْيَةُ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ عَنْهُ ، وَقَالَ : لَا مَوْجُودٌ إِلَّا النُّورُ ،

بِخِلَافِ أَعْتِقَادِ الْجَاهِلِ .

وَهَذَا رُبَّمَا هَزَكَ لِفَهْمِ قَوْلِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ،

عِنْدَ رُؤْيَةِ الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾

رَبِّي ؟ .

وَرَدَّ وَعَبَّرَ عَنِ الْمَفْطُورِ إِلَى الَّذِي فَطَرَ ، إِلَى قَوْلِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ :

مَا رَأَيْتُ شَيْئًا . . حَتَّى رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ .

وَالِإِلى سِرِّ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

وَالْبَلِيدُ . . بِالضُّدِّ مِنْ ذَلِكَ ، لَا يَرَى غَيْرَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ ، وَيَقِفُ

مَعَهَا ، وَلَا يَشْهَدُ مُظْهِرَهَا .

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٤) ، وقال : « هذا حديث حسن » .

وَهَذَا مَنْكُوسٌ عَلَى رَأْسِهِ ، مُكَبٌّ عَلَى وَجْهِهِ ، مَرْدُودٌ عَلَى عَقْبِهِ ؛ لِأَنَّهُ
يَنْظُرُ بِالضَّدِّ مِنْ نَظَرِ الْأَوَّلِ الَّذِي شَاهَدَ عَيْنَ الْحَقِيقَةِ .

وَرُبَّمَا هَزَكَ هَذَا لِفَهْمِ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

فَإِنْ تَرَقَّى الْعَامِيُّ الْجَاهِلُ ، وَالغَمْرُ الْغَافِلُ^(١) ، عَنْ رُتْبَةِ الْوُقُوفِ مَعَ
الصُّورِ وَالْأَشْكَالِ ، إِلَى النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، وَأَدْرَكَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ مَا يَظْهَرُ
بِذَاتِهِ ، وَبَيْنَ مَا يَظْهَرُ بِغَيْرِهِ عِنْدَ حُلُولِ الْحِجَابِ ، وَظُهُورِ ضِدِّ الضِّيَاءِ مِنَ
الظَّلَامِ ، وَتَجَلَّى لَهُ وَصَرَفَ الصُّورَ وَالْأَجْسَامَ ، فَقَامَ عِنْدَهُ الْبُرْهَانُ
الْحَقِيقِيُّ ، وَالذَّلِيلُ الْقَطْعِيُّ ، عَلَى كَوْنِهَا مُظْلِمَةً لَا تُرَى ذَاتَهَا وَلَا غَيْرُهَا ،
وَأَنَّهُ لَوْلَا وُجُودُ شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهَا هُوَ الْمُسَمَّى نُورًا . مَا ظَهَرَتْ لِلْعِيَانِ ،
وَلَا تَمَيَّزَتْ مِنْهَا الصُّورُ وَالْأَلْوَانُ ، وَالْمَقَادِيرُ وَالْأَشْكَالُ ، وَذَلِكَ النُّورُ غَيْرُ
حَالٍ فِيهَا ، وَلَا نَاءٍ عَنْهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ مُشْرِقٌ عَلَيْهَا ، مُظْهِرٌ لَهَا .

كَانَ حِينَئِذٍ مِنْ أَرْبَابِ الْإِرَادَةِ الْمَحْضُورِ نَظَرُهُمْ فِي الْآفَاقِ الْمَحْدُودَةِ ،
وَالْأَقْطَارِ الْمَحْضُورَةِ .

إِذْ لَمْ يَعْرِفِ النُّورَ لِنَفْسِهِ دُونَ نِسْبَتِهِ ، وَرُبَّمَا هَزَكَ هَذَا لِفَهْمِ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ سَتْرِيهِمْ أَتَيْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ، فَهَوْلَاءُ

فِي ثَانِي رُتْبَةٍ .

(١) الغمْرُ : الذي لم يُجْرَبِ الْأُمُورَ ، « مختار الصحاح » ص (٤٨٠) ، مادة :

فَمَنْ شَهِدَ الْأَشْيَاءَ بِالنُّورِ ، لَا النُّورَ بِالْأَشْيَاءِ . . . فَهَذَا يَتَرَفَّى مِنْ أَسْفَلَ إِلَى فَوْقٍ ، وَذَلِكَ يَنْزِلُ مِنْ فَوْقٍ إِلَى أَسْفَلَ .

فَذَلِكَ إِلَى النُّورِ يَنْظُرُ ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى مَا بِالنُّورِ ظَهَرَ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالصُّورِ ، وَأَسْتَحَقَّ أَنْ يَتَقَدَّمَ فِي التَّعْلِيمِ وَالسَّرِّ عَلَى أَرْبَابِ الْاِسْتِدْلَالِ ، لِيُوضَّحَ لَهُمْ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ وَأَسْتَرَ .

وَلِهَذَا سُمِّيَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ ذِكْرًا ﴾ رَسُولًا يَنْلِؤُا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ ﴿

يُنَبِّهُهُمْ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ أَنَّهُ مِنْ حَيْثُ ذَاتُهُ . . . عَدَمٌ ، كَالْأَجْسَامِ الَّتِي هِيَ بِذَوَاتِهَا ظَلَمٌ ، وَإِنَّمَا بِإِشْرَاقِ النُّورِ ظَهَرَتْ .

كَذَلِكَ عَالَمُ الْحَدِيثِ بِأَسْرِهِ ظُلْمَةٌ ، خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، وَتَجَلَّى وُجُودُ الْمُحَدِّثِ لَهُ فِيهِ بِإِيجَادِهِ لَهُ نُورًا ، فَلَوْلَا سَرِيَانُ نُورِ وُجُودِهِ فِي الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ . . . لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ ظَاهِرٌ .

وَذَلِكَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ نُورِهِ . . . بِمَنْزِلَةِ الرَّشِّ ، لَا بِمَنْزِلَةِ الْقَبْضِ وَالْاِسْتِتَارِ .

ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ : فَمَنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ . . . اُنْتَعَشَ ، وَمَنْ بَقِيَ فِي ظُلْمَاتِ طَبْعِهِ ، وَظِلُّ قَالِبِ جِسْمِهِ . . . كَانَ كَالْمُنْطَلِقِ :

﴿ إِنْ ظَلَّ ذِي نَلَكٍ شُعْبًا لَا ظِلِّيلٍ وَلَا يَقِي مِنَ اللَّهِيبِ ﴾ .

وَشُعْبُ الْجِسْمِ . . . ثَلَاثَةٌ : الطُّوْلُ ، وَالْعَرْضُ ، وَالْعُمُقُ .

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الرَّدِّ إِلَيْهِ ، وَالسَّجْنِ فِيهِ ، إِذْ هُوَ دُنْيَا الْإِنْسَانِ ؛ فَإِنَّ مَا ظَهَرَ

لِلْعِيَانِ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَالْمُلْكِ . . فِيهِ الدُّنْيَا ، وَمَا بَطْنَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ
وَالْمَلَكُوتِ . . فِيهِ الآخِرَةُ الَّتِي يُرَدُّ الْعَبْدُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَوْتِهِ .

وَأَظْهَرَ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ . . جِسْمُهُ ، إِذْ هُوَ أَقْرَبُ أَجْسَامِ الْعَالَمِ إِلَيْهِ ،
وَالْأَقْرَبُ . . هُوَ الْأَذُنَى .

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الدُّنْيَا دُنْيَا . . لِذُنُوبِهَا مِنَ الْعَبْدِ .

فَأَقْرَبُ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ إِلَيْهِ . . دُنْيَاهُ ، وَأَبْعَدُ أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ . . أَخْرَاهُ ؛ لِأَنَّهَا
قُصُوبِي ، فَتَأَخَّرَتْ عَنْ أَنْ تَنْكَشِفَ لَهُ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ ، حِينَ يُقَالُ لَهُ :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، وَيَقُولُ هُوَ :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ،

فَيُقَالُ لَهُ :

﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ .

فَظَاهِرُ أَحْوَالِكَ . . مُشَاهِدَةُ دُنْيَاكَ الْحَقِيقِيَّةِ ، وَأَظْهَرُهَا عِنْدَكَ . . مَا تَعَلَّقَ
بِجَوَارِحِكَ مِنْ لَذَائِكَ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَشَهَوَاتِكَ الْحِسِّيَّةِ .

فَهِيَ تَحْبِسُكَ عَنِ السَّفَرِ إِلَى حَضْرَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ ، وَتَعْقِلُكَ عَنِ وَطْءِ الْحَضْرَةِ
الْقُدْسِيَّةِ إِذْ : « الدُّنْيَا . . سِجْنُ الْمُؤْمِنِ ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » ^(١) .

الَّذِي آمَنَ وَتَحَقَّقَ . . إِنَّمَا يُؤْوِلُ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَالْمَقَامِ الْكَرِيمِ :
أَشْرَفُ مِمَّا يُفَارِقُهُ .

(١) رواه أحمد ٢ : ٣٢٣ ، ومسلم (٢٩٥٦) ، والترمذي (٢٣٢٤) ، وابن

وَجَنَّةُ الْكَافِرِ الَّذِي كُفِرَ عَقْلُهُ^(١) ، أَي : غُطِّي وَحُجِبَ عَن مَّلَا حَظَّةِ جَمَالِ
قُدْسِ اللَّاهُوتِ الْأَكْبَرِ^(٢) .

وَلَا يُمَكِّنُ الْإِنْسَانُ الْإِطْلَاعُ الْمُجَرَّدُ عَنِ الشَّوَائِبِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَجْسَامِ
الْمُظْلَمَةِ عِلَاقَةٌ الْبَتَّةُ .

وَأَيُّ لَذَّةٍ لِمَنْ هُوَ فِي السَّجْنِ أَوْ تَصَرُّفٍ أَوْ كَشْفٍ ؟ .

وَالْقُلُوبُ الْمَوْقُوفَةُ مَعَ مَلَا حَظَّةِ الْأَجْسَامِ . . عَابِدَةُ الْأَصْنَامِ ، وَالْجِسْمُ
دُنْيَا ، وَالْإِيمَانُ . . صِفَةُ الْقَلْبِ ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ^(٣) .

فَالدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ عَلَى الْحَقِيقَةِ .

فَالْجِسْمُ سِجْنُ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ الْمُؤْمِنُ ، فَمَتَّى تَخَلَّصَ مِنْ عِلَاقَتِهِ ،
وَنَجَا مِنْ آفَاتِهِ وَبَوَائِقِهِ . . سَلِمَ مِنْ كُلِّ الْآفَاتِ ، وَنَجَا مِنْ جَمِيعِ الْمَخَافَاتِ ،
وَخَرَجَ إِلَى النُّورِ مِنَ الظُّلُمَاتِ ، ﴿ إِيَّا مَنْ أَمَّنَ اللهُ يُقَلِّبْ سَلِيمًا ﴾ :

وَمَا كُلُّ جِسْمٍ غَيْرُ سِجْنٍ لِأَهْلِهِ وَأَخْرُ آفَاتِ النُّفُوسِ وَفَاتُهَا
وَلَوْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ مَا الْمَوْتُ أُيَقِنَتْ نَفُوسُ الْوَرَى أَنَّ الْمَمَاتَ حَيَاتُهَا

(١) الْكَفْرُ : هُوَ التَّغْطِيَةُ ، « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص (٥٧٣) ، مَادَةٌ : « كَفْرٌ » .

(٢) اللَّاهُوتُ : أَي : الْإِلَهِيَّةُ ، وَعِلْمُ اللَّاهُوتِ : عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ الْعَقَائِدِ

الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ .

وَاللَّاهُوتِيُّ : الْعَالِمُ بِالْعَقَائِدِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ ، « الْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ » ٢ : ٨٤١ .

(٣) أَي : الْقَلْبُ .

فَمَا أَظْلَمَ هَذَا الْقَالِبَ عَلَىٰ أَرْبَابِهِ! وَمَا أَحْجَبَهُ لِلْأَنْوَارِ!
 فَالْوَاقِفُ مَعَهُ مَخْضُورٌ فِي الْأَقْطَارِ ، مَسْجُونٌ بَيْنَ جُذْرَانِ الْمِسَاحَةِ
 وَالْمِقْدَارِ ، بَيْنَ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ وَالْعُمْقِ ، وَهِيَ ثَلَاثُ شُعَبٍ مُظْلِمَةٍ حَاجِبِيَّةٍ
 حَاصِرَةٍ أَرْضِيَّةٍ نَاسُوتِيَّةٍ^(١) ظُلْمَانِيَّةٍ مِنْ تَلْقَائِهَا .

ضَلَالٌ مَنْ وَقَفَ مَعَ عَالَمِ الْأَجْسَامِ وَالصُّورِ

ضَلَّ النَّصَارَى فِي التَّثْلِيثِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُجَاوِزُوا عَالَمَ الْأَجْسَامِ ، وَلَا قَسَمَ
 لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الرَّشِّ الْمَذْكُورِ^(٢) نَصِيبٌ مَعَ أَرْبَابِ الْأَقْسَامِ .
 فَلَا جَرَمَ أَنَّهُمْ حُجِبُوا بِظَوَاهِرِ الصُّورِ ، وَأَعْتَرَوْا بِظُهُورِ الْأَثْرِ ، وَعَمُّوا عَمَّا
 بَطَّنَ بِمَا ظَهَرَ ، كَمَا عَمِيَ مَنْ قَصَرَ نَظْرُهُ عَلَى الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ دُونَ النُّورِ
 الْمَوْضِحِ لَهَا النَّظْرُ :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُورُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
 مُكَذِّبُونَ ﴾ .

وَإِنَّمَا كَانَ سَبَبُ حَجْبِهِمْ فِي الْآخِرَةِ قُصُورَ نَظْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا :

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

وَإِنَّمَا كَانَ أَضَلُّ سَبِيلًا . . لِأَنَّ فِي الدُّنْيَا . . يُرْجَىٰ لَهُ الْإِبْصَارُ لِإِمْكَانِ ذَلِكَ
 فِيهِ ، وَفِي الْآخِرَةِ قَدْ حَصَلَ عَلَى قِسْمِهِ ، وَوَقَفَ عَلَى حَقِيقَةِ أَسْمِهِ ،
 ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

(١) أي : طبيعتها مظلمة ، « المعجم الوسيط » ٢ : ٨٤١ .

(٢) مرّ بك ص (٣٠٠) .

فَحَقِيقَةُ أَسْمِهِ . . الشَّقَاوَةُ لَا السَّعَادَةَ ، إِذْ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ طُرُقُ
الِاسْتِفَادَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ فِي أَحْوَالِهِ نَقْصَانٌ وَلَا زِيَادَةٌ .

فَهُوَ بِهَذَا الْوَجْهِ أَضْلُّ سَبِيلًا ، وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ بِمَا أُتِّصَفَ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي
أَضْيَقِ مَكَانٍ وَأَقْبَحِ مَقِيلًا .

فَنَارُ الْحَسْرَةِ وَالخِزْيِ . . تَلَطَّيْ فِي بَاطِنِهِ بِمَا حُرِمَهُ مِنْ رُوحِ الْمَعْرِفَةِ ،
وَلِمَا فَاتَهُ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَلَذَّةِ الْمَشَاهِدَةِ ، بِرُكُونِهِ إِلَى عَالَمِ الصُّورِ الْمُجَسَّمَةِ
الْمُظْلِمَةِ .

وَعِنْدَهَا يَسْتَرِيحُ^(١) عِنْدَ أَلْتِهَابِ نِيرَانِ الْحَسْرَةِ وَإِنْ كَانَتْ لَا تُظِلُّهُ وَلَا تُغْنِيهِ
مِنْ لَهَبِ تِلْكَ النَّيِّرَانِ ، بَلْ تَحْضُرُهُ وَتَمْنَعُهُ عَنِ الْإِنْطِلَاقِ إِلَى سَعَةِ الْعِلْمِ
وَفَضَائِلِ الْمَعْرِفَةِ بِشُعْبِهَا .

وَمِنْ هَذِهِ النَّيِّرَانِ حُدْرٌ ، وَعَلَيْهَا نُبَّةٌ وَأُنْذَرٌ :

﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَطَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * .

وَالْتَكْذِيبُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْحِجَابِ ، وَالتَّوَلَّى لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْغَفْلَةِ .
فَلَوْ سَمِعَ الْمُكْذِبُونَ نِدَاءَ الْحَقِّ مِنْ بَوَاطِنِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِمِ
كَذَّبُوا بِهِ . . لَأَمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ الَّذِينَ يَقُولُونَ :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا * .

وَذَلِكَ النَّدَاءُ لَا يَزُولُ مِنْ قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ مُوَحَّدٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .

فَلَوْ عَقَلُوا حَقِيقَتَهُ . . لَسَمِعُوا ، وَلَكِنْ جَهِلُوا وَأَنْكَرُوا .

(١) هذه الاستراحة للتوبيخ ، لا للإكرام ؛ لأن ما بعدها نارٌ تَلَطَّى ، فافهم .

فَإِذَا كُشِفَ الْغِطَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأُحْرِقُوا بِسَعِيرِ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ .
عَلِمُوا حَقِيقَةَ الدَّرَجَةِ لِذَلِكَ الصَّدْرِ الْمُحْتَشِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِ اللَّهِ
تَعَالَى :

﴿ لِزَيْبٍ مِّنْ أَيْنِنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

فَإِذَا تَحَقَّقُوا مَا السَّمَاعُ وَمَا الْإِبْصَارُ ، وَأَنَّهُ يُسْتَعْنَى فِيهِ عَنِ الْقَوَالِبِ
الْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ الْأَضْمِخَةِ وَالْأَبْصَارِ . . ﴿ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴾ .

وَلَا يُعْذَرُونَ لِعَدَمِ السَّمْعِ وَالْإِبْصَارِ فِي هَذِهِ الدَّارِ! فَإِنْ أَعْتَدُوا بِهِ . . كَانَ
بَيْنَ أَشْرِّ الْأَعْدَارِ .

وَكَيْفَ يُقْبَلُ مِنْهُمْ الْعُذْرُ وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ بِالْإِعْذَارِ وَالْإِنذَارِ!؟^(١) .

أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ - لَوْ قَبِلُوا - مَنْ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى الْأَنْوَارِ .

فَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ . . أَنْزَلُوا مِنْ رَبِّهِمْ إِلَى مُحَاطَبَةِ الْجُهَالِ وَالْكَفَّارِ .

وَخُصِّصَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِنَبِيِّهِمُ الْمُخْتَارِ ، الْمُنْبِيِّ بِمَنَاهِجِ الْأَبْرَارِ ،

وَالْمُحَذَّرِ مِنْ طُرُقِ الْأَشْرَارِ ، وَالْمُظْهِرِ بَوَاطِنِ الْأَسْرَارِ :

﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .

(١) الإِعْذَارُ : طَعَامٌ يُتَّخَذُ لِشُرُورِ حَادِثٍ ، « مَصْبَاح » ص (٣٩٩) ، مَادَةٌ :

مِنْ ظُلُمَاتِ الْوُقُوفِ مَعَ تَقْلِيدِ الْآبَاءِ الضَّالِّينَ ، وَالْمُعَلِّمِينَ الْمُبْتَدِعِينَ ،
حِينَ قَالَ النَّاسُ :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : يَا مُحَمَّدُ! ﴿ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ
آبَاءَكُمْ ﴾ .

وَعَلَىٰ مَاذَا وَجَدُوا آبَاءَهُمْ ؟ :

أ- قَوْمٌ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْمُظْلَمَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ ، الْكَثِيفَةِ الْعَارِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ
مَعَانِي الْحَيَوَانِيَّةِ .

ب- وَقَوْمٌ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْمَسِيحِ قَدْ وَقَفُوا مَعَ مَا أُبْدِيَ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، وَنَظَرُوا
بِعَيْنِ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَعْرِفُوا مِنْهُ غَيْرَ نَاسُوتِهِ ^(١) الْمُسَخَّرِ فِي الْحَرَكَةِ لِإِظْهَارِ
مَا يُلْقَىٰ رُوحُ الْقُدُسِ إِلَىٰ بَاطِنِهِ مِنَ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ، وَالْإِلْهَامِ الرَّبَّانِيِّ ، لِتَظْهَرِ
الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، وَتَبْرُزَ الْعَجَائِبُ الْمُعْجِزَةُ الرُّوحَانِيَّةُ الْخَارِجَةُ عَنِ
الْمَأْلُوفَاتِ الْعَادِيَّةِ ، وَالْمُدْرَكَاتِ بِالْعِلَلِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَالْمُنْفَعِلَاتِ بِالْخَاصِّيَّةِ
الْإِلَهِيَّةِ .

وَذَلِكَ بِكَلِمَةِ اللَّهِ لَهُ ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الثَّامَّةُ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا ﴾ .

وَالْكَلِمَةُ . . ظَهَرَ بِهَا مَا ظَهَرَ ، فَبِالْكَلِمَةِ أَمِدَّ ، وَبِرُوحِ الْقُدُسِ أُيِّدَ : ﴿ إِذْ
أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ .

(١) أي : غير طبيعته .

كَانَ الْمَسْنُوحُ وَأَفْعَالُهُ ، وَهِيَ كَلِمَةُ اللَّهِ الَّتِي أُلْقِيَتْ إِلَى مَرْيَمَ ، فَهُوَ
 الْكَلِمَةُ ، وَبِالْكَلِمَةِ كَانَ ، وَعَلَى يَدَيْهِ ظَهَرَتْ الْكَلِمَةُ بِقَوْلِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُنْ
 فَيَكُونُ ﴾ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُعْطَى الْأَشْيَاءَ قُوَّةَ رُوحَانِيَّةٍ ، لَا مِنْ نَاسُوتِهِ ^(١) ، بَلْ
 مِنْ تَأْيِيدِ الرُّوحِ وَالْقَاءِ الْأَمْرِ إِلَى الْمُكَوَّنَاتِ ، فَهِيَ الْمُسَمَّى :

﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ؛ لِأَنَّ السَّرَّ الْأَوَّلَ مِنَ اللَّهِ ، وَإِلَى اللَّهِ ،
 وَبِاللَّهِ ، وَاللَّهُ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ .

فَذَلِكَ نَفْخُ أَيْدَاءِ بِلَا وَاسِطَةٍ ، وَهُوَ إِعْطَاءُ أَصْلِ الْفَرْعِ الْإِنْسَانِيِّ - وَهُوَ
 الْإِنْسَانُ الْكُلِّيُّ - قُوَّةَ قَامَتْ مِنْ وُجُودِهِ ، وَصَدَرَتْ عَنْ جَنَابِهِ ، بِمَا ظَهَرَتْ
 عَلَيْهِ آثَارُ رُبُوبِيَّتِهِ ، وَشَوَاهِدُ لَاهُوتِيَّتِهِ ^(٢) .

فَعَلِمَ بِهَا كُلَّ الْمَعْلُومَاتِ ، وَأَظْهَرَ بِهَا كُلَّ الْمُبْتَدَعَاتِ .
 وَتِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي نَفَخَتْ فِي آدَمَ . سَارِيَّةٌ فِي ذُرِّيَّتِهِ ، جَارِيَّةٌ بِالذَّيْمُومِيَّةِ
 إِلَى الْأَبَدِ .

بِهَا يَظْهَرُ عَلَى تَصَارِيفِ الْحَدَثَانِ ^(٣) ، وَتَغْيِيرِ الْجَدِيدَانِ ^(٤) . مَا يَظْهَرُ مِنَ
 الصَّنَاعَاتِ الْمُخْتَرَعَاتِ ، وَالْعُلُومِ الْمُصَنَّفَاتِ الْجُزْئِيَّاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ .

(١) أي : لَا مِنْ طَبِيعَتِهِ .

(٢) أي : إِلَهِيَّتِهِ .

(٣) وهو وُجُودُ الشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، « مَخْتَارِ الصَّحَاحِ » ص (١٢٥) ،

مَادَةٌ : « حَدَثٌ » .

(٤) (٤) اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، « مُصْبِحِ » ص (٩٣) ، مَادَةٌ : « جَدٌ » .

وَذَلِكَ كُلُّهُ أَثَرُ النَّفْخَةِ الَّتِي أُعْطِيتْ آدَمَ قُوَّةَ أَطْلَعَ بِهَا عَلَى الْأَرْضِ
وَالسَّمَاءِ ، وَأَشْرَفَ بِهَا عَلَى كُلِّ الْأَشْيَاءِ ، وَهِيَ مَبْثُوثَةٌ فِي ذُرِّيَّتِهِ كُلِّهَا ، بَاقِيَةٌ
فِي عَقِبِهِ .

أَخَذَ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مِنْهَا بِأَوْفَى حَظٍّ وَنَصِيبٍ ، وَظَهَرَتْ عَلَى
أَيْدِيهِمُ الْعُلُومُ وَالْحِكْمُ وَالْأَعَاجِيبُ ، الَّتِي كَانَتْ بِمُجَرِّدِ الْقُوَّةِ الَّتِي هِيَ مِنَ
النَّفْخَةِ ^(١) ، لَا بَعِلَلٍ طَبِيعِيَّةٍ ^(٢) ، وَفِعْلٍ بِالْخَاصِّيَّةِ .

وَتِلْكَ فَوَائِدُ الْأَزْلِ ، وَكُلُّ يَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ بِقَدْرِ نَصِيبِهِ مِنَ الرَّشِّ
وَالنَّفْخَةِ ، لَا زَائِدَ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ الْقِسْمُ الْأَزْلِيُّ .

وَلَكِنْ نَالَ كُلُّ عَبْدٍ بِقَدْرِ مَا تَرَشَّحَ لِقَبُولِهِ بِالتَّهَيُّءِ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا
فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

وَلَا يَسْتَكْمِلُ الْخَلْقُ - الَّذِي جُعِلَ لَهُمْ فِيهِ نَصِيبٌ - نَصِيبَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . .
حَتَّى يَصِلُوا إِلَى غَايَةِ تَقَارُبِ الْكَمَالِ ، وَهِيَ كَمَالُهُمُ اللَّاتِقُ بِهِمْ . . إِلَّا فِي
الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْجَنَّةِ ، حِينَ يَقُولُونَ لِلنَّسِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ : ﴿ كُنْ
فَيَكُونُ ﴾ .

فَعَيْسَى . . نَبِيٌّ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ قَسِمَ لَهُ أَوْفَرُ نَصِيبٍ عَلَى قَدْرِهِ بِالْإِضَافَةِ
إِلَى وَقْتِهِ .

فَكَانَ يَفْعَلُ بِالْإِذْنِ لَا بِذَاتِهِ ؛ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ فِيهِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَنْفُخُ مِنْ رُوحِ

(١) وهو النَّفْخُ ابتداءً بلا واسطة ، كما مرَّ بك ص (٣٠٩) ، فافهم .

(٢) أي : كائنةً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

الْقُدُسِ^(١) ، وَهُوَ يَنْفُخُ فِي الْأَشْيَاءِ بِرُوحِ الْقُدُسِ لِمَوْضِعِ التَّائِيدِ بِهَا ، لَا مِنْ ذَاتِهِ ، وَلَا مِنْ عِنْدِهِ .

فَأَبَدًا يُوقَفُ فِعْلُهُ عَلَى الْإِذْنِ ؛ لِأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ بِالرُّوحِ .

فَلَوْ أَطَّلَعُوا عَلَى مَا وَرَاءَ ظَاهِرِ الْقُدْرَةِ مِنْ بَاطِنِ الْحِكْمَةِ . . لِأَشْرَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِ الْإِمْدَادِ ، وَنَفَّحَتْهُمْ نَفْحَةً مِنْ نَسِيمِ التَّائِيدِ ، فَأَخَذُوا حَظَّهُمْ مِنَ النَّفْحَةِ كَمَا أَخَذَ الْحَوَارِيُّونَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ :

﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَائِهِمْ فَشَبَّطَهُمْ ﴾ ، فَبَقُوا صُمًّا بِكَمَا عُمِيًّا ، ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُمْ مِنْ هَادٍ ﴾ ، ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ج - وَقَوْمٌ مَوْقُوفُونَ مَعَ عِبَادَةِ الْعَزِيزِ مِنَ الْيَهُودِ ، مَخْجُوبُونَ بِنَوْعٍ مِمَّا حُجِبَ بِهِ النَّصَارَى ، وَكُلُّ ذَلِكَ ظُلْمَةٌ .

د - وَقَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ يُوحِدُونَ وَلَا يَعْبُدُونَ عَزِيزًا بِزَعْمِهِمْ ، وَيَشْهَدُونَ بِنُبُوَّةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَقْلِيدًا وَسَمَاعًا ، لَا كَشْفًا وَأَسْتِبْصَارًا .

وَهُمْ مَخْجُوبُونَ بِظُلُمَاتِ التَّقْلِيدِ ، وَالْوُقُوفِ مَعَ أَقْوَالِ الرَّجَالِ ، دُونَ مُشَاهَدَتِهِمُ الْحَقِّ بِعَيْنِ الْيَقِينِ .

فَلَوْ أَنَّهُمْ شَاهَدُوا الْحَقَّ وَعَرَفُوهُ . . لَعَرَفُوا أَهْلَهُ ، إِذِ الرَّجَالُ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ ، لَا الْحَقُّ يُعْرَفُ بِالرَّجَالِ .

وَلَوْ تَحَقَّقُوا مَا النُّبُوَّةُ وَمَا الرِّسَالَةُ وَمَا الْإِيمَانُ - وَكَانُوا قَدْ عَرَفُوا مُوسَى بَعْدَ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ ، لَا النُّبُوَّةَ بَعْدَ مَعْرِفَةِ مُوسَى - لَمَا أَنْكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا أَبْصَرُوهُ كَمَا أَبْصَرُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّهُمْ
عَرَفُوا الْحَقَّ فَعَرَفُوا أَهْلَهُ .

وَلَكِنْ كَانُوا وَاقِفِينَ مَعَ مَا سَمِعُوا مِنْ أَخْبَارِهِ ، وَتَبَّتْ عِنْدَهُمْ مِنْ ظُهُورِ
الْقُدْرَةِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَبُرُوزِ الْآيَاتِ الْعَجِيبَةِ مُقَارِنَةً لِتَحْدِيثِهِ .

فَحَجِبُوا بِظُلُمَاتِ الصُّورِ الْمُظْلِمَةِ الْمُجَسَّمَةِ ، وَهِيَ صُورُ الْمُعْجَزَاتِ ،
فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قُدْرَةِ مُوسَى وَقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ .

وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي أَبْدَى الْقُدْرَةَ عَلَى يَدَيْ مُوسَى . . هُوَ الَّذِي أَبْدَاهَا
عَلَى يَدَيْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ ، وَالذِّينَ وَاحِدٌ ،
وَالْأَنْبِيَاءَ وَاحِدٌ ، وَدَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ، وَالْقُدْرَةُ ظَهَرَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ ، وَأَشَارَتْ
إِلَيْهِمْ .

وَكُلٌّ مَنِ ظَهَرَتْ الْقُدْرَةُ عَلَى يَدَيْهِ مَعَ التَّحْدِي . . فَهُوَ صَاحِبُ الْوَقْتِ ،
وَنَبِيُّ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ الْمُحِقُّ عَلَى الْجُمْلَةِ .

فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ حَيْثُ الْأَشْخَاصُ وَالْهَيَاكِلُ ، لَا مِنْ حَيْثُ الْمَعَانِي
وَالْحَقَائِقُ .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ
اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ .

فَلَا تَفَرِّقَهُ بَيْنَهُمْ أَلْبَتَّةَ ، وَالْعَزِيزُ الْمُقْتَدِرُ . . وَاحِدٌ .

أَظْهَرَ الْقُدْرَةَ عَلَى أَشْبَاحِ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَهَيَاكِلَ مُتَبَايِنَةٍ ، وَهُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ ،

غَيْرُ مُتَحَيَّرٍ ، وَلَا مُنْقَسِمٍ ، وَلَا حَالٍ ، وَلَا مُتَّحِدٍ .

وَلَكِنْ تَجَلَّى لِعِبَادِهِ بِأَفْعَالِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَجَعَلَ إِلَيْهِ طُرُقًا ، وَالطَّرِيقُ أَدْلَاءٌ ،
وَلِكُلِّ دَلِيلٍ . . آيَةٌ مَخْصُوصَةٌ ، وَلِكُلِّ طَرِيقٍ . . بَابٌ مَخْصُوصٌ ، وَحِجَابٌ
مَضْرُوبٌ :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ .

وَتَمَّ فِي الطَّرِيقِ حُدُودٌ مَضْرُوبَةٌ ، وَأَعْلَامٌ مَنْصُوبَةٌ ، لَا يُمَكِّنُ عُبُورَهَا إِلَّا
بِإِذْنٍ .

فَمَنْ كَانَ مَادُونًا لَهُ فِي تَجَاوُزِ الْحَدِّ الْمَضْرُوبِ إِلَى مَا وَرَاءَهُ . . فَتِيحَ لَهُ
الْبَابُ وَأَدْخَلَ .

وَالدُّخُولُ . . لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الشَّرْحِ ، وَالشَّرْحُ سُئِلَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ :

« هُوَ نُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ » . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا عَلَامَتُهُ ؟
فَقَالَ : « التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْعُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ
لِلْمَوْتِ قَبْلَ حُلُولِ الْمَوْتِ » (١) .

(١) رواه ابنُ أبي حاتم ٤ : ١٣٨٤ ، وابنُ جرير في « تفسيره » ٨ : ٢٧ ،
والحاكم ٤ : ٣١١ بنحوه .

وروي من طُرُقٍ أُخْرَى كَمَا أوردَهَا ابنُ كثير في « تفسيره » ٣ : ٨٧ - ٨٩ . وقال
عقبها :

« فهذه الطُّرُقُ لهذا الحديثِ مرسلةٌ ومُتَّصلةٌ ، يَشُدُّ بعضها بعضاً » . وانظر « الدررُ

وَبِالشَّرْحِ النُّورَانِيِّ . . تَنْفَتِحُ أَبْوَابُ الْقُلُوبِ ، وَالرَّحْمَةُ . . بَابٌ مِنْ
أَبْوَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، يَفْتَحُهَا عَلَى قَلْبٍ مَنْ يَشَاءُ :

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ ، الْآيَةُ .

وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَحْمَةٌ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

وَكَمَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالرَّحْمَةِ ، الَّتِي هِيَ الْمَطَرُ . . انْفَتَحَتْ
أَبْوَابُ الْوَحْيِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّذِي هُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ ،
وَبَابٌ لِدُخُولِ الْمُتَّقِينَ .

فَكُلُّ مَا ظَهَرَتْ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى ظَاهِرٍ . . حِجَابٌ عَنِ الْمُظْهِرِ .

فَمَنْ جَاوَزَهُ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْأَسْرَارِ . . كَانَ مِنَ الْمُكَاشِفِينَ بَعْلَمِ
الْمَلَكُوتِ ، الْمُتَنَزِّهِينَ فِي بُحْبُوحَةِ الْقُدْسِ :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

وَالِإِلَى إِرْثِ الْفِرْدَوْسِ دَعَا مِصْبَاحُ الْوُجُودِ ، وَسِرَاجُ الْكَوْنَيْنِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَجَاءَ بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ سِوَاهُ مِنَ الْأَسْرَارِ الْعَجِيبَةِ ، وَالْمَعَانِي الْغَرِيبَةِ ،
وَاللُّغَةِ الْفَصِيحَةِ ، وَالِاسْتِعَارَاتِ الصَّحِيحَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَالتَّمثِيلَاتِ
الْمُطَابِقَةِ ، وَالِإِشَارَاتِ الْمُوَافِقَةِ ، وَالرُّمُوزِ الْغَامِضَةِ ، وَالْكَشُوفِ
الْوَاضِحَةِ ، وَالْأَحْكَامِ الْكَامِلَةِ ، وَالسِّيَاسَاتِ الشَّامِلَةِ ، وَالْآدَابِ الْجَامِعَةِ ،
وَالْأَخْلَاقِ الطَّاهِرَةِ .

فَمَنْ كَانَ بَصِيرًا . . نَظَرَ إِلَى جَمَالِ بَاطِنِ الصُّورَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ ،
وَرَأَى أَنْبَسَاطَ أَنْوَارِهَا عَلَى صَفَحَاتِ الْآلَاءِ النَّاسُوتِيَّةِ الْجِسْمَانِيَّةِ / بِالسَّمْتِ
وَالْوَقَارِ ، وَالْهَيْبَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالْإِطْرَاقِ ، وَالتَّبَسُّمِ وَالْبَشْرِ .

وَشَاهَدَ هَذِهِ النُّعُوتَ الْبَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ كُلَّهَا لِمُظْهِرِهَا ! لَا بِهَا ؛ لِيُخْرِجَ مِنْ
حَيْرِ الدِّينِ وَقَفُوعِ مَعَ ظَاهِرِ الْإِبْدَاءِ ، وَحُجُبِهَا بِهِ عَنِ الْمُبْدَى .

وَيَعْلَمُ أَنَّ الرَّشُوقَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَوَلِّ فِي مَعْنَاهُ وَصُورَتِهِ ،
وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ، لَا مِنْهُ فِيهِ شَيْءٌ ، وَأَنَّهُ مَخْرُومٌ مِنْ أَثْبَتِهِ لِقِيَامِ الْمُتَوَلِّي لَهُ
بِهِ ، أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ لَهُ :

﴿ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ؟

فَبَرَّأَهُ مِنْ فِعْلِهِ فِي فِعْلِهِ ؛ لِثَلَا يُحَالِ شَيْءٌ عَلَى حَرَكَةِ النَّاسُوتِ الْمُسَخَّرِ ،
أَوْ يُضَافَ فِعْلٌ إِلَى الْجِسْمِ الْمُقَدَّرِ الْمُصَوَّرِ ، أَوْ يَنْبُتَ تَصَرُّفٌ لِلْمُتَوَلِّي
الْمُدَبَّرِ .

فَإِذَا نَظَرَ النَّاطِرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ التَّصْرِيفِ لَا بِعَيْنِ التَّصَرُّفِ ، وَعَلِمَ حَقِيقَةَ
الْبَادِي وَالْمُبْدَى عَلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَنْزِلَتِهِ . . وَضَحَّ لَهُ الْحَقُّ الصَّرِيحُ
مِنْ غَيْرِ حَمْحَمَةٍ وَلَا تَلْوِينٍ ^(١) ، وَمَيَّزَ السَّقِيمَ مِنَ الصَّحِيحِ ، وَأَهْتَدَى
بِهَدْيِ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْبَشَرَ ، وَكَانَ مِنَ الْمُطَّلِعِينَ عَلَى سِرِّ الْقَدْرِ ، الْمُتَزَهِّينَ
عَنِ التَّقْلِيدِ الَّذِي هُوَ مَظْنَةُ الْغَرْرِ ^(٢) :

(١) الْحَمْحَمَةُ : صَوْتُ الْفَرَسِ إِذَا طَلَبَ الْعَلْفَ ، « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص

(١٥٧) ، مَادَةٌ : « حَمَم » .

(٢) أَي : الْخَطَرُ ، « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص (٤٧١) ، مَادَةٌ : « غَرَر » .

﴿ قُلْ أُولُو حِشْمِكُمْ يَاهْدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾ مِنْ التَّمَثِيلِ بِظَوَاهِرِ الْأَثَرِ ، وَالِامْتِنَاعِ مِنَ الْعِيَانِ بِالْخَبَرِ .

وَذَلِكَ هُوَ نَقْلُكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ ؛ لِيَعْرِفُوا بِهِ أَهْلَهُ ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ الْمُقَلِّدَ لِمَا يَأْلَفُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ . . . تَابَعَ هَوَاهُ وَجَهَلَهُ .
وَهَدَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . . . هُوَ مَا كُشِفَ لَكَ عَنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَهُوَ الَّذِي يَنْكَتِبُ بِقَلَمِ الْعَقْلِ عَلَى أَلْوَابِ الصُّدُورِ :

﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ .

فَمَنْ أَيَّدَ بِالرُّوحِ . . . عَرَفَ الْمُؤَيَّدَ بِالرُّوحِ ، وَعَلِمَ أَنَّ عَيْسَى أَيَّدَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ . . . رُوحٌ .
مَنْ عَلِمَ بِهَذَا وَذَاقَهُ . . . كَانَ مِنَ الْمُؤَيَّدِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهَا ، وَفِيهِمْ قِيلَ :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ * أَوْلِيَّتِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

هُدًى اللَّهِ . . . هُوَ الْهُدًى ، وَلَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا اتِّبَاعُ الْأَهْوَاءِ :

﴿ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ * الدُّنْيَى ، وَالْكَشْفِ الْإِلَهِيِّ . . . ﴿ إِنَّكَ إِذَا لَجِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ ، الَّذِينَ أَنْزَلُوا النَّفْسَ عَنْ رُتْبَةِ الْكَشْفِ إِلَى رُتْبَةِ مُوَافَقَةِ أَرْبَابِ الْأَهْوَاءِ ، الَّذِينَ هُمْ فِي ظُلُمَاتِ آرَائِهِمْ الْمُطْلَخَةِ بِأَوْضَارِ الطَّبِيعَةِ ^(١) ، الْمَحْجُوبَةِ فِي ظُلُمَاتِ الْحِسِّ .

(١) أي : أَوْسَاحِهَا ، « لِسَانٌ » ١٥ : ٢٣٠ ، مَادَةٌ : « وَضُرٌّ » .

وَمَنْ كَثُرَ سَوَادَ قَوْمٍ . . فَهُوَ مِنْهُمْ ، وَحَشِرَ مَعَهُمْ .

وَمَنْ وَاْفَقَ قَوْمًا . . كَانَ مِنْهُمْ : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ ؟ وَبَعْدَ
الْكَشْفِ إِلَّا الْحِجَابُ ؟ :

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن قَوْلَٰنِ عَن ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعَالَمِ ﴿

وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْحَيٰةَ مَشْغَلَةٌ عَنِ الْحَيٰةِ الْقُصْوٰى ، وَأَنَّ الْمُعْرِضَ عَنِ
الِاسْتِعْدَادِ لِلْحَيٰةِ الْحَقِيقِيَّةِ . . نَادِمٌ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْحَيٰةِ الدُّنْيَا ، مُحَرَّقٌ بِنَارِ
جَهَنَّمَ ، فَيَتَذَكَّرُ حِينَ لَا تَنْفَعُهُ الذُّكْرٰى :

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيٰاتِي ﴾ فَيَوْمِئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا * وَلَا يُوثِقُ وِثْقًا أَحَدًا ﴿ ،

حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ هِيَ الْحَيٰوَانُ .

فَلَوْ كَانَ يَعْلَمُ . . لَكَانَتِ الدَّارُ الْآخِرَةُ دَارَ حَيٰاتِهِ ، إِذْ هِيَ حَيٰةُ الْعُلَمَاءِ ،
وَلِهَذَا اشْتَرَطَ : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . . لَكَانَتِ الْآخِرَةُ دَارَ الْحَيٰوَانِ فِي
حَقِّهِمْ ، وَلَكِنَّ جَهْلَهُمْ حَجَبَهُمْ ، وَإِلَى ظُلُمَاتِ الصُّورِ أَدْخَلَهُمْ ، وَفِي سِجْنِ
الْجِسْمِ الْمَخْضُورِ بِثَلَاثَةِ أَبْعَادٍ سَجَنَهُمْ^(١) ، فَإِلَيْهِ يُرَدُّ ، وَفِيهِ يُعَذَّبُ .

فَلَا بُدَّ مِنْ حَشْرِهَا ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّارِعُ مِنْ حَشْرِ الْأَجْسَادِ ،
وَرَدُّ الْأَرْوَاحِ إِلَيْهَا عِنْدَ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - إِلَى الْإِيمَانِ بِذَلِكَ ، وَشَرَحَ
صَدْرُهُ لِقَبُولِ تَصْدِيقِهِ بِإِعْلَامِهِ : أَنَّ مَا جَارَ أَبْتِدَاؤُهُ . . لَا يَسْتَحِيلُ إِعَادَتُهُ ،

(١) وهي : الطُّولُ ، وَالْعَرْضُ ، وَالْعُمُقُ ، كَمَا مَرَّبَكَ ص (٣٠٢) .

فَالْمُنْتَرَعُ أَهْوَنُ فِي الشَّاهِدِ مِنَ الْمُخْتَرَعِ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

وَلَا يُخَجِّبُ عَنِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - وَمَعْرِفَةِ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ . . . إِلَّا مَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ وَهَوَاهُ ، فَأَضَلَّهُ عَنِ الْحَقِّ وَأَغْوَاهُ ،
حَتَّى مَقَتَهُ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - وَأَخْرَاهُ ، وَجَعَلَ الْخُلُودَ فِي النَّارِ جَزَاءَهُ :
﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴾ .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أُمِرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾ ؟

فَأَصْبَحُوا صُمًّا بَكْمًا عُمِيًّا فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

الْقُرْآنُ هُوَ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ

وَكَيفَ يَتَذَكَّرُ الْقُرْآنَ . . . مَنْ لَا يَذَرِي حَقِيقَةَ الْقُرْآنِ ، وَلَا إِنزَالَ الْقُرْآنِ ،
وَلَا مُنَزَلَ الْقُرْآنِ ، وَلَا الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ؟ !

وَالْقُرْآنُ . . . هُوَ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ ، وَعَلَى سَوَاحِلِهِ الْعُودُ وَالْعَنْبَرُ ، وَجَمِيعُ
أَصْنَافِ الطَّيِّبِ ، وَأَنْوَاعِ الْمَعَادِينِ تُلْقَى فِي وَسَطِهِ فِي الْجَزَائِرِ (١) .

وَلَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ ، وَحَدٌّ وَمُطَلَعٌ ، وَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ بَيْنِي عَلَيْهَا فَهَمُّ
الْقُرْآنِ .

(١) جمعُ جزيرةٍ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ . . . لِإِنْحِسَارِ الْمَاءِ عَنْهَا ، « مَصْبَاحٌ » ص

(٩٨) ، مَادَةٌ : « جَزْرٌ » .

فَالظَّاهِرُ . . هُوَ التَّنْزِيلُ : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ .

وَالْبَاطِنُ . . هُوَ التَّأْوِيلُ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » (١) .

وَالْحَدُّ . . هُوَ الَّذِي يُتَوَقَّفُ عِنْدَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ التَّشْبِيهِ

وَالتَّعْطِيلِ .

وَالْمُطَّلَعُ . . هُوَ مَوْضِعُ إِشْرَافِ الْمُكَاشِفِينَ عَلَى حَقَائِقِ مَا أُرِيدَ بِهِ بِإِلْهَامِ

الْمَلِكِ ، وَفِطْنَةِ الرُّوحِ .

وَلَا يَشْهَدُ مَعَانِيَهُ ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى حَقَائِقِهِ . . إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ كَشْفٌ

وَمُشَاهَدَةٌ ، وَقَلْبٌ سَالِمٌ مُسَلِّمٌ وَأَسْلَمَ :

﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

فَأَوَّلُ الْمَرَاتِبِ . . مَعْرِفَةُ التَّنْزِيلِ .

الثَّانِي . . مَعْرِفَةُ التَّأْوِيلِ .

وَالتَّنْزِيلُ . . يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَمْرًا كَمَا جَاءَ ، لَا يُحَرِّفُ ، وَلَا يُبَدِّلُ ؛ لِأَنَّهُ

أَسَاسُ التَّأْوِيلِ .

وَالتَّأْوِيلُ . . مُنَزَّلٌ عَلَى التَّنْزِيلِ ، لَا يُخْرَجُ بِهِ عَن مَطَابَقَةِ التَّنْزِيلِ .

(١) رواه ابنُ حبان (٧٠٥٥) ، وأحمدُ ١ : ٣٢٨ و ٣٣٥ ، والفسويُّ في

« المعرفة والتاريخ » ١ : ٤٩٣ - ٤٩٤ ، والطبرانيُّ (١٠٥٨٧) .

فَلَا يُعَدَّلُ بِمَعَانِيهِ إِلَى التَّعْطِيلِ ، وَلَا يُحَادُّ بِهِ عَنْ مُوَافَقَةِ طَرِيقِ السُّنَّةِ
الْوَارِدَةِ عَنْ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ .

وَالرُّتْبَةُ الثَّلَاثَةُ - وَهِيَ الْوُسْطَى - : وَهِيَ الْحَدُّ الْمَانِعُ الْجَامِعُ ، يَجْمَعُ بَيْنَ
ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ ، وَبَاطِنِ التَّأْوِيلِ ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ .

وَالرُّتْبَةُ الرَّابِعَةُ . هِيَ الْإِطْلَاعُ عَلَيْهِ بِالنُّورِ الْمُبِينِ ، الَّذِي لَا يُوجَدُ إِلَّا
عِنْدَ الْمُتَّقِينَ ، وَهُوَ تَعْلِيمُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ
لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ .

فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - مُعَلِّمُ الْفَهْمِ ، وَالرَّسُولُ مُعَلِّمُ الْحُكْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَيُطْلَعُ
عَلَى مَعَالِمِ الْفَهْمِ ، وَيُوصِلُ إِلَى مَقَامِ الْإِطْلَاعِ بِإِرْشَادِهِ ، إِذْ هُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ
الْعِبَادِ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ
وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فَالرَّسُولُ . . هَادٍ بِالْوَاسِطَةِ لَا بِالتَّأْصِيلِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وَاللَّهُ - تَعَالَى - هُوَ الْهَادِي : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ ﴾ .

وَكَذَلِكَ هُوَ مُعَلِّمُ الدَّلَالَةِ ، وَاللَّهُ مُعَلِّمُ الْأَصَالَةِ :

﴿ وَتَعْلِمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ .

فَرَقَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْخَلْقِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ - وَهُوَ صِفَتُهُ - غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ ، كَتَبَهُ بِقَلَمِ الْعَقْلِ عَلَى الْوَاحِ الصُّدُورِ :

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْسُتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ .

فَالْعَقْلُ . . مُسْتَمِدٌّ مِنَ الْعِلْمِ الْأَرْزَلِيِّ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أُلْقِيَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

حَصَلَ لِلرُّسُولِ بِتَعْلِيمِ جِبْرِيلَ ، وَتَعْلِيمِ جِبْرِيلَ . . هُوَ تَعْلِيمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَعْلِيمُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ تَعْلِيمُ جِبْرِيلَ .

فَإِذَا كَانَ تَعْلِيمُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ تَعْلِيمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - يُعَلِّمُ الْمَلَائِكَةَ بِلَا وَاسِطَةٍ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَسَائِطُ بَيْنِ الرُّسُلِ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَالرُّسُلُ وَسَائِطُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - مُعَلِّمُ الْكُلِّ ، وَهَادٍ لِلْكُلِّ ، وَالْمُبَيِّنُ لِلْكُلِّ .

وَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ مُبَيِّنًا . . فَهُوَ فِي التَّبْيِينِ - كَمَا هُوَ فِي الْهِدَايَةِ - شَيْخٌ أَقِيمٌ لِتَعْرِيفِ الْخَلْقِ مَا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلَهُ وِلَايَةُ الظَّاهِرِ بِالْحُكْمِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وِلَايَةُ الْبَاطِنِ بِالتَّوَلَّى ، لِيبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَدَأَ بِكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ .

فَمَا مِنْ شَيْءٍ أَضْيَفَ إِلَى الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ظَاهِرًا فِي حَالِ

مِنَ الْأَحْوَالِ لِإثْبَاتِ الْأَحْكَامِ . . . إِلَّا وَقَدْ لُقِّيَ بَاطِنًا لِإثْبَاتِ التَّوْحِيدِ ، حَتَّى لَا يَقِفَ أَحَدٌ مَعَ ظَاهِرِ مَا أُبْدِيَ إِلَيَّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دُونَ النَّظَرِ إِلَى الْإِبْدَاءِ ، وَمَعْرِفَةِ جَرَيَانِهِ عَلَى ظَاهِرِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ الْمُبْدِيِّ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الَّذِي يُرَدُّ الْأَمْرُ فِي الْإِفْرَادِ وَالْإِصْدَارِ إِلَيْهِ :

﴿ وَإِنَّكَ لَلَّذِي لَقِيتَ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

فَهُوَ مَحَلُّ التَّلَقِّي ، لَا هُوَ الْمُلْقِي ، وَلَا إِلَيْهِ الْإِلْقَاءُ :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ .

وَلَيْتَ شِعْرِي ! أَيُّ الْكِتَابِ مِنَ الْكِتَابَةِ ؟ سِوَى أَنَّهُ مُتَّصِفٌ مِنْ حَيْثُ كَانَ مَحَلًّا قَابِلًا لَهَا ، لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا لَمْ تَزَلْ فِيهِ .

وَلَا هِيَ صِفَتُهُ ، وَإِنَّمَا هِيَ صِفَةُ الْكَاتِبِ بَدَتْ فِي الْكِتَابَةِ ، لَا مِنْ الْكِتَابِ ، وَإِلَيْهِ تَعُودُ فِي الْوَصْفِ ، لَا إِلَى الْكِتَابِ ، فَهِيَ صِفَةُ الْكَاتِبِ ، لَا صِفَةُ الْمَكْتُوبِ .

فَذَلِكَ قَلْبُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْقُرْآنُ ، كَمَا يَكْتُبُ الْكَاتِبُ فِي اللَّوْحِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْكِتَابَةُ فِي الشَّاهِدِ تَنْكُتُ بِوَسِطَةِ الْقَلَمِ فِي اللَّوْحِ ، وَالْقُرْآنُ أَنْكُتَ بِوَسِطَةِ جِبْرِيلَ فِي لَوْحِ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ، وَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الْقَلَمِ ، وَالْمَكْتُوبُ قَدِيمٌ ، وَهُوَ الْكَلَامُ الْأَزَلِيُّ ، وَالْكَاتِبُ وَالْمَكْتُوبُ فِيهِ مَخْلُوقَانِ ، كَاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ ؛ فَإِنَّ قَلْبَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَخْلُوقٌ ، وَجِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَخْلُوقٌ ، وَمَا كَتَبَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِوَسِطَةِ جِبْرِيلَ . . . قَدِيمٌ ، فَالْقُرْآنُ إِذَا قَدِيمٌ ، وَهُوَ عِلْمُ اللَّهِ .

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُكْتَبَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ عَلَى سَبِيلِ الْحِفْظِ وَالْعِلْمِ ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْحُلُولِ وَالِانْتِقَالِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - هُوَ الْحَافِظُ لَهُ ، لَا الْعَبْدُ :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وَيُرْوَى أَنَّهُ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الْقَلَمَ . . . قَالَ لَهُ : اكْتُبْ ! قَالَ : مَا اَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ عِلْمِي فِي خَلْقِي » (١) .

وَعِلْمُ اللَّهِ . . . مَكْتُوبٌ فِي خَلْقِهِ ، وَالْإِيمَانُ مَكْتُوبٌ : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ .

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ .

وَلَا تَسْأَلُ عَنْ كَيْفِيَّةِ هَذِهِ الْكِتَابَةِ ، وَكَيْفَ أُرْتَسَمَتْ فِي الصُّدُورِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَدْعِي فَتْحَ بَابِ كَبِيرٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَلَكُوتِ ؛ فَإِنَّ الْكِتَابَةَ تَسْتَدْعِي لَوْحاً وَمِدَاداً وَقَلَمًا ، وَأَصَابِعَ وَيَدًا وَقُدْرَةً ، وَإِرَادَةً وَعِلْمًا وَكَاتِبًا ، وَذَلِكَ مِنْ عُلُومِ الْمُكَاشَفَةِ .

إِذْ عِلْمُ ذَلِكَ نِهَائِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ ، وَمَبَادِيءُ الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوَّلُ مَا كُوشِفَ . . . بِسِرِّ الْقَلَمِ ، حِينَ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَغَطَّهُ ، وَقَالَ : أَقْرَأْ ! فَقَالَ : « مَا أَنَا بِقَارِيءٍ » . الْحَدِيثُ الْمَعْرُوفَ (٢) .

(١) روى بنحوه ابنُ عدي في « الكامل » ٦ : ٢٢٧٢ - ٢٢٧٣ ، وانظر « الميزان »

٤ : ٦١ .

(٢) رواه البخاري (٣) ، ومسلم (١٦٠) .

أَوَّلُ مَا كُوِّسِفَ مِنَ الْوَحْيِ . . بِمَعْرِفَةِ الْكِتَابَةِ وَالْقَلَمِ وَالتَّعْلِيمِ وَخَلْقِ
الْإِنْسَانِ ، وَهَذَا مَجْمَعُ الْعِلْمِ وَخِزَانَةُ الْأَسْرَارِ ، وَهَذَا أَصْلُ لِمَا وَرَاءَهُ .

فَقَالَ : أَقْرَأُ ! قَالَ : « وَمَا أَقْرَأُ ؟ » . قَالَ : ﴿ أَقْرَأُ بِأَسْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَرْبَابِ الْبَصَائِرِ . . فَفِي مُتَفَرِّقٍ كَلَامِنَا . . مَا يَدُلُّكَ عَلَى
مَعَانِيهِ ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ لَمْ يَخُلْ مِنْ إِشَارَةِ إِلَيْهِ ، وَتَنْبِيهِ عَلَيْهِ ، وَمَعْرِفَتُهُ لَا
تَحْتَمِلُ التَّضَرُّيْحَ ؛ فَإِنَّ خَوْضَ غَمْرَاتِ أَسْرَارِهِ خَطِيرٌ ، وَفَتْحَ بَابِ الْأَسْرَارِ
عَزِيزٌ ، وَإِفْهَامَ الْخَلْقِ - مَا لَمْ يَأْلَفُوا مَسَالِكَهُ مِنَ الْأَسْرَارِ - عَسِيرٌ ، وَبَعْرَهُ
عَمِيقٌ ، يَغْرُقُ فِيهِ أَكْثَرُ الْجَمَاهِيرِ ، إِلَّا مَنْ تَوَلَّى اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمْرَهُ ،
﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ .

وَالْهِدَايَةُ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - كَمَا عَلِمْتَ ، فَلَا تَطْلُبْهَا إِلَّا مِنْ بَابِهَا : ﴿ إِنْ
عَلَّمْنَا لِلْهُدَى * وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ .

وَإِنْ كُنْتَ مِنَ الْمَحْجُوبِينَ بِظُلُمَاتِ الْجِسْمِيَّةِ ، الْمُقْتَدِينَ بِقِيُودِ الْعَادَةِ ،
وَالْمَوْقُوفِينَ مَعَ تَقْلِيدِ الْأَبَاءِ وَالْمُعَلِّمِينَ ، الَّذِينَ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْيَقِينِ . .
فَلَا تَعْرِفُ قَطُّ لَوْحًا إِلَّا مِنْ خَشَبٍ ، وَلَا قَلَمًا إِلَّا مِنْ قَصَبٍ ، وَلَا يَدًا إِلَّا مِنْ
لَحْمٍ وَعَصَبٍ ، وَلَا كَاتِبًا إِلَّا جِسْمًا مُصَوَّرًا .

فَلَا تَطْمَعُ فِي فَهْمِ شَيْءٍ مِمَّا أَسْرْنَا إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ، إِذْ قَدْ
سَلَكْتَ مَذْهَبَ الْمَحْجُوبِينَ ، الَّذِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ ظُلْمَةُ الْأَجْسَامِ ، فَلَمْ
يَعْرِفُوا غَيْرَ الْأَجْسَامِ ، وَتَوَابِعَ الْأَجْسَامِ .

وَدَخَلْتَ تَحْتَ ظِلِّ الْجِسْمِ ذِي الْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ ، وَهِيَ الطُّوْلُ وَالْعَرْضُ

وَالسَّمْكُ^(١) ، فَهِيَ ثَلَاثُ شُعَبٍ مُظْلِمَةٍ ؛ لِأَنَّكَ حَصَرْتَ جَمِيعَ الْمَعْلُومَاتِ تَحْتَ الْحِجْرِ ، وَأَنْكَرْتَ مَا وَرَاءَ الشَّاهِدِ مِمَّا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْكَمِيَّةِ وَالْمِقْدَارِ ، وَلَا يَنْقَسِمُ بِالمِسَاحَاتِ وَالْأَقْطَارِ ، وَهُوَ الْعَالَمُ الْمُتَّسِعُ ، الَّذِي الْأَجْسَامُ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ الظِّلِّ مِنَ الشَّخْصِ ، فَهُوَ الْعَالَمُ الشَّرِيفُ الَّذِي مِنْ تَلْقَائِهِ يَنْزِلُ الْأَمْرُ وَالْقَدْرُ .

فَأَنْتَبِهْ أَيُّهَا الْمَعْرُورُ بِظَوَاهِرِ الصُّورِ! فَإِنَّكَ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - عَلَى غَرَرٍ^(٢) .

وَمَا أَنْطَلَقْتَ إِلَيْهِ ، وَوَلَّيْتَ نَحْوَهُ مِنْ ظَاهِرِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ ، يَوْمَ يُسْتَظَلُّ بِمِثْتِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - إِذَا سَأَلَكَ عَنْ مُعْتَقِدِكَ . . لَا يُظَلِّكَ مِنْ عَذَابِهِ ، وَلَا يُنَجِّيكَ مِنْ لَهَبِ نَارِهِ ، إِذْ قَدْ عَطَلْتَ مَلَكُوتَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَأَسْتَعْجَزْتَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَهَلْتَ حِكْمَةَ اللَّهِ ، وَلَمْ تَتَدَبَّرْ آيَاتِ اللَّهِ ، بَلِ اتَّخَذْتَهَا هُزُوًّا ، وَلَمْ تُؤْمِنْ بِالْغَيْبِ ، بَلِ كَذَّبْتَ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِعِلْمِهِ ، وَأَوْقَفْتَ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ عَلَى عِلْمِكَ النَّاqِصِ ، وَتَخَيَّلْتَ الْفَاسِدِ :

﴿ بَلِ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَلَمَّا بَأْتَاهُمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .

وَأَنْتَ مَخْجُوبٌ بِالأَجْسَامِ عَنْ مُبْدِعِ الأَجْسَامِ ، كَمَا حُجِبَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا عِنْدَ رُؤْيَةِ الأَجْسَامِ وَجُودِ شَيْءٍ زَائِدٍ عَلَى الأَجْسَامِ ، بِهِ ظَهَرَتْ الأَجْسَامُ ، وَتَجَلَّتِ الأَلْوَانُ وَالْأَشْكَالُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِ النُّورِ ، وَلَا تَحَقَّقُوا أَنَّهُ

(١) أي : العنق .

(٢) أي : خطر .

أَخْتَفَى فِي الْأَجْسَامِ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ فِيهَا ، وَاحْتَجَبَ عَنِ أَعْيُنِ النَّاطِرِينَ . .
لِإِشْرَاقِ أَنْوَارِهِ عَلَيْهَا .

وَلَكِنْ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ! أَفِيضْطَرُّونَ إِلَى التَّفْرِيقَةِ بَيْنَ النُّورِ الْمُظْهِرِ وَالْجِسْمِ
الْمُظْهِرِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ النُّورِ لِلْمُبْصِرَاتِ ، حِينَ بَقِيَتْ مُظْلِمَةً لَا تَظْهَرُ ، فَلَا
أَمْكَنَهُمُ الْجُحُودُ ، وَلَا وَسِعَهُمُ التَّكْذِيبُ ، كَذَلِكَ أَنْتَ ؟ !

الكَلَامُ عَلَى الرُّوحِ

أَيْشٍ تَقُولُ فِي الرُّوحِ ؟ إِنَّهَا هِيَ الْجِسْمُ بَعَيْنِهِ ، أَوْ شَيْءٌ يَزِيدُ عَلَى
الْجِسْمِ ، بِهَا تَدْبِيرُهُ وَتَضْرِيْفُهُ .

وَمَا أَظُنُّ أَنَّهُ يَسْعُكَ إِنْكَارُ كَوْنِهَا غَيْرَ الْجِسْمِ ، وَأَنَّهَا مُدَبَّرَةٌ الْجِسْمِ ، وَغَيْرُ
الْجِسْمِ . . لَا يَكُونُ جِسْمًا .

فَإِنْ قُلْتَ : هِيَ جِسْمٌ أَلْطَفُ مِنْ هَذَا ، مَسْتَوْدَعَةٌ فِي بَاطِنِ هَذَا الْجِسْمِ . .
جَعَلْتَ الْأَجْسَامَ تَتَدَاخَلُ ، وَقُلْتَ بِالْحُلُولِ ، وَأَبْطَلْتَ فَائِدَةَ التَّفْرِيقَةِ بَيْنَ
الرُّوحِ وَالْجِسْمِ ، وَكَذَّبْتَ الْخَبَرَ الصَّحِيحَ :

« إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ الْأَجْسَامِ بِالْفِي عَامٍ »^(١) .

وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِذَا كَانَتِ الْأَرْوَاحُ أَجْسَامًا ، وَيَكُونُ إِثْبَاتُ مَا
تَدْعِيهِ إِلَى اسْتِحَالَةِ الْحَدِيثِ ، وَتَنَاقُضِ قَوْلِ الصَّادِقِ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ :

(١) قَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي « الْفَوَائِدِ الْمَجْمُوعَةِ » ص (٣٨٢) : « رَوَاهُ الْأَزْدِيُّ عَنِ
عَلِيِّ مَرْفُوعًا ، وَفِي إِسْنَادِهِ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَيُّوبَ بْنِ أَبِي عِيْلَاجٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، وَهُمَا
كُذَّابَانُ ، وَأُورِدَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْمَوْضُوعَاتِ » .

خَلَقَ اللهُ الْأَجْسَامَ قَبْلَ خَلْقِهَا بِالْفِي عَامٍ .

وَالشَّيْءُ الَّذِي يُخْلَقُ قَبْلَ خَلْقِهِ . لَا يُعْقَلُ ؛ لِأَنَّ الْأَجْسَامَ إِنْ كَانَتْ تُسَمَّى أَرْوَاحًا . . فَمَعْنَى الْحَدِيثِ هَذَا : خَلَقَ الْأَجْسَامَ قَبْلَ الْأَجْسَامِ ! وَهُوَ خَلْقُ الشَّيْءِ قَبْلَ ذَاتِهِ ! وَهَذَا خَرَقٌ مِنْ قَائِلِهِ ^(١) ، وَفَسَادٌ مِنْ مُصَوِّرِهِ ! .

فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلخَبِيرِ مَعْنَى يُدْرِكُ ، وَفَائِدَةٌ تُعْقَلُ .

وَالْحَاصِلُ مِنْهُ : التَّفْرِيقَةُ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ .

فَالرُّوحُ إِذَا . . لَا جِسْمٌ بِشَهَادَةِ الشَّرْعِ .

وَإِذَا كَانَ الْجِسْمُ هُوَ الْمُلتَمِّمَ مِنْ جَوْهَرَيْنِ فَصَاعِدًا وَهِيَ غَيْرُ الْجِسْمِ . . فَمِنَ الْأَخْرَى أَنْ تَكُونَ غَيْرَ جَوْهَرٍ .

وَإِذَا لَمْ تَكُنْ جَوْهَرًا وَلَا جِسْمًا . . اسْتَحَالَ - أَيْضًا - أَنْ تَكُونَ عَرَضًا ، لِمَا كَانَتْ الْأَعْرَاضُ لَا تَثْبُتُ وَلَا تُوجَدُ إِلَّا مَعَ الْأَجْسَامِ وَالْجَوَاهِرِ ، وَقَدْ بَطَلَ حُكْمُ الْجِسْمِ وَالْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ ، فَبَطَلَ التَّرْكِيبُ وَالْمُمَاسَّةُ وَالْمُجَاوِرَةُ وَالْإِتِّصَالُ وَالْإِنْفِصَالُ .

فَإِنْ أُطْلِقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا مُوَاصِلَةٌ لِلْبَدَنِ ، أَوْ مُفَاصِلَةٌ بِالْمَوْتِ . . فِإِطْلَاقِ صَحِيحٍ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ ، وَهُوَ مُوَاصِلَةُ التَّدْبِيرِ وَمُفَارَقَتُهُ بِتَعَاصِي الْأَلَاتِ بِالْمَوْتِ مِنْ قَبُولِ التَّدْبِيرِ .

وَإِذَا انْتَفَى عَنْهَا الْجَوْهَرِيَّةُ وَالْجِسْمِيَّةُ وَالْعَرَضِيَّةُ . . انْتَفَتْ عَنْهَا بِالضَّرُورَةِ

(١) هو نقيض الرفق ، أي : جهله ولم يحسن عمله ، « لسان » ٥ : ٥٤ ، مادة :

العقلية جميع صفات الأجسام والجواهر والأعراض :

من فوق ، وتحت ، وأمام ، ووراء ، وحذاء ، ويمين ، ويسار ،
وفي ، وإلى ، وعلى ، وعند ، والحركة ، والشكون ، والظهور ،
والكمون ، والمساحة ، والمقدار ، والكيف ، والأين ، وكل ما يجري
على الجواهر والأجسام من الأوصاف .

فَمَا أُطْلِقَ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِضُرُورَةِ التَّعْرِيفِ . . أَفْتَقِرَ فِي فَهْمِهِ إِلَى التَّأْوِيلِ
وَالتَّصْرِيفِ .

فَقَدْ لَزِمَكَ أَيُّهَا الْمَخْدُوعُ بِالْغُرُورِ إِثْبَاتُ مَوْجُودِ حَقِيقِي الوجودِ ، خَارِجًا
فِي وُجُودِهِ عَنِ كُلِّ مَا يُدْرِكُ فِي الشَّاهِدِ مِنَ الْأَجْسَامِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَعْرَاضِ .
فَكَيْفَ يُمَكِّنُكَ بَعْدَ هَذَا . . إِنْكَارُ شَيْءٍ زَائِدٍ عَلَى الْأَجْسَامِ !؟ .

فَإِنْ تَعَامَيْتَ أَنْتَ بَعْدَ الْإِبْصَارِ ، وَلَزِمْتَ الْمُكَابَّرَةَ وَالْإِنْكَارَ ، وَجَمَدْتَ
إِلَى الْإِسْتِنْكَافِ وَالْإِسْتِكْبَارِ ، وَتَبِعْتَ بِجُمُودِكَ فِي التَّقْلِيدِ الْهَوَى ، وَرَكِبْتَ
ظَهَرَ اللَّجَاجِ وَالْإِضْرَارِ^(١) . . فَقَدْ ذَهَبَ فِي حَقِّكَ الْأَعْدَارُ ، وَأَنْقَطَعَتْ
حُجَّتُكَ بِالْإِعْدَارِ وَالْإِنْذَارِ^(٢) ، فَيُوشِكُ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ .

وَعِنْدَ أَرْتِفَاعِ نُورِ النَّفْسِ عَنِ ظَاهِرِ الْجِسْمِ ، وَعَدَمِ تَدْبِيرِهَا لَهُ بِالْمَوْتِ . .
يَأْتِيكَ تَأْوِيلٌ مَا كَذَّبْتَ بِهِ ، وَقَدْ أَوْضَحْتُ لَكَ .

(١) اللَّجَاجُ : هو ملازمة الشيء والمواظبة عليه ، تقول : لَجَّ في الأمر : تَمَادَى
عليه ، وأبى أن ينصرف عنه ، « لسان » ١٣ : ١٧١ ، مادة : « لَجج » .

(٢) تَقَدَّمَ بَيَانُهَا ص (٣٠٧) .

فَقُولُ حِينَ تَشَاهِدُ مَا لَمْ تَسْمَعْ بِتَسْلِيمِهِ ، بَلْ تَثْبُتُهُ مُطْرِحًا لَهُ بِرُكُونِكَ إِلَى
تَقْلِيدِ الْغَافِلِينَ ، وَمُتَابَعَةِ الْجَاهِلِينَ : ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَنْكَ وَعَنْ أُمَّتِكَ بِقَوْلِهِ :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ ذُنُوبُهُمْ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ
مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ،
الآيَةَ .

وَمَا أَخَوْفَنِي عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ خَسِرَ نَفْسَهُ ! .

وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ لَكَ الْخِيَارُ عِنْدَ الْإِنْتِبَاهِ مِنْ نَوْمِكَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ نِيَامٌ ، فَإِذَا
مَاتُوا . . . إِنْتَبَهُوا .

وَعِنْدَ الْإِنْتِبَاهِ يَظْهَرُ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا ، فَيُؤْوَلُ لَكَ مَا لَزِمَتْ ظَاهِرُهُ فِي عَقْلِكَ
بِأَحْسَنِ تَأْوِيلٍ ، وَيَبْدُو لَكَ ضِدًّا مَا أَحْتَسِبْتَ ، وَيَضِلُّ عَنْكَ مَا إِلَيْهِ ذَهَبَتْ :
﴿ وَبَدَأْتُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ :

سَتَّبِدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ
وَيَتَلَوُ عَلَيْكَ الْمَوْتَ : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

وَذَلِكَ حِينَ تَأْتِي سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، الَّذِي كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ، وَتَمِيلُ
عَنْهُ إِلَى التَّقْلِيدِ ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وَهُوَ قَرْنٌ ، فِيهِ ثُقُبٌ بَعْدَ أَنْفَاسِ
الْخَلَائِقِ ، فَيُصْعَقُ الْعَالَمُونَ مِنْ صَوْتِهِ .

كُلُّ نَفْسٍ لَهَا ثُقُبٌ فِيهِ تُصْعَقُ إِنْ لَمْ تَكُنْ صُعِقَتْ ، وَالنَّافِعُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ .

وَيَقُومُ الرُّوحُ صَفًّا^(١) ، وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا .

وَيَأْتِي اللَّهُ فِي ظِلِّلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ .

وَهَذَا كُلُّهُ مَا يَنْكَشِفُ لَكَ سِرُّهُ ، وَيَبْدُو لَكَ تَأْوِيلُهُ - إِذْ قَدْ وُعِدْتَ بِكَشْفِ
تَأْوِيلِهِ لَكَ ، وَلَا جَائِزَ أَنْ يَنْكَشِفَ لِمِثْلِكَ^(٢) - دُونَ أَنْ تَأْتِيَ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ،
وَهُوَ الَّذِي كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ .

وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ لِصَعْقِ الْخَلْقِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى لِقِيَامِهِمْ ، يَنْظُرُونَ
مَاذَا أَرَادَ مِنْهُمْ الْحَقُّ .

ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ الْكُلَّ ، فَتَجْمَعُ أَجْزَاءُ الْخَلْقِ ، وَيُنشِئُهُمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -
نَشْأَةً أُخْرَى ، كَمَا وَعَدَ تَعَالَى^(٣) .

وَيَكُونُ الْحَشْرُ كُلُّهُ عَلَى قَدَمِ آدَمَ وَعَقْبِهِ ، إِذْ هُوَ أَبُو الْبَشَرِ ، وَعَلَى صُورَتِهِ
وَشَكْلِهِ يُجْمَعُونَ وَيُحْشَرُونَ ، وَكَذَلِكَ إِلَى آبِيهِمْ وَأُمَّهِمْ يُجْمَعُونَ :

(١) هُوَ مَلَكٌ عَظِيمٌ ، أَوْ جَبْرِيْلُ ، أَوْ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ ، لَيْسُوا مَلَائِكَةً ، أَوْ
أَشْرَافُ الْمَلَائِكَةِ ، أَوْ حَفِظَةٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، أَوْ بَنُو آدَمَ ، وَالْمَعْنَى : ذَوُو الرُّوحِ ، أَوْ
أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ تَقُومُ صَفًّا ، أَوْ الْقُرْآنُ ، أَقْوَالٌ ثَمَانِيَةٌ ذَكَرَهَا الْقُرْطُبِيُّ فِي « تَفْسِيرِهِ »
٢٢ : ٣٠ - ٣٢ .

(٢) مَفْهُومُهُ : أَنْ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُ فِي الْغَفْلَةِ وَالْعِنَادِ وَمُلَازِمَةِ الصُّورِ وَالْأَجْسَامِ .
يَظْهَرُ لَهُ تَأْوِيلُ ذَلِكَ كَشْفًا صَرِيحًا قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَزْمَانٍ ، فَافْهَمِ ذَلِكَ .

(٣) بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . [العنكبوت : ٢٠] .

أَي : أَنَّ اللَّهَ الَّذِي بَدَأَ النَّشْأَةَ الْأُولَى وَخَلَقَهَا عَلَى تِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ . يُنشِئُهَا نَشْأَةً ثَانِيَةً
عِنْدَ الْبَعْثِ ، قَالَهُ الْعَلَامَةُ الشُّوْكَانِيُّ فِي « فَتْحِ الْقَدِيرِ » ٤ : ٢٦٠ .

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ .

فَهَذَانِ أَضْلَانِ كَلَيَّانِ لِلْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ ، أَبَا وَأُمَّ ، آدَمَ وَحَوَّاءَ .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ .

جَزَاءً أَوْلَادَهُمْ ، فَالْإِنْسُ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ مُجْتَمِعُونَ ، وَإِلَيْهِمَا يَنْتَسِبُونَ ،
وَهِيَ الطِّينَةُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي عَجَنَهَا بِيَدِهِ ، وَحَمَّرَهَا ، وَسَوَّاهَا ، وَنَفَخَ فِيهَا
الرُّوحَ ، وَأَسْجَدَ لَهَا الْمَلَائِكَةُ صَفًّا صَفًّا :

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ .

وَأَدَمَ مُقَابِلَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ نَفَخَ فِيهِ مِنَ الرُّوحِ ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .

وَالنَّفْخُ . . إِحْدَاثُ وُجُودِ آدَمَ ، لَمْ يَكُنْ بِالرُّوحِ مُحَدَّثًا^(١) ، وَلَيْسَ ثَمَّ
قَدِيمٌ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ .

وَلَا أَقُولُ : وَصِفَاتُهُ ؛ لِأَنَّ صِفَاتِهِ لَيْسَتْ غَيْرُهُ ، فَأَفْصَلُهَا مِنْهُ ، وَلَا هِيَ
هُوَ ، فَأَفْرِدُهَا بِالذِّكْرِ دُونَ جَعْلِهَا لَهُ .

فَهِيَ لَهُ ، لَا هِيَ هُوَ ، وَلَا هِيَ غَيْرُهُ ، وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ فِيمَا هَذَا سَبِيلُهُ .

فَحِينَئِذٍ يَجْمَعُ الصُّفُوفَ الْمَلَائِكَةَ ، وَالرُّوحَ صَفًّا إِذَا جُمِعَتْ^(٢) ، وَالْجِنُّ
صَفًّا ، وَهُمْ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَالشَّيَاطِينُ صَفًّا خَارِجٌ عَنِ الْجِنِّ ،

(١) لِأَنَّ الرُّوحَ خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ ، أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ، كَقَوْلِهِ : أَرْضِي

وَسْمَانِي ، « تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ » ١٢ : ٢٠٨ .

(٢) انظُرْ مَا تَقْدَمُ ص (٣٣٠) تَعْلِيقَةً رَقْمَ (١) .

وَالْمَلَائِكَةُ فِيمَا بَيْنَهُمَا يَقْدُمُهُمْ عَزَائِلُ^(١) ، وَهُوَ إِبْلِيسُ آدَمَ وَضِدُّهُ وَقَرِينُهُ ،
وَهُوَ أَكْبَرُ الشَّيَاطِينِ ؛ لِأَنَّ عَزَائِلَ فِي جُنُودِهِ . . بِمَنْزِلَةِ آدَمَ فِي ذُرِّيَّتِهِ .

فَلَمَّا كَانَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ هُوَ أَصْلًا لَهُمْ ، وَكُلُّ مَا ظَهَرَ عَنْ آدَمَ وَلَدٌ ذَكَرٌ أَوْ
أُنْثَى . . أَظْهَرَ عَزَائِلُ لَهُ قَرِينًا مِنْ أَبْنَائِهِ .

فَعَلَى الْأَصْلِيَّةِ بَعْدَ بَيْتِي آدَمَ ، وَالْمُتَوَلِّدَةِ بَعْدَ الْأَمْلَاقِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ
أَعْمَالَ الْعِبَادِ ، مَلَكُ الْيَمِينِ ، وَمَلَكُ الْيَسَارِ ، وَوَرَاءَ هَذَا . . غَوْرٌ عَمِيقٌ ،
يُنْكَشِفُ لَكَ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ .

فَالْوَيْلُ مَنْ دَامَ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ ! وَطُوبَى لِمَنْ أَنْتَبَهَ ! لِأَنَّهُ لَا يَسْتَنْبَهُ إِلَّا
بِمَوْتٍ : هُوَ إِعْرَاضُ النَّفْسِ عَنِ الْأَشْتِغَالِ بِالصُّوَرِ وَالْأَجْسَامِ ، بِالْإِقْبَالِ
عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، بِالتَّوَلَّى نَحْوَ وَجْهِهِ ، إِلَى هُوَ أَيْنَمَا وَلَّيْتَ .

فَكُلُّ مَنْ وَلَّى إِلَيْهِ . . فَتَمَّ وَجْهُهُ ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

لَا وَجْهَ أَبْنَائِهِمْ ، فَكُلُّ مُعْرِضٍ عَنِ اللَّهِ مُشْتَغِلٍ بغيرِهِ . . فَإِلَى وَجْهِ الْحَدِيثِ
نَظَرَ ، وَهِيَ ﴿ ظَلَمْتُمْ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ .

فَوَجْهُهُ . . مُنْصَرِفٌ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَمِعْوَجٌ بِقَدْرِ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ .

فَإِنْ كَانَ كَلْمَحُ الْبَصْرِ . . كَانَ كَالْحَوْرِ فِي الْعَيْنِ^(٢) .

(١) وهو أسمه كما نُقِلَ عن ابن عباس ، « قُرْطَبِي » ١ : ٤٣٨ .

(٢) الْحَوْرُ : إِسْوِدَادُ الْمُقْلَةِ كُلِّهَا ، كَعْيُونِ الطَّيِّبِ . . وَلَا يُقَالُ لِلْمَرْأَةِ : حَوْرَاءُ إِلَّا

لِلْبَيْضَاءِ مَعَ حَوْرِهَا ، « مصباح » ص (١٥٥ - ١٥٦) ، مادة : « حور » .

وَإِنْ كَانَ بِأَكْثَرِ الْبَصْرِ . . . كَانَ كَالْحَوَلِ فِي الْعَيْنِ . . .

وَإِنْ كَانَ بِلَفْتَةِ يَسِيرَةٍ . . . كَانَ كَالْقُوَّةِ . . .

وَإِنْ كَانَ إِعْرَاضاً وَإِدْبَاراً . . . كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُؤَلِّي الْمُدْبِرِ ، وَذَلِكَ الَّذِي يُؤْتِي كِتَابَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ، وَهُمْ الَّذِينَ ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ، فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ . . .

فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . . . أَعْرَضَ عَنِ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ نَفْسِهِ . . . فَقَدْ حَصَلَ عِنْدَهُ مَعْنَى الْمَوْتِ ، وَهُوَ تَرْكُ أَلْتِفَاتِ النَّفْسِ إِلَى الْمَحْسُوسَاتِ وَالصُّورِ ، وَنَظَرُهَا إِلَى عَالَمِ الْمَلَكُوتِ . . .

فَسَلُوكُ صِرَاطِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَالْوَفَاءُ بِعَهْدِهِ . . . فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَالاعْتِرَافِ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهِ مِنْ مُفَارَقَةِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ ، وَالتَّحَلِّيِ بِالْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ . . .

فَإِذَا اتَّصَفَ بِهَا . . . صَحَّ لَهُ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَمَنْ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ . . . أَرْضَاهُ وَرَضِيَ عَنْهُ :

﴿ يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ﴾ . . .

وَمَنْ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِي الدُّنْيَا . . . فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ فِي الْعُقْبَى رُجُوعَ رِضَى ، لَا رُجُوعَ كُرْهِ . . .

المَوْتُ مَوْتَانِ : طَبِيعِيٌّ وَإِرَادِيٌّ

كَذَلِكَ الْمَوْتُ مَوْتَانِ : مَوْتُ طَبِيعِيٌّ ، وَهُوَ : نَزْعُ النَّفْسِ مِنَ الْجِسْمِ كُرْهًا ، لِتَشْبَهِهَا بِهِ عِشْقًا لَهُ ، وَسُكُونًا إِلَيْهِ ، فَهِيَ تُتْرَعُ مُكْرَهَةً ، فَلَا جَرَمَ

أَنَّهَا لَا تَخْرُجُ إِلَّا بِالْخَطَاطِيفِ وَالْكَلاَلِيبِ حَتَّى تَنْقَطِعَ أَوْصَالُهَا^(١) ، وَتَزُولَ عَلاَقَتُهَا مَعَهُ ، وَهَذِهِ مَوْتَةٌ طَبِيعِيَّةٌ .

وَمَوْتُ إِرَادِيٌّ ، وَهُوَ : تَرَكَ النَّفْسِ لِمَسَاكِنَةِ الْجِسْمِ ، وَالتَّنَزُّهُ عَنِ عِشْقِهِ ، وَالاسْتِغْرَاقُ فِي وَجْهِهِ ، وَأَسْتِعْمَالُهُ فِي مَصَالِحِ الْآخِرَةِ ، فَهَذِهِ مَوْتَةٌ إِرَادِيَّةٌ ، لَا يَمُوتُ صَاحِبُهَا بَعْدَهَا أَبَدًا ؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْمِمْه . . بِقَدْرِ الْمَحْبُوبَاتِ ، وَعَذَابَهُ بِقَدْرِ تَعَلُّقِ النَّفْسِ بِالشَّهَوَاتِ ، وَعُكُوفِهَا عَلَى اللَّذَاتِ ، وَعِشْقِهَا الْغَالِبِ الَّذِي تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى إِدْرَاكِ الْمَطْلُوبَاتِ ، وَتَقْضِي بِهِ أَوْطَارَ الدُّنْيَاوِيَّاتِ .

فَإِذَا زَالَ مُوجِبُ الْأَلَمِ . . سَقَطَ الْأَلَمُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَثَرٌ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَلَمٌ . . لَمْ يَكُنْ خَوْفٌ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خَوْفٌ . . كَانَ أَمْنٌ ، وَإِذَا كَانَ أَمْنٌ . . كَانَ اسْتِيشَارًا وَبُشْرَى ، وَإِذَا كَانَ اسْتِيشَارًا وَبُشْرَى . . أَحَبَّ الْعَبْدُ لِقَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ الْآيَاتُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وَ « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ . . أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ »^(٢) . فَهَذَا شَاهِدٌ لِمَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ .

وَمَنْ شَاهَدَ مَا أَعَدَّ لَهُ . . فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَالشَّهِيدُ . . لَيْسَ بِمَيِّتٍ ، وَالشَّهَادَةُ بِجِهَادِ النَّفْسِ إِلَى أَنْ يُمِيتَهَا عَنْ حُطُوظِهَا . . أَكْبَرُ رُتْبَةٍ عِنْدَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ

(١) الْخَطَاطِيفُ : مَخَالِيبُ السَّبَاعِ ، « لِسَانٌ » ٥ : ١٠٤ ، مَادَةٌ : « خَطَفٌ » .

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٧) تَعْلِيقًا ، وَمُسْلِمٌ (٢٦٨٤) ، وَالتِّرْمِذِيُّ

(١٠٦٧) ، وَالنَّسَائِيُّ ٤ : ١٠ ، وَابْنُ مَاجَهَ (٤٢٦٤) ، وَابْنُ حَبَّانَ (٣٠١٠) .

وَتَعَالَى - مِنَ الشَّهَادَةِ الْمُورَثَةِ لِقِتَالِ الْكُفَّارِ وَحَطْمِ السُّيُوفِ :

« رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ . . إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » (١) .

وَذَلِكَ الْجِهَادُ خَطَرٌ (٢) ، قَلَّ مَنْ يَسْلَمُ لَهُ فِيهِ النَّيَّةُ ، فَهُوَ عَلَى ظَنٍّ غَيْرِ

مُتَيَقِّنٍ مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَهَذَا إِذَا وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الرَّتَبَةِ عَلَى يَقِينٍ .

وَالْمَوْتُ الْإِرَادِيُّ . . إِثَابَةٌ ، وَالْمَوْتُ الطَّبِيعِيُّ . . عُقُوبَةٌ .

وَمَنْ مَاتَ مَوْتَهُ إِرَادِيَّةً . . انْتَبَهَ قَبْلَ الْمَوْتِ الطَّبِيعِيِّ ، وَمَنْ انْتَبَهَ . . أَبْصَرَ

بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ .

« الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ . . جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبْوَةِ » (٣) .

وَمَنْ أَبْصَرَ . . قَالَ : لَوْ كُشِفَ الْغَطَاءُ . . مَا أزدَدْتُ يَقِينًا .

فَاطْلُبُوا الْيَقِينَ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - بِإِمَاتَةِ نَفْسِكُمْ ، وَإِحْيَاءِ قُلُوبِكُمْ ،

لِتَرْقُوا الْفِرْدَوْسَ الْأَكْبَرَ وَالْمُلْكَ الْعَظِيمَ بِإِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دُعَاءُ خَتْمِ الْكِتَابِ

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ رَكَّبْتَ عَلَى جَوَارِحِهِمْ مِنَ الْمُرَاقِبَةِ . . غِلَاطَ الْقِيُودِ ،

وَأَقَمْتَ عَلَى سَرَائِرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ . . دَقَائِقَ الشُّهُودِ ، فَهَجَمَ عَلَيْهِمْ أَنْسُ

الرَّقِيبِ مَعَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ ، فَكَسَّوْا رُؤُوسَهُمْ مَعَ الْخَجَلِ وَجِبَاهَهُمْ

(١) قال في « كشف الخفاء » (١٣٦٢) : « قال العراقي : رواه البيهقي بسند

ضعيف عن جابر » . وتمام تخريجه ثم .

(٢) أي : مرفوعٌ قَدْرُهُ ، « لسان » ٥ : ٩٩ ، مادة : « خطر » .

(٣) مرَّ بِكَ تخريجه ص (٢٩٠) .

لِلشُّجُودِ ، وَفَرَشُوا لِفَرْطِ ذُلِّهِمْ عَلَى بَابِكَ نَوَاعِمَ الْخُدُودِ ، فَأَعْطَيْتَهُمْ
بِرَحْمَتِكَ غَايَةَ الْمَقْصُودِ :

صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ

اللَّهُمَّ أَرْزُقْنَا طَوْلَ الصُّحْبَةِ ، وَدَوَامَ الْخِدْمَةِ ، وَحِفْظَ الْحُرْمَةِ ، وَلِزُومَ
الْمُرَاقَبَةِ ، وَأَنْسَ الطَّاعَةِ ، وَحَلَاوَةَ الْمُنَاجَاةِ ، وَلَذَّةَ الْمَغْفِرَةِ ، وَصِدْقَ
الْجَنَانِ ، وَحَقِيقَةَ التَّوَكُّلِ ، وَصَفَاءَ الْوُدِّ ، وَوَفَاءَ الْعَهْدِ ، وَأَعْتِقَادَ الْوَصْلِ ،
وَتَجَنُّبَ الزَّلَلِ ، وَبُلُوغَ الْأَمَلِ ، وَحُسْنَ الْخَاتِمَةِ بِصَالِحِ الْعَمَلِ :

صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْبَشَرِ وَسَلِّمْ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ أَجْرَى مَحَبَّتَهُ فِي مَجَارِي الدَّمِ مِنَ الْمُشْتَاقِينَ ، وَقَهَرَ سَطَوَاتِ
الشُّكِّ بِحُسْنِ الْيَقِينِ :

أَثْبِتْنَا اللَّهُمَّ فِي دِيْوَانِ الصُّدِّيْقِيْنَ ، وَأَسْأَلُكَ بِنَا مَسَلِّكَ أَوْلِي الْعِزْمِ مِنَ
الْمُرْسَلِيْنَ ، حَتَّى نُصَلِّحَ بَوَاطِنَنَا مِنْ لَطَائِفِ الْمُؤَانَسَةِ ، وَنَفُوزَ بِالْغَنَائِمِ مِنْ
تُحَفِ الْمَجَالَسَةِ .

وَأَلْبِسْنَا اللَّهُمَّ جِلْبَابَ الْوَرَعِ الْجَسِيمِ ، وَأَعِدْنَا مِنَ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ
الْأَلِيمِ :

فَقَدْ سَأَلْنَاكَ بِصِدْقِ الْحَاجَةِ وَالْإِعْتِدَارِ ، وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الْخَطَايَا
بِالاسْتِعْفَارِ .

أَمَرْتَنَا اللَّهُمَّ بِالسُّؤَالِ فَنَاجَيْتَكَ قُلُوبُنَا بِالْإِفْتِقَارِ ، وَنَظَرْتِ إِلَيْكَ مُقَلِّ
الْأَسْرَارِ بِسُلْطَانِ الْإِقْتِدَارِ .

فَأَجْبِرِ اللَّهُمَّ ذُلَّ أَنْكَسَارِنَا بِلُطْفِ الْأَقْدَارِ ، وَجَنِّبْنَا اللَّهُمَّ الْأَضْرَارَ مِنْ قُتُونِ
الْأَشْرَارِ^(١) ، حَتَّى تَسْلُكَ بِنَا سُبُلَ أَوْلِي الْعِزْمِ مِنَ الْأَخْيَارِ ، وَصَلِّ عَلَيَّ
مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ الْأَطْهَارِ وَسَلِّمْ .

اللَّهُمَّ يَا مَنْ حَمَلَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى النُّجْبِ السَّبَاقِ^(٢) ، وَرَفَعَهُمْ بِأَجْنِحَةِ
الزَّفِيرِ وَالْإشْتِيَاقِ ، وَأَجْلَسَهُمْ عَلَى سِطِ الرَّهْبَةِ وَحُسْنِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَهْطَلَ
عَلَيَّ لَمَمِهِمْ سُحْبَ الْأَمَاقِ^(٣) ، وَشَغَّعَ أَنْوَارَ شُمُوسِ الْمَعْرِفَةِ فِي قُلُوبِهِمْ
كَبْرَقِ الشَّمْسِ عِنْدَ الْإِشْرَاقِ ، وَكَشَفَ عَنْ عِيُونِهِمْ حَنَادِسَ الظُّلْمِ ، وَأَجْلَسَهُمْ
بَيْنَ يَدَيْهِ بِتَغْرِيدِ الْقُلُوبِ وَأَتْصَالَ الْعِزْمِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَسُمُوءِ الْهِمَمِ :
صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ سَادَاتِ الْبَشَرِ وَسَلِّمْ .

اللَّهُمَّ أَرْحِصْ عَلَيْنَا مَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ ، وَأَغْلِ عَلَيْنَا مَا يُبَاعِدُنَا عَنْكَ ، وَأَغْنِنَا
بِالْإِفْتِقَارِ إِلَيْكَ ، وَلَا تُفْقِرْنَا بِالِاسْتِغْنَاءِ عَنْكَ :
بِكْرَمِكَ أَخْلِصْ أَعْمَالَنَا ، وَبِإِرَادَتِكَ أَجْعَلْنَا تَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ ، وَبِمَعُونَتِكَ
أَجْعَلْنَا نَسْتَعِينُ بِكَ .

اللَّهُمَّ بِجَاهِ أَهْلِ الْجَاهِ ، وَبِمَحَلِّ أَصْحَابِ الْمَخَلِّ ، وَبِحُرْمَةِ أَصْحَابِ
الْحُرْمَةِ ، وَبِمَنْ قُلْتَ فِي حَقِّهِ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ؟ .

(١) أي : من أفتتان ، « مختار الصحاح » ص (٤٩٠) ، مادة : « فتن » .

(٢) النُّجْبُ : جمعُ نجيبٍ من الإبل ، وهي : عتاقها التي يسابق عليها ، « مختار
الصحاح » ص (٦٤٦) ، مادة : « نجب » .

(٣) اللَّمَمُ : صغائرُ الذنوب ، « مختار الصحاح » ص (٦٠٥) ، مادة : « لم » .

إِشْرَحِ اللَّهُمَّ صُدُورَنَا بِالْهِدَايَةِ وَالْإِيمَانِ ، كَمَا شَرَحْتَ صَدْرَهُ ، وَيَسِّرْ
أُمُورَنَا كَمَا يَسِّرْتَ أَمْرَهُ .

يَسِّرْ لَنَا مِنْ طَاعَتِكَ طَرِيقًا سَهْلَةً ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا عَلَى الْفِتْرَةِ وَالْغَفْلَةِ ،
إِسْتَعْمِلْنَا فِي أَيَّامِ الْمُهَلَّةِ بِمَا يُقْرَبُنَا إِلَيْكَ وَيُرْضِيكَ مِنَّا :

صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

اللَّهُمَّ أَطْلِقِ أَلْسِنَتَنَا بِذِكْرِكَ ، وَقَيِّدْ قُلُوبَنَا عَمَّا سِوَاكَ ، وَرَوِّحْ أَرْوَاحَنَا
بِنَسِيمِ قُرْبِكَ ، وَأَمْلَأْ أَسْرَارَنَا بِمَحَبَّتِكَ ، وَأَطْوِ ضَمَائِرَنَا بِنَبِيِّ الْخَيْرِ لِلْعِبَادِ ،
وَأَلِّفْ أَنْفُسَنَا بِعِلْمِكَ ، وَأَمْلَأْ صُدُورَنَا بِتَعْظِيمِكَ ، وَحَيِّرْ كُلِّيْنَا إِلَى جَنَابِكَ ،
وَحَسِّنْ أَسْرَارَنَا مَعَكَ ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَأْخُذُ مَا صَفَا وَيَدْعُ الْكَدْرَ ، وَيَعْرِفُ
قَدْرَ الْعَافِيَةِ وَيَشْكُرُ عَلَيْهَا ، وَيَرْضَى بِكَ كَفِيلاً ، لِتَكُونَ لَهُ وَكِيلاً .

وَوَفَّقْنَا لِتَعْظِيمِ عَظَمَتِكَ ، وَأَرْزُقْنَا لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ،
تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ .

يَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَأَنَّ
مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِكَ ، وَوَحْدَانِيَّةِ أَسْمَائِكَ ، وَفَرْدَانِيَّةِ
صِفَاتِكَ :

أَنْ تُؤْتِيَنَا سَطْوَةً مِنْ جَلَالِكَ ، وَبَسْطَةً مِنْ جَمَالِكَ ، وَنَشْطَةً مِنْ كَمَالِكَ ،
حَتَّى يَتَسَعَ فِيكَ وَجُودُنَا ، وَيَجْتَمَعَ عَلَيْكَ شُهُودُنَا ، وَنَطَّلَعَ عَلَى شَوَاهِدِنَا فِي
مَشْهُودِنَا .

أَطْلِعِ اللَّهُمَّ فِي لَيْلِ كَوْنِنَا شَمْسَ مَعْرِفَتِكَ ، وَنَوِّرْ أَفُقَ أَعْيُنِنَا بَيَانَ
حِكْمَتِكَ ، وَزَيِّنْ سَمَاءَ زِينَتِنَا بِنُجُومِ مَحَبَّتِكَ ، وَأَسْتَهْلِكُ أَفْعَالَنَا فِي فِعْلِكَ ،
وَأَسْتَفْرِقُ تَقْصِيرَنَا فِي طَوْلِكَ ، وَأَسْتَمُحِضُ إِرَادَتَنَا فِي إِرَادَتِكَ .

وَأَجْعَلْنَا اللَّهُمَّ لَكَ عَيْدًا فِي كُلِّ مَقَامٍ : قَائِمِينَ بِعُبُودِيَّتِكَ ، مُتَفَرِّغِينَ
لِأَلُوْهِيبِكَ^(١) ، مَشْغُولِينَ بِرُبُوبِيَّتِكَ ، لَا نَخْشَى فِيكَ مَلَامًا ، وَلَا نَدْعُ عَلَيْكَ
غَرَامًا .

رَضْنَا اللَّهُمَّ بِمَا تَرْضَى ، وَاللُّطْفَ بِنَا فِيمَا يَنْزِلُ مِنَ الْقَضَا ، وَأَجْعَلْنَا لِمَا
يَنْزِلُ مِنَ الرَّحْمَةِ مِنْ سَمَانِكَ أَرْضًا ، وَأَقِنْنَا فِي مَحَبَّتِكَ كَلًّا وَبَعْضًا .

صَحَّحَ اللَّهُمَّ فِيكَ مَرَامَنَا ، وَلَا تَجْعَلْ فِي غَيْرِكَ أَهْتِمَامَنَا ، وَأَذْهَبْ مِنْ
الشَّرِّ مَا خَلَقْنَا وَأَمَامَنَا .

نَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِمَكْنُونِ هَذِهِ السَّرَائِرِ ، يَا مَنْ لَيْسَ إِلَّا هُوَ بِخَطَرٍ فِي
الضَّمَائِرِ :

صَلِّ عَلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ ، وَمُرَادِ الْإِرَادَاتِ ، حَبِيبِكَ الْمُكْرَمِ ، وَنَبِيِّكَ
الْمُعْظَمِ ، مُحَمَّدِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، وَالرَّسُولِ الْعَرَبِيِّ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِالْأَلِفِ الْمَعْطُوفِ ، وَبِالنُّقْطَةِ الَّتِي هِيَ مُبْتَدَأُ
الْحُرُوفِ :

بِبَاءِ الْبِهَاءِ ، بِتَاءِ التَّأْلِيفِ ، بِثَاءِ الثَّنَاءِ ، بِجِيمِ الْجَلَالَةِ ، بِحَاءِ الْحَيَاةِ ،

(١) أي : لِعِبَادَتِكَ .

بِخَاءِ الْخَوْفِ ، بِدَالِ الدَّلَالَةِ ، بِذَالِ الذُّكْرِ ، بِرَاءِ الرُّبُوبِيَّةِ ، بِزَايِ الزُّلْفَى ،
بِسِينِ السَّنَا^(١) ، بِشَيْنِ الشُّكْرِ .

بِصَادِ الصَّفَاءِ ، بِضَادِ الضَّمِيرِ ، بِطَاءِ الطَّاعَةِ ، بِظَاءِ الظُّلْمَةِ ، بِعَيْنِ
العِنَايَةِ ، بِغَيْنِ الغِنَى ، بِفَاءِ الوَفَاءِ ، بِقَافِ القُدْرَةِ .

بِكَافِ الكِفَايَةِ ، بِلَامِ اللُّطْفِ ، بِمِيمِ الأَمْرِ ، بِنُونِ النَّهْيِ ، بِهَاءِ
الأَلُوْهِيَّةِ^(٢) ، بِوَاوِ الوَلَاءِ ، بِيَاءِ اليَقِينِ ، بِأَلِفِ لَامٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحَدَّكَ لَّا
شَرِيكَ لَكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ .

الفَاشِي فِي الخَلْقِ حَمْدُكَ ، البَاسِطِ بِالجُودِ يَدُكَ ، لَّا تَضَادَّ فِي حُكْمِكَ ،
وَلَا تَنَازَعَ فِي سُلْطَانِكَ وَمُلْكِكَ وَأَمْرِكَ ، تَمْلِكُ مِنَ الأَنَامِ مَا تَشَاءُ ، وَلَا
يَمْلِكُونَ مِنْكَ إِلَّا مَا تُرِيدُ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِجَاهِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى ، وَبِأَسْمِكَ العَظِيمِ الأَعْظَمِ ، الَّذِي
دَعَوْتِكَ بِهِ :

أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ عَلَى النَّبِيِّ الأَمِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، وَعَلَى جَمِيعِ الأنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ ، وَالأَوْلِيَاءِ
وَالصَّالِحِينَ ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ^(٣) .

(١) هُوَ ضَوْءُ البَرَقِ ، « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ » ص (٣١٨) ، مَادَةٌ : « سَنَا » .

(٢) انظر ص (١٩٠) تعليقة رقم (١) .

(٣) أَقُولُ : بِحَمْدِ اللهِ وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَإِسْعَادِهِ وَإِسْعَافِهِ وَسَدَادِهِ : انْتَهَيْتُ مِنْ ضَبْطِ

هَذَا الكِتَابِ المُبَارَكِ الشَّرِيفِ المُسْتَطَابِ ، وَوَضِعَ عَنَآوِينِهِ ، وَبَعْضِ التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ دُونَ =



مركز البحث في علوم الإسلام

= الإسهاب في ذلك ؛ لأن ما هنالك . . يحتاج إلى مجلّداتٍ ودفاتر .
 أَجَلْ! فَإِنَّ معاني العِرْقَانِ فِيهِ لَتَنْفَجِرُ لِلناظِرِ من ثنایا كلامِهِ ، وَطِيبَ الوُجْدَانِ يتراکمُ
 فوقَ مَرَامِهِ .

ولولا خشيةُ الإطالة والتزولِ عندَ كُلِّ كلمةٍ إلى الحواشي . . لأبرزتُ - بقدرَةِ اللهِ -
 ما أنطوى في جَمَلِهِ مِنْ كُلِّ نَفِيسِ أغلاهُ ، وعندَ كُلِّ حَبِيَّةٍ مِنْ عِقْدِ جَوْهَرِهِ يتيمةٌ
 عصماءُ .

بَيَدَ أَنِّي خَبَأْتُ الكُنُوزَ ، ليومٍ تُجَلَى فِيهِ الرُّمُوزُ ، بإذنِ رَبِّي ، وَمُدَبِّرِ أَمْرِي .
 وَقَدْ كانَ ذلكَ بعدَ صلاةِ العَصْرِ ، من يومِ الخَمِيسِ ، ٨ جُمادىِ الأولى سنة ١٤٢٨ هـ ،
 ٢٤ أيار سنة ٢٠٠٧ م .

فالحمدُ لله الذي بنعمته تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ مِنَ الأَعْمَالِ .

شَرَفَ الدِّينِ

فَهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

فَهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الصفحة	الموضوعات
١٤-٥	مقدمة المُعتني به
١٩-١٧	مقدمة الدرّ المنضد
٢٣-٢١	نسبه من طريق أبيه
٢٣	نسبه النجاريّ الأنصاريّ من جهة أمه
٢٤-٢٣	نسب أم السيّد أحمد لأُمها
٢٤	نسب السيّد يحيى جدّ الإمام الكبير لأبيه من جهة أمه
٢٤	نسب الشيخ يحيى النجاريّ جدّ السيّد أحمد لأُمه من جهة أمه
٢٥	اتصال السيّد أحمد بالإمام أبي بكر الصديق
٢٥	اتصاله بعمّه الإمام الحسن بن عليّ
٣٢-٢٥	ولادته ونشأته
٣٢	عناية النبيّ صلى الله عليه وسلّم
٣٨-٣٢	بشارات أهل التّمكين بقُدومه قبل ولادته
٤٤-٣٩	طلبه للعلم
٥٣-٤٤	بناء طريقه على الأضلين : الكتاب والسنة
٦٠-٥٣	نشاطه العلميّ
٦١-٦٠	شيوخه
٦٣-٦١	خلفاؤه

٦٥ - ٦٣	إجازاته
٧١ - ٦٥	عُلُوُّ قَدْرِهِ
٧٩ - ٧١	نُصْحُهُ لِلْأَمْرَاءِ وَالْمُلُوكِ
٨١ - ٧٩	مَوْالِفَاتُهُ
٨٢ - ٨١	صِفَاتُهُ الْخَلْقِيَّةُ
٨٦ - ٨٢	أَخْلَاقُهُ وَتَوَاضُعُهُ
٩٠ - ٨٦	عِبَادَتُهُ
٩١ - ٩٠	شَفَقَتُهُ عَلَى الْإِيْتَامِ وَالْأَرَامِلِ
٩٣ - ٩١	زُهْدُهُ
١٠٠ - ٩٣	أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي شَخْصِيهِ الْفَدِّ الشَّرِيفِ
١٠٢ - ١٠٠	سَبَبُ تَسْمِيَّتِهِ بِأَبِي الْعَلَمِينَ
١١١ - ١٠٢	زَوَاجُهُ وَعَقِبُهُ
١٢٢ - ١١١	كِرَامَاتُهُ
١٢٧ - ١٢٢	وَفَاتُهُ
١٣٠ - ١٢٩	بَيَانُ حَالِ رَاوِي كِتَابِ «الْبُرْهَانِ»
١٣٢ - ١٣١	سَنَدِي الْمُبَارَكُ بِهَذَا الْكِتَابِ، الطَّرِيقُ الْأَوَّلُ
١٣٢	الطَّرِيقُ الثَّانِي
١٣٧ - ١٣٥	مُقَدِّمَةُ رَاوِي الْكِتَابِ
١٣٩	مُقَدِّمَةُ الْإِمَامِ الرَّفَاعِيِّ
١٣٩	الزُّهْدُ أَوَّلُ قَدَمِ الْقَاصِدِينَ إِلَى اللَّهِ
١٤٠	نَتَائِجُ الْعَمَلِ تَحْسُنُ وَتَقْبُحُ بِالنِّيَّةِ
١٤٢ - ١٤٠	صَوْنُ الْعَقَائِدِ عَنِ الْمُتَشَابِهَاتِ

- ١٤٣-١٤٢ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنِ سِمَاتِ الْمُحَدِّثِينَ
- ١٤٤-١٤٣ طَلَبُ اللَّهِ بِالْقَلْبِ مَعَ الْإِخْلَاصِ حَالَةَ ذِكْرِهِ
- ١٤٥-١٤٤ وَجُوبُ إِحْكَامِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْأَرْكَانِ الْخَمْسَةِ
- ١٤٥ التَّحْذِيرُ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ وَالْخَلْقِ
- ١٤٦-١٤٥ طَلَبُ اللَّهِ بِمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ١٤٦ وَجُوبُ تَعْظِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ١٤٧-١٤٦ نُبُوءَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَاقِيَةٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ
- ١٤٧ حُكْمٌ مَنْ رَدَّ أَخْبَارَهُ الصَّادِقَةَ
- ١٤٧ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ
- ١٤٨ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ عَلَى هُدًى
- ١٤٨ وَجُوبُ الْإِمْسَاكِ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ
- ١٤٩ تَنْوِيرُ الْقَلْبِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمُحِبَّةِ آلِهِ
- ١٥٠ وَجُوبُ صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ
- ١٥٠ إِنْتِقَامُ اللَّهِ لِمَنْ يُؤْذِي أَوْلِيَاءَهُ
- ١٥١ تَحْدِيدُ مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ
- ١٥١ التَّحْذِيرُ مِنَ الْأَخْذِ بِالرَّأْيِ فِي الدِّينِ
- ١٥١ وَجُوبُ ذِكْرِ الْأَوْلِيَاءِ بِخَيْرٍ وَعَدَمُ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَهُمْ
- ١٥٢ تَأْيِيدُ الطَّائِفَةِ بِتَرْكِ الدَّعْوَى وَإِحْيَاءِ الشُّنَّةِ
- ١٥٣-١٥٢ سَبَبُ تَسْمِيَةِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ بِالصُّوفِيَةِ
- ١٥٣ مَعْنَى التَّصَوُّفِ
- ١٥٣ الْأَدَابُ كُلُّهَا مَنْحَصِرَةٌ فِي مُتَابَعَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ١٥٣ خُلُقُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْقُرْآنُ

- الجنسُ يَعْرِفُهُ الْجِنْسُ ١٥٥-١٥٤
- التَّحذِيرُ مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ وَالغُرُورِ ١٥٥
- شَرَفُ جِسْمِ الْإِنْسَانِ جَوْهَرُ عَقْلِهِ ١٥٦-١٥٥
- مَرَاتِبُ الْعَقْلِ ١٥٦
- الْقَلْبُ الْغَافِلُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ ١٥٧-١٥٦
- كَيْفَ يُنْتَفَعُ بِالْمَوْعِظَةِ ١٥٧
- تَوَاضَعُ السَّيِّدِ وَأَسْلُوبُهُ فِي تَهْذِيبِهِ غَيْرُهُ ١٥٧
- كَيْفَ يَفُوزُ الْفَقِيرُ ؟ ١٥٨
- كَيْفَ يَثْبُتُ فِي دِيْوَانِ الرُّجَالِ ١٥٨
- تَوَاضَعُ السَّيِّدِ لِإِخْوَانِهِ وَنَفْيُهُ التَّقَدُّمَ عَلَيْهِمْ ١٥٩-١٥٨
- بَابُ الْقَبُولِ إِلَى اللَّهِ الْإِسْلَامَ ١٥٩
- مِنْ كِمَالِ الْإِيمَانِ وَالصَّدَقِ وَعِظْكَ نَفْسِكَ ١٦٠-١٥٩
- ذِكْرُهُ عَنِ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ ١٦٠
- الْإِنْسَانُ غَيْرٌ وَمَا يَخْتَلِجُ بِسَرِّهِ فَهُوَ غَيْرٌ رَبَّنَا ١٦٠
- خَوْفُهُ عَلَى أَحْبَابِهِ مِنَ الْفَرَحِ بِالْكَرَامَةِ ١٦١-١٦٠
- لَيْسَ لِلْعَاقِلِ إِلَّا قَرَعُ بَابِ الْكَرَمِ ١٦١
- الْقَوْلُ بِتَأْثِيرِ غَيْرِهِ شِرْكٌ ١٦٢-١٦١
- تَفَرَّقَتِ الطَّوَائِفُ شَيْعاً ١٦٢
- تَحْذِيرُهُ مِنَ الْكَذِبِ وَقَوْلُهُ فِي الْحَلَّاجِ ١٦٣-١٦٢
- تَجَاوَزُ الْعَبْدُ حَدَّهُ مَعَ إِخْوَانِهِ يُعَدُّ نَاقِصاً ١٦٣
- الْوِلَايَةُ لَيْسَتْ بِفِرْعَوْنِيَّةٍ ١٦٤
- حَتَّى إِخْوَانَهُ عَلَى تَعَلُّمِ عِلْمِ الْقَوْمِ ١٦٤

- العاقل كُلُّ أَعْمَالِهِ لِلَّهِ ١٦٥-١٦٤
- تَخَلَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ١٦٥
- كَيْفِيَّةُ الْأَخْذِ عَنِ الرَّعَاطِظِ ١٦٥
- تَحْذِيرُهُ مِنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٦٥
- الْعِرَاقُ أَخْذُ الْمَشَايخِ ١٦٥
- حَثُّهُ إِخْوَانَهُ عَلَى مِتَابَعَةِ الْقَوْمِ ١٦٦
- يَطْلُبُ مِنْ إِخْوَانِهِ عَدَمَ تَخْجِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ١٦٦
- الْأَدَبُ بَابُ الْأَرْبِ ١٦٧-١٦٦
- الْأَدَبُ مَعَ الْمَشَايخِ ١٦٧
- مَرَاتِبُ الْأَدَبِ ١٦٧
- شَأْنُ الْعَارِفِ مَعَ اللَّهِ وَنَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ١٦٧
- إِشَارَتُهُ إِلَى وِلَايَتِهِ ١٦٨
- مَعْنَى الشُّكْرِ ١٧٠-١٦٨
- مَعْنَى الزُّهْدِ ١٧٠
- كُلُّ الْخَيْرِ فِي التَّقْوَى ١٧٠
- تَحْذِيرُهُ مِنَ الدُّنْيَا وَتَرْغِيْبُهُ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْمَوْلَى ١٧١-١٧٠
- لَيْسَ الْأَمْرُ جُبَّةً صَوْفٍ ١٧١
- الْعَارِفُ ظَاهِرُهُ الشَّرِيعَةُ وَبَاطِنُهُ الْمَحَبَّةُ ١٧٢-١٧١
- صَدَقَ الْعِبُودِيَّةَ التَّسْلِيمُ ١٧٢
- نِيَابَتُهُ عَنِ جَدِّهِ الْمَصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٢
- نَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ يُدَافِعُ اللَّهُ عَنْهُمْ ١٧٢
- إِنْكَارُ بَوَارِقِ الْفِتَاحِ جَهْلٌ بِهِ ١٧٣-١٧٢

- ١٧٤-١٧٣ الاعتصامُ باللهِ فوزٌ للعبدِ
- ١٧٤ القومُ بايعوا اللهَ بصدقِ النِّيَّاتِ
- ١٧٥ حثُّهُ إِخْوَانَهُ عَلَى التَّقَرُّبِ إِلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ
- ١٧٥ الْمَوْفَّقُ مَنْ جَذَبَتْهُ الْعِنَايَةُ إِلَى الْوَلِيِّ
- ١٧٦-١٧٥ كَشِفَ لِي قَبْلَكَ
- ١٧٦ الْمَغْبُورُ مَنْ لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ
- ١٧٦ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ
- ١٧٦ لَفْظُ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) هُوَ الْأَسْمُ الْأَعْظَمُ
- ١٧٧ الْغِنَى الْأَكْبَرُ الْأَنْسُ بِاللَّهِ
- ١٧٧ مَرْكَزُ الْمَعْرِفَةِ الْقَلْبُ
- ١٧٧ التَّقْوَى بَابُ الْمَشَاهِدَةِ وَالْوُصْلَةِ
- ١٧٨-١٧٧ سَبَبُ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ
- ١٧٨ الذِّكْرُ مَغْنَطِيسُ الْوَصْلِ
- ١٧٩ صُحْبَةُ الْأَوْلِيَاءِ تَزِيَاقٌ مُجَرَّبٌ
- ١٧٩ عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ
- ١٨٠ صَحَّحَتْ إِنْابَةُ السَّيِّدِ إِلَى اللَّهِ
- ١٨١-١٨٠ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ لَا تُورَثُ إِلَّا بِالتَّقْوَى
- ١٨٢-١٨١ الْأَشْكَالُ مُؤْتَلِفَةٌ وَالْقُلُوبُ مُخْتَلِفَةٌ
- ١٨٢ أَيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لَكَ فِي كُلِّ دَعَاوِيكَ ؟
- ١٨٣-١٨٢ حَالُ الْمُرِيدِ الصَّادِقِ مَعَ مَوْلَاهُ
- ١٨٤-١٨٣ الْعَارِفُ الْمَتَمَكِّنُ سُرُورُهُ بِرَبِّهِ
- ١٨٤ الْعَارِفُونَ تَجَرَّدُوا عَنِ الدَّارَيْنِ

- فوائد الذِّكْرِ ١٨٥
- القَوْمُ شَغَلَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ ١٨٥ - ١٨٦
- لو أَنَّ الْعَالَمَ فَرِيقَانِ ١٨٦
- التَّسْلِيمُ بَابُ ذِكْرِ اللَّهِ ١٨٦
- هَذِهِ الْحَيَاتُ تَأْخُذُ الْعَبْدَ مِنْ وَاِدٍ إِلَى وَاِدٍ ١٨٦ - ١٨٧
- الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ الْعَقْلُ ١٨٧ - ١٨٨
- الْعَقْلُ أَجَلٌ مَرْتَبَةٌ مِنْ عِلْمِنَا ١٨٨ - ١٨٩
- الْعَاقِلُ لَا يَجْهَلُ حِكْمَةَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي الدِّينِيَّةِ ١٨٩ - ١٩٠
- المشهوراتُ لَا تَنكشِفُ حَقِيقَتَهَا إِلَّا بِالمُتَابَعَةِ ١٩٠ - ١٩١
- الغفلةُ عَنِ اللَّهِ تَطْمِسُ وُجُوهَ الحَقَائِقِ ١٩١
- كُلْنَا تَجْرِي بِنَا سُبُلُ الفَنَاءِ ١٩١ - ١٩٢
- العُمُرُ قَصِيرٌ ١٩٢
- الفِكْرُ أَوَّلُ أَعْمَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٩٣ - ١٩٤
- إِمْسَاكُ الْجَوَارِحِ عَنِ كُلِّ مَا يُغْضِبُ اللَّهَ ١٩٤ - ١٩٥
- تَلْقِينُ النَّبِيِّ (ﷺ) أَصْحَابَهُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ١٩٥
- تَلْقِينُهُ (ﷺ) جَمَاعَةً مِنْهُمْ فُرَادَى ١٩٦ - ١٩٧
- سَمَاعُ الْقَوْمِ وَمَجَالِسُ إِنْشَادِهِمْ، حُكْمُ الحَضْرَةِ ١٩٧ - ١٩٨
- مَا الَّذِي أَوْجَبَ أَنْ يُذَكَّرَ الصَّالِحُونَ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ ؟ ١٩٨ - ١٩٩
- الكاذِبُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ السَّمَاعُ ١٩٩ - ٢٠٠
- نَحْنُ فِي زَمَانٍ عَمَّتْ بِهِ الجَهَالَةُ ٢٠٠
- الاهتزازُ حَالَةُ السَّمَاعِ بِغَيْرِ قَلْبٍ رَقِصٌ ٢٠٠ - ٢٠١
- تَسْمِيَةُ الهَزِّ بِالذِّكْرِ رَقِصًا نِسْبَةً لِلرُّوْحِ ٢٠١

- ٢٠١ وَجُوبُ مُرَاقِبَةِ الْمَذْكُورِ لِمَنْ دَخَلَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ
- ٢٠٢ تَحَقُّقُ الْإِمَامِ السَّيِّدِ فِي مَقَامِ السَّمَاعِ
- ٢٠٢ الْعَارِفُ يَأْخُذُ حِصَّةَ السَّمَاعِ وَيُفِيضُهَا عَلَى أَهْلِ الْمَجْلِسِ
- ٢٠٢ الرَّجُلُ مَنْ يُرَبِّي بِحَالِهِ
- ٢٠٣-٢٠٢ كُونُوا مِنَ الْقَوْمِ أَحِبَابِ اللَّهِ
- ٢٠٤-٢٠٣ تَحذِيرُهُ مِنَ الدَّجْلِ فِي الطَّرِيقِ وَأَنَّهُ وَاضِحٌ
- ٢٠٤ أَدَبُ الذِّكْرِ وَحَالُ الْعَارِفِ مَعَ اللَّهِ
- ٢٠٥-٢٠٤ أَدَبُ الذِّكْرِ وَحَالُ الْعَامَّةِ حَالَةَ ذِكْرِهِمْ
- ٢٠٥ دُعَاءُ السَّيِّدِ فِي مَقَامِ الْمُرَاقِبَةِ
- حَثُّهُ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ وَأَتْبَاعِ السَّلَفِ، وَقَسَمُهُ الْعَظِيمُ وَنَفْيُهُ عَنِ نَفْسِهِ
- ٢٠٦-٢٠٥ الْمَشِيخَةُ
- ٢٠٦ قِيَمَةُ الْوَقْتِ عِنْدَ الْإِمَامِ الرَّفَاعِيِّ
- ٢٠٦ الذُّنُوبُ تُعْمِي الْقُلُوبَ
- ٢١٠-٢٠٦ التَّحْقِيقُ فِي وَجْدِ الْفُقَرَاءِ حَالَةَ الذِّكْرِ
- ٢١٠ كُونُوا مَعَ الشَّرْعِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا
- ٢١١ إِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا كَالْمُنْخَلِ
- ٢١١ الْعَارِفُ حَزِينٌ
- ٢١٢ أَقْرَبُ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحُهَا الْعَمَلُ بِالسُّنَنِ الْمَحْمُودِيَّةِ
- ٢١٣-٢١٢ مَلْتَفَتْ لَا يَصِلُ
- ٢١٤-٢١٣ الْعَارِفُ عَظِيمُ السِّيَاسَةِ لِنَفْسِهِ
- ٢١٤ الْعَارِفُ كَلَامُهُ يُنْقِي الصَّدَأَ
- ٢١٦-٢١٤ الْقَرِيبُ خَائِفٌ

- ٢١٦ النَّاجِي مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَأَتَّبَعَ أَمْرَهُ
- ٢١٧ مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ عَلَّمَ نَفْسَهُ التَّوَاضُعَ
- ٢١٧ حَقِيقَةُ الْعَبْدِيَّةِ
- ٢١٨ مَتَى يَكُونُ الْعَبْدُ كَامِلًا ؟
- ٢١٨ لَا تَتَّخِذُونِي دَفَّةَ الْمُكْدِيَّةِ
- ٢١٩-٢١٨ الْوَسَائِلُ لَا تُنَكَّرُ وَالْوَسَائِلُ لَا تُكْفَرُ، وَالضَّارُّ وَالنَّافِعُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى
- ٢٢٠-٢١٩ وَجُوبُ تَعْظِيمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ
- ٢٢١-٢٢٠ نَهْيُهُ عَنِ أَنْ يُقَالَ: نَحْنُ أَهْلُ الْبَاطِنِ وَهَمَّ أَهْلُ الظَّاهِرِ
- ٢٢٢-٢٢١ تَعْظِيمُ الْعُلَمَاءِ بِالْعِلْمِ
- ٢٢٢ الْحَثُّ عَلَى الْأَخْذِ بِأَقْوَالِ الْأَئِمَّةِ
- ٢٢٣-٢٢٢ حَثُّ الْقَوْمِ عَلَى لُزُومِ الْعُلَمَاءِ
- ٢٢٣ الْوَلِيُّ لَا يَكُونُ جَاهِلًا
- ٢٢٤-٢٢٣ الْعِلْمُ الْمُخْتَصَرُ وَالْعِلْمُ الْجَامِعُ الْأَتَمُّ
- ٢٢٤ النَّهْيُ عَنِ سَمَاعِ قَوْلِ أَهْلِ الْوَحْدَةِ
- ٢٢٤ الْأَخْذُ عَنِ الْعُلَمَاءِ
- ٢٢٥-٢٢٤ الْأَوْلِيَاءُ قَنَاطِرُ الْخَلْقِ وَصُحْبَتُهُمْ وَاجِبَةٌ
- ٢٢٦ حَالُ الشَّيْخِ كِمَالًا أَوْ نِقْصَانًا تَظْهَرُ فِي أَتْبَاعِهِ
- ٢٢٦ حَثُّهُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَمُحَبَّةِ الْعُلَمَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهِ (ﷺ)
- ٢٢٧-٢٢٦ حَثُّهُ عَلَى صَرْفِ الْوَقْتِ بِالطَّاعَةِ
- ٢٢٧ بَقَاءُ شَأْنِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَخُلُودُ شَرِيعَتِهِ
- ٢٢٨-٢٢٧ صَحِيفَةُ حَالِ الشَّيْخِ أَتْبَاعُهُ
- ٢٢٨ مَبْنَى السَّيْرِ عَلَى كَلِمَتَيْنِ

- ٢٢٩ حَتُّهُ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْهَدْيِ النَّبَوِيِّ وَسُؤَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ
- ٢٢٩ الْحِكْمَةُ مِنْ تَحَدُّثِ الْقَوْمِ بِالنَّعْمِ
- ٢٢٩ ضَابِطُ التَّحَدُّثِ بِالنَّعْمَةِ
- ٢٢٩ - ٢٣٠ كَلِمَاتُ الدَّعْوَى الْعَرِيضَةِ
- ٢٣٠ النَّهْيُ عَنِ التَّفَاخُرِ بِالآبَاءِ وَالْأَشْيَاءِ
- ٢٣١ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْقَطْعِ بَعْدَ الْوَصْلِ
- ٢٣١ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مَوْصُولٌ وَهُوَ مَنْقَطِعٌ
- ٢٣١ - ٢٣٢ الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ وَعَدَمُ الْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ
- ٢٣٢ - ٢٣٣ حَارَبُوا الشَّيْطَانَ بِيَعُضِّكُمْ
- ٢٣٣ تَعْظِيمُ الْعِلْمِ وَإِعْطَاءُ الْإِيمَانِ حَقَّهُ وَلُزُومُ حُكْمِ الْإِسْلَامِ وَالتَّحَقُّقُ بِالْمَعْرِفَةِ
- ٢٣٣ تَطْهِيرُ النِّيَّةِ وَإِتْقَانُ الْأَدَبِ وَإِيجَازُ الْمَوْعِظَةِ وَالْمَبَالِغَةُ بِالنَّصِيحَةِ
- ٢٣٣ الصَّدْقُ فِي الْمَحَبَّةِ وَكَمَالُ الْأَدَبِ فِي الدَّعَاءِ
- ٢٣٤ حَتُّهُ عَلَى إِعْلَاءِ طَرِيقِ التَّصَوُّفِ وَإِتْقَانِ طَرِيقِ الْعِبَادَةِ
- ٢٣٤ قُرْبُ الْعَبْدِ مِنَ الرَّبِّ وَالتَّحَقُّقُ بِالصَّدْقِ وَتَعْظِيمُ قَدْرِ الْعَافِيَةِ
- ٢٣٤ الْوُقُوفُ عِنْدَ حَدِّ الْإِسْتِقَامَةِ وَالتَّحَرِّيُّ لِطَلَبِ الْحَلَالِ
- ٢٣٤ طَلَبُ رِضَاءِ اللَّهِ وَالْأَخْذُ بِعُرْوَةِ الصَّبْرِ
- ٢٣٥ التَّبَاعُدُ عَنِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا قَلْبًا
- ٢٣٥ عِلَامَةُ الْوَلِيِّ
- ٢٣٥ - ٢٣٦ التَّبَاعُدُ عَنِ الْخِصَالِ الْمَذْمُومَةِ
- ٢٣٦ تَصْفِيَةُ الرُّوحِ بِالرِّيَاضَةِ
- ٢٣٦ مَنْ هُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ؟
- ٢٣٦ - ٢٣٧ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ أَفْضَلُ الْجِهَادِ

- ٢٣٨ مَنْ خَالَطَ النَّاسَ كَثُرَتْ مَعَاصِيهِ
- ٢٣٩-٢٣٨ أَصْلُ الْحَسْبَةِ الشَّرْعِيَّةُ وَبَيَانُهَا
- ٢٣٩ مَا يَطْلُبُهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَمُحِبِّيهِ تَخَلَّقَ بِهِ
- ٢٤٠-٢٣٩ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ الْاِقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ٢٤١-٢٤٠ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) هِيَ: الْحَالَةُ الْمَرْضِيَّةُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْخَلْقِ
- ٢٤١ حَقُّهُ عَلَى مِتَابَعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ٢٤٣-٢٤١ إِيَّاكُمْ وَنَسِيَانَ الْمَوْتِ!
- ٢٤٣ أَسْمَاءُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
- ٢٤٤-٢٤٣ حَقُّهُ عَلَى مَجَالِسَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْعُرَفَاءِ
- ٢٤٤ لِمَنْ تَكُونُ الشَّفَاعَةُ؟
- ٢٤٤ التَّسْلِيمُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى
- ٢٤٥ حَقُّهُ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ الْخَلْقِ وَرَحْمَةِ الْكِرَامِ
- ٢٤٥ حَقُّهُ عَلَى كَثْرَةِ الصَّدَقَةِ وَإِكْرَامِ الضُّعْفَانِ
- ٢٤٥ حَقُّهُ عَلَى مُخَالَطَةِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنِ
- ٢٤٦ أُعْبِدُ اللَّهَ بِقَلْبٍ رَاغِبٍ غَيْرِ مُشَمِّرٍ
- ٢٤٦ حَقُّهُ عَلَى تَطْهِيرِ اللِّسَانِ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ
- ٢٤٧ كَلَامُ أَهْلِ الْحَضْرَةِ ظَاهِرٌ غَامِضٌ
- ٢٤٧ الْخَاطِرُ إِنْ قُوِبِلَ بِالْحُضُوعِ أَنْقَلَبَ فَتَحًا
- ٢٤٨-٢٤٧ بَكَاءُ الْأَرْضِ عَلَى عَبْدٍ عَبْدَ اللَّهِ عَلَيْهَا
- ٢٤٩-٢٤٨ عَوْدٌ عَلَى كَلَامِ أَهْلِ الْحَضْرَةِ
- ٢٥٠ التَّقَرُّبُ إِلَيْهِ - سَبْحَانَهُ - بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ عِنْدَهُ
- ٢٥١-٢٥٠ الْمَصِيرُ إِلَى اللَّهِ

- هذه الدنيا وهذه أحوالها ٢٥٢-٢٥١
- الإنسان يَنزُرُ إلى الدنيا قابضاً كَفَّهُ ٢٥٣
- ما تَرَكَ طريقاً صَعْباً إِلَّا سَلَكَهُ ٢٥٣
- مجيئُهُ إلى الله من بابِ الذُّلِّ والانكسارِ ٢٥٣
- بشارته لأحبابه وأتباعه أَنَّهُم مُعَانُونَ ومنصُورُونَ ٢٥٤-٢٥٣
- لا تَصِحُّ المكالمةُ لمخلُوقٍ مع الخالقِ ٢٥٤
- حَتَّى عَلَى تَعْظِيمِ نِعْمَةِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ وسائِرِ النِّعَمِ ٢٥٥
- تصحيحُ اليقينِ بإشاراتِ الصَّالِحِينَ ٢٥٥
- حَتَّى عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ ٢٥٥
- التَّاسِّي بِالْقُرْآنِ فِي الوَعظِ والإرشادِ ٢٥٦-٢٥٥
- مَنْ تَمَسَّكَ بِالْقُرْآنِ وبِسُنَّةِ النَّبِيِّ (ﷺ) وَسَلَكَ طَرِيقَ القَوْمِ فَقَدْ فَازَ .. ٢٥٧-٢٥٦
- كُنْ مَعَ اللَّهِ وَأَطْرَحِ النَّاسَ ٢٥٧
- حَتَّى المَرِيدَ عَلَى مَقَامِ القُرْبِ ٢٥٧
- كُلُّ شَيْءٍ لَكَ حِجَابٌ ٢٥٨
- تَعَسَّ عَبْدُ الزَّوْجَةِ ٢٥٨
- خُذِ الموعظةَ مِنْ نَفْسِكَ ٢٥٨
- لا تَغْتَرَّ بِعِلْمِكَ ٢٥٩-٢٥٨
- الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ يَكُونُ بَعْدَ المِائِاتِ إِلَى سِوَاهُ ٢٦٠-٢٥٩
- مبايعتهُ اللَّهِ عَلَى عَرَقاتٍ عَلَى تَرْكِ الغَرَضِ ٢٦٠
- حَتَّى عَلَى حُضُورِ القَلْبِ مَعَ اللَّهِ فِي المَسْجِدِ ٢٦١-٢٦٠
- علامةُ جهلِ المسلمِ ٢٦١
- أَطْلُبُوا مِنْ اللَّهِ الحوائِجَ بِمَحَبَّتِهِ لِلصَّالِحِينَ ٢٦٢-٢٦١

- التوسُّلُ بالأولياءِ توسُّلٌ برحمةِ اللهِ تعالى ٢٦٣-٢٦٢
- الخُضوعُ سَبَبٌ للقبُولِ ٢٦٣
- حَتُّهُ على ملازمةِ الشَّرعِ ٢٦٣
- نصيحتُهُ لِمَنْ سَلَكَ طَريقَتَهُ ٢٦٧-٢٦٣
- ما أَكَلَتْهُ تُفَنِّيهِ ٢٦٤
- حَالُ الدُّنيا وَأَنقِلابُهَا ٢٦٤
- حَتُّهُ على رَبْطِ القلبِ باللهِ والتواضُعِ والاستغفارِ ٢٦٥-٢٦٤
- حَتُّهُ على سلامةِ النِّيَّةِ وأَكْلِ الحَلالِ مِنْ كَسْبِ اليَدِ ٢٦٥
- تحذيرُهُ مِنْ كَسْرِ خِواطِرِ الفقراءِ ٢٦٦-٢٦٥
- تَسَرُّهُ الأَولياءِ مِنَ الكراماتِ ٢٦٦
- حَتُّهُ على ملازمةِ بابِ اللهِ والاستمدادِ مِنْ رَسولِ اللهِ (ﷺ) بِواسِطَةِ الشَّيخِ ٢٦٦
- خِدمةُ شَيْخِ التَّربِيَةِ وَأَدابُهَا ٢٦٦
- حَتُّهُ على نِصيحةِ الإِخوانِ وَجَمْعِهِ النَّاسَ على اللهِ ٢٦٦
- حَتُّهُ لِلْمُتَصَدِّرِ والمُرِيدِ على دُخولِ النَّاسِ طَريقَ القومِ ٢٦٧
- حَتُّهُ على أَغتنامِ الوَقْتِ وتركِ مِواطِنِ الفُرَجِ ٢٦٧
- حَتُّهُ على تَنقِيَةِ السَّرِّ ٢٦٨
- مَنْ مَلَكَ عَقْلاً ما مالَ إِلى الدُّنيا ٢٦٩-٢٦٨
- حَتُّهُ على أَنْ يَكُونَ مَرِيدُهُ صُوفِيًّا ٢٧٠-٢٦٩
- نِجاةُ العالِمِ عَمَلُهُ بِعِلْمِهِ ٢٧٠
- الفَرَحُ في الدُّنيا جُنونٌ ٢٧٠
- ماتوا وَكَانَ هَمُّهُمَ ما كانوا ٢٧١
- سِرُّ الحَقِيقَةِ ظاهراً ٢٧١

- ٢٧٢ حال الباطلين
- ٢٧٢ اشتغالهم بما تكفل به لهم ضياع أوقاتهم
- ٢٧٣-٢٧٢ حثه على متابعة السلف الصالح
- ٢٧٣ أصعب الأشياء مفارقة الأحباء
- ٢٧٤ حثه على زيارة المقابر للزهد بالدنيا
- ٢٧٤ تحذيره من الاشتغال بما لا يعني
- ٢٧٥-٢٧٤ تحذيره من الحسد
- ٢٧٥ كما تدين تدان
- ٢٧٥ متى يكون الأنس بالله ؟
- ٢٧٥ تعريف التوحيد
- ٢٧٦ حقيقة الكشف وكيفية على إنسان عين السر
- ٢٧٦ القلب مهبط الوحي إن صلح
- ٢٧٧-٢٧٦ نفس المرید أعز من الكبريت الأحمر
- ٢٧٧ مراقبة الله من أعظم العبادات
- ٢٧٧ ما أحب أن يُعرف إلا شقي
- ٢٧٨ لسان الحال لا تنبغي ترجمته عند أهل الكمال
- ٢٧٨ دليل صلاح الرجل وقوفه عند الأمر والنهي
- ٢٨٠-٢٧٨ حال القوم كلهم تحت أربع درجات
- ٢٨١-٢٨٠ درجات العلماء
- ٢٨٤-٢٨١ الطريقة هي الشريعة والشريعة هي الطريقة
- ٢٨٦-٢٨٤ حال الصوفي الكامل مع الخلق
- ٢٨٦ تحذيره من العلو على الناس

٢٨٨-٢٨٦	حَوْلَ مَقْتَلِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٢٨٨	التَّأْدِبُ مَعَ الْخَلْقِ بَابُ الْقَبُولِ عِنْدَ اللَّهِ
٢٨٩	عَالَمُ النَّبُوَّةِ الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ
٢٩٠-٢٨٩	تَفْصِيلٌ فِي مَرَاتِبِ الصَّدِيقِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَصُلَحَاءِ الْأُمَّةِ
٢٩١-٢٩٠	الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنَ النَّبُوَّةِ
٢٩١	الْوَلِيُّ لَا يُدْرِكُ الصَّدِيقِينَ وَالصَّحَابَةَ
٢٩٢-٢٩١	مَاذَا يَقُولُ أَهْلُ الْحَالِ ؟
٢٩٣-٢٩٢	إِنَّ وِرَاءَ هَذِهِ الْأَسْرَارِ حَقِيقَةٌ إِبْصَارِ
٢٩٤-٢٩٣	مَا نَمَّ اتِّصَالٌ وَلَا انفِصَالٌ
٢٩٩-٢٩٤	قَبْلَ مِنْكَ ظَاهِرٌ تَوْحِيدِكَ مَهَادَنَةٌ لَكَ
٣٠٥-٢٩٩	إِنَّمَا خَفِيَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ وَأَخْتَجَبَ لِإِشْرَاقِ نُورِهِ
٣١٨-٣٠٥	ضَلَالٌ مَنْ وَقَفَ مَعَ عَالَمِ الْأَجْسَامِ وَالصُّورِ
٣٢٦-٣١٨	الْقُرْآنُ هُوَ الْبَحْرُ الْمَحِيطُ
٣٣٣-٣٢٦	الْكَلَامُ عَلَى الرُّوحِ
٣٣٥-٣٣٣	الموتُ موتان: طَبِيعِيٌّ وَإِرَادِيٌّ
٣٤٠-٣٣٥	دُعَاءُ خَتْمِ الْكِتَابِ
٣٥٩-٣٤٣	فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ